الموسوعة الشاملة
في
تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع







الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية

اوروبا في العصور الوسطى ومراحل وقائع الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء الثالث

مدخل الى تاريخ الحروب الضليبية

٣ ـ (اوربا في العصــور الوســطى ومــراحل وقــائع الحروب الصليبية)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

هذا هو الجزء الثالث من كتابنا مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، وجاء هذا الجزء في بابين عالجت في الباب الأول بعض ملامح تاريخ أوربا في العصور الوسطى بما يخدم غرض موسوعتنا ، والدافع إلى كتابة هذا الباب هو التعرف إلى أصول الفرنجة الذين تحملوا أعباء مشروع الحروب الصليبية ، فلطالما وجهت التهمة من قبل المؤرخين المعاصرين إلى العرب بتقصيرهم في هذا المنحى ، حيث ما من واحد من المؤرخين الأوائل الذين كتبوا عن أحداث الحروب الصليبية جشم نفسه عناء السؤال : من هم الفرنجة ، ومن أي أصل انحدروا ، وما هي عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم ومؤسساتهم ، ولأي شيء قدموا من أوربا ،إلى غير ذلك من أسئلة مفيدة ، ولنفي التهمة حديثا ، وفي سبيل التوازن في المعلومات وشمولية أبحاث المدخل تحدثت عن بعض الملامح الأساسية للتاريخ الأوربي في العصور الوسطى بشطريه الشرقي والغربي .

وفي أيامنا كثر عدد الكتب بالعربية المؤلفة والمترجمة حول تاريخ أوربا في العصور الوسطى بشكل عام أو حول الشطر الغربي ثم الشطر البيزنطي كل على حدة ،والمؤلفات العربية اعتمدت على الدراسات الأوربية الحديثة حول هذا الموضوع خاصة ما كتب بالانكليزية والفرنسية ، وأعني بهذا أنها نادرا ما عادت إلى الأصول والمصادر الأوربية القديمة لتعذر الحصول عليها ولعوائق اللغات والقدرة على التفرغ الطويل ، وفعلت أنا الشيء نفسه ، ففي مكتبي

أعداد كبيرة من افضل المؤلفات الانكليزية حول التاريخ الوسيط ، وكنت اهتممت بهذا الجانب من المعرفة التاريخية منذ أن كنت طالبا في لندن ، لأن رسالة الدكتوراه التي أعددتها ارتبطت بشكل وثيق بالتاريخ البيزنطي ، ولتمركز اهتماماتي منذ ذلك الحين حول تاريخ الحروب الصليبية ، وحدث أثناء اعارتي للتدريس في جامعة محمد ابن عبد الله في فاس أن توليت تدريس تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، وكنت أنذاك قد أعددت أملية جامعية حول هذا الموضوع .

وافدت الآن من هذه الأملية ، وصحيح أنني قبل أن أعدها وبعده قرأت عددا كبيرا من الكتب حول التاريخ الوسيط إلا أنني اعتمدت في عملي على عدد مركز من الكتب تقدمها ما كتبه المؤرخ هنري بيرين حول التاريخ السياسي الوسيط وحول التاريخ الاقتصادي ثم كتابه « محمد وشارلمان »، ومع هنري بيرين استفدت إلى أبعد الحدود مما كتبه المؤرخ سدني بينتر ، ومن ابحاث تاريخ كمبرج عن العصور الوسطى سياسيا واقتصاديا ، وبالنسبة لهذا الكتاب العملاق راجعت بشكل مكثف أبحاث الجزء الرابع في طبعته الجديدة لأنه أوقف على تاريخ بيزنطة ، ولأن الاستاذة هسي أشرفت عليه ، ولهذه العالمة المؤرخة العديد من الكتب والأبحاث حول التاريخ البيزنطي ، ومن أفضل أعمالها ترجمتها لكتاب أوسترو غورسكي حول تاريخ بيزنطة ، فهذا الكتاب معدود بين أفضل ما كتب حول تاريخ الأمبراطورية البيزنطية ، وعرفت الاستاذة هسي عن قرب ، لأنها كانت عضوا في لجنة الحكم على اطروحتى للدكتوراه ، ومع كتابات الاستاذة هسي وترجماتها عدت إلى ما كتبه المؤرخ المختص ببيزنطة وأعني هنا فازلييف ، ولفازلييف كتاب عن العلاقات العربية البيزنطية نقل إلى العربية باسم « العرب والروم » وهو ما يزال يعد من الأصول الممتازة في بابه .

ومع أن اعتمادي ـ كما سلف وقلت ـ جاء على مصادر بالانكليزية وعلى ما ترجم إليها من أصول خاصة كتاب اينهارد عن حياة شارلمان ، فإنني حصلت على بعض الفوائد من المؤلفات العربية على الأخص ما كتبه الاستاذ الجليل المؤرخ سعيد عبد الفتاح

عاشور ، وأملي كبير أن يفي الملخص الذي قدمته بالغرض .

ومن هذا الملخص نعرف قصة انتشار المسيحية في بعض الأقطار الأوربية المتوسطية ، وأن جل أوربا كانت شعوبه عندما قام الاسلام وثنية ، وعلى هذا كانت أوربا مهيأة لتلقي رسالة التوحيد ، وأية سعادة كانت ستنالها هذه الشعوب لو نجحت المشاريع العربية في فتح القسطنطينية ويوم بواتيه ، ومع أنه لامكان لكلمة « لو » بالتاريخ ، لاشك لدي أن البشرية كانت وحضارتها ستسعد وستختصر الوقت وتختزل الزمان ، ولا ستحال حينها قيام ما أطلق عليه اسم الحروب الصليبية التي ما تزال مستعرة حتى يوم الناس هذا ، وأعتقد أنها ستبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

واوقفت فصول الباب الثاني على دراسة موجزة وموجهة حول مراحل تاريخ الحروب الصليبية ، فقد رفضت منذ زمن مديد ما اعتاد عليه المؤرخون الأوربيون لدى بحثهم في تاريخ هذه الحروب ، فهؤلاء جعلوا ـ في الغالب ـ أحداث هذه الحروب جزءا ـ يكاد أن يكون كاملا ـ من تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ونحن نختلف مع الأوربيين حول هذه القضية ، فهناك أسباب أوربية مباشرة وغير مباشرة لتفجر أحداث الغزو الصليبي ، ولكن وقائع هذه الحروب قد قامت على أرض الشام العربية ، وانتهت على هذه الأرض بالذات بالنصر العربي والهزيمة الأوربية ، وجوهر القضية هنا ليس في كون أن المنتصر هو الذي يكتب التاريخ ، لكن بالبحث عن الحقيقة بشكل علمي ومنطقي ، وفي تاريخ الحروب الصليبية قد تكون الأسباب الأوربية لتفجر هذه الحروب هامة غير أن الأهم هو معرفة أسباب اخفاق العرب في التصدي أولا للغزاة الصليبيين وفي عدم تمكنهم من اقتلاعهم إلا بعد وقت طويل وجهود مضنية .

لقد قسم الباحثون الأوروبيون تاريخ الحروب الصليبية إلى حملات متتالية اختلفوا في تعدادها وتسمياتها ، والمثير للانتباه هنا أن هؤلاء الباحثين انفسهم أرخوا لما قام به الصليبيون في ألمانيا أو فرنسا أو بلغاريا أو الامبراطورية البيزنطية في إطار التاريخ

الوسيط الخاص بكل بلد من هذه البلدان ثم في الاطار الأوروبي العام.

من الانصاف تطبيق هذا المعيار على بلاد الشام وبالتالي تفسير مراحل تاريخ الحروب الصليبية شاميا عربيا مع عدم إغفال الشأن الأوروبي . ومن هذا المنطلق يمكن القول إن الحروب الصليبية قد مر تاريخها بطورين رئيسين :

(أ)الطور الأول ، وقد ارتبط بقيام هذه الحروب وعمليات الاحتلال حتى وصل التيار الى مداه الأقصى وكان ذلك أمام أسوار حلب سنة٥١٨ هـ/١١٢٤م ومن ثم انعكس •

(ب)الطور الثاني ،وقد ارتبط بحرب التحرير والاستوداد ، ومرت هذه الحرب بأربع مراحل ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن الوطن العربي في المشرق تحملت أعباء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها . وتعلقت الأمور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة واستغلال الامكانيات وشخصيات القادة ، وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ومرحلة حلب ومرحلة دمشق ومرحلة القاهرة .

ـ في مرحلة الموصل تمت الحيلولة دون سقوط حلب ، وتحول موقف العرب من الدفاع إلى الهجوم .وكان أبرز إنجازات هذه المرحلة تحرير الرها سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيسا في المشرق ، وذلك تحت لواء عماد الدين زنكي .
. وفي مرحلة حلب استلم نور الدين محمود بن زنكي لواء القيادة فنشط في الشام نشاطا كبيرا ووحد حلب مع دمشق ثم مد الوحدة إلى مصر واعد العدة لتحرير القدس وإزالة الوجود الصليبي نهائيا .
وتولى صلاح الدين الأيوبي القيادة في مرحلة دمشق بعد وفاة نور الدين بشكل مفاجىء عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م ، وفي ظل قيادة صلاح الدين تلقى الكيان الصليبي أقسى ضربة نالها في تاريخه يوم حطين

سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ، وبعد حطين جرى تحرير القدس مع أجزاء واسعة من المناطق المحتلة .

وبعد وفاة صلاح الدين صارت القاهرة مقر السلطنة الأيوبية العظمى ، ومنها قاد كل من خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين اولا ثم من المماليك أعمال التحرير فصفوا الوجود الصليبي نهائيا .

إن أبرز وقائع هذين الطورين هو ما عالجته في الباب الثاني ، وجاء جل اعتمادي على الموادةالتي حوتها موسوعتنا مع مصادر اخرى اضافية ، ومررت ببعض الحوادث بشكل عابر ، غير أنني وقفت مطولا عند صلاح الدين ومعركة حطين ، فهنا جوهر النصر العربي ولب القضية التي ربحناها عسكريا وسياسيا واقتصاديا ، وقيما واخلاقا فيها الكثير من الشمائل النبوية والمثالية الاسلامية ، فقد تربح الهمجية معركة وتسفك دما ، لكن الخلود للشمائل المحمدية التي احتذاها صلاح الدين يوم تحرير القدس ، وكما سيظل هذا اليوم صفحة مشرقة ممجدة لدى كل انسان متحضر سيبقى ما صنعه الفرنجة قبل ذلك بقرابة قرن ، يوم اجتاحوا القدس ، وصمة عار في جبين التاريخ الأوربي الوسيط .

وبعد صلاح الدين وفي ظل حكم الدول الأيوبية ، تعطلت مسيرة التحرير إلى حد بعيد ، وفقط استؤنفت بشكل فعال بعد هزيمة حملة لويس التاسع وتاسيس السلطنة المملوكية ، لذلك استحقت أعمال التصفية للوجود الصليبي في ظل المماليك بعض العناية مع أن موسوعتنا ليس فيها مواداساسية عما حدث بعد ما يعرف بالحملة الرابعة ؛ وسبب هذا أنني لم أستطع بعد الحصول على ما يكفي من مصادر غير عربية حول وقائع ما يعرف باسم الحملة الخامسة ثم الحملة السادسة ، كما وهناك مصادر عربية اساسية غير منشورة أسعى بشكل حثيث للحصول على نسخ مصورة عنها ، وعندها بأذن الله ساكمل مشروع هذه الموسوعة .

وللحروب الصليبية مالا يحصى من الدروس ،وسيبقى على رأس هذه الدروس أن الداء القاتل للأمة العربية هو التمزق ، فالتمزق

ترافق دوما مع الفتن وفي الفتن ألقي بأس الأمة بين صفوفها فأنهكت نفسها بنفسها واستضعفها عدوها فسعى إلى افتراسها وابادتها ، فضلا عن الاستهانة بها ، والدواء كمن دوما في الوحدة القائمة على ماجاء في دين التوحيد وفي الشمائل المحمدية ، فالنبي المصطفى عليه افضل الصلاة والسلام كان غيريا لم يعرف الأنانية ، آثر رضى الله ومصلحة الأمة على أي شيء آخر ، وكانت السلطة لديه صلى الله عليه وسلم احدى الوسائل لتطبيق الشريعة واسعاد بني البشر ، ولم تكن طريقا للملك يورث أو لاستبداد واستعباد وشهرة ذائعة .

لي أمل كبير في أن أكمل مشروع هذه الموسوعة وأن يستفيد منها كل عربي ومسلم وأن تلقى محاولتي لتفسير مراحل الحروب الصليبية العناية الكافية إن نقدا وإن تطويرا والله الموفق إلى السداد،وله الحمد والمنة،والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم .

دمشق الشام

١٧ ـ رجب الفرد ١٤١٣   ١٠ ـ كانون الثاني ١٩٩٣

سهيل زكار

الباب الأول

- ٩٥٠ -

الفصل الأول

الانتقال من العصور الكلاسيكية الى العصور الوسطى

تواجه الباحث في تاريخ ما يدعى بالعصور الوسطى في أوروبة عدة مشاكل وعقبات ، ترتبط بتسمية هذه العصور ، وحدودها الزمانية والمكانية مع احوالها وأحوال اناسها ، من حيث الأصول العرقية ودرجات التطور الحضاري وطبائع وأنواع العقائد التي اخذت بها وتاثرت بما جاء بها٠

وتسمية هذه العصور بالوسيطة جاء من اصطلاح الباحثين على تقسيم العصور التاريخية عامة الى اقسام ثلاثة هي : القديمة . ثم الوسيطة ، فالحديثة ، وليس من المناسب هنا الدخول في نقاش حول هذا المصطلح من حيث صحته .ومطابقته للواقع التاريخي ، لكن يكفي أن نذكر أن هذا الاصطلاح ما هو الا أداة ليسهل بواسطتها البحث ، واننا حين نقول عصور قديمة ، ثم عصور وسيطة لا نعني أن هناك حدودا حادة تفصل بين هذه العصور ، ثم اننا حين نقول عصور بالجمع نعني أن التاريخ القديم تألف من فترات فيها تشابه وتنافر وكذا التاريخ الوسيط .

ويقودنا هذا كله نحو أولى مشاكل العصور الوسطى ، وهي متى بدات هذه العصور ـ إذا كانت قد وجدت ـ ثم متى انتهت ؟ إن اية محاولة للتعرض لايجاد أجوبة لهذه الأسئلة ستكون عملا عابثا ما لم يقدم لها بمقدمة يبحث فيها بأصول تاريخ أوربة في العصور الوسطى .

كانت قارة آسية سباقة في معرفة الحضارة والثقافة للقارة الأوربية ونظرا لارتباط أوربة بآسية ، فقد تم انتقال المؤثرات الحضارية الآسيوية الى أوربة ، لكن هذ المؤثرات لم تكن الوحيدة

التي غزت أوربة بل ينبغي أن يضاف اليها المؤثرات الأفـريقية لمصر وشمال افريقية وحين نبحث في تاريخ الحضـارات التـي قـامت في أوربة قبل العصور الوسطى نجد أن أصول هـذه الحضـارات كانت شرقية ، ولهذا نجد تاريخ هذه الحضارات شديد الارتبـاط طـوال حياته بالشرق ، وفقط عندما تم قـطع الأواصر بين أوربـة والشرق قامت العصور الوسطى ، وعندما أعيدت هذه الروابط انتهت هـذه العصور وبدأت العصور الحديثة .

وابرز الحضارات التي قامت في أوربة قبـل العصـور الوسـطى هي : الحضـارة الاغريقية ، ثـم الرومـانية ، ولا حـاجة بنا هنا لاستعراض التاريخ الاغريقي بمراحله قبـل الاسـكندر وبعـده ولا تاريخ الامبراطورية الرومانية ذلك أن هذا لا يعنينا هنا ، ويكفي أن نستعرض بشكل موجز التاريخ المتأخر لروما ، فهذا التـاريخ هـو المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ أوربة في العصور الوسطى .

من المعروف أن روما اضطرت أثناء صراعها مـع دولة قـرطاجة الى احتلال بعض الأراضي المجاورة لايطاليا بغية اتخاذها خـطوط دفاع أولى في العمق ، وقد ولد هـذا الطمـع في احتـلال المزيد مـن الأراضي فكان أن استولت على سردينية وصقلية ، كما استولت على اسبانيا سنة ١٩٧ ق . م ، ذلك أن اسبانيا كانت قد مهدت السـبيل لغزو هانيبال لايطاليا أثناء الحروب البونية ، وأثناء هذه الحـروب توسعت قدرة روما البحرية ، ونظـرا لتحـالف قـرطاجة مـع مقدونية ، سعت روما للانتقام من مقدونية ، وفي سـنة ١٩٧ ق . م. هزمت روما مقدونية فسبب هذا احتكاكها بـالدولة السـلوقية ، وفي سنة ١٩٠ ق.م انتصرت رومـا على انتيوخس الثـالث ملك سـورية السلوقي ، وبذلك تغلغل نفوذ روما داخل آسية الصغرى على أبواب سورية ، وهكذا تابعت روما أعمال توسعها وكان ذلك بشـكل رئيسي داخل بلدان المشرق المتحضرة فقد احتلت رومـا سـورية ، وعندمـا حاولت التوسع شرقا اصطدمت بالامبراطورية الفارسية ، فتـوقفت أعمال توسعها في ذلك الاتجاه مع نهر الفرات لكن من سورية انتقـل

النفوذ الروماني نحو مصر ، وقد ضاع استقلال مصر وغدت مقاطعة رومانية بعد معركة أكتوم سنة ٣١ ق.م ، وكان قد حدث قبل هـذا بزمن بعيد اخفاق هانيبال أمام روما ، وقيام الجيوش الرومانية باحتلال قرطاجة ثم الشمال الافريقي ، وهكذا نجد روما مع نهاية القرن الأول لما قبل الميلاد قد أصبحت صاحبة السيادة على شواطىء البحر المتوسط ، ونتيجة لذلك غدا هذا البحر بحيرة رومانية .

وقد ترتب على التوسع الروماني نتائج خطيرة جدا ، فقد وجدت روما نفسها سيدة للجزء الأعظم من العالم المتحضر في أوربة وآسية وأفريقية ، ومتملكة للميراث الحضاري لهذا العالم بكل محتويات هذا الميراث الثقافية والمدنية والفكرية والاجتماعية ، كما أن هـذا التوسع منح روما ثروات لا تقدر.، وقد كان لهذا الثراء آثاراً إيجابية وسلبية على المجتمع الروماني ، فانحطت الأخلاق ومن ثم تأثرت الادارة الرومانية بذلك كثيرا .

فروما حققت توسعها بوساطة الادارة العسكرية ، لذلك نجد أن السيف كان هو مصدر السلطة الفعلي في هذه الامبراطورية ، ورجال السيف ـ أي الجند ـ هم أصحاب الشأن الأول في الدولة ، وسعيا وراء سرعة التحرك العسكري نجد الدولة الرومانية قد قامت بمد العديد من الطرق المرصوفة لوصل روما العاصمة بكافة أجزاء الامبراطورية ، وجهد رجال السلطة الرومان في تأمين الأمن ، وكان لهذا انعكاسات على النشاط التجاري ، ونقل منتجات الشرق الأدنى والأقصى إلى روما ، ونقل التجار دائما أنواعا من البضائع : مرأية مستهلكة ، وغير مرأية ثقافية وحضارية لها صفة الديمومة والتغيير .

ولم تتوسع روما داخل البقاع الأوربية إلا بقدر ما فرضته ضرورات الأمن والدفاع والحاجة إلى التوسع ، وكان لهذا نتائج في غاية الخطورة ، فعلى يد شعوب أوربة غير المتحضرةا و المترومنهكليا سيتم اسقاط روما والقضاء نهائيا عليها وبالتالي قيام العصور الوسطى .

لقد كان لطبيعة الحكم في روما العاصمة والمدن الايطالية وداخل المقاطعات ، ومشاكل حقوق المواطنة الرومانية أن وجدت مجالات كبيرة لخلق المشاكل والفوضى مما كان سببا دائما للشكوى والثورة .

فرجال الأعمال الكبار وأصحاب الأموال والتجار ممن لم يتمتعوا بحقوق المواطنة الرومانية اضطروا الى التأثير على أصحاب السلطان وسواهم بوسائل غالبا ما كانت ملتوية ، وهذه الأوضاع الشاذة لفتت انتباه بعض المصلحين لكن غالبا ما كانت عبثا جهود هؤلاء أمام قوة أندفاع التيار العام الذى منح القوة حينا ، ثم تحول فقاد نحو الانهيار .

ومعلوم أن تاريخ روما قد مر بعدة مراحل يراها بعضهم : المرحلة الملكية ، ثم الجمهورية وبعد ذلك الامبراطورية ، وقامت الامبراطورية فعليا بعد نصر اكتافيوس في معركة اكتوم سنة ٣١ ق.م حيث نال لقب اوغسطس ولمدة قرنين ونيف عاشت الامبراطورية الرومانية أزهى عصورها ، ثم بعد ذلك أخذت مظاهر الضعف تبدو عليها ، وقد جرت عدة محاولات للاصلاح ، والذى يهمنا هنا هو تتبع هذه المحاولات منذ اعتلاء دقلديانوس عرش الامبراطورية سنة ٢٨٤ م .

ففي ايام هذا الامبراطور كانت قد اختفت مظاهر الديمقراطية في الحكم وغدت السلطة في حوزة مجموعتين واحدة مدنية واخرى عسكرية ، وكان لكل مجموعة احوالها الخاصة ومشاكلها ، وحين استلم دقلديانوس عرش الامبراطورية لم تكن هذه الامبراطورية تعاني من المشاكل الداخلية فحسب ، إنما كانت تعاني من ضغوط خارجية تمثلت في شعوب أوربة المجاورة أراضيها لرومة ـ الشعوب الجرمانية ـ وبالامبراطورية الفارسية .

وقد سعى دقلديانوس الى دفع المخاطر عن امبراطوريته والى القيام بالعديد من الاصلاحات الداخلية ، خاصة في ميادين

الادارة ، لكنه اخفق مثل غيره في مواجهة المشاكل المالية للدولة ، فقد ازدادت نفقات هذه الدولة وضعفت موارد التجارة وتضاءل نشاط التجار لانعدام الأمن في كثير من المناطق ، ونظرا لازدياد الحاجة الى المال قامت الدولة بفرض المزيد من الضرائب مما زاد في التفاوت الطبقي والاستغلال ودفع نحو المزيد من الشكوى والتحرك الثوري .

وفي أيام دقلديانوس أدرك هذا الامبراطور ان مستقبل دولته لن يستمر في أوربة ، بل في الشرق ، لذلك نراه يتخلى عن روما ويتخذ من ميلان عاصمة ومركزا ، كل هذا في حين اهتم به بالمقاطعات الشرقية واتخذ لهذه المقاطعات مركزا اداريا خاصا في مدينة نيقوميديا على بحر مرمرة ، وبذلك وضع اللبنات الأولى في عمل تقسيم الامبراطورية الى قسمين غربي واخر شرقي العمل الذي سيتم على أيدي خليفته قسطنطين الكبير .

لقد قسم دقلديانوس امبراطوريته الى اربعة اقاليم ادارية كبرى كان على رأس كل اقليم حاكم يلقب «اوغسطس» او يلقب قيصر وهذا أوجد لدولته امبراطورين مع نائبين لهما .

وعندما بلغ دقلديانوس الستين من عمره تخلى سنة ٣٠٥ عن العرش لقسطنطين الكبير ، وقد اعقب نزول دقلديانوس عن العرش قيام حروب أهلية استمرت سبعة عشر عاما ، وبعد ما تحقق لقسطنطين النصر في هذه الحروب اخذ على عاتقه اكمال تنفيذ خطط سلفه الاصلاحية ، وكان لأعماله في هذا المجال أعظم الآثار في الانتقال من العالم القديم الى العالم الوسيط ، فقد اعترف بالمسيحية ثم تبناها وتخلى عن روما القديمة واستبدلها بروما جديدة بناها على ضفاف البسفور ، وقد حملت روما الجديدة اسم قسطنطين فعرفت بالقسطنطينية وهي مازالت تعرف بهذا الاسم ، وعلى الصعيد الاداري أدخل قسطنطين نظام الحكم الوراثي ، فصار منصب الامبراطور وراثيا محصورا في أسرة من الأسر تعتمد على دعامتين هما الجيش والكنيسة.

وسندع امر الحديث عن دوافع قسطنطين في سياسته الدينية إلى مكان اخر ، لكن ينبغي الا يفوتنا تقرير أن إقدام قسطنطين على بناء عاصمة جديدة لدولته وهجرة العاصمة القديمة قد طوى صفحة من التاريخ ارتبطت بمدينة روما ، وانذاك تركت روما بدون امبراطور فعال ، فقامت البابوية وسعت لتحل محل الامبراطورية ، ولولا هذه الخطوة لما استطاعت البابوية الوصول إلى ماوصلت إليه من عظمة ونفوذ في العصور الوسطى ٠

إن اتخاذ القسطنطينية ذات الموقع الحصين عاصمة للامبراطورية وقيام الامبراطورية الرومانية الشرقية قد صان كما يقال عادة اوربة من الفتح الاسلامي فقد حالت القسطنطينية بين العرب المسلمين وبين دخول أوربة الشرقية .

وبعد وفاة قسطنطين عانت الامبراطورية من العديد من الحروب الأهلية وازدادت الضغوط الخارجية عليها ، كما تعقدت المشاكل الاجتماعية ، فقد تضاعف عبء الضرائب وكثر عدد العبيد العاملين في الصناعة والزراعة وتضاءل عدد الأحرار ، وانحطت احوال المدن ، لقد كانت الامبراطورية تسير ببطء نحو نهايتها المحتومة ، وكانت تعاني الام الموت .

ومع نهاية القرن الرابع انقسمت الامبراطورية إلى قسمين ، وصار القسم الشرقي متميزا عن الغربي دينيا ولغويا وحضاريا ، ففي هذا القسم وجدت اللغة الاغريقية بينما استمرت اللاتينية ــ إلى أمد ــ في الغرب وقامت في روما القديمة الكاثوليكية ، واستمرت في الشرق الحضارة ذات الأصول الهلنستية ، في حين اخذت أسباب الحضارة والثقافة في الغرب تضمحل بشكل متتابع ، وهكذا نلاحظ أن عوامل مختلفة تضافرت على إسقاط الامبراطورية الرومانية وإنهاء العصور القديمة وابتداء العصور الوسيطة ، ولقد تميزت العصور القديمة بمزايا حضارية وفكرية خاصة ، في حين نجد أن المسيحية كانت الصانع الأكبر

لحضارة العصور الوسطى وكانت المؤثر الأعظم في جميع مجـالات الحياة فما هي قصة هذه الديانة ؟ .

المسيحية والعالم الروماني

يرى عدد من الباحثين ان الدولة الرومانية وصلت إلى ذروة قوتها وعظمتها ايام حكم اوغسطس الذي كان اول اباطرتها ، ويرى بعضهم الآخر أن الدول بعد وصولها إلى الذروة لاتمكث هناك طويلا بل تأخذ بالانحدار ليس في طريق العودة نحو الأصول لكن في الانحدار نحو النهاية .

وفي أيام أوغسطس حققت روما أمجادا عسكرية طائلة ، لكن المجتمع الروماني الذي كان سيده صاحب السيف عانى أنئذ من الانحلال الفكري والعقائدي الديني ، فلم تعد الديانة الرومانية الوثنية الملفقة من عدة ينابيع وأصول بكافية لمتابعة الأخذ بها ، كما أن المدارس الفلسفية من رواقية إلى أفلاطونية حديثة لم تستطع تقديم الزاد الروحي لشعوب الامبراطورية ، وقد استعار الرومان من ديانات الشرق القديم الشيء الكثير ، وكان هناك بالاضافة للديانات الوثنية الديانة اليهودية ، لكن هذه الديانة بانغلاقها على اتباعها ، وبما لحقها من انحرافات عجزت عن أن تقوم بدور فعال داخل المجتمع الروماني ، وعلى هذا نجد أن المجتمع الروماني كان يعاني من الفراغ الديني الروحي ، ونلاحظ قيام العديد من المحاولات لملىء هذا الفراغ ، وغالبية هذه المحاولات صنعت في الشرق ، وقد تحقق لواحدة منها فقط نجاحا كبيرا .

ففي ايام أوغسطش ولد السيد المسيح عيسى بن مريم في بلدة بيت لحم في فلسطين ، ولد كما هو مجمع عليه في كافة المصادر من أم عذراء لم يمسسها بشر قط ، وهناك خلاف حاد في المصادر حول الحياة المبكرة وحتى المتأخرة للسيد المسيح ، لابل إن الخلاف شمل كافة مراحل حياة المسيح فأدى ذلك ببعضهم إلى إنكار وجوده

تاريخيا ، والذي اعتدل قال بأن المعلومات المتوفرة حوله في المصادر المسيحية فيها زيف كبير واختراع ، ومهما يكن الحال فإنه من المؤكد أن رسالة المسيح كانت طوال حياته عبارة عن حركة إصلاحية داخل الديانة اليهودية ، أي كانت حركة محلية ضيقة ، على أنه بعد غيبة المسيح (وبعضهم يذكر في ايامه الأخيرة) نقلت الحركة إلى العمل العالمي ، ومن المؤكد أن الذين تولوا عمليات نشر المسيحية في العالم هم غير المسيح ، ولقد كان لعمليات النشر هذه إنعكاسات متميزة على العقيدة المسيحية تبعا للزمان والمكان ، وخلال قرون ثلاثة اضطرت المسيحية أولا للرومنة بشكل عام وللتأقلم مع كل قطر وبلد بشكل منفرد ، فكان نتيجة لهذا قيام عدة ديانات مسيحية متصارعة وهكذا إن الصراع بين الديانات المسيحية كان واحدا من أهم مميزات العصور الوسطى وصانعا لأحداثها .

إن معلوماتنا عن تاريخ المسيحية في عصورها الأولى هي معلوما ت غير مؤكدة ، ثم إن المتوفر من الأخبار عن انتشار المسيحية والطرق التي اتبعتها أيضا غير كافية فيها الكثير من الغموض ، على أنه برغم كل هذا نجد من الثابت أن الفضل الأول في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط من مبادىء المسيحية الخلقية مع أمور الحياة والموت وغير ذلك يعود هذا إلى القديس بولس ، وهو أيضا المنظم الأول للكنيسة وباني أركانها الأولى .

وقد سهل على المسيحية الانتشار في العالم الروماني توفر طرق المواصلات مع توفر الأمن واستتبابه ، وزيادة على ذلك اعتماد جميع مقاطعات العالم الروماني لاحدى لغتين وهما : اللاتينية والاغريقية ، وقد يسر هذا نشر المسيحية ، لكنه منذ البداية فصمها فكان هناك مسيحيتين : لاتينية وأخرى إغريقية .

ولم تعارض الامبراطورية في البداية اعمال التبشير بالمسيحية ، فالسياسة الرومانية سمحت بحرية المعتقد ، وشرطت على المواطن الروماني الاعتراف بالآلهة الكبار للدولة وعبادة الأمبراطور ، وعدم

القيام بنشاط يهدد الأمبراطورية ، ولكن مـا إن انتشرت المسـيحية حتى بدأت المشاكل فالنصارى مثلهم مثل اليهود رفضوا آلهة الديانة الوثنية الرومانية كما رفضوا عبادة الامبـراطور ، كمـا اخـذوا في رفض الخدمة في الجيش الروماني ، وكان لهذا ردات فعـل مـن لدن السلطات الرومانية ، مما دفع النصرانية إلى العمل بـالسر واخـذ اتباعها بممارسة الطقوس بشكل سري ، وكوّن النصارى تجمعـات سرية ، ولاشك أنه كان لذلك أكبر الآثار على تطور العقيدة المسيحية وأدخل عليها الشيء الكثير من العقائد والأفكار الغريبة عن أصولها .

ومع ازدياد انتشار المسيحية أخذت الدولة الرومـانية في اعتبـار هذه الديانة ديانة ممنوعة وخطرة ، وحـظرت اعتناقهـا وممـارسة طقوسها ، وأخذ أصحاب السلطة الرومـان في رومـا والأقـاليم في ملاحقة النصارى والتنكيل بهم بشتى السبل من تحريق وتعـذيب ، وتحدثنا المصادر عن قيام نيرون باحراق العديد من النصارى وكذلك اقدام غيره على ذلك ، ولاقت المسيحية في أوائل تاريخها الرواج بين مختلف طبقات المجتمـع الرومـاني خـاصة بين الطبقـات الدنيا ، والمسيحية كعقيدة تقضيبالتسليم وعدم المناقشـة ، وهـي بهذا مناقضة للعقائد المستندة الى الفكر الفلسفي وهي التي سـادت المجتمع الرومـاني ومـن قبله الاغريقـي ، وكان معنى انتشـار المسيحية ثم انتصارها النهائي الحاسم انهـاءا للعصـور القـديمة الكلاسيكية وبداية عصور جديدة يتحكم بها الفكر المسيحي ، وهي العصور التي تسمى بالعصور الوسطى .

واثناء انتشار المسيحية لم تـكن السـلطات الرومـانية تشـكل التحدي الوحيد لهذه الديانة ، بل أضيف اليها الافلاطونية الحـديثة واليهودية والغنوصية ثم المانوية وغير ذلك من العقائد ، واستطاعت المسيحية خلال صراعها مع هذه العقائد ان تكتسب منها الشيءالكثير وتتبناه وهكذا فـان عمليات الصراع هـذه مـاكانت الا عمليات بناء للعقيدة المسيحية وتكوين لها ، برغم أن هذه العمليات أبعدتها كثيرا عن أصولها الأولى ولذلك قبع السيد المسيح في أقصى الزوايا الباهتة لهذه الديانة واصبح مع الأيام صورة خيالية غير فعالة ، وهذا الحال

هو الذي دفع العديد من الباحثين في العصر الحديث الى القول بانه شخصية لم توجد تاريخيا .

ومع نهاية المائة الثالثة للمسيح غدت الديانة المسيحية باتباعها داخل الامبراطورية الرومانية قوة ليس فقط لايمكن قمعها لابل لايجوز تجاهلها والاستهانة بها ، وقد دفع هذا العديد من الساسة الرومان الى اعادة النظر في مواقفهم من النصرانية واتباعها ، وخاصة أيام الأزمات الداخلية والحروب الأهلية ففي سنة ٣١٣ م اصدر الامبراطور قسطنطين مرسوما في ميلان عرف فيما بعد باسم مرسوم ميلان - اعترف به بالمسيحية كشريعة قانونية يحق لاتباعها ومعتنقيها اعلانها وممارسة طقوسها بكل حرية مثلها مثل بقية الديانات ، ولقد كان لهذا المرسوم ابعد الآثار ويرى بعضهم فيه التاريخ الذي انتهت فيه العصور الكلاسيكية القديمة وبدأت به العصور الوسطى ، وقد اختلفت الآراء حول الدوافع التي دفعت قسطنطين العظيم الى اصدار مرسوم ميلان الشهير متذكرين ان الامبراطورية الرومانية قامت على اساس الوثنية مع عقيدة تألية الامبراطور ، واذا تذكرنا بالمسيحية ما نزل من نوازل ، فان مرسوم ميلان لم يقض على مكانة الوثنية الرومانية فحسب ولم ينه عهد الاضطهاد بل هيأ الفرص امام المسيحية في سرعة الانتشار ، ونقلها من مكانة الملاحق من قبل السلطة الى مكانة المدعوم من قبل السلطة ، ثم الى السلطة ذاتها ، وهكذا سارت النصرانية على سنن غيرها من الديانات السالفة ، فغدت الى حد كبير احدى ادوات السلطة الزمنية الكبرى ، لابل أكبر الأدوات ، ولم تكن هذه الأداة في جميع الحالات مطواعة ، لكن غالبا ما جعلت كذلك،وتاريخ العصور الوسطى في أوربة والامبراطورية الرومانية الشرقية هو تاريخ السلطة ومشاكلها وطرق استخدامها لهذه الأداة .

ومن هنا جاءت اهمية اعتراف قسطنطين بالمسيحية ، وليس من باب المغالاة ان قال بعض الباحثين بان العصور الوسطى بدات مع

اعتراف قسطنطين ، وربطوا هذا ببناء القسطنطينية التي جعلها قسطنطين عاصمة روما الشرقية ، ومعلوم ان العديد من الباحثين يرى ان العصور الوسطى قد انتهت مع سقوط القسطنطينية للمسلمين .

ومرة اخرى ما هو الحافز الذي حدا بقسطنطين الى اصدار مرسوم ميلان ، هل كان ذلك اعتناق هذا الامبراطور للمسيحية وايمانه بها ؟ هذا مايراه بعضهم ، وهذا ما ينفيه بعضهم الآخر الذي يثبت ان قسطنطين لم يتنازل عن مكانته في العبادة من قبل رعاياه ، وظل طوال عهده وثنيا ، والذي دفعه الى ذلك حاجته السياسية لدعم النصارى فهو قد فهم مشاكل عصره ، وادرك موازين القوى في عالمه ، فأراد ان يتحكم بهذه الموازين ويستغلها لصالحه ولصالح أهدافه ، لكن عندما نقل قسطنطين العاصمة الى الشرق ترك روما لقدرها الذي حكم عليها بالسقوط وهي مدينة الشيطان ليقوم مكانها مدينة الله على حد قول القديس اوغسطين ، فروما التي خلت من الامبراطور قام فيها البابا وسعى البابا ليأخذ مكان الامبراطور ، ولاقى مسعاه هذا العديد من العقبات ، فبذلت البابوية كل طاقاتها في سبيل تذليل جميع العقبات ، ودخلت حلبة كل صراع ، وعلى هذا فان احدى مزايا العصور الوسيطة قيام البابوية في روما وصراعها مع الامبراطورية البيزنطية ومع حكام أوربة الغربية في سبيل مد نفوذها وجعله يشمل العالم أجمع كما كان حال أباطرة روما العظام .

ولقد شهدت المسيحية منذ اوائل عهودها خلافات مذهبية عميقة للغاية كان لها اثارها الخطيرة على تاريخ أوربة والشرق معا وليس المكان الآن هو لدراسة هذه الخلافات بشكل مفصل ، انما سنكتفي بالاشارة اليها حسب الحاجة ووقت المناسبة .

وكانت كبريات مشاكل الخلاف تتعلق بطبيعة الاقانيم الثلاثة : « الآب »« الابن » « روح القدس » مع طبيعة العلاقة بين هذه الاقانيم وطبيعة السيدة العذراء أم عيسى ، وبدات المشاكل عندما

واحدة من أثيرا الى فيليا (فيليا موقع على شاطيء البحر الأسود) وكان عليها التربص حتى وصول رسل غودفري وهم في طريقهم الى بوهيموند وبقية الأمراء وحدث في نفس ذلك الوقت الحادث التـالي: وجـه الامبـراطور الدعوة الى بعض الأمـراء الذين كانوا بـرفقة غودفري لمقابلته ، وابتغى من وراء ذلك أن ينصحهم بأن يحـرضوا غودفري على تقـديم يمين الولاء للامبـراطور ، واضـاع الأمراء اللاتين ـ كما جرت عادتهـم ـ الوقـت كله بـكلماتهم الجوفاء المعتادة ، وبولعهم بالقاء الخطابات الطويلة ، ولذلك انتشرت اشاعة كاذبة وراجت حتى وصـلت الى الفـرنجة ، و كان فحـواها بـأن الأمراء قد اعتقلهم الكسيوس ، لذلك ما لبثـوا أن ثـاروا واخـذوا يزحفون في صفوف متتالية نحو القسطنطينية ، مبتـدئين بـالهجوم على القصور القريبة من البحيرة الفضية (١٥) ، فـدمروها تـدميرا كاملا ، ثم هاجموا أسـوارها لكن ليس بـالمنجنيقات ـ ذلك انه لم يكن لديهم هذا السلاح ـ إنما بكتلهم اعتقادا منهم أنهم بـأعدادهم الكبيرة يمكنهم اشعال النيران في البوابة التي دون القصر (١٦) على مقربة من مشهد القديس نيقولا (١٧) ولم يكن سواد العامة في بيزنطة وحدهم الذين تولاهم الهلع ، نظـرا لعـدم معـرفتهم بفـن الحرب ، ولهذا ضربوا صـدورهم وانتحبـوا عندمـا راوا صـفوف اللاتين ، بل استولى الرعب حتـى على الجمـاعات المقـربة مـن الامبراطور والشديدة الاخلاص له ، متـذكرين يو م الخميس الذي سبق وتم الاستيلاء به على المدينة (١٨) وكانوا يخشون أن يحل بهم في هذا اليوم الانتقام (١٩) (بسبب ما حدث لهم يومـذاك) وتسارع جميع الجنود المدربين نحو القصر في فوضى ، لكن الامبراطور بقي هـادئا: فلم يحاول التسلح ، أو حتى وضع درع على جسمه ، أو حمل ترس أو رمح بيده ، أو اشهار سيفه ، بل جلس بكل هـدوء وثبـات على العرش الامبراطوري ، ينظـر اليهـم بـوجه مشرق ، مشـجعا اياهم ، وبـاثا الروح العـالية والطمـأنينة في قلوبهـم ، وكان الامبراطور في تلك الساعة مجتمعا مع أقربائه وكبار القادة للبحـث والتشاور حول خـطط المسـتقبل ، وقـد أصر ـ بـالدرجة الأولى ـ على انه ينبغي الا يغادر شرفات الأسـوار لقتـال اللاتين

حدة والتمزق سعة وذلك لانعدام الرابط الموثق ولتوفر الأهواء والمطامع .

لقد حضر مجمع نيقية حوالي ثلاثمائة من رجال الدين النصارى وتراس الامبراطور نفسه جلسات المجمع مع أنه لم يكن معمدا وما زال وثنيا ، وأدان مجمع نيقية أريوس وقرر اعدام كتاباته ونفيه وملاحقة اتباعه ، وفعلا نفي أريوس ، لكن ذلك لم يؤثر كثيرا على عقيدته ، فقد ظلت منتشرة في الشرق ، ومن الشرق سيتم نقلها إلى الشعوب الجرمانية في أوربة ، ونظرا لكثرة اتباع أريوس فقد قام الامبراطور عام ٣٢٧ م باستدعاء رجل الدين هذا من منفاه ، ولعل من دوافع الامبراطور لاتخاذ هذه الخطوة قوة اتباع أريوس في الشرق ، واعتزامه نقل العاصمة إلى القسطنطينية ، وهذا يعني أن الامبراطور قسطنطين كان على استعداد لتغيير ميوله الدينية المعلنة وذلك حسب الظروف الطارئة ، وحسب الحاجة السياسية وفي سنة ٣٣٤ عقد مجمع ديني جديد في مدينة صور وفيه تم نقض قرارات مجمع نيقية السالفة وأصدر العفو عن أريوس ، وتم حرمان اثناسيوس ونفيه ، وفي سنة ٣٣٦ توفي اريوس في القسطنطينية بشكل مفاجىء مما احزن اتباعه وجعلهم يعتقدون انه مات مسموما ، ومما اثلج صدور خصومه فعدوا ذلك ضربة الهية حلت به ، ولم يلبث الامبراطور قسطنطين بعد أريوس طويلا فقد توفي في العام الثاني أي سنة ٣٣٧ م .

وكان قبل وفاته قد قسم الامبراطورية بين ابنائه الثلاثة : قسطنطين الثاني ، وقسطيوس وقنسطانز ، وكان لهذا آثاره على الكنيسة فقد دعم كل واحد من هؤلاء كنيسة بلده ووجهها ضد كنيسة الآخر فدعم صاحب القسطنطينية الأريوسية حتى أيام امبراطور أورثيودسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥ م) فقد دعا هذا الامبراطور سنة ٣٨١ الى مجمع ديني عقد في القسطنطينية ، وفيه تم تحريم الأريوسية وملاحقة اتباعها والتنكيل بهم في كافة انحاء الامبراطورية .

وعلى الرغم من الصراع الداخلي بين النصارى فقد حققت المسيحية في مدة وجيزة بعد قسطنطين انتصارا ساحقا على الوثنية الرومانية فتم الغاء هذه الديانة ومصادرة معابدها ، وكان لهذا النصر نتائج كبيرة استدعت تنظيم العلاقات بين الدولة والكنيسة ، كما تم تنظيم الكهنوت داخل الكنيسة ، واخذت الكنيسة في السعي لتامين الموارد المالية لنفقاتها ، فقامت بحيازة الأملاك ونيل الامتيازات العظمى فغدت بعد فترة وجيزة غنية جدا تمتلك موارد هائلة ، وغالبا ما تم استغلال هذه الموارد لغايات فردية ومطامع ذاتية لبعض الكهنة ورجال الدين .

وفي هذا الوقت قامت الكنيسة باصدار دراسات لاهوتية دينية وسعت نحو استهواء المثقفين والمفكرين ، وبذلك قامت قواعد اللاهوت المسيحي ، وأخذ هذا اللاهوت يحل محل التراث الفلسفي للعصور السالفة .

ولقد قمنا خلال حديثنا هذا كله بذكر البابوية في اكثر من مناسبة ، لذلك يحسن بنا القيام بالحديث عن هذه المؤسسة وذكر تاريخها بشكل منفرد .

تطلب التيار الانفصالي الذي انساقت فيه الكنيسة قيام مؤسسة لاهوتية قوية في مكان استراتيجي له خلفية تاريخية لتقود عمليات الصراع ، فكان أن قامت البابوية في الغرب مستغلة الانفصام الحاد بين الشرق والغرب ، وقامت في روما عاصمة الامبراطورية العتيدة التي اختفى فيها عرش الامبراطور الاله ، فكان أن حل محله عرش الامبراطورالحبر الاعظم خليفة السيد المسيح .

لانملك من المعلومات ما هو مؤكد وواضح للتاريخ للعصور الاولى لاسقفية روما وكل ما نعلمه ان حواريي السيد المسيح ورسله انتشروا في الأرض واستقر بعضهم في كبريات مدن العالم الروماني ، وهناك اسسوا قواعد كنائس ، ونظرا لندرة المدن الهامة في الغرب وكثرتها في الشرق فاننا نجد الكنائس المنسوبة الى الرسل في الشرق اكثر منها في الغرب وهي كنائس القدس وانطاكية

والاسكندرية ، ولم يوجد في الغرب الا روما وقد نازعهـا في البـداية قرطاجة ، لكن كما تغلبت روما الوثنية على قرطاجة وقهرتها من قبل تغلبت كنيسة روما على كنيسة قرطاجة فانفردت في العـالم الغـربي وتفردت في نيل الزعامة ، وكان عليهـا أن تتصـدى لكنائس الشرق وخاصة الكنيسة التي أحدثت في القسطنطينية بعد اتخاذها عاصـمة للامبراطورية الرومانية الشرقية وربطت كنيسـة رومـا تـاريخها بالقديس بطرس ،وكان اسمه الاصيل سمعان ، لكن روي أن السيد المسيح دعاه بطرس أي الصخرة ،وقال بأنه الصخرة التي سـتبنى عليها كنيسة الرب ، وعلى هـذا أعطـاه تفـويضا بسـيادة الأرض وأعطاه أيضا مفاتيح السماء فجعله زعيما للرسـل ومقـدما عليهـم جميعا ،لذلك فان كنيسته هـي مقـدمة على غيرهـا مـن الكنائس ورئيسها زعيم لجميع كهنة الديانة المسيحية في العالم.

إنما معظم هذه الحجج قد قـدم بعـد انتصـار المسـيحية وقيام الصراعات الداخلية فنحـن لانملك إلا نادر المعلومـات عن أسـاقفة روما في القرنين الأول والثاني لكن بعد قسطنطين أخـذت المصـادر تشير إلى بعضهم وإلى ماقاموا به من أدوار ومن هؤلاء دامـاسوس الأول (٣٦٦ ـ ٣٨٤ م) الذي صنف مؤلفا دافـع فيه عن مـكانة كرسي روما الكنسي واكد فيه على زعامتها على سواها ، وفي ايامـه تـــرجم الانجيل إلى اللاتينية ، ومـــن عهـــد خليفتـــه سيركيوس (٣٨٤ ـ ٣٩٩) ترجع أقدم المراسيم البـابوية التـي وصلتنا وبعدهما اشتهر البابا ليو العظيم (٤٤٠ ـ ٤٦١ م) حيث تم في عهده الاعتراف بسيادة كنيسة روما على غيرهـا مـن كنائس الغرب .

وفي هذا الوقت قال أباطرة القسطنطينية بـالمساواة بين كنيسـة روما وكنيسة القسطنطينية الحـديثة واسـتمروا في عقـد المجـامع المسكونية لمعالجة هذه القضية ودعمهـا ففـي مجمـع خلقـدونية عام (٤٥١) أصر الأساقفة المشارقة على هذه المسـاواة ، في حين رفض مندوب البابا ليو ذلك واستشهد بقرارات مجمع نيقية في تقـدم

روما على سواها ، ومع الأيام ازداد تمسك بابوات روما بدعواهم ففي سنة (٤٥٥) أصدر الامبراطور فالنشيان الثالث إمبراطور الغرب مرسوما يقضي بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا .

وقد زاد من مكانة كنيسة روما وتفردها في الغرب ازدياد التجاء الناس في الغرب إلى أساقفة هذه الكنيسة لفض الخصومات واستئناف الأحكام الدينية للكنائس الادنى ، وقد حازت كنيسة روما ثروة كبيرة جدا ، وساعدتها هذه الثروة على التحكم وتنفيذ مشاريعها الامبراطورية ، وأخيرا عندما سقطت الامبراطورية الغربية عام ٤٧٦ م خلت روما إلا من البابا فتفرد بسلطانه .

وتحققت السيادة الفعلية لروما على كنائس الغرب في عهد البابا غريغوري الكبير (٥٩٠ ـ ٦٠٤ م) وقد حدث هذا في وقت تعمقت فيه الخلافات مع الكنيسة الشرقية حول تفسير طبيعة المسيح وعلاقة عنصر الناسوت فيه بالعنصر اللاهوتي ، ففي سنة ٥٣١ م أدان مجمع أفسوس الآراء القائلة بفصل الطبيعة البشرية عن اللاهوتية ، وقد تزعم رجال الكنيسة الجماعات القائلةبالطبيعة الواحدة مع أن مجمع خلقدونية ٤٥١ م أدان مذهب الطبيعة الواحدة واخذ بالراي بوجود طبيعتين للمسيح ، وهو المذهب الذي سيعرف بالملكاني وقد استمرت هذه المشكلة كينبوع دائم لمسائل الخلاف بين كنائس الشرق والبابوية وكانت مشاكل الخلاف هذه مزية أساسية من مزايا تاريخ العصور الوسطى .

الامبراطورية الرومانية والشعوب البربرية

لقد قمنا حتى الآن بفحص عدد من القضايا التي ساهمت في جلب نهاية الامبراطورية الرومـــانية وبـــالتالي ، نهـــاية العصـــور الكلاسيكية ، ومن ثم بداية العصور الوسطى ، وفي الحقيقـة جميع ماتناولناه قد ساهم في جلب نهاية هذه العصور لكنه لم يقم بتسـديد الضربة التي أجهزت على روما وأسقطت عرشها الأمبراطوري ، لقد كانت شعوب أوربة البربرية هي التي عجلت بـدنو نهـاية العصـور الوسطى ، وسددت الضربة القاضية إلى عرش روما ، فما هي قصة العلاقة بين روما والشعوب البربرية ، ومـا هـو المقصـود بلفـظه بربرية ؟

كان الناس بالنسبة للرومان وقبلهم بـالنسبة للاغريق يقسـمون إلى قسمين : الشـعب الرومـاني ، والشـعوب البـربرية ، ذلك أن الشعب الروماني عد نفسه شعبا متحضرا متقـدما ومـاسواه أدنى منه مرتبة وأقل مكانة ، وقـد رأى بعضـهم أن لفـظة بـربرية تعني التوحش وعدم معرفة الحضارة ، والحقيقة ليس الأمر كذلك تمـاما إنما المرجح أن المقصود كان الشـعوب ذات النظـم القبلية والحياة البدوية ، فقد كانت أراضي الامبراطورية الرومانية كلهـا في أوربـة وأسية وإفريقية محاطة بشعوب ذات نظام عشائري بدوي ، تـكون لدى هذه العشائر الأسرة عادة النواة الأولى في المجتمع ، والأب هو سيد الأسرة وله حرية التصرف تجاه زوجته وأولاده ، حتى أنه كان يستطيع بيعهم او تأجيرهم أو رهنهم ، وسيد الأسرة هو المسـؤول بالوقت نفسه عن أسرته من كافـة الوجـوه ، وغالبـا مـا كان رب الأسرة يمارس صناعة الفروسية والصيد والقتال ويترك أمور تربية الماشية للنساء ، كما يترك امـور الزراعة إن وجـدت للعبيد ، وعلى هذا فعمل العبيد هنا يختلف عنه لدى الشعب الرومـاني ، فـالعبيد

لايقومون بالخدمات المنزلية ، ذلك أن منزل البدوي لايحتاج إلى خدمات كبيرة .

وتكون عدة أسر عشيرة ، وتكون عدة عشائر قبيلة ، وتكون عدة قبائل شعبا من الشعوب البدوية ، والسيادة في العشائر للأكثر شجاعة ونبلا وكرما وأريحية ، وسيد العشائر والقبائل هو مقدم بين مقدمين ، ولم تعرف الشعوب البدوية في مراحل حياتها الأولى مبادىء توريث الزعامة ، وعندما عرفتها غدت الزعامة مرتبطة لابثروة أو أملاك إنما بعدد الأتباع والشجاعة ونبل المنحدر ، وشغل نبل النسب الدور الأعظم في تسهيل الوصول إلى الزعامة .

وكانت غالبية الشعوب البربرية وثنية ، لكن شعوب أوربة البربرية كانت تعرف الامبراطورية الرومانية كما أن الرومان كانوا يعرفون هذه الشعوب ويتعاملون معها ، وكانت غالبية الشعوب البربرية الأوربية من أصول جرمانية أو كلتية ، وفي الحقيقة لم يكن هناك خط واضح يفصل بين الشعوب البربرية وشعوب الامبراطورية الرومانية ، ففي القرن الرابع لم تفصل حدود الامبراطورية بين شعبها المتحضر والشعوب البربرية ، بل شملت الأراضي الرومانية بعض المقاطعات التي سكنت فقط من قبل شعوب بربرية مثل غاليا (فرنسا) وبريطانيا ، ونجد منذ القرن الرابع للميلاد مجموعات من المرتزقة من أصل جرماني تخدم في فرق الجيش الروماني العاملة والاحتياطية ، كما نجد عددا كبيرا من كبار ضباط الجيش الروماني كانوا من أصل جرماني ، وقد جاء النبلاء الرومان بأعداد من أفراد الشعب الجرماني ليعملوا في ممتلكاتهم كخدم ومستعمرين ، وعلى هذا كانت الحضارة الرومانية متغلغلة في عمق الأراضي البربرية وبعيدا عن الحدود السياسية للامبراطورية الرومانية ، وهنا علينا أن نتذكر أن العقل الروماني كان عقلا سياسيا ، لذلك فإنه رغم قربهم من عدد من البلدان البربرية بدرجات متفاوتة فإن الرومان لم يعملوا على تقوية هذه الحالة واستغلالها ، لادراكهم عجزهم عن القيام بحكم البلدان

البربرية ، والحقيقة أن عمليات رومنة الشعوب البربرية بشكل مكثف لم تتم من قبل السلطات الرومانية لكنها تمت فيما بعد على أيدي البعثات التبشيرية المسيحية .

ومن الملاحظ أنه في القرن الرابع كانت الشعوب الكلتية عبارة عن مجموعات ضعيفة وبقايا شعب كان في القرون الماضية قويا جدا تحكم بالأراضي الممتدة من وسط المانيا مع بلاد البلقان وحتى شواطىء المحيط الأطلسي ، وقد طور هذا الشعب حضارة متقدمة بعض الشيء ، فقد كان أفراد من هذا الشعب يحسنون صناعة المعادن والأسلحة وتحليتها ، لكن على العموم نجد هذا الشعب في أيام غزو يوليوس قيصر لغاليا وبريطانية أضعف عسكريا من الشعوب الجرمانية ، ونتيجة لذلك فقد أزاحهم الجرمان من معظم أراضيهم شرقي نهر الراين واجبروهم على عبوره ، وقد قامت روما

في القرن الأول الذي سبق المسيح بغزو غاليا وبريطانيا ، وتمكنت روما من احتلال معظم اجزاء انكلترا وولز لكنها لم تتمكن من احتلال اسكوتلندا وايرلندا وفي ايرلندا انحصرت معظم بقايا الشعب الكلتي ، وقد دعا الرومان ايرلندا باسم سكوشيا لأن القرصان السكوتش مع الغزاة السكوتلنديين كانوا شوكة رعب في جنب المحتلين الرومان لبريطانيا .

ويبدو أن الكلتيين لم يطوروا نظاما سياسيا متقدما، فقد بقي الناظم لديهم هو الرابط العشائري والقبلي ، وكانت ديانتهم بدائية يعبد فيها عدد من القوى الطبيعية ولها طقوس معقدة يقودها رهبان يدعى واحدهم درويد ، ولم تعرف القبائل الكلتية الوحدة بل عاشت في صراع داخلي حربي دائم ، ولعل اهم ماقدمه الكلتيون للحضارة الوسيطة كان في مجال الخيال الأدبي والقصصي والشعري الخصب ، مع أدوات معدنية وزجاجية محلاة ومزينة بنقوش ، لكن الجانب الفكري اكثر اهمية فهو الأصل الأول لقيام قصص الملك ارثر والكأس المقدسة والطاولة المستديرة .

واهم من الشعوب الكلتية وأبعد خطرا في صنع تاريخ أوربة في العصور الوسطى هم الشعوب الجرمانية ، واقدم مسكن معروف لهذه الشعوب هو الأراضي المحاذية للقسم الغربي للبحر البلطيقي مع الاجزاء الجنوبية لشبه الجزيرة السكندنافية ـ اي شبه جزيرة جوتلاند كما عرفت في العصور الوسطى ـ والسواحل الشمالية للشاطئ الألماني وحتى نهر الأودر ، ومن هذه الأراضي انتشرت الشعوب الجرمانية نحو قلب اوربة ، ومع بداية عصر المسيح كانوا قد احتلوا معظم ما يعرف اليوم بالمانيا ، وقد أوقف زحف هجرتهم حدود الامبراطورية الرومانية المحصنة وخاصة في المناطق الغربية والجنوبية ، ولكن في الجنوب الشرقي لم تكن هناك تحصينات مماثلة لذلك تغلغلت اقسام من الشعوب الجرمانية الى داخل الأراضي الرومانية ، وقد تمكن الجناح الشرقي للشعوب الجرمانية من عبور المناطق المدعوة الآن ببولندا وأوكرانيا حيث احتل السهوب الواقعة الى شمال البحر الأسود ، وفي القرن الرابع للميلاد واجهت الشعوب الجرمانية الأمبراطورية الرومانية من لدن نهر الراين حتى نهر الدون ، ففي المناطق المنخفضة للأراضي المجاورة لهذا النهر استوطنت قبائل الفرنجة ، وفي المناطق العليا القبائل الالمانية ، وفي بوهيميا وجدت قبائل المراكوني ، في حين احتل الوندال السهل الهنغاري ، ومن هناك وحتى نهر الدون عاشت شعوب القوط وخلف الفرنجة وجدت الشعوب الساكسونية وفي شبه جزيرة اسكندنافيا وجدت أصول الفايكنغ والانكليز ، والى الشرق من الساكسون وجدت قبائل اللومبارد .

ونحن حين نذكر اسماء مثل الفرنجة والساكسون فاننا لانعني قبائل بل مجموعات كبرى من القبائل كانت متشابهة في العادات والنطق ، ولكن يبدو أن الشعوب الجرمانية قبل ان تشرع في هجرتها كانت لاتختلف عن بعضها بعضا في اللغة أو العادات ، إنما بعد الهجرة قامت مجموعات مختلفة متمايزة لغويا وثقافيا واجتماعيا تبعا للبيئة والظروف التي وجدت نفسها بها ، وتضخمت هذه الفوارق وظهرت واضحة في القرن الرابع

للميلاد ، وبدت بشكل واضح بين الشعوب الجرمانية الشرقية والشعوب الغربية ، فالساكسون والفرنجة والالمان تحركت جموعهم جنوبا ، وكانت المناطق التي استقرت بها مجددا مشابهة لمواطنها السالفة ، وقد ظلوا على اتصال بالشعوب الانكليزية من الجوت (اجداد الفايكنغ)الذين لم يهاجروا لكن اللومبارديين والوندال والقوط هاجروا نحو مناطق تختلف عن بلدان شمال شرقي أوربة ، فالأراضي الواقعة في شمال البحر الأسود مع هنغاريا هي سهوب رعوية وحين جاءت الشعوب الجرمانية الى هذه المناطق غدت شعوب فرسان واصحاب قطعان للرعي ، وكانت هذه المناطق مع سهوب جنوبي روسيا عبارة عن أراضي تفصل بين المزارع السلافية والمستعمرات الاغريقية على البحر الأسود وشعوب أسية البدوية ، وكانت تعرف الغزو الدائم ومسكونة من قبل مجموعات متباينة من الاجناس ، وعندما هاجر إليها القوط تمكنوا من قهر جميع الشعوب فيها والسيطرة عليها ، لكنهم أي القوط لم يتوطنوا ، كمستعمرين بل كانوا عبارة عن اقلية عسكرية تحكم أكثرية متباينة في كل وجه .

وكان الحال في القرن الرابع أن الشعوب الجرمانية المجاورة للحدود الرومانية كانت تقوم بالاغارة على احدى المقاطعات الرومانية فتهزم حرس الحدود وتتوغل داخل الأراضي الامبراطورية وتظل تقوم بأعمال السلب والنهب حتى قدوم نجدات من الجيوش الرومانية التي تقوم بدحرها ومصادرتها ، ومن جهة ثانية كانت شعوب الجوت والانكليز تركب البحر وتغير على السواحل الرومانية ، ولمعالجة هذه الأعمال الخطرة قامت روما بتقوية حدودها وحصونها ، وباستئجار أعداد من المحاربين الجرمان كمرتزقة في جيوشها للعمل ضد بني جلدتهم لدفعهم عن الأراضي الرومانية ، وهكذا أصبحت حدود الامبراطورية من الجانبين مقطونة بقبائل جرمانية ، وعلى العموم كان أخطر الشعوب الجرمانية على روما هم القوط ، ولقد انقسم القوط الى القوط الغربيين والقوط الشرقيين ، وقد طور القوط نظاما سياسيا متقدما

على بقية نظم الشعوب الجرمانية ، وعاش القـوط الغـربيون على طول شواطى الدانوب والشرقيون قامت لهم دولة امتدت املاكها من نهر الدنستر حتـى الدون ، وكان القـوط يتحـركون تحـت قيادة ملوكهم ، وفي القـرن الرابـع كان القـوط على اتصـال بالامبراطورية ، وقد قام العديد مـن النبـلاء القـوط بـزيارة القسطنطينية حيث تعلموا الكثير من العادات والتقاليد الرومـانية في الحياة والمعيشة.وفي منتصف هذا القرن بدأ القـديس أوليفـلا الذي قدم من القسطنطينية بتحويل القوط الى المسيحية ، وكانت البعثات التبشيرية التي تولت هذا العمل تتبـع المذهـب الأريوسي لذلك غدت الشعوب الجرمانية تدين بالنصرانية ، لكن تبعا للعقيدة الأريوسـية المعادية لعقيدة البابوية .

لقد كان للقوط الشرقيين الآن جبهات ثلاث ، ففي الجنوب كانت المواجهة مع الامبراطورية الرومانية ، وفي الشمال وجد بحر البلطيق وشعوب الصقالبة (السلاف) واخيرا في الشرق وجدت شعوب آسـية الوسطى البدوية ، وفي القرن الرابـع كانت الأراضي الشرقية هـذه مقطونة من قبل شعوب أسيوية ضعيفة ، دعيت باسم اللان ، لكن في حوالي سنة ٣٧ تدفقت من داخل آسية موجات من شعوبها التـركية المغولية وكانت هذه الشعوب ذات اعداد وفيرة ومقاتلة مـن الطـراز المرعب ، وقد عرفت باسم الهون ، وفور تدفقها اجتـاحت شـعوب اللان واتت لمواجهة القوط الشرقيين .

ان المعلومات المتوفرة عن المؤسسات السـياسية لدى الشـعوب الجرمانية الغربية قليلة ، ويبدو انهم كانوا يديرون أمورهم ببساطة متناهية فقد كان هناك محاكم عامة فيها يتم فض القضـايا ، وقـد تراس كل مجموعة منهم مقدم ، وكانت أهداف انظمتهم القضـائية احلال نوع من النظام محـل الأعمـال الفـردية في الاقتصـاص الثاري ، فاذا ما جرح انسان أخر قـام المصـاب بتقـديم شـكوى للمحكمة ، وتقوم المحكمة بدعوة الجاني للمثول امامها واذا لم يفعل ذلك اعتبر خارجا على القـانون ، وهنا صـار بـامكان المجني عليه

الانتقام وغدا ذلك مخول له قانونيا ، وفي حال امتثال الجاني أمام المحكمة يستطيع تبرئة نفسه اذا جاء بعدد من الشهود يشهدون بعد اقسامهم الايمان أنه لم يقترف جرما ، لكن اذا أخفق في البرهنة على براءته كان عليه أن يدفع الدية تبعا لتعريفة ثابتة ، وطبعا اختلفت هذه التعريفة تبعا لنوع الجريمة والناس المتورطين بها .

وكانت وظائف الرئيس أيام السلم قليلة لاتتعدى رئاسة المحكمة ، ذلك انه وجد بالأصل ليقود جماعته وقت الحرب ، وعندما كان يعزم مقدم جرماني على القيام بحملة ما ، كان يدعو شجعان قومه لكي يصاحبوه في مغامرته ، وكان هؤلاء يقسمون على خدمة رئيسهم بصدق وذلك مقابل تزويده إياهم بالسلاح والطعام والثياب وبجزء من الغنائم ، وعرفت مجموعات المقاتلين باسماء مختلفة تبعا لحجمها ونوع تسليحها ، ومهمتها ، وغالبا ما احاط بكل رئيس حاشية خاصة كانت تصحبة في كل حل وترحال ، وكانت تقوم بوظيفة حرسه الخاص أثناء الحملات الكبيرة .

وفي العصر الحديث قام عدد من الباحثين بوصف الشعوب الجرمانية بأنها كانت شعوبا ديمقراطية ، وهذا الوصف قام على ادراك لبعض العناصر الديمقراطية الأولى لدى هذه الشعوب ، ولكن اطلاقه بشكل عام يمزج بين حالتين وهما : الحكومة الديمقراطية ، وفكرة ان الفرد يتمتع بحقوق لاتستطيع أية حكومة انتزاعها منه ، ومعروف ان الديمقراطية تعني حكم الشعب ، ومع ذلك نجد حكومات ديمقراطية تحد من حقوق الأفراد بشكل كبير يفوق ما تقوم به بعض الحكومات الاوتوقراطية ، وفي الوقت نفسه قد نجد حكومة هي ليست ديمقراطية لكنها تعتقد بأنه محرم عليها اغتصاب حقوق الأفراد وظلمهم ، وبدون شك ان الفصل في الخصومات في محكمة شعبية عامة لدى الجرمان كان عملا ديمقراطيا ، لكن عدم اعتراف القانون بالمساواة بين الجميع لم يكن ديمقراطيا .

وغالبا ما انتخب المقاتلون الجرمان رئيسهم ومقدمهم من بين صفوفهم ، لكن الاختيار كان في كثير من الأحيان يتم من بين أفراد

الأسر النبيلة بيد أنه لم تــوجد لدى الجــرمان قــواعد ديمقـــراطية لمحاسبة الرئيس ومشاركته في اتخاذ قراراته ، ولهــذا لايجــوز أن نحمل بعض العناصر الديمقراطية البسيطة في المجتمــع الجــرماني أكثر مما تحتمله حقا ، ولم يوجد بين الجرمان حكومات اذ لاوظائف لها بين شعب بدوي لايعرف الاستقرار والتجمــع الكثيف في مــكان واحد ، وعلى العموم كان الفرد الجرماني يتعشق الحرية ويكره أن يتدخل احد في شؤونه ، وحين كان ينفذ أمرا اصدر اليه من مقــدمه كان لاينفذه طاعة بل ادراكا ان ذلك لمصلحته هو كفرد من مجمــوعة متماسكة ، ولاشك أن حب الحرية هــذا كان له اثــاره البعيدة على تطور الحضارة والنظم في أوربة الغربية .

وكان بعض مقدمي الجرمان قد نال لقــب « ركس »أي ملك مــن الامبراطورية الرومــانية وعلى الأخص أولئك الذين كانوا في خــدمة الامبراطورية ، أو تدفع لهم المبالغ مقــابل خــدمات ، وعندمــا عم وجود هذا اللقب بين الزعماء الجرمان فإن اولئك الذين لم تمنحهــم روما هذا اللقب قاموا بمنحه لانفسهم ، ولم يكن الملوك كلهم ســواء في الواقع ، فواحد منهم قد يكون زعيم عصابة من المقاتلين حجمهــا متفاوت وآخر قــد يكون ملكا لدولة قــوطية كبيرة ، ومــن الجــدير بالأهمية أن نتذكر بأن العالم الروماني القديم قد عرف كلمتين نقوم الآن بترجمتها ترجمة متساوية بمعنى ملك وهمــا ركس وبــازليوس وقد اعتاد الرومان منح لقــب ركس لكل زعيم غير رومــاني قــاموا بمنحه منصبا مع بعض الصلاحيات،لكن لفظة بــازليوس كانت تعني ملكا عظيما له مكانة سامية مقدسة ، إنهــا كانت تعني الامبــراطور لذلك لم يطلقها الرومان على احد غير اباطرتهم ، ويمكن القول بكلمة موجزة أن لفظة ركس بين الجرمان عنت مقدما وظيفتــه الأســاسية القيادة في الحرب.

واعتمدت الشعوب الجــرمانية في حياتهــا على الزراعة والقتــال وكانت الوحدة الزراعية هي سكان قرية ما ، كما أن الوحدة القتالية كانت هي عصابة واتباع مقدم مــا ، ومــن المعتقــد أنه وجــد لدى

الجرمان في قراهم نمطين للعمل الانتاجي الزراعي ، فالأول أن الانتاج تم بادارة القرية من قبل مقدم من المقدمين اشرف على عمال جميعهم كانوا أرقاء ، والثاني أن القرية كان يتم فيها الانتاج من قبل مجموعة من الرجال الاحرار العاديين ليس لهم مقدم أو ليس متسلطا عليهم أحد المقدمين ، وكانت الأراضي الزراعية للقرية تجعل في قسمين يزرع أحدهما هذا العام ويترك الآخر ليزرع في العام التالي ، ويترك الأول ليسترد خصوبته ، وفي القرى التي اديرت من قبل الرجال الاحرار تم توزيع الاراضي بشكل متساو بين الاسر في حين تركت المراعي والغابات مشاعا دونما توزيع ، وعاش الناس في القرية متجاورة بيوتهم ومحاطة باراضيهم الزراعية وفصلت كل قرية عن الأخرى بغابة كبيرة ، وعلى هذا يمكن الافتراض أن القرى واراضيها الزراعية تم انتزاعها من الغابات والاحراش التي كانت تغطي أوربة البربرية

ومن الملاحظ أن الجرمان في القرن الرابع أولوا القتال عناية أكبر من الزراعة ، ذلك أنه كان أسهل أن يحصل المرء على قوته بنهبه في ساعات من أن يتعب طوال العام ويشقى من أجله ، ولقد كانت الغارات على الأراضي الرومانية مربحة وممتعة في الوقت نفسه وكان أفضل من هذا أن يخدم الانسان كمرتزق في الجيش الروماني ليسرق في رعاية القانون .

ويبدو أن القوط الشرقيين عاشوا في دولتهم في جنوب روسيا كمنتصرين عسكريين كان على رعاياهم تأمين كل احتياجاتهم ، ولقد كانت رغبة العيش بدون عمل دافعا أساسيا للجرمان في هجر مواطنهم وعبور الحدود الرومانية ، فلقد كان العيش في مواطنهم صعبا للغاية ، والحياة قاسية ، والصراع بين القبائل على أشده ، في حين أن الطرف الثاني من الحدود كان فيه مزارع متطورة خصبة وبلدان مزدهرة ، وإذا ما تمكن انسان من عبور الحدود كان في أسوأ الظروف يستطيع العيش من أعمال النهب ، وفي أحسنها السيطرة على قرية مسالمة وادارتها والتصرف

بها والاستبداد بأهلها ، وعلى هذا لم تطمح الشعوب الجرمانية نحو اسقاط الامبراطورية الرومانية وكل ما أرادته مقاسمتها ثرواتها .

إن عمليات جرمنة المقاطعات الغربية للامبراطورية الرومانية مع رومنة الشعوب الجرمانية التي سارت ببطء وانتظام في القرنين الثالث والرابع وميزات هذين القرنين ، قد أزدادت سرعتها في القرن الخامس ، والحق أن ذلك ابتدأ فعليا بعد سنة ٣٧٠م بفضل الانقضاض الهوني على القوط الشرقيين ، واستمرت عمليات تدفق الجرمان على الأراضي الرومانية نتيجة لهذا المحرض وبالسرعة المتزايدة نفسها لمدة قرنين تقريبا ، وكانت مناحي الهجرة بشكل عام جنوبية أو غربية ، ولقد دخل الجرمان الأراضي الرومانية تحت ظل أحوال مختلفة وأسباب متنوعة لا بل متباينة ، ففي سنة ٣٧٦ م طلب القوط الفارين من وجه الهون الذين انقضوا عليهم عبر المنفذ الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين ، طلبوا بالحاح ورجاء من الأمبراطور الروماني فالنز (٣٦٤ ـ ٣٧٨ م) أن يشملهم بحمايته وراء حدود أمبراطوريته المحصنة ، وقد أستجاب لطلبهم وسمح لهم رغبة في الاستفادة منهم لحماية حدود أمبراطوريته من الهون ، وكان عدد الجرمان الذين أجتازوا الحدود عبر نهر الدانوب حسب بعض التقديرات يفوق المليون ومائة الف محارب ، وقد أحدثت هذه الهجرة ردات فعل عنيفة داخل الامبراطورية حيث لم يخلد هؤلاء المحاربون الى الراحة بل أخذوا ينشطون في أعمال السلب والنهب ، وعندما حاول الامبراطور وضع حد لهذا النشاط هزموه وذبحوه ، ومما هو جدير بالذكر هنا أن جميع الشعوب الجرمانية شقت طريقها عبر الحدود الرومانية بأشكال سلبية أو نصف حربية فوضوية اللهم إلا بالنسبة للانكلو ـ سكون والوندال فهؤلاء دخلوا المقاطعات الرومانية كغزاة بكل ما تعنيه الكلمة ، وشقوا طريقهم بالحرب كفاتحين عسكريين.

وفي القرن الخامس صار الحال اننا بتنا نجد معظم المقاطعات الرومانية الغربية مدارة من قبل ضباط من أصل جرماني يقودون

عساكر جرمانية وقد اعتبر بعض هؤلاء مثل الوندال والانكلو ـ سكسون أنفسهم أعداء للامبراطورية ، في حين اعتبر بعضهم الآخر نفسه حليفا لروما ، وكان جل هؤلاء من القوط . ذلك أن ثيود سيوس العظيم (٣٧٨ ـ ٣٩٥ م) خليفة الامبراطور فالنز تصالح مع القوط وتحالف وسمح لهم بالاقامة في عدد من الأقاليم واعفاهم من الضرائب مقابل تأديتهم الخدمة العسكرية وكان السماح مقدمة لاستيلائهم على عدد من المقاطعات الرومانية وبالتالي إقامة مؤسسات ملكية فيها ، ولهذا يمكن القول بأن الممالك الجرمانية ظهرت لأول مرة داخل الأراضي السالفة حيث عاش الجرمان المهاجرون فيما سلف تحت ظل القانون والنظام الروماني ، أما الآن فقد عاشوا تحت ظل قانونهم الخاص ، ولهذا يعتبر بعض الباحثين أن العصور الوسطى بدأت فعليا في هذا القرن.

وبعد وفاة الامبراطور ثيود سيوس كان الذين اعتلوا عرش روما الغربي عبارة عن شخصيات ذات وقع اسمي لاحكم فعلي لتحكم الضباط الجرمان فيهم ، وفي أوائل القرن الخامس سعى قائد اسمه ستليشو بوساطة جيش جنده من الجرمان وحتى من الهون ، سعى عبثا نحو منع الوندال من تخريب مقاطعة غاليا ، ومنع القوط الغربيين المستقرين قرب البحر الادرياتيكي من دخول ايطاليا ، ولقدقتل أثناء مسعاه هذا ، وقام الوندال بعبور ايطاليا الى غاليا واثناء عبورهم نهبوا روما ، وتابعوا سيرهم من فرنسا نحو اسبانيا حيث جرفوا الوندال أمامهم ، ولقد احتل القوط الغربيون اسبانيا مع جنوب فرنسا وتمكن الوندال من العبور الى شمال افريقية حيث تملكوها من اسيادها من الضباط الجرمان. ومع حلول عام ٤٩٠ كانت ايطاليا في حوزة القوط الشرقيين وكانت اسبانيا مع جنوب فرنسا بيد القوط الغربيين وكان الوندال يتملكون سواحل شمال افريقية .

وكانت اعداد هذه الشعوب البربرية قليلة نسبيا لذلك نجدهم لايتركون اثرا دائما مستمرا في الأماكن التي حازوها ، وسبق أن اشرنا الى ان كل من القوط الشرقيين والغربيين كانوا على معرفة بالحضارة الرومانية ومتأثرين بها وذلك قبل دخولهم أراضي

الامبراطورية الرومانية الغربية ، وعلى الرغم من أنهم نادرا ما انقادوا لأوامر السلطات الرومانية وكثيرا ما حاربوا جيوش روما فانهم ظلوا يعتبرون انفسهم حلفاء الرومان ، وقد مارس القوط كلا الدورين في مناسبات كثيرة ، من ذلك ـ كما راينا في سنة ٣٧٨ م هزموا جيشا رومانيا قاده الامبراطور فالنز وفتكوا بالامبراطور نفسه ، ونقيض هذا أنه في سنة ٤٥١ م قام القوط الغربيون بالاندماج في الجيش الروماني لشمال غاليا مع مجموعات من الفرنجة ، وقد عملت هذه القوات ضد أتيلا ملك الهون(ـ٤٥٣ م) الذي كان يغزو غاليا انئذ .

وقد عولت الجيوش القوطية في عيشها في ممالكها داخل الأراضي الرومانية على نتاج الأراضي الزراعية ، وكان على كل مالك أرض محلي ان يؤدي قسما من منتوجاته لأحد المحاربين القوط مع اسرته ، ولقد ادعى ملوك القوط انهم وكلاء للأمبراطور الروماني وكانوا يظهرون عظيم البهجة والسرور عندما كانت روما ترسل لأحدهم لقبا ما يدل على التوكيل والمشاركة في الحكم ونبل المنزلة والتقدير ، ومعلوم ان القوط حين دخلوا اراضي الامبراطورية الرومانية كانوا يدينون بالمسيحية حسب العقيدة الاريوسية وهي مخالفة لعقيدة رعاياهم ، كما كانت لهم أعرافهم وقوانينهم الخاصة بهم ، ولهذا فقد حكم القوط بعد هجرتهم تبعا لقوانينهم الخاصة وتركت المقاطعات الرومانية تدار وفقا لقواعدها السالفة ، ولقد عد الرهبان الكاثوليك القوط هراطقة ، وعلى العموم كان ملوك القوط في غاية التسامح عينوا عددا بسيطا من رجال الدين الاريوسيين ، وتركوا البقية العظمى في يد الرهبان الكاثوليك ، ومع ذلك لم تكن الكنيسة الرومانية لتستكين في ظل حكم هرطقي وهذا مما عقد الأمور .

لقد دمرت هجرة القوط والوندال امبراطورية روما الغربية بشكل فعلي ، كل هذا رغم ان الامبراطور الروماني الشرقي جستنيان الذي حكم في القسطنطينية من ٥٢٧ الى ٥٦٥ كان قد نجح في

القضاء على كل من الوندال والقوط الشرقيين واسترد قسما من جنوب اسبانيا من القوط الغربيين ومعلوم ان خلفاء جستنيان اعوزتهم المصادر والظروف فعجزوا عن الاحتفاظ بمكتسبات جستنيان ، وفي سنة ٥٦٨ م حدثت هجرة جرمانية جديدة هي هجرة اللومبارديين الذين استولوا على ايطاليا ، ومع نهاية القرن السادس نجد امبراطورية القسطنطينية تحكم صقلية مع أجزاء من ايطاليا بينها روما ورافينا والبندقية فقط،والبقية من أراضي ايطاليا كانت في أيدي اللومبارديين .

انه لمن الأمور الشديدة الصعوبة أن نستطيع تقدير أثار هجرة الجرمان على البلدان الغربية الواقعة في حوض البحر المتوسط وخاصةمن النواحي الاقتصادية ، وهذه مسألة ما تزال تثير جدلا كبيرا بين الباحثين ، فبعض من هؤلاء يرى أن هذه المقاطعات كانت قبل ان يتدفق عليها الجرمان بأعداد كبيرة في أحوال تقهقر وسير في دروب الفقر والانحطاط وكل ما صنعه الجرمان هو انهم عجلوا بالوصول الى الانحطاط والفقر والعزلة الاقتصادية ، لكن من المؤكد أن هذا التعجيل كان حاسما فالتخريب الذي سببته أعمال الحرب بين الفئات الجرمانية المتناحرة ثم بين الجرمان والجيوش الرومانية لابد انه كان هائلا ، وكانت اثاره على الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والحضارية أهول ، ففي احوال السلم وعندما كانت الامبراطورية الرومانية في أوج عظمتها وجدت من المتعذر القضاء على القرصنة وقطع الطرق ، وكان لهذا الانعكاسات الكبيرة على المواصلات التجارية والثقافية ، ومع حالة الفوضى وانعدام الأمن الذي كان من حصاد هجرة الجرمان توقفت التجارة لأنه لم يعد هناك من يتجرأ على نقل البضائع ثم ان الثروات والأموال تبددت في الغرب فلم يعد هناك من يمكنه الشراء .

ومع هذا لم يتدمر كل شي دفعه واحدة ففي القرن الخامس كان مايزال في المقاطعات التي احتلها البرابرة بعض النبلاء الرومان يعيشون في قصور ظلت مراكز للثقافة الكلاسيكية ، لكن هؤلاء

النبلاء كانت اعدادهم قليلة وكان عليهم ان يعاشروا رجال القوط المتخلفين الذين كانوا لايقيمون وزنا لما لديهم من ثقافة وحضارة ، هذا وان الدمار الذي نجم عن تحركات الجيوش الجرمانية كان ابلغ من كل تقدير ، فروما نفسها عاصمة الامبراطورية القديمة ومركز العالم الروماني نهبت مرتان من قبل الجموع البربرية ، مرة بشكل بسيط من قبل القوط الغربيين أولا ثم بشكل رهيب من قبل الوندال سنة ٤٥٥ ونستدل من كتابات شهود عيان ومعاصرين ان هاتين الحادثتين قد هزتا العالم الروماني بشكل عنيف جدا ، وعلى هذا نجد ان الامبراطورية في الغرب في نهاية القرن الخامس قد تمزقت سياسيا واقتصاديا وثقافيا وانحطت مكانتها الى الحضيض .

لقد نجت مؤسسة رومانية غربية واحدة من الدمار وعاشت لتقوم بدور عظيم جدا في صنع احداث تاريخ اوربة في العصور الوسطى ، الا وهي الكنيسة الكاثوليكية ، ذلك ان قادة الجيوش الجرمانية برغم عدم كاثوليكيتهم احترموا الكنيسة وصانوا ممتلكاتها ورجالها ، مدركين ان ذلك انفع لهم وسهل عليهم التحالف مع الكنيسة واستغلالها خاصة بعد اندثار روما ومؤسساتها على ايديهم ، وساعد تطور الأحوال اسقف روما على التقدم بين أساقفة الغرب والانفراد بالعاصمة الامبراطورية التي خلت من عرش امبراطورها ، فعندما احتل اللومبارد وسط ايطاليا حالوا بين نائب الامبراطور البيزنطي المقيم في رافينا وبين متابعة ادارة شؤون روما ، وهكذا صار اسقف روما حاكمها المدني وحاكم ما انضاف اليها من ضواحي ، وهكذا عاشت الكنيسة وكسبت مع مرور الأيام القوة والسمعة والشهرة .

ومن الملاحظ اننا في حديثنا عن الامبراطورية الرومانية واثر الشعوب الجرمانية عليها أوقفنا حديثنا على ما جرى في مقاطعات الغرب الأوربي الواقعة في حوض البحر المتوسط وبذلك اهملنا بعض مقاطعات الامبراطورية النائية مثل حدود الراين وشمال غاليا

وبريطانيا علما بان هذه المقاطعات ساهمت بنصيب أوفر في صنع التاريخ الأوربي الوسيط ولعلنا فعلنا ذلك لأن دور هذه المقاطعات في صنع التاريخ الروماني كان هامشيا مثل مواقعها .

فعندما كان على الجيش الروماني الدفاع عن اراضي الامبراطورية الكائنة في الحوض المتوسط سحب فرقه التي كانت مرابطة في بريطانيا وغاليا للتصدي للوندال والقوط ، وهذا اتاح السبيل امام الأقوام الجرمانية التي كانت داخل الحدود الرومانية وتعمل لحساب روما للدفاع عن حدودها ضد بني جلدتها الجرمان ، فاتيح امامها السبيل للتوغل داخل الأراضي الرومانية ، فقد جاء الألمان الى الوسط الشرقي لغاليا واستقروا فيه ، واحتل البيرغنديون وادي الرون ، وتحالفت قوى غاليا المختلفة عام ٤٥١ م فتمكنت من منع الهون من احتلالها .

وفي سنة ٤٨٦ قام كلوفس الذى كان من قادة الفرنجة ، وكان عسكريا ناجحا وسياسيا بارعا ، قام بالتوسع داخل غاليا على حساب غيره وذلك بعدما تحالف مع الكنيسة الكاثوليكية وتزوج من احدى الاميرات الكاثوليكيات ، واثناء توسعه تخلى مع اتباعه عن الأريوسية وعمد كاثوليكيا ، وهكذا غدا كلوفس حامي الكاثوليكية والمدافع عنها ، ويروى انه اخذ على نفسه عهدا الا يبقي في غاليا من يعتقد الأريوسية وهكذا وبهذه العلة تمكن كلوفس الذي كان يحمل اللقب الروماني ركس من السيطرة على معظم اجزاء غاليا ، وغدت فرنسا الحصن الحصين للكاثوليكية .

وكمنت قوة الفرنجة في كون موطنهم الأصلي كان قريبا من غاليا التي هاجروا اليها ، على أن الأعداد التي دخلت منهم مهاجرة الى غاليا لم تكن كبيرة نسبيا ، ويبدو ان غالبيتهم ـ اي المهاجرين ـ استقرت في المناطق الواقعة شرقي باريس والى الشمال الشرقي منها أيضا وكانت هذه الأراضي مهجورة غير مستعملة ، فاقاموا فيها عدة قرى جديدة ولم يوجد الى الغرب من باريس مثل هذه القرى ولا أيضا في جنوبي اللوار ، على انه برغم طبيعة اعداد الفرنجة

في فرنسا ، فانهم غدوا حكام غاليا السياسيين والعسكريين ، وحاز الموظفون لدى ملوك الفرنجة مع رجالات هؤلاء الملوك ممتلكات لنفسهم وامتزجوا بطبقة الارستقراطية الغالية ـ الرومانية لكن تأثيرهم على الأسس والقواعد الثقافية كان قليلا ، فقد استمر الفلاحون يحرثون حقولهم كما فعلوا في الماضي ، وتكلم هؤلاء لغة عامية خاصة انحدرت من اللاتينية ، وهذه اللغة هي التي ستكون ماسيعرف فيما بعد باللغة الفرنسية ، وحكم النبلاء الفرنجة في المدن التي استولوا عليها بجانب أساقفة الكنيسة ، لكن الفرنجة لم يدخلوا اية تعديلات على التقسيمات الادارية القديمة ، والفارق الجوهري بين دولة الفرنجة وبقية دول الشعوب الجرمانية من وندال وقوط شرقيين وغربيين هو ان الفرنجة احتفظوا بالشعوب التي قهروها ، وهكذا أقاموا مملكة جرمانية على قواعد رومانية ـ غالية .

واذا ماتركنا غاليا ومضينا نحو بريطانيا نجد انه ليس لدينا تاريخ مؤكد يحدد وقت انسحاب الجيوش الرومانية من الجزيرة البريطانية ، وفي العادة يقال بأن ذلك كان عام ٤٠٧ ، لكن مهما يكن الحال فان تاريخ هذه الجزيرة منذ هذا التاريخ وحتى القرن السابع هو في غاية الغموض ، ويبدو أنه إثر انسحاب الرومان قامت مجموعات اسكوتلندية من جزيرة ايرلندا بالاستيلاء على بريطانيا واقامت مملكه حكمتها مع ايرلندا أو حكمت جزءا منهما مع ايرلندا ، لكن خلال ذلك الوقت لم يتوقف الجرمان عن الاغارة على السواحل البريطانية واخيرا جاءوا اليها مهاجرين للاستقرار،وعلى العموم كان سكان بريطانيا في العصر الروماني يقطنون الأماكن المرتفعة ويبتعدون عن وديان الأنهار والأراضي المستنقعية مع الغابات ، وعندما جاء المهاجرون الجرمان الى بريطانيا قدموا من مواطن عاشوا فيها في قلب الغابات لذلك وجدوا الأراضي غير المقطونة في هذه الجزيرة مثالية وموافقة لمزاجهم وعاداتهم فاستعمروها ، ولاشك ان بعض المهاجرين قطن في أماكن كانت مستعمرة وقد تم التمازج بين المهاجرين والسكان القدامى احيانا

سلميا واحيانا اخرى بعد صراعات طويلة ، ورويدا رويدا انتصر الجرمان ، وفي الربع الأول من القرن السابع كانت غالبية اجزاء انكلترا في ايديهم ، وقد جاء غزاة بريطانيا مما يعرف الآن باسم الدانمارك ومن جنوب المانيا ، وقد دعوا انفسهم بالانكليز ، والساكسون والجوت وكانوامتقاربين باللغة والعادات والتقاليد ، وليس من النافع الحديث عن كل واحد من هذه الشعوب انما تكفي الاشارة اليهم بشكل مجمل وذلك باسم انكلو ـ سكسون ، ولقد كانت سيطرة هذه الشعوب على انكلترا اوفى واكثر عمقا من هجرات بقية الشعوب الجرمانية الى المناطق المختلفة من اوربة ذلك انهم ازالوا الشعوب البريطانية بالقتل والاستعباد والتهجير ، وانكلترا الجرمانية زرعت اراضيها من قبل المهاجرين الجرمان ، وهذا أمر لم يحصل في بقية الأراضي الأوربية التي هاجر اليها الجرمان وحتى انه لم يقم في اجزاء بريطانيا الأخرى عدا انكلترا ، حيث ان الجرمان كانوا فاتحين عسكريين يحكمون شعوبا مقهورة وعلى العموم لم يدمر الأنكلو ـ سكسون سكان انكلترا البريطانيين فحسب بل ازالوا كل معالم الحضارة الرومانية من بريطانيا وهذا أمر لم يحصل في بقية اجزاء اوربة الرومانية التي احتلتها الشعوب الجرمانية ، وكان حال بريطانيا في القرن السابع انها غدت مقسومة بين الكلتيين والجرمان .

ان ما قمنا به حتى الآن هو البحث في الأصول الكلتية والجرمانية والرومانية التي كون تمازج تراثها تاريخ اوربة في العصور الوسطى ، لكن عمليات هذا التكون التمازجي لم تمر بسلام ووقت قصير ، بل عبر عصور اشتد فيها الصراع وتعاظمت ابعاده وصوره ، وكانت الخليطة الناتجة هي ماندعوه عادة باسم حضارة العصور الوسطى ، وعلى هذا فإن القانون الروماني اخذت مؤثراته تظهر على التفكير الأوربي منذ القرن الحادي عشر ، والمؤثرات الكلتية الحضارية أصبحت مهمة منذ القرن الثاني عشر ومؤثرة على الثقافة الجرمانية ، وعليه إن على القارىء الذي يود التعرف الى ما حدث في تاريخ العصور الوسطى أن يكون متمتعا بعظيم الصبر أثناء

دراسته لأصول هذا التاريخ ، وبديهي أنه بدون فهم هـذه الأصـول على شدة تعقيدها لا يمكن استيعاب أية قضية من قضـايا التـاريخ الوسيط .

لقد غيرت هجرة الشعوب الجرمانية الوضع الجغـرافي والزراعي والاقتصادي للعالم الأوربي ، كمـا زلزلت التـوازن العسـكري في أوربة.

وفي الوقت الذي تمكن الجرمان فيه من احتلال المقاطعات الغربية للامبراطورية الرومانية ، فانهم لم يتعدوا طور الاحتلال الى التغيير البشري والعرقي ، فلقد كانت اعدادهم قليلة ، لذلك كان حالهم حال جيش محتل أكثر من حال شعب مهاجر يبغي أن يحل محـل شـعب اخر ، ولقد استطاع الجرمان الاحتفاظ بالمقاطعات التي اسـتولوا عليها ما دام ليس هناك قوة عسكرية أخرى تستطيع طـردهم ، لكن في القرن السادس تمكن الامبراطور البيزنطي جستنيان من القضاء على القـوط الشرقيين والوندال في كل مـن ايطـاليا وشـمال افريقية ، وبعد قرن ونيف قضى المسلمون على القـوط الغـربيين في اسبانيا ، وعلى هذا صحيح أن الجرمان حـطموا الكيان السـياسي لروما الغربية في مقـاطعاتها الغـربية الواقعـة على البحـر المتوسط ، لكن هؤلاء الجرمان عجزوا عن تقديم نظام بـديل يحـل محل النظام الروماني ، ولهذا نجد أن مراكز القوة السياسية تنتقل من المقاطعات الرومانية الى الأراضي الأوربية التـي كانت الموطـن الأصلي للشعوب الجرمانية أو الى مـا جـاورها مـن مقـاطعات استعمرها الجرمان بشكل كامـل ، ومـع سـقوط مملكة القـوط الشرقيين في ايطاليا أصبح الفـرنجة القـوة العسـكرية المتحـكمة والفعالة في غرب أوربة ، وكما ذكرنا من قبل فإن مراكز قوة الفرنجة كانت في الشمال الشرقي لغاليا وفي وادي الرين ، ومع أن حضـارة العصور الوسطى نشأت من اندماج العناصر الحضارية الجرمانية بالعناصر الرومـانية وتـطورها ، الا أن هـذه الحضـارة لم

تنشأ في حوض البحر المتوسط بل في أراضي الشعوب الجرمانية الأولى قبل الهجرة.

ولقد كان لنقل مركز السلطة والسياسة والحضارة من مقاطعات البحر المتوسط الى شمال اوربة تأثير على جغرافية أوربة السياسية والاقتصادية ، وتأثير المحيط الجغرافي الجديد على الحضارة الوسيطة يأتي من انه معلوم أن مناخ شواطى البحر الأبيض المتوسط معتدل جاف ، والتربة في الأراضي المتوسطية خفيفة والغابات قليلة والأنهار ليست كثيرة ، فالري الزراعي قليل كما أن الأراضي الصالحة للزراعة غير كافية وغير عظيمة الخصب وأراضي شمال أوربة كانت باردة في الشتاء لطيفة في الصيف كثيرة الأمطار ، وكانت مغطاة بالأحراش والغابات وعندما قام المستعمرون الجرمان بتنظيف بعض البقاع من الأشجار وجدوها تنتج كميات كبيرة من الحبوب ، وكانت الأرض ومنتجاتها قاعدة الاقتصاد في العصور الوسطى ، وعلى هذه القاعدة اعتمدت دول اوربة الغربية الوسيطة لكن لماذا اعتمدت أوربة الغربية فقط على موارد أرضها الزراعية ، اكان ذلك عن اختيار أم إجبار ، وأخيرا وتبعا لهذا اكان الحال الاقتصادي هو الذي حدد بداية العصور الوسطى أم سقوط روما السياسي على يد الفاتحين الجرمان ؟

ان افضل من حاول معالجة هذه المسألة هو المؤرخ البلجيكي ـ هنري بيرين ـ وجاءت خلاصة افكاره في كتاب نشر بعد وفاته دعاه باسم «محمد وشارلمان» وقد أثار ما قدمه بيرين في هذا الكتاب زوبعة كبيرة بين العاملين في تاريخ أوربة في العصور الوسطى ومازال مع انه مضى على نشره سنين عديدة ، وكان ماقدمه بيرين من رأي هو أن الفصل بين العصور القديمة الكلاسيكية والعصور الوسيطة قد قام بعد سنة ٨٠٠ م ، أيام حكم شارلمان وليس أيام الهجرة الجرمانية في القرن الخامس ثم السادس .

ويقدم بيرين عرضا مؤيدا لأفكاره ملخصه أن الأراضي التي تشكلت منها الامبراطورية الرومانية في عصورها المتأخرة أي من

بعد القرن الرابع ، كانت تلك المحيطة بـالبحر المتـوسط ، حيث أن هذا البحر كان بحيرة رومانية وصلت بين مقـاطعات الامبـراطورية ولم تفصل بينها ، فقد كانت هـذه البحيرة طـريقا سـافرت عبـره الديانات والفلسفة وأنواع البضائع التجارية ، كل هذا مـع عقـائد مصر وثقافات الشرق وعبادة مثرا والمسيحية ، وفيمـا بعـد نظـام الرهبانيات وحياة الديارات ، وعلى طول شواطيء البحر المتـوسط امتدت طرق القـوافل التـي انتقلت عليهـا كنوز الشرق وبضـائعه الرائعة من عاج وتـوابل وحـرير وورق البـردي والخمـور والزيوت ، وفي المقابل أرسل الغرب الى الشرق منتجـاته وخـاصة العبيد ، ولقـد كان هناك وحـدة نقـدية للامبـراطورية تمثلت بالسوليدوس الذهبي ، ولقد اشرف على ادارة الأعمـال التجـارية وتنظيمها داخل الامبراطورية التجار اليهود والتجار السوريون .

وهنا يطرح سؤال حول : ما هـي مـؤثرات هجرة الشـعوب الجرمانية على الامبراطورية الرومانية وذلك عندما قامت في القرنين الرابع والخامس ؟ لقد قهرت المقاطعات الغربية بما فيها ايطاليا من قبل الشعوب الجرمانية الغازية وزالت السيادة الرومانية السياسية من الغرب ، ولقد كان هذا في حد ذاته فاجعة عظمى ، بيد أنه بـرغم ذلك لم يجلب نهاية العصور الكلاسيكية كما ظن بعضهم من قبل .

وحيث أن القبائل الجرمانية الغازية شكلت أقلية صغيرة في البلاد المفتوحة ، ومع أننا لانملك أرقاما محـددة،لكن تقـديرات المؤرخين تقول بأن عدد القوط الشرقيين في ايطاليا لم يتجـاوز المئة الف وكذا عدد القوط الغربيين في اسبانيا وجنوب فـرنسا ، وعدد البيرغنديين في جنوب شرقي فرنسة حوالي خمسة وعشرين الفـا ، ولم يبلغ عدد الوندال الذين عبروا الى الشمال الافريقي أكثر من ثمانين الفـا ، وعلى هذا لم يتجاوز عدد الشعوب الغازية بالنسبة للشعوب المقهورة نسبة أعلى من واحـد الى مـئة ، وليس هناك مـا يثبـت أن هؤلاء الجرمان تلقوا امدادات جديدة ، بل على العكس نقصـت أعدادهـم

بفعل البيئة الجديدة وبفعل الحرب ، واخيرا أطيح بهم عسكريا وتم امتصاصهم.

ومن الواضح أن جرمنة البلاد المفتتحة كان محدودا جدا ، فقط ظهر واضحا في بقاع وقعت مباشرة على الحدود الشمالية للامبراطورية ، حيث تلاصقت مع المواطن الأصلية للشعوب الجرمانية ، لكن فيما عدا ذلك فاننا نجد التأثير اللغوي الجرماني على الفرنسية لايتجاوز ثلاثمائة كلمة وكذا الحال بالنسبة لجميع اللغات الأوربية الأخرى ، وكما حدث في ايطاليا ومقاطعات الغرب الروماني إن الفاتحين الجرمان تم امتصاصهم من قبل السكان المحليين حيث مانزال نجد بقايا عناصر شقراء في كل من ايطاليا وشمال افريقية يفترض بعضهم انها من بقايا المهاجرين الجرمان .

وعلى هذا فان الاحتلال الجرماني وان قضى سياسيا على الامبراطورية الرومانية الغربية لكنه لم يقض على الحضارة والنظم وتقاليد المعيشة والادارة الرومانية ، لقد استمر وجود روما الغربية ، بدون استقلال سياسي ، لكن هذا البقاء استمر ايضا يسير في طريق التقهقر والانحدار وعندما زال الحكام الرومان من الوجود وحل محلهم حكام من اصل جرماني ، فإننانجد أن هؤلاء الجرمان تابعوا السير على النهج الروماني نفسه ، ولم يقوموا بتدمير المؤسسات الكلاسيكية الثقافية بل حافظوا عليها ، ولم لا فالجرمان كانوا متأثرين الى أبعد الحدود بالحضارة الرومانية وكانوا يعرفون ثقافة روما قبل قهرها سياسيا ، وظلوا هكذا بعد نصرهم عليها ، وفي حالات كثيرة تنازلوا عن عاداتهم وتبنوا الطريقة الرومانية لسموها وتقدمها ، ولذلك ما أن زالت قوى الجرمان العسكرية حتى ذابوا حضاريا وتم امتصاصهم من قبل الشعوب المقهورة ، وخلال هذا كله تابعت المؤسسات الثقافية الكلاسيكية سيرها نحو النهاية ، ولم يكتب البقاء الا لمؤسسة رومانية ثقافية واحدة كانت هي الكنيسة وصحيح أن الكنيسة احتفظت بوجودها لكن كأداة تخضع لادارة رجال الدنيوية ، وهذه

الادارة تابعت اختيار موظفيها من خارج النظام الكنسي ورجال الكهنوت ، وحكمت المقاطعات المقهورة حكما استبداديا كما كان الحال أيام الامبراطورية ، وظلت الادارة في أيدي طائفة الموظفين من السكان المحليين المثقفين ، واستمرت قواعد الجباية تعتمد في جمع الضرائب من النقد العين المضروب من الذهب ، وإسس الجرمان ـ كما سبق الذكر ـ ملكيات في الأراضي التي استولوا عليها ، لكن مامن ملكية ضمت شعبا بأسره ، فكانت دولة وطنية لأمة من الأمم ، بل استمر نظام التوزيع الاداري الروماني قائما دونما تعديل أو تغيير ، والتعديل الذي تم بواسطته إعادة توزيع هذه المقاطعات حدث في القرن السادس من بعد ماتمكنت جيوش الامبراطور جستنيان امبراطور روما الشرقية من اعادة السيطرة على معظم مقاطعات روما الغربية حيث عاد البحر المتوسط زمن جستنيان مرة ثانية بحيرة رومانية وهنا حدثت ردات فعل جرمانية ، فقام اللومبارديون بعبور جبال الألب واستقروا في شمال ايطاليا ، لكن هذه الحادثة لم تعطل شيئا من الواقع المذكور انفا وهم بدورهم تم امتصاصهم فيما بعد ، وهكذا ظلت الحياة والأمور هي ذاتها ، وكما كان فيما مضى استمر السوريون واليهود في ممارسة النشاط التجاري فجلبوا البضائع الشرقية الممتازة وظلت مقاطعات البحر المتوسط مترابطة حيث تابعت بلاد ايطاليا واسبانيا وفرنسا على سبيل المثال استيراد الجمال من شمال افريقية لتستخدم في عمليات النقل ، ويمكن أن نجد في مدينة نربونة وهي مدينة فرنسية الآن ـ نموذجا لما كان عليه الحال في القرن السادس ، ففيها وجد القوط والرومان واليهود والسوريون والاغريق ، وعاشوا جنبا الى جنب وكل نشط في ميدانه ، وسلفت الاشارة الى أن الحكام الجرمان لغربي أوربة اعتمدوا في اداراتهم على رجال ذوي ثقافة رومانية ، وليس فقط ذوي ثقافة بل عادات وتقاليد رومانية ، واستمر استعمال اللاتينية والاعتماد على ادابها برغم ما الم بها من انحطاط ، وبكلمة موجزة لقد تغير وجه أوربة

الغربية إثر احتلالها من قبل الشعوب الجرمانية لكن ليس بعمق انما بشكل بسيط فقط .

ثم جاءت الطامة الكبرى الحقيقية ووقعت الواقعة في القرن السابع فقادت الى ابلغ النتائج في التاريخ الأوربي ، وكانت هذه الطامة هي ظهور العرب كقوة عظمى بسبب قيام الاسلام ، وحدوث الفتوحات العربية الكبرى ، فقد توفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في عام ٦٣٢ م وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم بفترة وجيزة جدا حدثت الفتوحات العربية الكبرى بعنف وسرعة كبرى مذهلة ، وعندما قام الاسلام كانت الامبراطورية البيزنطية تمتلك البلدان المحيطة بشرقي البحر المتوسط ، وكان يتربع على عرشها الامبراطور هرقل الذي هزم الامبراطورية الساسانية ، واوصل دولته الى ذروة القوة والمجد ، وخيل اليه ان مامن قوة في الدنيا باتت تهدد دولته ، ولم يخطر ببال هرقل ان يأتيه الخطر من بداة شبه جزيرة العرب ، ولكن خابت حساباته وغدت أماله سراب .

ففي سنة ٦٣٤ عبرت جيوش العرب المسلمين نهر الاردن ، وهزمت هذه الجيوش قوات بيزنطية في أكثر من معركة وفتحت دمشق وتابعت سيرها شمالا فطردت هرقل نفسه الى داخل أسية الصغرى ، وغدت سورية كلها للعرب الذين زحفت جيوشهم نحو مصر فافتتحوها ومن مصر ستتوجه نحو شمال أفريقية ، ومن المغرب ستعبر مضيق جبل طارق ـ كما يعرف الآن ـ الى اسبانيا ، وهكذا وبسرعة غير متوقعة فقدت بيزنطة البحر المتوسط مع مقاطعاتها الكائنة على هذا البحر ، وفجأة تحول البحر المتوسط من بحيرة رومانية الى بحيرة عربية ، وتوغل العرب داخل أوربة ، ولم يوقف توغلهم إلا النيران اليونانية عند أسوار القسطنطينية وشارل مارتل في بواتيه(ودولة الخزر في جبهة البحر الاسود).

وهناك فوارق لا يمكن عدها بين العرب الفاتحين والجرمان الذين سبقوهم بالصراع مع روما ، فالفتوحات العربية لم تكن مجرد

هجرة بداة بل كانت عملا عقائديا حضاريا ، لذلك لم تمتصهم شعوب البلدان المفتوحة بل هم قاموا بتعريب هذه الشعوب وتحويلها إلى الاسلام ، والاسلام بعقيدته في التوحيد خالف غيره من الديانات وخاصة النصرانية ، وصحيح أن الشعوب الجرمانية حين قهرت بعض مقاطعات روما كانت أريوسية وكان سكان البلدان المفتوحة كاثوليك لكن كل من الأريوسية والكاثوليكية يجمعهما المسيح ، وكانت شعوب الجرمان أدنى ثقافة وحضارة من شعوب روما ، ولم يكن العرب كذلك، هذا ولايمكن مقارنة الفتح العربي بأعمال التوسع الجرمانية فالعرب باسلامهم كانوا ارحم شعب عرفه التاريخ .

لقد كانت نتائج الفتوحات العربية على أوربة الغربية عظيمة جدا ، ومن المعلوم أن الامبراطورية الفرنجية هي التي أوقفت الزحف العربي ضد أوربة الغربية ، ذلك أن هذه الامبراطورية كانت تعيش عصر قوتها الذهبي ، لكن لماذا تحول مركز القوة الفعالة في اوربة الغربية من المقاطعات المتوسطية التي سلف وكانت غنية مزدهرة فيها تجارة رائجة الى الاراضي الفرنجية في الشمال التي كانت أفقر من الأراضي المتوسطية، إنما هي زراعية تنتج الحبوب ؟ يبدو أن السبب الرئيسي في ذلك هو انهيار التجارة الجنوبية ، فقد شطرت الفتوحات العربية البحر المتوسط إلى قسمين ، النصف الشرقي حيث الامبراطورية البيزنطية ظلت حية بفضل متانة أسوار القسطنطينية وكثرة مواردها واستراتيجية موقعها ، ثم بفضل وجود النار اليونانية واحتفاظ هذه الامبراطورية بقوة بحرية معتبرة ، أما القسم الغربي فقد أستولى عليه العرب ، وحدث في مقاطعات أوربة الغربية انقلاب هائل ، ففي فرنسا أهم هذه المقاطعات أختفت جميع البضائع الشرقية التي كان التجار السوريين يجلبونها ، لقد انعدم وجود ورق البردى والتوابل والزيوت والحرير والذهب أيضا ، ودمرت المؤسسات التجارية المحلية بعد أن انتابها الضعف والافلاس ، وفي جنوب فرنسا ظهر مكان التجار المحليين تجار مشارقة جدد عملوا كوسطاء بين العالم

العربي والغربي ، ولقد كانت أهم النتائج المباشرة لتوقف التجارة عجز سريع وكبير في دخل السلطة الملكية ، مما جعل الملك يعتمد أكثر فأكثر على النبلاء من ملاك الأراضي ، ولقد كان هذا السبب الرئيسي في اضمحلال الحياة السياسية والاجتماعية في زمن الميروفنجين في القرن السابع ــ وهذا أمر سنذكره بالتفصيل في المستقبل ــ وقد تأثر جنوب فرنسا أكثر من الشمال فانحطت مدن الجنوب في حين استمرت مدن الشمال في اعتمادها على الحياة الزراعية وفي الشمال وجد الفرنجة ، ومن مقاطعات الشمال الفرنجية جاء أجداد الأسرة الكارلونجية ــ أسرة بيبن وشرلمان ، لقد كانوا من نتاج الأرض البلجيكية من قرب لييج حيث حتى اليوم ماتزال تعيش أسرة تحمل اسم بيبن وتنسب اليه .

ويمكن أن نلاحظ أن الفوارق كبيرة للغاية بين الأحوال في فرنسا أيام الدولة الكارلونجية في القرن الثامن أو التاسع وبين الأحوال أيام الدولة الميروفنجية في القرنين السادس والسابع ، فالاقتصاد الآن أصبح قائما على الزراعة بدلا من التجارة ، وقد حلت الفضة محل الذهب في النقد ومعيار التعامل ، وقامت الكنيسة بطرد الموظفين المدنيين من الادارات ، وغدت اللغة اللاتينية لغة حديث وكتابة فقط داخل الكنيسة ، وحلت بين الناس عاميات لاتينية أخذت مكان اللهجات الاقليمية ، وتطورت أدوات الكتابة وانتظمت لكن ما يدعى عادة باسم النهضة الكارلونجية التي قامت على اللغتين الاغريقية واللاتينية مع آدابهما كانت محدودة وعابرة ومرتبطة بعدد من العلماء في الطبقات العلية ولم تتوغل بين صفوف الناس العاديين .

إن هذه الآراء التى قدمها هذا المؤرخ البلجيكي الأصل في كتابه محمد وشارلمان قد أثارت كما ذكرنا عاصفة من الجدل ، حيث حاول بعضهم أن يرد عليه فيدحض بعض الآراء التي قدمها ويبطل الكثير من الشواهد التي اعتمد عليها ، من أن التجارة لم تنقطع ولم تتوقف بل ضعفت ، وان استمرار الاستيراد سبب انعدام الذهب في

الغرب بشكل تدريجي ، لكن مهما تكن حرارة الدفوع التـي رفعـت ضد آراء بيرين تبقى نظرياته أقوى وأمتن فبالنسبة له لولا محمد لما ظهر شارلمان ، يعني أننا نستطيع فهم تاريخ تـطور الامبـراطورية الكارلونجية فقط عندما نتحـدث عن التـوسع العـربي في غربـي أوربة ، فالضغط العربي هو الذى ولد حياة زراعية وقوة عسكرية في فرنسا وهوالذى سبب وجودها في الشمال وأخذها هذا الاتجاه .

إن هذا الذى طرح حتى الآن يدعونا أولا وقبل كل شيء أن نتوقف ريثما نتعرف الى تاريخ كل من الدولة الميروفنجية ثم الامبـراطورية الكارلونيجية في غربي أوربة ، وإلى تاريخ الامبراطورية البيزنطية في شرقي أوربة وآسية الصغرى .

الامبـراطورية البيزنطية والحضـارة الارثـوذوكسية الشرقية

لقد وضعت هجرة الشعوب الجرمانية وأعمال توسعها في القـرن الخامس مقاطعات الامبراطورية الغربية تحت سيادتها ، لكن غالبية الأجزاء الشرقية من الامبراطورية الرومانية نجـت مـن الاحتـلال الجرماني برغم انها عانت من غارات هذه الشـعوب المدمـرة ، ولم يتح لهذه الشعوب الاستقرار في مقاطعات أوربـة الشرقية ، ثـم إن بقية مقاطعات الامبراطورية في أسية لم تصبها أية مضار مـن قبـل الشعوب الجرمانية.

ولقد سبق لنا اثناء عرضنا لتاريخ الامبراطورية الرومانية المتأخر وعلاقة هذا التاريخ بظهور المسيحية وانتصارها مع هجرة الشعوب الجرمانية ان تحـدثنا عن انشـطار الامبـراطورية الرومـانية إلى شطرين واحد في الغرب واخر في الشرق ، كمـا تحـدثنا عن إقـامة الامبراطور قسطنطين الكبير لمدينة القسطنطينية في موقع مسـتعمرة اغريقية قديمة عرفت بـاسم بيزنطـة ، وكان هـذا الموقـع في غاية الأهمية ، فهو وإن وقع في البـر الأوربـي إلا انه كان وثيق الصـلة باسية ، فالقسطنطينية مدينة أوربية أسيوية برية بحـرية ، يسـهل الوصول منها واليها برا وبحرا إلى اوربة وأسية وروسيا ، ويمـكن الدفاع عنها ضد الغزاة من أسية من الجهـة الأوربية ومـن الجهـة الآسيوية ضد الغزاة من أوربة ويمكن أن تقوم بـدور صـلة وصـل تجاري وحضـاري وعسـكري بين القـارتين الاسـيوية والاوربية ، وكانت محـاطة بشـعوب متبـاينة ، يصـعب اتحادها ، ويسهل تكوين جيوش منها لخدمة أغراض الدولة والدفاع عنها.

ولقد اتخذ قسطنطين من مدينته الجديدة مركزا للجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، واخذت روما الشرقية في النمو والازدهار

وذلك في الوقت الذي كانت فيه روما الغربية القديمة تسير في مناحي الضعف والاضمحلال السياسي والحضاري .

ومنذ أيام قسطنطين وربما قبل ذلك ظهرت بوادر شطر الامبراطورية الرومانية الى شطرين ، لكن قيام ذلك رسميا تأخر بعض الوقت الى سنة ٣٩٥ م أيام الامبراطور ثيودسيوس العظيم الذي قسم الامبراطورية بين ولديه ، وجعل هناك امبراطورية غربية لاتينية اللغة كاثوليكية المذهب ، واخرى شرقية اغريقية الحضارة ارثوذكسية المذهب .

ولقد خلف الامبراطور ثيودسيوس في حكم روما الشرقية ابنه اردكايوس (٣٩٥ ـ ٤٠٨ م) ثم ثيودسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠) ، واهم ما حدث في هذه الفترة أن الامبراطور الأخير جمع القانون الروماني وقام بتبويبه ، وكان لصدور هذه المجموعة القانونية التي حملت اسمه تاثيرا كبيرا خاصة على التطور القانوني الاداري لدى دول الشعوب الجرمانية في أوربة الغربية خاصة في ايطاليا واسبانيا .

وبعد وفاة ثيودسيوس الثاني شهدت الامبراطورية الشرقية بعض التقدم ذلك ان الأباطرة الذين تربعوا على العرش كانوا على درجة لا بأس بها من الكفاءة والمقدرة ، واشهر الذين جاءوا بعده الامبراطور زينون (٤٧٤ ـ ٤٩١) فقد خلص هذا الامبراطور دولته من خطر القوط الشرقيين ، وعندما كان زينون يحكم في القسطنطينية تم خلع أخر اباطرة روما الغربية وكان اسمه روملوس اغسطس (٥٧٥ ـ ٥٧٦) ولئن تمكن الامبراطور زينون ومن جاء بعده مباشرة من حماية أوربة الشرقية من مخاطر الهون والشعوب الجرمانية ، فإنهم لم يستطيعوا القيام بأي عمل لاستعادة الغرب أو انقاذه وذلك حتى جاء جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥).

لقد انتقلت السلطة الى جستنيان عام ٥١٨ م بعد ما تم تبنيه من قبل خاله الامبراطور جستين الأول وتعيينه نائبا للامبراطور وشريكا ، وحكم هذا الامبراطور صاحب الطاقات غير الاعتيادية

الامبراطورية لمدة سبع واربعين سنة فتحقق له ما لم يتحقق لسواه فكان اخر اباطرة روما وأول اباطرة بيزنطة .

وكان جستنيان صاحب طاقات كبيرة مع حظ كبير ، فلحسن حظه وجد في خدمته عدد من الجنرالات الكبار كان على رأسهم بلزاريوس وناريس ، وكان جيش الأمبراطورية قوامه من المرتزقة البرابرة ، إنما كان جيد التسليح ثقيلة وحسن التدريب ، وقد استطاع جستنيان بجيشه على رأسه جنراليه أن يقهر أعداء الأمبراطورية ويحقق لها مكاسب كبيرة .

وكان أعداء الامبراطورية كثر ، على رأسهم في الشرق الامبراطورية الساسانية ومع بداية حكم جستنيان كان على رأس هذه الامبراطورية قباذ ، وفي ايامه كانت الامبراطورية الساسانية تعاني من عديد من المشاكل الداخلية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، ففي عهده قامت حركة مزدك وردات الفعل المعادية لها التي تمخضت عن عزل قباذ واستلام ابنه كسرى انوشروان للعرش (٥٣١ ـ ٥٧٩) حيث أخذ في اعادة تنظيم الامبراطورية داخليا ، لذلك قبل مسالمة الامبراطورية الرومانية.

وكان جستنيان قد استغل اضطراب أحوال فارس الداخلية فشن حربا قصيرة ضد بني ساسان من سنة (٥٢٧ حتى ٥٣٢ م) ، وانتهت هذه الحرب بهدنة اغتنمها جستنيان فحول جيوشه نحو الغرب ، وخلال حملات استغرقت عشر سنوات تمكنت قوات بيزنطة من تحطيم دولة الوندال في شمال افريقية ، فأعادت هذه المقاطعة الغنية إلى حظيرة الامبراطورية ، وقد احتاج جستنيان إلى ضعفي هذه المدة لاسترجاع إيطاليا من القوط الشرقيين ، ومع إيطاليا كسبت جيوش الأمبراطورية جنوب إسبانيا من القوط الغربيين وعلى الرغم من أن كل من بريطانيا وغاليا ومعظم إسبانا ظلت في أيدي البرابرة الجرمان إلا أن جستنيان استرجع من هذه الشعوب قلب الامبراطورية الرومانية في كل من الشرق والغرب ، ولكن هذه الحملات جعلت الخزانة البيزنطية تتحمل أكثر من طاقتها ، ويجادل

بعضهم مسائل تثار حول أعمال جستنيان الحربية ومغامراته في الغرب من انها كانت غير مجدية ، ذلك انه كان عليه أن يركز نشاطه الحربي ضد الامبراطورية الفارسية ، فالذي خلفه على عرش الامبراطورية عجزوا عن الاحتفاظ بالأجزاء الغربية التي استعادها جستنيان ، ولاقوا مصاعب كبيرة جدا في مواجهة الفرس ، فبعد وفاة جستنيان بأعوام ثلاثة دخلت قبائل اللومبارد إلى إيطاليا ثم تمكن القوط الغربيون من استرداد جنوب إسبانيا ، ومع ذلك بقيت صقلية مع جنوب إيطاليا وشمال افريقية في جملة ممتلكات الامبراطورية في الغرب .

الامبراطورية البيزنطية وخصومها.

لقد دعي جستنيان آخر اباطرة روما ، وهو بالحق جدير بهذا اللقب ، ذلك أنه على الرغم من احتفاظ من خلفه على عرش الامبراطورية الشرقية بهذا اللقب إلا انهم لم يكن لهم سيادة على القسم اللاتيني الغربي من الامبراطورية ، كما أن هتمامهم السياسي بهذا القسم كان ضعيفا ، فهم على هذا كانوا حكاما للقسم الهلنستي الشرقي من الامبراطورية ، ولهذا يعرفون عادة باسم الأباطرة البيزنطيين وتعرف دولتهم باسم الامبراطورية البيزنطية ، وفي الحقيقة إننا عندما دعونا جستنيان آخر اباطرة روما ، جاء ذلك بسبب أن البلاط في عصره كان يستخدم اللغة اللاتينية ، إنما أخذ في هذا العصر بالاقلال من استخدام هذه اللغة وزيادة الاعتماد على الاغريقية ، ومن هنا كان جستنيان أول اباطرة بيزنطة ، وليس هذا فقط إنما نجد ذلك يظهر بالمباني التي شيدت في هذا العصر وعلى رأسها كنيسة اياصوفيا التي ما تزال قائمة حتى يومنا هذا ، فبناء هذه الكنيسة يختلف في نمط هندسته عن النمط الروماني ، فهو شرقي سقفه جاء على شكل قباب وليس مسطحا مثل المعابد الرومانية ، ونمط السقوف المقببة هو نمط سوري الأصل ، وبسبب تخلي جستنيان عن النمط الروماني في البناء فهو وإن كان آخر اباطرة روما فإنه موجد فن العمارة البيزنطي .

ولقد عاشت الامبراطورية البيزنطية ٨٨٨ سنة بعد وفاة جستنيان ومن الممكن تقسيم هذه الفترة المديدة إلى اقسام ثلاثة: الأول من سنة ٥٦٥ وحتى ٧١٦ ففي هذا القسم كافحت الامبراطورية من أجل البقاء ضد العديد من القوى المعادية ، وأثناء ذلك استطاعت إقامة نظام اقتصادي متين وتطويره مع نظام سياسي للحكم ونظام عسكري ، وخطت خطوات حضارية متميزة عن بقية أجزاء أوربة ، ثم جاء القسم الثاني من ٧١٦ إلى ١٠٥٧ م حيث عاشت لمدة قرون ثلاثة زاهية حيث كانت اغنى واقوى دولة في أوربة واكثرها حضارة وثقافة ، ففي هذا القرن عاشت أوربة الغربية في عصورها المظلمة ، حيث سكنت من قبل شعوب مختلفة في كل الميادين الحضارية في حين عاشت وتطورت في بيزنطة حضارة جديدة مزجت بين المسيحية والتراث الهلنستي ، وكان القسم الثالث الذي غطى اربعة قرون وامتد من ١٠٥٧ وحتى ١٤٥٣ م فترة انحدار مستمر في مسالك الضعف والانهيار الحضاري والعسكري والسياسي حتى أخيرا سقطت القسطنطينية للعثمانيين فزالت الامبراطورية من الوجود .

وقليلة هي الدول التي شغلت دورا تاريخيا يماثل في الأهمية دور بيزنطة ، ففي هذه الدولة جاء إلى الوجود مايدعى باسم حضارة أوربة الشرقية، وفيها حفظت عناصر الثقافة الكلاسيكية حتى تمكنت أوربة الغربية من استعادة نشاطها فتسلمت هذه العناصر حيث قامت بتطويرها ، وعلى اساسها اقامت الحضارة الأوربية الحديثة .

وكافحت الامبراطورية البيزنطية في الفترة الأولى (٥٦٥ ـ ٧١٧) من أجل وجودها في وجه أعداء انقضوا عليها من كل جانب ، وكان الأفار أشد الأعداء في جهة الشمال ، والأفار كانوا واحدا من الشعوب الآسيوية من أصل تركي ، وكان مركز سيطرة هذا الشعب في السهل الهنغاري ومناطق غربي الداذوب وشرقي جبال الألب ، وبأحواز مناطق هذا الشعب عاشت شعوب

بربرية مماثلة مثل قبائل الصقالبة (السلاف) واحيانا تعاون الأفار والسلاف في نشاطهم ضد الامبراطورية ، على انه كانت عناصر الأفار عناصر إغارة وسلب ونهب ، ولم يكن لها خطط للاستيلاء على بعض مقاطعات الامبراطورية والاستقرار بها ، وقد دمرت هذه العناصر الأراضي الواقعة في جنوبي الدانوب وظهرت مرات عديدة على مقربة من أسوار القسطنطينية ، لكنها لم تكن من القوة بمكانة تمكنها من اقتحام أسوار المدينة الحصينة ، وعندما كان أباطرة هذه الفترة يشغلون أنفسهم في تحصين حدود دولتهم الآسيوية فقد كان بمكنة الأفار النشاط كيفما شاءت ارادة عصاباتهم ، واختلف حال الصقالبة قليلا فعلى الرغم من تحالف الصقالبة مع الأفار الا أن قبائل هذه الشعوب كانت ترغب في احتلال موطن تستقر فيه ، وقد نجحت في ذلك ضمن المقاطعات الاوربية الشرقية ، ويرى بعضهم أنه في القرن السابع انتشر الصقالبة في جميع أجزاء الامبراطورية الاوربية مما غير من طبيعة أجناس وشعوب هذه الأجزاء بما فيها اليونان ذاتها.

ولم يصرف الأباطرة كبير جهد وعناية بالمقاطعات الأوربية لدولتهم ، وكانوا يثقون بمناعة أسوار عاصمة ملكهم ، ولذلك أوقفوا جهودهم في سبيل حماية المقاطعات الآسيوية الغنية ، وعلى حدود هذه المقاطعات وجد أقوى أعداء بيزنطة وأشدهم شكيمة ، الا وهو الامبراطورية الساسانية الفارسية ، التي كانت ذات عداء تقليدي مع روما ، وكانت سياستها تعتمد دائما على العمل في سبيل الوصول الى شواطىء البحر المتوسط ، ولقد استطاع الفرس أيام الامبراطور البيزنطي فوقاس تحقيق أحلامهم فتمكنت قواتهم من احتلال سورية ومصر وزحفت القوات نحو آسية الصغرى ، وفي هذه الظروف الحرجة قام الافار بحصار القسطنطينية ، وهكذا خيل للناس أن الامبراطورية جاء أوان دمارها ، لكن أسوار العاصمة صمدت في وجه الأفار ، ولم يكن لدى الفرس اسطولهم الخاص لينشط في البحر المتوسط ، وهنا أرسل حاكم إفريقية هرقل ابنه وسميه على رأس قوة تمكنت من الاستيلاء على القسطنطينية حيث

عزلت الامبراطور فوقاس وسببت قتله ، وتم تنصيب هرقل امبراطورا جديدا .

وسعى هذا الجندي الممتاز والاداري الشجاع نحو تجنيد جيش يحارب الفرس ، واعلنها حربا صليبية ضد فارس التي سلبت صليب الصلبوت من القدس (الخشبة المعتقد أنه تم صلب المسيح عليها) وبواسطة حرية العمل في البحر تمكن هرقل من انزال قواته على الساحل السوري فضرب القوات الفارسية في جنبها واطرافها فهزمها واخذ يطاردها حتى اشتبك معها في معركة فاصلة سنة ٦٢٧ م قرب خرائب مدينة نينوي التاريخية فهزم الفرس وسحق جيشهم وطرد فلول هذا الجيش حتى اسوار المدائن العاصمة الساسانية حيث فرض صلحا مذلا على الفرس .

وبينما كان هرقل يقاتل الفرس كانت بقعة نائية لكنها قريبة من حدود سورية والعراق تشهد حوادث ستبدل وجه الأرض ، فقبل خمس سنوات من معركة نينوى كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد هاجر من مدينة مكة الى يثرب بعد عمل دعوي استمر ثلاث عشرة سنة ، وفي المدينة أسس هذا النبي العظيم دولة مركزية عقائدية ، وتمكن من توحيد قبائل شبه جزيرة العرب تحت راية عقيدته السماوية الجديدة ، وتوفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في عام ٦٣٢ م وكان هذا مصادفا لاقامة هرقل في سورية حيث كان يحتفل بنصره ويعيد تنظيم دولته ، وبعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأقل من عامين ، وبفضل عقيدة الجهاد التي جاء بها هذا النبي من عند الله ، اندفع العرب من شبه الجزيرة كالسيل الجارف ، فتمكنت قواتهم المنظمة الفتية من ايقاع الهزيمة بالجيوش البيزنطية والساسانية ، فلقد حطمت الجيوش المسلمة الامبراطورية الساسانية وازالتها من الوجود ، وطردت الجيوش البيزنطية من سورية ومصر ، ثم من شمال افريقية ، وهددت القسطنطينية ذاتها .

وكان للفتوحات الاسلامية أبعد الآثار على بيزنطة ، فقد بات

على هذه الامبراطورية أن تعيد تنظيم ادارتها ومواردها بعدما حرمت من اراضي أسية وافريقية الغنية ، كما بات عليها أن تعيد النظر في سياستها الدينية وتزيد من الاعتماد على مقاطعاتها الأوربية ، وصار الآن تاريخ بيزنطة في الدرجة الأولى تاريخ العلاقات مع الاسلام ودولته في المدينة ثم في الشام ثم في العراق ، وبعد ذلك في الشام ومصر ، كما هو تاريخ صراع الامبراطورية من أجل الحفاظ على أوربة الشرقية ومواردها في وجه الطامعين .

لقد درست العلاقات العربية البيزنطية من قبل أكثر من باحث وتعرضنا في الجزاين الماضيين الى ما يعنينا الآن من الموضوع ، ولذلك سنركز الحديث حول ما يمكن دعوته بالتاريخ البيزنطي الداخلي المحض .

لقد الم بالدولة البيزنطية في ظل أسرة جستنيان ثم أسرة هرقل تطور بعيد للغاية وسريع ، حيث يبدو أن اباطرة هذه الفترة أدركوا مليا أن بقاء الامبراطورية واستمرار وجودها يعتمد إلى أبعد الحدود على مواردها الاقتصادية ، وكانت الزراعة على رأس هذه الموارد ، ذلك انها لم تؤمن للدولة الحبوب لعيش سكانها فحسب بل أمنت الطاقة البشرية لأعمال التجنيد والحرب ، وقد جهد الأباطرة في العناية بالزراعة وأعمار الأرض ، ونلاحظ أن الصقالبة الذين دخلوا اراضي الامبراطورية في أوربة الشرقية لم يكونوا جميعا قد دخلوا على شكل غزاة ، بل جلبت أعداد كبيرة منهم لأعمار الأرض ، وفعلا استطاع هؤلاء المعمرين زيادة الانتاج الزراعي ، ومع نهاية هذه الفترة الأولى كانت أسيةالصغرى مع المقاطعات الأوربية مكتظة بالسكان ، والحياة فيها مزدهرة ، وكانت أهم المزروعات هي الحبوب والخضار وحدائق الفواكه والعنب والزيتون ، وتذكر الأخبار انه في زمن جستنيان أخذت بيزنطة في انتاج الحرير بكميات كبيرة .

ووجد في الامبراطورية العديد من المدن ، وكانت المدن مراكز

للصناعة والتجارة ، وقدر بعضهم عدد سكان القسطنطينية في هـذه الفترة بمليون كما كان هناك من المدن ماكان تعداد سـكانه نصـف مليون ، وقد تم الانتاج الصناعي من قبل مجموعات منظمة حسـب نظام الأصناف ، أو من قبل جماعات تعـاونية متضـامنة ، وكانت التعاونيات مع الأصناف كلها تسـير مـن قبـل الدولة وبـاشرافها المباشر ، وكان لكل صنف حق احتكار نوع مـن البضـائع ، وكانت الدولة تشرف على شراء المواد الخام وتأمينها ثم تقوم ببيع المنتجات بعدما يكون تم صنعها حسب مـواصفات محـددة وتبـع طـرائق معينة ، وكانت الدولة تتـدخل في تحـديد الاجـور والأربـاح ، وفي الحقيقة كان كل شيء في الامبراطورية يقع تحـت المراقبـة المبـاشرة للدولة والتي كانت تتدخل في كل شعبة من شعب الحياة ، وكان مـن نتائج ذلك قيام عمل صناعي واقتصـادي منتـظم مخـطط له وكانت غالبية المنتجات بضائع كمالية غالية الثمن تصلح للتصـدير ، مثـل المنسوجات الحـريرية والصـوفية الممتـازة وأنواع الزرابـي والمجوهرات والأدوات العاجية وغيرها المحـلاة والمزينة ، وروعيت المنتجات المرتبطة بـالأمور الدينية وأعطيت مـن العناية الشيء الكبير مثل الايقونات المختلفة الأشكال وسوى ذلك مما تـم تقليده في بلدان كثيرة ، والى جانب هذه المنتجات اهتمت الصناعة بأنواع الاسلحة والعتاد الحربي ، وقد احتـكرت الدولة لنفسـها المنتجـات هـذه وتصرفت بها حسب سياسة خاصة .

وكما وقعت الصناعة تحت اشراف الدولة كذلك كان حال التجارة حتى يمكن القول بان تجارة الحبوب والحرير لم يكن يحـق للأفـراد العمل بها بل كان ذلك محصورا بالدولة فقط ، ولاشك أن هذا الحال كان له مؤثراته على المغامرات التجارية والتلاعب بـالأسعار ، وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة تشرف على التجارة والصناعة يلاحـظ ان ذلك كان داخليا فقط اي أن اعمال التصدير والاسـتيراد كانت في يد تجار اجـانب ، فـالدولة كانت تتعـامل اثناء عمليات التجـارة الخارجية مع تجـار اجـانب وليس مـع حـكومات ، وكانت القسطنطينية اوسع سوق تجاري في العالم ، إليهـا حملت بضـائع

الشرق والغرب ومنها حملت المستوردات والمنتجات ، وكان هناك احياء خاصة بالتجار الأجانب الذين تمتعوا بالحماية وبحقوق خاصة وامتيازات ، وقد تولت سفن دويلات ايطاليا مثل أمالفي والبندقية ورافينا نقل معظم البضائع ، وقد حمل التجار الذين جاءوا الى القسطنطينية من اقصى الأرض معهم في طريق عودتهم منتجات هذه المدينة وذلك بعدما باعوا بضائعهم ، وتمت عمليات البيع والشراء لاعن طريق المقايضة بل بالعملة البيزنطية التي كانت وحدتها الاساسية من الذهب ، وكانت النقود البيزنطية مقبولة في كافة انحاء العالم نظرا لعناية الدولة بعيار الذهب وعدم التلاعب به ثم لاحتكارها عمليات ضرب النقود الأمر الذي لم يكن سائدا في اوربة وغيرها من البلدان والدول ، وبسبب طبيعة الوضع التجاري للامبراطورية لم يوجد في المجتمع البيزنطي بيوتا تجارية ثرية كما كان هو الحال في الدولة العباسية ، ولذلك لايمكن الحديث عن اثر الطبقات الارستقراطية التجارية في صنع التاريخ البيزنطي لعدم وجود هذا النوع ، هذا وقد شكلت أصناف الحرفيين طبقة وسطى في المجتمع البيزنطي وكانت الطبقات العليا مكونة من رجال السلطة وملاك الأرض ، وقد ارتبطت السلطة بالجيش ، ومن الملاحظ ان بيزنطة أولت الجيش عناية فائقة من كافة الجوانب من تسليح وتدريب وامتيازات ورواتب ، وقد تطورت العلوم العسكرية في بيزنطة بشكل سريع ، وظهر في التاريخ البيزنطي عدد من العباقرة العسكريين الذين برعوا في الميادين النظرية والعملية ، وكان قوام الجيش البيزنطي يتكون من سلاح الفرسان الثقال الذين كانوا وخيولهم مدرعين وكانوا يعتمدون على قوة الخرق لرماحهم القوية والناتجة عن اندفاع خيولهم ، وبالاضافة للفرسان وجد الرجالة الذين تسلحوا بالنبال والرماح والحراب والسيوف ، وعملت الأسلحة كلها متعاونة في المعركة حسب نظام تعبئة له نظرياته ، وكان سلاح الفرسان يعتمد في عناصره البشرية على المواطنين الأحرار من بيزنطة وكان لكل فارس خدمه الذين كانوا يعتنون بالخيول ويطبخون الطعام ويغسلون الثياب ، وفي المعركة

كان الخدم يتولون حراسة أسيادهم ، وقد منح كل فارس اقطاعية من الأرض خاصة تقوم بأوده وتؤمن له ماكان يحتاج اليه من نفقات ، وكان سلاح المشاة يتكون من نوعين وذلك حسب التسليح ، فقد كان هناك المشاة الثقال والمشاة الخفاف ، وكان سلاح القسم الأخير القوس والنشاب في حين كانت أسلحة القسم الأول السيف والفأس والحراب ، وكان على راس كل واحد منهم خوذة ويرتدي درعا أو سابغة ويحمل في يده درقة أو ترسا معدنيا .

وقد قسمت الامبراطورية الى عدة مقاطعات عرفت باسم البنود حكم كل منها ضابط كبير حصر في يديه السلطات المدنية والعسكرية وكان تحت تصرف حاكم كل بند من البنود مابين ثمانية الاف الى عشرة الاف وكما سلفت الاشارة نبغ عدد من الأباطرة في العلوم العسكرية ، ومن هؤلاء الامبراطور موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢) فقد الف رسالة في العلوم الستراتيجية ، وأهم منه الامبراطور ليو(٨٨٦ ـ ٩٨٢ م) فقد كتب رسالة في العلوم العسكرية شرح فيها كيف ينبغي أن يكون نظام الجيش البيزنطي وتسليحه كما شرح خطط القتال التي ينبغي لهذا الجيش تنفيذها والأخذ بها اثناء قتال كل شعب من الشعوب ، وعلى سبيل المثال نجده يتحدث عن القتال مع العرب ويبين كيفية التعامل مع الجيوش المسلمة التي كانت تقوم بأعمال الشواتي والصوائف داخل الأراضي البيزنطية في اسية الصغرى ، فبعد ماكان قائد البند يصله الانذار بعبور جيش عربي للحدود ، وذلك بواسطة نقاط المراقبة التي كانت ترسل اخبارها بواسطة المرايا أو النار والدخان او الطيور وغير ذلك من السبل ، كان عليه ان يرسل في الحال قوة صغيرة تمنع الغزاة من السلب وفي الوقت نفسه يستنفر فرسانه ويقودهم ، ويرسل مشاته لتنتشر في الممرات الجبلية الصعبة كيما تحول بين المسلمين وبين التراجع ، ويقوم هو بفرسانه باجبار الغزاة على التراجع بشكل غير منتظم دون خوض معركة مواجهة ، وكان يقوم بالاشتباك ويلتحم بالجيش الغازي ساعة تتمكن مشاته من التطويق ، وبواسطة هذه القواعد القتالية تمكنت قوات بيزنطة من

تحطيم العديد من الجيوش العربية الكبيرة ، وكان ضباط الجيش البيزنطي جنودا محترفين بكل ماتعنيه الكلمة ، وعلى عكسهم كان بارونات الغرب الأوربي حيث كانوا هواة قتال شجعانا بلا نظام ولاقواعد للقتال ، يندفعون دون حساب للنتائج ، وكان الضابط البيزنطي لايتورط في القتال مالم يكن ضامنا للنصر ، وذلك ان بيزنطة كانت ذات موارد محدودة لايمكنها المغامرة لأن ذلك كان يتعلق بمصير وجودها .

وقد اشار كل من موريس وليو الى أهمية الاتصالات السياسية للحيلولة دون العمل العسكري غير مضمون النتائج ، لكن كان على الضابط القائد لاحدى الحاميات أو سواه من ذوي الشأن عندما يتوصل الى قناعات فيها انه لاجدوى من المفاوضات كان عليه تضييع الوقت وتضليل العدو ، ومن جهة اخرى اعداد الجيش لانزال ضربة مفاجئة وبلا مقدمات ، وكان من المفيد قبل الشروع في الالتحام كتابة رسائل من والى داخل جيش العدو وجعل هذه الرسائل تحمل اسماء كبار ضباط الخصوم ، وجعل بعض الرسائل يقع في قبضة قائد جيش العدو ، فليس اسهل من تحقيق النصر على جيش قيادته متفسخة لايثق افرادها ببعضهم بعضا،لقد كان على الضابط البيزنطي ان يتصرف ببراعة وخداع ، ولاشك ان هذا كان وراء وسم البيزنطيين باللا اخلاقية في الحرب والسياسة ، وبالجبن والغدر وذلك من قبل خصومهم في أوربة الغربية والعرب سواء .

ولقد كانت الحكومة في الامبراطورية عبارة عن جهاز معقد متسع لكنه قادر على تأدية مهامه ، انما بنفقات عالية للغاية ، وغالبا ماكان هذا الجهاز يصاب بالفساد والتعفن ، وذلك في عهود كل الأباطرة الضعفاء ، ولهذا نجد ان كل واحد من الاباطرة العظماء يعمل عند تسلمه السلطة على اعادة تشكيل الادارة وتنظيمها ، ومعروف انه قام على رأس الادارة والحكم امبراطور واحيانا اكثر من امبراطور وكان اختيار الامبراطور في هذه الفترة ينبغي أن يتم بشكل انتخابي ، ويصبح انسان ما امبراطورا عندما

يختاره مجلس الشيوخ او الشعب او الجيش كل على انفراد او اجتماع ، لكن منذ جستنيان اخذ بمبدأ التوريث وقبل ، وقامت أسر وراثية حاكمة ، لذلك نجد منذ القرن الثامن انه عندما كان يرث العرش الامبراطوري رجل ضعيف فيثور عليه قائد الجيش او سواه يتحكم به ولايعزله بل يبقيه حاملا للقبة الامبراطوري ، وفي القرن الحادي عشر وجدت قاعدة مقبولة أنه يحق العرش فقط لمن تم انجابه في الحجرة الارجوانية من القصر الامبراطوري ، على أن النظام الذي ساد قبل القرن الحادي عشر كان له محاسنه ومضاره ، وكان بالامكان ازاحة الامبراطور الفاسد بواسطة الثورة ، لكن غالبا ماكان ذلك يكلف الدولة نفقات وجهود كبيرة للغاية او يمزقها ويسبب الحروب الأهلية ، وبالتالي سيطرة رجال ليسوا من ذوي الصلاح على السلطة .

وكان الامبراطور البيزنطي انسانا مقدسا تم تعيينه من قبل الرب ليتحكم برقاب البشر ، وكان يتوج ويعمد باحتفالات بهية للغاية ويصير كل شيء ارتبط به مقدسا ، فعندما تبنى هرقل لقب بازليوس أعلن عن نفسه انه انسان له صفات علوية ربانية ، أو بالأحرى هو نصف انسان ونصف اله ، لذلك كان على رعاياه السجود له كما فعل اجدادهم تجاه الامبراطور الروماني الوثني ، وعاش الامبراطور في بلاط كله أبهة ، فقد قطن في قصر رائع تألف من عدة ابنية على شاطئ البسفور أحيطت بالحدائق الغناء ، وكذلك حياته كلها مراسم وطقوس ، وكان اينما تحرك أحيط بطائفة من الموظفين والخدم والحرس ، وكانت حياة البذخ داخل القصر ذات نفقات عالية ، كان على الرعية الفقراء تحملها ، ولقد استدعى تركيب الامبراطورية البيزنطية ومواريثها أن يكون على رأسها انسان ليس له نظير بين البشر ، وهذا ماحرص عليه البلاط ، ويذكر انه عندما كانت جحافل المغول تجتاح آسية ، استقبلت سفارة مغولية في القسطنطينية فعاد افرادها ليخبروا زعامتهم انهم عادوا من دولة لايمكن قهرها لقوتها وثرائها المرعب ، لذلك يحسن تجنب قتالها .

وكان الامبراطور البيزنطي حاكما اتوقراطيا مطلقا ، ليس

لصلاحياته حدود اوضوابط حتى أنه يشرف على الكنيسة ويسيرها ويوافق على تعيين البطريرق أو يعينه ، وكان يدعو المجلس الكنسي للاجتماع برئاسته ، ويصدر القرارات ممهورة بامضائه ، لكن سلطة الامبراطور على الكنيسة لم تكن قط مطلقة ، وتميز سكان الامبراطورية بتدينهم واهتمامهم الزائد بالمشاكل الدينية ، وكان الامبراطور يتجنب المواجهة في الخصومة مع البطريرق خاصة في المسائل التي تثير الجماهير .

ولقد حكمت الامبراطورية البيزنطية خلال الحقبة الثانية ٦١٦ ـ ١٠٥٧ م من قبل اسرتين وقد تم تأسيس الأسرة الأولى من قبل ليو الأيسوري وبقيت هذه الأسرة في السلطة من ٦١٦ وحتى ٨٦٧م ، وأسست الثانية من قبل باسيل الأول ودعيت باسم الأسرة المقدونية وحكمت هذه الأسرة من ٨٦٧ وحتى ١٠٥٧ خلال هذه الحقبة كانت الشعوب البلغاية قد اندمجت بالقبائل السلافية وكونت في شمال الامبراطورية دولة قوية كانت دوما معادية للامبراطورية الى ابعد الحدود ، ومع استمرار العداوة بين دولة البلغار والامبراطورية قام حكام البلغار فتبنوا لقب قيصر ، وهو اللقب الذي سيرثه ملوك روسيا فيما بعد ، وهم حين فعلوا ذلك ارادوا أن يظهروا بمظهر الند للامبراطور البيزنطي وليس التابع ، وقد تم تحويل البلغار الى المسيحية لكن هذا لم يترك أي أثر على سياستهم المعادية لبيزنطة ، وكان لهذه السياسة نتائج مهيلة ، فقد سفكت كميات كبيرة من الدماء بين الطرفين في معارك كثيرة ، وتمكن البلغار في اكثر من مناسبة من هزيمة جيوش الامبراطورية وحصار القسطنطينية ذاتها ، لكن عدم وجود اسطول لديهم حال دون تمكنهم من فتحها وبالتالي القضاء على الامبراطورية ، ولقد تعرضت حدود دولة البلغار لضغط عسكري جاء من قبل شعوب روسيا ، وكان أشد هذه الشعوب شكيمة البشناق ، وتحالف البشناق مع الامبراطورية ضد البلغار ، واخيرا نجد الامبراطور باسيل الثاني الذي عرف بلقب جزار البلغار يتمكن

في حملات استمرت من ٩٩٦ م وحتى ١٠١٨ م من قهر البلغار ودمج دولتهم في امبراطوريته .

وكان العرب أعدى أعداء الدولة البيزنطية وأقواهم ، ولن نتحدث عن العلاقات البيزنطية العربية ، بل سنكتفي بالاشارة الى بعض الأمور اشارة عابرة ، أما فيما يتعلق بمزيد من التفاصيل فيمكن مراجعة ذلك في كتابي تاريخ العرب والاسلام .

لقد هدد العرب أيام الدولة الاموية الامبراطورية وحاصروا عاصمتها اكثر من مرة ، وملكوا اسطولا قويا حاز النصر تلو الآخر من الأسطول البيزنطي ، وعرف العرب نظام الصوائف والشواتي ، وكان بنو أمية يشعرون بخطر بيزنطة لأن عاصمة دولتهم كانت في دمشق ، لكن بعد سقوط الدولة الأموية واتخاذ العراق مركزا للخلافة ،شغلت هذه الدولة نفسها في مشاكل أراضي الخلافة الشرقية في خراسان ، وكان ما أولته من اهتمام للعلاقات مع بيزنطة قليلا نسبيا ، لقد اعتمد العباسيون على مبدا الدفاع العسكري على عكس سياسة بني امية الهجومية ، لذلك قام العباسيون بتحصين مراكز الحدود مع بيزنطة فأقاموا ما عرف بنظام العواصم ، وكان اهتمام الدولة العباسية بالأسطول اقل من اهتمام الدولة الأموية به وفي عهد الخلفاء الأوائل من بني العباس قام عدد منهم مثل الرشيد ثم ولديه من بعده المأمون والمعتصم بنشاط عسكري كبير ضد بيزنطة جعلها تشتري السلم بمبالغ كبيرة .

وعلى الرغم من أن جبهة البلغار مع جبهة الاسلام استولت على وقت اباطرة بيزنطة واستهلكت جل اهتماماتهم ، إلا أن هؤلاء الأباطرة أدركوا ، انهم لا يمكنهم اهمال العلاقات مع أوربة الغربية ، ولهذا نجد الأمبراطور الايسوري الذي عد نفسه امبراطور رومانيا يدخل في حوزته البندقية مع أجزاء من جنوب إيطاليا وصقلية وسردينية ، وزيادة على ذلك نجد البطريرق البيزنطي على الرغم من استقلاله في منصبه الكنسي نجده مع الامبراطور يعترف نظريا بأن

البابا هو راس كل الكنائس ، وحيث أن البابا كان متورطا بمشاكل أوربة الغربية ، وبسبب أن الامبراطور البيزنطي كان يرى نفسه امبراطورا رومانيا ، لذلك نجد كثيرا من الأباطرة يتاثرون فيما كان يجري في دول أوربة الغربية ويتفاعلون معه .

على أن أول مواجهة حقيقية وقعت بين بيزنطة وأوربة الغربية كانت في سنة ٨٠٠ م عندما قام شارلمان (٧٦٨ ــ ٨١٤) ملك الفرنجة باتخاذ لقب امبراطور ، وأعلن عن اعادة قيام للامبراطورية الرومانية ، إنما رومانية مسيحية مقدسة ، وكانت بيزنطة تحكم آنئذ من قبل الامبراطورة ايرين والدة الامبراطور قسطنطين السادس ، وقامت ايرين بعزل ابنها وسملت عيناه وأعلنت نفسها امبراطورة حاكمة اصلية لبيزنطة وليس بالوصاية على ابنها كما الحال من قبل وكان شارلمان حين أعلن نفسه امبراطور يدعي خلو العرش الامبراطوري من رجل يشغله ، وفي البداية رفضت ايرين الاعتراف بالخطوة التي اقدم عليها شارلمان وجرت مباحثات بين الطرفين،وفي سنة ٨٠٣ م توصل الطرفان الى اتفاق يتم به حل المشكلة وتوحيد الامبراطورية الشرقية العتيدة مع الامبراطورية الغربية الفتية وذلك بزواج ايرين من شارلمان ، لكن حدوث انقلاب داخلي ضد ايرين حال دون تنفيذ ذلك ، وبعد هذا الحدث أصبحت أحداث الغرب الأوربي ذات اثار فعالة على بيزنطة لذلك يحسن بنا التوقف هنا في حديثنا عن بيزنطة لنعود فنتحدث باحثين في حوادث تاريخ أوربة الغربية والمقدمات التي أدت الى قيام شارلمان واعلان امبراطوريته ثم نعود الى عرض هذه القضايا بشيء من الاسهاب والتفصيل .

إنما قبل أن نختتم هذا يحسن بنا القيام بعرض للسياسة الدينية والمشاكل العقائدية التي عاشتها الامبراطورية في هاتين الفترتين ، أي منذ أيام جستنيان وحتى بداية القرن التاسع ، لقد ابتغت سياسة جستنيان الدينية السيطرة على الكنيسة مثل السيطرة على الادارة العسكرية والمدنية للدولة ، فلقد اراد جستنيان أن يكون

امبراطورا يجمع في يديه بين صولجان الملك وعصا راعي الكنيسة وأن يضع على رأسه تاج الملك إلى جانب تاج الشوك الموروث عن المسيح ، وقد اتجهت جهوده نحو توحيد العالم المسيحي وكنائسه تحت سيطرته ، وجعله يتبع كنيسة واحدة هو سيدها الفعلي ، وقد جهد أولا في سبيل القضاء على بقايا الوثنية وجميع أنواع الهرطقات قضاء تاما ، لذلك تمسك بما أصدره اسلافه من مراسيم دينية ، وتابع عملية اغلاق المدارس الفلسفية في اثينا وسواها واقصى عن مهنة التدريس جميع المتنورين بالفلسفة الهلنسية ، واراد أن يمارسها كل انسان بعيد عن الشبهات التحررية والفكرية كما اقصى اليهود عن جميع الوظائف الرسمية ، وفي عصر جستنيان واجهت الكنيسة انقسامات جديدة كان مصدرها سورية السريانية ، ففي منطقة الرها شمالي شرقي سورية حدثت مشادات دينية وطرحت بعض القضايا والتفسيرات الجديدة حول طبيعة شخصية المسيح ، وتمثل هذا بحركتين عرفتا بحركة النساطرة وحركة اليعاقبة ، فقد قال النساطرة إنه إذا كان المسيح قد ولد ولادة بشرية فأمه السيدة العذراء هي انسان عادي ليس لها اية صفات علوية ، وخالفهم اليعاقبة في ذلك فقاموا بمنح العذراء الصفات الالهية العلوية ، وأيدت الدولة اليعاقبة الذين عرفت حركتهم باسم المونوفيزتية ، ونكلت بالنساطرة وطاردتهم ، مما دفع بعض هؤلاء الى ترك سورية والهجرة الى الأراضي الساسانية ، ومن هناك نشط النساطرة فأوصلوا المسيحية إلى الشرق الأقصى كما شغلوا دورا بارزا في نقل الثقافة السريانية الى بلاد فارس وتابعوا هذا الدور فيما بعد ، بعد قيام الاسلام وقيام حركة الترجمة الى العربية في العصرين الأموي ثم العباسي.

وحاول اليعاقبة أن يقدموا تعليلا للعلاقة بين الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية في شخصية المسيح ، وقد رفضت البابوية هذا التعليل ، وحينما قام الخلاف ايام جستنيان حول هذه المسألة تأرجح الامبراطور بين الكاثوليكية والمونوفيزتية ، وبعدما دخلت

قواته روما أتخذ موقفا محددا من هذه المسألة ، ألا وهو موقف زوجته ثيودورا ، التي دانت بمذهب اليعاقبة ، وحينما رفض البابا فجليوس هذا الراي اعتقله جنود الامبراطور وساقوه الى القسطنطينية حيث عقد في سنة ٥٥٣ مجمع كنسي مسكوني جديد برئاسة الامبراطور اقر فكرة اليعاقبة لكن هذا لم يؤد الى تلاحم الكنيستين الشرقية والغربية بل زاد من حدة الانقسام بينهما ، فبعد وفاة جستنيان بفترة وجيزة دخل اللومبارديون ايطاليا فأنهوا السيطرة البيزنطية على روما ، ولا بد من الاشارة هنا إلى أن من دوافع تأييد افكار اليعاقبة كونهم أصحاب القوة في سورية ومصر ، وكان الامبراطور مضطرا الى أخذ ذلك بعين الاعتبار ، لكن تطور الأحداث فيما بعد ، خاصة بعد قيام الاسلام وفتح المسلمين لكل من سوربة ومصر جعل الامبراطورية تفكر في إيجاد سياسة جديدة تتقرب فيها من البابوية ، ولهذا نجد الأمبراطور قسطنطين الرابع يحاول استرضاء البابا اجاثون (٦٧٨ ـ ٦٨١ م) فتم عقد مجمع مسكوني جديد سنة ٦٨١ م في القسطنطينية قرر اعدام المونوفيزتية ، وطبعا عاشت هذه العقيدة واستمرت موجودة وهي عقيدة الكنيسة المصرية في أيامنا هذه .

وبعد هذا المجمع عانت المسيحية من مشاكل جديدة وتعلقت هذه المرة بمسائل مختلفة عما مضى ، لقد تعلقت بعبادة الصور أوكما تعرف عادة بمشكلة عبادة الايقونات ، ذلك أن المسيحيين اخذوا في تصوير بعض مراحل حياة السيد المسيح وذلك ربما منذ القرن الرابع وزينت الكنائس بهذه الصور مع تماثيل كثيرة ، واخذ بعضهم يقدسه هذه الصور لا بل يعبدها ورأى بعض المتنورين في ذلك نوعا من انواع الشرك الوثني ، وانقسم الناس بين مؤيد لتقديس الصور وآخر رافض ، وارتبط ذلك بالسوية الثقافية مع التراث الفكري لكل مجتمع من المجتمعات المسيحية،فحيث وجد التراث الهلنستي في الامبراطورية البيزنطية فقد كان تيار المعاداة للايقونات قويا ، وعكس هذا كان الحال في أوربة الغربية المتدنية ثقافيا .

وبدأت حرب الايقونات خارج العالم المسيحي سياسيا، لقد بدأت في ديار الاسلام،فقد أصدر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣ م أمرا بتحريم عبادة الأيقونات ، ذلك أن الاسلام حرم الشرك وعبادة الأوثان ، ومن ديار الأسلام انتقلت الفكرة الى بيزنطة وسواها من ديار المسيحية ، وتمسك الامبراطور ليو بفكرة تحريم عبادة الصور وعارضته البابوية فكان هذا سهما جديدا طرح في معترك الخلاف بين الشرق والغرب .

ففي سنة ٧٢٦ م أصدر الامبراطور ليو قرارا بتحريم عبادة الصور وأمر بازالة جميع التماثيل والصور من الكنائس ، وردت البابوية عليه بحرمانه من المسيحية وطرده من الكنيسة ، فقام بمصادرة أملاك البابوية في كافة المقاطعات التابعة له في جنوب ايطاليا وصقلية وفصل الكراسي الأسقفية في هذه المناطق عن البابوية ولقد ساعدت هذه الصراعات البابوية وزادت من تحكمها بايطاليا وشجعتها على التعاون مع الدول البربرية وكانت المقدمات الأولى لقيام امبراطورية شارلمان .

ستهزم مع الأيام حركة معارضة عبادة الصور ، وسيترافق انتصار عبادة الصور مع تقديس بقايا القديسين والاعتقاد بصدور المعجزات عن هذه البقايا وعن بعض الأيقونات ، وأخذ الناس يرتحلون من مكان الى آخر لزيارة الايقونات والبقايا المقدسة ، وتطور هذا مع تطور الحياة التجارية وحركات النقل إلى ابداع ما سيعرف باسم عقيدة الحج في المسيحية مما سيكن له أوسع الآثار في رواج الحركة الصليبية .

الفصل الثاني

الفرنجة ودولهم

الدولة الميروفنجية:

يعد بعض المؤرخين أن أهم حدث كان قد نجم عن تاريخ هجرة الشعوب الجرمانية وغزواتها لأراضي روما هو قيام دولة الفرنجة ، ذلك أنها الدولة الوحيدة التي كتب لها البقاء والاستمرار ضمن اراضي روما ، ولم تلق مصير دول الوندال والقوط الشرقيين ثم الغربيين الذين قضى على ممالكهم البيزنطيون ثم المسلمون ومما يذكر أن قبائل الفرنجة كونت بين انفسها في القرن الثالث نوعا من التحالف البدائي،لكن مظاهر قوة هذا الحلف أخذت تظهر في القرن الخامس وكان أهم كتل هذا التحالف كتلتان عرفتا باسم الفرنجة البحريون والفرنجة البريون ، وفي القرن الرابع كان قد تم استقرار هاتين الكتلتين داخل الأراضي الرومانية ، ولم تكن القبائل الفرنجية أنئذ تكون مجموعة قومية أو قبائل أمة واحدة لقد كانت هذه القبائل مجموعة كتل متفرقة متباينة في كثير من الجوانب ، والأمم الجرمانية وجدت بعد قيام دولها وليس قبل ذلك ونسمع عن قبائل الفرنجة لأول مرة حينما حاربهم الأمبراطور الروماني جوليان (٣٦١ ـ ٣٦٣ م) ونراهم بعد ذلك يقاتلون ضد مصالح الامبراطورية أو لحسابها ، ونجدهم فيما بعد يتعاونون مع جيوش الامبراطورية والقوط للتصدي للهون وحماية غاليا من أتلا وقواته .وعقب هذا الحادث استقرت هذه القبائل في أراضي غاليا فصارت كلها قبائل بربرية بشكل فعلي .

وكان لكل قبيلة زعيمها الخاص بلقب من أصل روماني يعني ملك ، ومن بين العديد من الزعماء كان واحد عرف باسم جليدريك ، وكانت منطقة نفوذه هي منطقة الحدود الحالية بين بلجيكا وفرنسا ، وحين وفاته سنة ٤٨١ م خلفه في منصبه ابنه كلوفيس (٤٨١ ـ ٥١١ م) الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة التي عرفت باسم الدولة الميروفنجية ويحسن قبل الحديث عن دولة كلوفيس وتوسعها أن نذكر أن الفترة الواقعة مابين (٥٠٠ ـ ٩٠٠ م) في تاريخ أوربة الغربية تعد فترة تحول من الحضارة الرومانية ومما يمكن دعوته بالحضارة الجرمانية إلى حضارة العصور الوسطى ، ففي خلال هذه الفترة استقرت الشعوب الجرمانية وطورت مؤسساتها ، وصارت عاداتها السالفة عبارة عن قواعد قانونية ، وبدلا من حال كانت فيه التقنية الزراعية بدائية جدا لشعوب نصف بدوية نصف مستقرة طورت الشعوب الجرمانية زراعتها لأن اقتصاد مؤسساتها وحكوماتها اعتمد كما سبق وذكرنا على الأرض ومنتجاتها الزراعية ، وخلال هذه الفترة اختفت الوثنية مع العقيدة الأريوسية من بين صفوف الشعوب الجرمانية وصارت الشعوب جميعا كاثوليكية أو بالأحرى رومانية كاثوليكية .

وكان الشكل الأساسي للحكم في هذه الفترة مادعاه المؤرخون باسم الحكومات الجرمانية ، وعلى الرغم من أن الممالك ونظمها في معظم بلدان أوربة عاشت قصيرا إلا أنه كتب لها الاستمرار في انكلترا وبلدان اسكندنافيا وغاليا ، ونجد في النظم الجرمانية أنه كانت أهم وظيفة للزعيم أو الملك الجرماني قيادة شعبه في الحرب ، وكان من حق الملك دعوة كل فرد قادر على حمل السلاح للانخراط تحت رايته ، وكان الملك الجرماني يتم اختياره لكن غالبا مايتم الاختيار من بين أفراد أسرة زعامة ملكية واحدة ، ولقد اعتقدت الشعوب الجرمانية وقبائل الأنكلوسكون أن ملوكها قد انحدروا من صلب أحد الآلهة الجرمان ولذلك عدت الأسرة المالكة الجرمانية أن حقها في الحكم محصور لها دون سواها وعد الملوك الجرمان أن واجباتهم هي القيادة في الحرب والاشراف على رعاية بعض

الاحتفالات والتقاليد وفيما عدا ذلك كان الملك يصرف وقته في تجميع الذهب والفضة والمجوهرات ومعاشرة النساء الجميلات بدون قيود زواجية أو عددية ،ومعاقرة الخمر وأكل اللحوم بشكل عظيم ومقادير هائلة .

وصحيح أن دراسة الممالك الجرمانية ونظمها أمر له شأنه ، إلا أننا سنقتصر هنا على دراسة مملكة الفرنجة ثم ممالك انجلترا لأنها قد كتب لها الاستمرار والبقاء الفعال .

وبعدما غدا كلوفيس زعيم الفرنجة البحريين ، أخذ بالتوسع في غاليا فاستطاع في سنة ٤٨٦ م الاستيلاء على منطقة سواسون لكنه برغم توسعه وتأسيسه لملكة مستقلة فعلية ظل يعد نفسه موظفا في خدمة الامبراطور وينوب عنه في حكمه لمنطقته ، ونلاحظ أن جميع الذين حكموا الدولة الفرنجية بعد كلوفيس كانوا جميعا يطبعون راس الأمبراطور الروماني على نقودهم وبقيت في أيام كلوفيس الادارة تسير حسب النظم الرومانية السالفة لذلك يمكن عد كلوفيس من بعض الوجوه مجرد خليفة للحاكم الروماني لغاليا ، ورغم أن الماضي الروماني لم يتم قطعه بقيام مملكة الفرنجة ، إلا أن هذه المملكة تأثرت قليلا بالفكر السياسي الروماني ، وكما سلفت الاشارةفقد اعتقد ملوك الأسرة الميروفنجية أنفسهم بالانحدار من أحد الأرباب : ولقد كانوا يطلقون شعورهم ويجعلونها تتدلى على أكتافهم كإشارة إلى نسبهم الرباني ، ولم يكن الملك وراثيا من أب إلى ابن بل كان وراثيا ضمن العائلة المقدسة ، وبعد وفاة الملك كان يتم انتخاب ملك جديد ، ومن ثم يتم تتويجه ، وكانت أهم عملية في احتفالات التتويج حمل الملك المنتخب على ترسة المقاتلين كدليل على الاعتراف بالانتخاب ، وكانت المملكة تعالج قضاياها كممتلكات خاصة بالعائلة المالكة .

وتميزت حركة الفرنجة في ظل كلوفيس بالتوسع الاقليمي والحربي والسياسي ، لذلك يرى بعضهم في كلوفيس فاتحا عسكريا ومؤسسا لملكة وليس قائدا لشعب مهاجر ودخل كلوفيس في صراع

ضد بقية الشعوب الجرمانية في إيطاليا وسواها وعلى حساب ممتلكاتها توسع ، ولعل من حسن حظ الفرنجة أن مواطنهم الجديدة في غاليا ظلت على صلة وثيقة بمواطنها لما قبل الهجرة ، لذلك تلقى الفرنجة روافد دموية دائمة فأمكن لهم الاستقرار والبقاء الأمر الذي لم يحدث لبقية الشعوب الجرمانية . وكان كلوفيس سياسيا بارعا ، وقد قام عام ٤٩٦ بالاقدام على اعتناق المسيحية ، لكن ليس حسب المذهب الأريوسي مذهب بقية الشعوب الجرمانية إنما حسب العقيدة الكاثوليكية الرومانية ، وبذلك تميز ملوك الفرنجة عن غيرهم من ملوك الشعوب الجرمانية ، فكانوا ابرياء من كل هرطقة ، إلا أن اعتناقهم للكاثوليكية قد تم بهداية ربانية نظرا لتميزهم عن سواهم ، وأوجد هذا في نفوسهم شعورا داخليا بالتفوق وبأن لهم رسالة سماوية لأن ملوكهم من أصل سماوي ، وحين فعل ملوك الفرنجة هذا فتبنوا مثل هذا الراي شابهوا بقية ورثة الأمبراطورية: الاباطرة البيزنطيين وخلفاء الدولة الاسلامية الذين امنوا بتأييد السماء لهم ، بعدما قامت باختيارهم ، ولاشك أن هذه المشاعر كانت واحدا من أهم المحركات على قيام حركة التوسع الفرنجي ، ووراء دور الفرنجة الكبير في صنع تاريخ أوربة في العصور الوسطى في أوربة الغربية .

إن اعتناق كلوفيس للمذهب الكاثوليكي قد جعله يظهر بمظهر المدافع عن المسيحية الشرعية ليس في مملكته بل في جميع اوربة الغربية ثم العالم المسيحي ، وعنى هذا قيام نوع من التحالف بين الفرنجة والرومان والتآلف بين البابوية وملوك الفرنجة ، وهذا التآلف التحالفي كان له أثار بعيدة حيث حظيت شعوب اوربا الكاثوليكية بود ملوك الفرنجة ورغبت في الدخول في طاعتهم ، وكان لهذا أثاره على علاقات مملكة الفرنجة مع غيرها من الممالك الجرمانية حيث ولد العداء والصراع وكانت الحروب غالبا لمصلحة الفرنجة على حساب الألمان والقوط الشرقيين والغربيين.

وعندما توفي كلوفيس سنة ٥١١ م قسمت مملكته بين أولاده

الأربعة وهكذا ظلت دائما مقسمة ، لكن وجود فكرة للملك أنه حق محصور ضمن الأسرة المالكة كلها خفف من مضار التقسيم هذه وساعد على استمرار أعمال التوسع الفرنجي ولم يمنح الدولة والأقسام حدودا دائمة معترف بها ، وكانت أهم دول المملكة الميروفنجية هي : دولة أوسترازيا وقامت ممتلكاتها على طرفي نهر الراين ، وعرفت الأراضي الواقعة في شمال غاليا باسم دولة نوستريا ، في حين عرفت الدولة المهمة الثالثة باسم برغنديا وأوكتين ، ولقد كانت المؤثرات الجرمانية أقوى في الدولتين الأوليتين بينما كان هذا المؤثر ضعيفا في الدولة الثالثة حيث نتيجة لهذا ظلت لاتينية الموارث والمؤثرات .

ومع اعتناق ملوك الفرنجة للمسيحية الكاثوليكية وقيام علاقات جيدة بينهم وبين المؤسسات الدينية ، فإن هؤلاء الملوك كانوا غير متدينين وجل ماكان رجال الكنيسة يطمعون منهم هو تطبيق بسيط لبعض القواعد والاحكام الدينية .

وعلى سبيل المثال نجد أن الزواج الشرعي أو شرعية الزواج امر لم يكن له أي وجود أو معنى لدى ملوك الفرنجة ، فكان الملك الميروفنجي ورجال بلاطة كل منهم يعاشر ماشاء من النساء ولايهتم بشرعية العلاقات ومسائل شرعية ولادة الأولاد ، ولهذا نجد كل ماكانت الكنيسة تطمع به أن يعترف الملك بواحدة من النسوة زوجة شرعية ، ثم يعاشر ماشاء من النساء بعد ذلك ، وطبعا لم يكن الملك يعارض فرض الزواج الكنسي على رعاياه ، أما عليه وعلى أسرته فلا ، يتزوجون ويطلقون كل حين وحسب كل رغبة، وحيث وجدت أعداد كبيرة من النسوة المطلقات واليتامى من الفرنجة فقد أخذت الكنيسة بالعناية بهؤلاء ولم يعارض ملوك الفرنجة ذلك ، لهذا صار للكنيسة وظائف اجتماعية في داخل مجتمع الدولة الميروفنجية .

ولم يمض على قيام دولة الفرنجة ثمانون عاما حتى ضعفت وتوقفت عن التوسع والنمو وذلك بشكل مفاجىء ، وعاشت طورا من الحروب الداخلية الأهلية ، وقد استمرت حالة الفوضى هذه قرابة

قرن ونصف القرن وظهر في هذا الوقت ملوك من اسرة كلوفيس يدعون عادة بالملوك الذين يملكون ولايحكمون ، وفي الحقيقة كان الملوك الذين تولو العرش من ذوي الطاقات الكبيرة انما الغريب أن حياة كل منهم كانت قصيرة لذلك كثر عددهم ، وقل تأثيرهم ، ولهذا تغلب على الحكم في هذا الوقت رجال البلاط والنبلاء ، واخذ النبلاء يسيرون شؤون كل دولة ويتحكمون بها مع رجال الكنيسة والدين ، ونالت الكنيسة الكثير من الصلاحيات ومزيدا من الاستقلال عن السلطة الزمنية ، حتى غدت شبه مستقلة ، واحتكر كل نبيل من النبلاء ملكية من الأرض خاصة استقل بها ، وصار من غير الممكن بالنسبة للتاج فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة والنبلاء .

لقد صارت السلطة مع الزمن بيد احد النبلاء الذي كان يتم اختياره في البلاط وحجابة الملك وذلك في سبيل منع الملك من الحكم وبالتالي نزع امتيازات النبلاء والاضرار بمصالحهم وفي البداية كانت هذه الوظيفة متواضعة لأن مهام صاحبها كانت مجرد الاشراف على خدم القصر وموظفيه ولكنها تطورت مع الأيام وصار صاحبها هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة الميروفنجية يشرف على جميع ادارات الدولة وعلى النفقات وتوزيع الجباة وحتى قيادة الجيوش المحاربة، ومنذ سنة ٦١٤ م تعاقب على هذا المنصب عدد من النبلاء عن طريق الوراثة فأصبحت السلطة حصرا في اسرتهم ومنذ سنة ٦٣٩ يوم وفاة أخر الميروفنجيين الكبار وهو داغوبيرت الأول صار تاريخ هذه المملكة واقسامها الثلاث مرتبطا برؤساء البلاط ، وكان رئيس البلاط ايام هذا الملك اسمه بيبن لاندن » وبعد وفاته حاول كل من ابنه ثم ابن ابنه (أي حفيده) الغاء الملكية الميروفنيجية فأخفقا وقتلا ، وقام صراع وخلال عمليات الصراع كان النصر مؤخرا من نصيب دولة استرازيا فبرز رئيس بلاطها الذي عرف باسم بيبن الثاني وهو ابن بنت بيبن الأول وصار مسؤولا عن بلاطي استرازيا ونوسترا وعقب وفاته برز كما سنرى ابنه غير الشرعي شارل مارتل سنة ٧١٤ م وأخذ مكانه وسنتحدث فيما بعد عن اعمال شارل مارتل التي ادت الى توحيد مملكة الفرنجة

-١٠١٨-

وبـــالتالي الى انقـــراض الدولة الميروفنجية وقيام دولة جـــديدة حلت محلها وهي الدولة الكارولنجية .

حضارة الدولة الميروفنجية

الحياة الاقتصادية

إن مانملكه من معلومات عن طبقات المجتمع في ظل الدولة الميروفنجية قليل جدا فالذي هو متوفر يتعلق بالأسرة المالكة وطبقات النبلاء والأساقفة ورؤساء الكنائس والديرة ، وقد ملك كل من هؤلاء املاكا واسعة للغاية اختلفت الى حد كبير عن طبيعة القرية او المؤسسة الزراعية أيام الامبراطورية الرومانية ، وقد زرعت هذه الأملاك من قبل أجراء أو وكلاء كانوا انصاف احرار ، اي انهم لم يكونوا من اقنان الأرض ، ولكنهم ماكانوا يملكون الحق في التحرك من المزارع التي يعملون بها ، وقد ملك كل واحد من الأجراء كوخا حقيرا عاش به مع اسرته ، وذلك بالاضافة الى قطعة صغيرة من الأرض زرعها واعتمد على انتاجها في نفقات عيشه مع أسرته ، وقد أمضى الأجير معظم الوقت في العمل في أرض سيده الكبير دونما مقابل ، ويبدو أن معظم هذه الممتلكات والمؤسسات الزراعية كانت ذات أصل روماني ربما كانت تعود الى بعض أعضاء مجلس الشيوخ الروماني أو كانت من أملاك التاج الامبراطوري لكنها مع الأيام غدت في حوزة النبلاء من الفرنجة ، كما اقام رجال آخرون من النبلاء مع رجال الكنيسة والديرة مؤسسات مماثلة .

ويمكننا أن نلاحظ وجود نمطين من القرى لدى الفرنجة : نمط سكانه رجال احرار يملكون جميعا الأرض ويزرعونها بطريقة تعاونية تحت إدارة وتوجيه مجلس قروي أما النمط الثاني فقد كان عبارة عن قرية ملكها أحد النبلاء الفرنجة وسكنها مع أتباعه الذين كانوا في البداية رجالا لكن مع مرور الزمن اخذوا يتحولون الى حال

الرجال النصف احرار الذين قاموا بادارة المزارع الرومانية القديمة وزراعتها ، وعلى الرغم من استمرار النمط الروماني القديم في الزراعة وقيام مؤسسات زراعية على الطريقة نفسها فقد ظل في المجتمع الميروفنجي أعداد لابأس بها من الناس الأحرار ذوي النشاطات الاقتصادية المختلفة والأوضاع الاجتماعية المتباينة ، وكان هناك مزارعين صغار يملك كل منهم مزرعة يديرها بنفسه ويكاد انتاجها يكفيه مع أسرته ، وكما كان هناك مزارع متوسطة الحجوم كان اصحابها يستعينون بعدد من الأجراء ، وقد بلغ عددهم عشرون احيانا وكان هناك اناس لايملكون أرضا لكنهم كانوا يعيشون بشكل مرضي ، فقد جرت العادة أن تقوم الكنيسة واحيانا بعض الملاك الكبار بمنح أحد الناس قطعة من الأرض صغيرة يقوم باستغلالها لنفسه واسرته ، واحيانا قد تكون الأرض كبيرة فيستخدم اجراء للعمل بها .

وكان هذا المقطع يوافق في عقد الاقطاع على ان يدفع اجرة للأرض التي اعطيت له لاستغلالها ، وكانت الأجرة إما كمية من المنجزات أو عبارة عن خدمات محددة ، وكان المقطع يقسم عند صنع العقد بينه وبين المانح يمينا بالولاء والاخلاص لهذا الملاك الكبير ويعاهده على أن يوقف أو يحبس نفسه له ولخدمة مصالحه ، وبعبارة أخرى يقسم على أن يصبح رجلا من رجاله وتابعيه ، وحصل ملاك الأراضي بواسطة هذه الطريقة على أتباع مخلصين وضمنوا في الوقت نفسه أراضيهم ، وقد استخدم في عقود استغلال الأرض حسب هذه الطريقة عدد من المصطلحات كان من اشهرها سيد ومسود او مولى وتابع .

ومن الملاحظ أن الحضارة زمن الميروفنجيين استمرت في الانحدار في غاليا ، ولم تتوقف عن متابعة السير في هذا المنحى الذي صارت فيه منذ القرن الثالث ، إنما الآن سارت بسرعة اكبر من ذي قبل ، وكان الفرنجة في الدرجة الأولى رجال حرب ولم يكونوا تجارا ، وكان اهتمامهم بالحياة المدنية في الأرياف وسواها ضعيفا

أو منعدما ولم يهتم ملوكهم بالتجارة ولم يعملوا على تشجيعها لذلك اهملوا صيانة طرق القوافل ولم يرمموا الجسور والمعابر ولم يهتموا بمسائل الأمن على الطرق كما لم يقدموا أية ضمانات لحماية التجارة والتجار ، وذلك أن الملك الميروفنجي لم يفكر مطلقا بأن مثل هذه الأعمال هي من اختصاصاته وواجباته .

لكن لم تمت التجارة ضمن المملكة الميروفنجية تماما بل استمر بعض العمل التجاري في بعض الموانيء والمدن الساحلية القديمة ، انما هذا انحصر فقط في أجزاء من السواحل وانعدم العمل التجاري تماما في داخل اراضي المملكة ، ومع نهاية عصر الدولة الميروفنجية كانت غاليا قد أصبحت بلدا زراعيا ليس له اقتصاد قومي بل قام فيه اقتصاد اقليمي قوامه الزراعة المحلية الانتاج والمحلية الاستهلاك ، رقد كان هناك قليل جدا من المال للتعامل به ، وانعدمت السيولة النقدية أو كانت لذلك كان التجار الذين غامروا وسافروا ندرة .

الحياة الفكرية والفنية:

لم يكن انحطاط المدن وشلل الحياة الاقتصادية في العصر الميروفنجي وقساوة الطباع لتؤلف وسطا مواتما لتفتح الثقافة وازدهارها ، ولكن لم يختف كل أثر للثقافة القديمة بغزو البرابرة لغاليا ، فقد بقيت في جنوب غاليا وفي المملكة البرغندية بعض مدارس النحو والبلاغة مفتوحة خلال الثلث الأول من القرن السادس ، واستمرت الثقافة القديمة حية في أواسط العائلات الارستقراطية الكبرى حتى منتصف القرن السابع ، وكان الاساقفة الذين يرجع أصلهم الى الطبقة الارستقراطية محافظين على الثقافة الكلاسيكية وقادرين على نظم الاشعار وتطبيق البلاغة التقليدية خلال القرن السادس بأكمله ، واذا كانت الارستقراطية الفرنجية في غاليا الشمالية قد رفضت قبول الثقافة الكلاسيكية في مجملها ، وخاصة الشعر والبلاغة، فقد احتفظت برغم ذلك ببعض الجوانب

العملية منها كالقوانين المكتوبة واللغة اللاتينية ، الا ان هذا لاينفي أن المستوى الثقافي والفكري في العصر الميروفنجي لم يتوقف عن الانحطاط والتردي ، وخير مثال على ذلك كتابات قصص حياة القديسين التي أصبحت الشكل الرئيسي الأدبي فقد كان مؤلفوها يطنبون في تقريظ الفضائل نفسها ورواية المعجزات ذاتها ، وأخذ الكتاب ، من مؤرخين وأدباء يلجأون الى الكتابة باللاتينية العامية أو بلاتينية مليئة بالأخطاء مثل المؤرخ غريغوار اسقف تور الذي وضع كتاب « تاريخ الفرنجة والذي هو عبارة عن مجموعة من القصص لايربط فيما بينها فكرة موجهة ، وكانت قصائد الشاعر فورتونا برغم تفوقها على اشعار معاصرية ، تتصف بالتصنع والزيف.

ولم يبق سوى القليل جدا من الأوابد التي أنشئت في عصر الميروفنجيين وقد حاول مهندسوها اتباع تقاليد اسلافهم ـ الغاليين ـ الرومانيين ولكنهم لم يقيموا سوى ابنية متواضعة الأبعاد ، وانحطت أيضا الفنون التشكيلية القديمة ، وتشهد الصور المرسومة على جدران احدى المقابر في بواتيه على مدى الانحطاط الذي وصل إليه تصوير الجسم البشري ، وبرغم ذلك كانت تيجان الأعمدة ومنحوتات التوابيت المصنوعة في اكيتانيا لاتخلو من الأناقة والذوق ، كما أن بعض القبور في المنطقة الشمالية من غاليا تشتمل على تزيينات هندسية جميلة .

غير أن ما أنقذ سمعة الفن الميروفنجي هو فن الصياغة فقد وجد في المدافن الكثير من الحلي من أقراط وصفائح وخواتم وبوجه خاص الشكالات وأغلب موضوعات هذا الفن ، سواءا كانت حيوانية مبسطة أم هندسية ،مقتبسة عن الشعوب الشرقية ، وتميل أشكالها المختلفة الى تبسيط كبير في الخطوط يقترب من الفن الحديث ، وتعتمد على ابراز الوان الحجارة الثمينة المنزلة او على التضارب بين وهج المعادن المختلفة الداخلة في الصنع ويمكن أن نذكر بين آثار هذا الفن الصناديق التي كانت تحفظ فيها بقايا

القديسين وهي صناديق خشبية مغطاة بصفائح معدنية (نحاس او فضة) محفورة أو منقوشة ، وكان القديس ايلوا من اشهر صناع هذه الصنا ديق .

الحياة الدينية:

الكنيسة الميروفنجية:

سعى ملوك الفرنجة ، كما سعى فيما بعد كبار رجال المملكة ، الى استخدام نفوذ الكنيسة العصرية وسلطانها لما فيه فائدتهم ومصلحتهم الخاصة وكانت الكنيسة منذ عهد الامبراطور قسطنطين ، تتمثل على الصعيد المحلي في شخص الأسقف الذي غدا الزعيم الروحي في المدينة واصبح الممثل الوحيد للكاثوليك والمدافع عن الغالو - رومانيين بعد سقوط الامبراطورية واختفاء الموظفين الامبراطوريين والسلطات البلدية ، وقد انحاز الاساقفة الغالنيون الى الميروفنجيين إثر اعتناق كلوفيس للديانة الكاثوليكية وتعاونوا معهم باخلاص ، وقد ادى هذا التعاون خدمات ثمينة لملوك الفرنجة لأنّ الأساقفة كانوا يهتمون بجميع نواحي الحياة المادية والروحية لرعاياهم ، فأخذوا على عاتقهم القيام بالمهمات والخدمات العامة التي تخلت عنها دولة البرابرة مثل : مساعدة الفقراء والبائسين ، وإقامة العدل والقضاء بين رعايا المحاكم الكنسيه ، وتأمين التعليم الديني للجميع ضمن إطار الدين الروماني الكاثوليكي ، واهتم الأساقفة أيضا بنشر الديانة المسيحية في اواسط الفلاحين الذين ظل الكثيرين منهم على وثنيتهم ، فتضاعف عدد الأبرشيات الريفية ، وكان أكثر هؤلاء الأحبار ينتمي الى الطبقة الارستقراطية القديمة الغنية المثقفة التي انقطعت عن ممارسة الوظائف العامة ، أما الأساقفة الجرمانيون فكانوا اقلية ، ففي مقاطعة اكيتانيا مثلا لم يكن يوجد بين ما يقرب من مائة اسقف سوى أثني عشر اسقفا يحملون اسماء جرمانية ، وقد يكون هؤلاء من أصل غالو - روماني لأن التسمية بأسماء جرمانية

أصبحت شائعة بين الغالو ـ رومانيين في ذلك الوقت ، ويبدو أن بعض العائلات الارستقراطية الغالو ـ رومانية كانت تحتكر منصب الأسقفية في بعض المدن ، فقد كان غريغوار اسقف تور ساد ستشخص يتولى هذ المنصب من العائلة نفسها .

وقد اغدق كلوفيس وخلفاؤه من بعده العطايا والهبات والامتيازات على الكنيسة ، وكانت الهبا ت العقارية واسعة بشكل أصبح معه الأسقف أكبر ملاك في مدينته ، بالاضافة الى شهادات الحماية والأعفاءات من الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، وساعد الملوك الميروفنجيون على نشر الديانة المسيحية وتعميمها في غاليا فأصدر شيلدوبير عام ٥٥٤ أمرا بتحطيم الأصنام ، وأسس الكثير من الملوك والأمراء كنائس وأديرة عديدة في مختلف انحاء غاليا ، وكان الملوك يطلبون من ألاساقفة مقابل ذلك الطاعة التامة ، فاحتفظوا لأنفسهم بحق الدعوة إلى عقد المجامع الدينية العامة ، والتدخل في الانتخابات الكنسيه سواء بتقسيم مرشح الأسقفية أو بتثبيت الأسقف المنتخب وتسليمه « الأسقفية » وهكذا استمر التفاهم والوفاق بين الملكية الميروفنجية والكنيسة ، وكان الاساقفة ، حتى منتصف القرن السادس على الأقل ، اهلا للمناصب التي يتولونها وقد جعل الناس من بعضهم قديسين لأسباب لم يكن لها غالبا صلة بالدين .

وأخذت الكنيسة الميروفنجية باكتساب الطابع الاقطاعي منذ نهاية القرن السادس ، ووصلت أملاك الكنيسة في بعض المقاطعات درجة من الاتساع لم يعد معها لدى الأسقف وقت للاهتمام بشيء أخر غير ادارة هذه الأملاك والمحافظة عليها ، وأخذ بعض الأساقفة يتصرفون تصرف الأمراء الزمنيين كقيادة الحامية في الدفاع عن المدينة ، وصار الملوك يختارون الأساقفة غالبا من ارستقراطي البلاد مثل كبار الموظفين المدنيين ، مما أدى الى اشتراك الاساقفة في المؤامرات والثورات التي كان الارستقراطيون يحيكونها ، وأهمل الأساقفة ، منذ القرن السابع ، الاهتمام بشؤون رعاياهم الدينية

أو بنشر الديانة المسيحية بين الوثنيين فانتقلت هذه المهمات الروحية شيئا فشيئا الى أيدي الاكليروس النظامي .

الحياة الرهبانية:

يعود نمو الحياة الرهبانية في غاليا واكتسابها اصالتها الى العصر الميروفنجي وخاصة في نهاية القرن السادس ، فقد شهدت غاليا آنذاك تكاثر عدد الأديرة بحيث أصبح يقرب من مائتي دير خلال قرن ونصف القرن وبذلت فيها الجهود لوضع قواعد وأصول هذا الشكل من الحياة الدينية .

ويعود الفضل في تطور الحركة الرهبانية في غاليا في هذا الاتجاه الى القديس كولومبان وهو راهب ايرلندي قدم الى غاليا في الربع الأخير من القرن السادس ، واضطر الى تغيير مقره فيها عدة مرات بسبب خلافه مع الاساقفة ومع الملك الميروفنجي ، ثم اضطر أخيرا الى مغادرتها وقد كان للقديس كولومبان وتلامذته تأثير كبير على الحركة الرهبانية في غاليا تجلى في انشاء عدد كبير من الأديرة في غاليا الشمالية (أشهرها دير لوكسل) من جهة ، ومن جهة أخرى في اتباع جميع هذه الأديرة في حياتها مبادىء متشابهة طبقا للقاعدتين اللتين وضعهما القديس كولومبان دون أن تؤلف نظاما رهبانيا ، ولا تتضمن قواعد القديس كولومبان تعاليم دقيقة فيما يتعلق بالتنظيم الداخلي في الأديرة بل تحدد نوعا من الحياة المشتركة تقوم على الخضوع أمام الراعي ، وهو السيد المطلق للجماعة الديرية ، وعلى الزهد الفردي الشديد ، وقد كان للرهبان الكولومبانيين تأثير كبير في نشر المسيحية إذ كان الحماس للتبشير الديني أحد الميزات التي يتصفون بها فكانوا يخصصون جزءا من نشاطهم التبشير.

ونشأت في غاليا أديرة تبنت قاعدة القديس بندكت . وتختلف القاعدة البندكتية في روحها اختلافا تاما عن قاعدة القديس كولومبان

فهي تشدد على أهمية الحياة المشتركة تحت سلطة راعي الدير الذي ينتخب لمدى الحياة وتستبدل النسك الفردي بـالصلوات الجمـاعية وبالعمل ، وخاصة العمل اليدوي ، وقد اتسع انتشار هذه القـاعدة في غاليا في النصف الثاني من القرن السابع ولا سيما بعد نقل بقـايا القديس بندكت الى دير فلورى على نهر اللوار حوالي عام ٦٧٢ م.

وقد أدى التنافس بين هاتين القاعدتين الرهبـانيتين الى نشـوء قواعد رهبانية جديدة تحاول التوفيق بينهما .

يتضح مما سبق أن توسع الحياة الرهبانية كان احدى خصائص ومميزات العصر الميروفنجي ، وبعد أن كان الأسقف . حتـى أوائل القرن السادس ، هو رجل الدين الذي ينظر اليه عامة الناس نظـرة تقديس واجلال ، حل الراهب محله في هذا الدور تجاه الراي العـام المسيحي منذ ذلك القرن.

بريطانيا (المملكة الأنكلو ـ سكسونية)

لايزال تاريخ بريطانيا في مطلع العصور الوسطى غير معروف بشكل جيد ، والمعلومات البسيطة المتوفرة لدينا مستمدة من معطيات علم الآثار ، وهي معطيات بسيطة متفرقة يصعب تحديد تاريخها بدقة ، ومن كتابات ثلاثة مؤرخين فقط وهم: الراهب جيلداس الذي وضع كتيبا عن « غزو بريطانيا وخرابها ، امتدح فيه الاصلاح الذي قام به البريطانيون في القرن السادس وانتقد الزعماء الصغار الذين كانوا يحاولون عرقلته ، وبروكوبيوس القيساري الذي وصف بريطانيا في القرن السادس حسب ما سمعه من مبعوثي ملك الفرنجة الى القسطنطية ، والمؤرخ الأنكلو ـ سكسوني بيد الذي وضع نحو عام ٧٣١ م كتابا سماه « تاريخ الكنيسة ، تلبية لرغبة احد ملوك نورثمبريا افتخر فيه بأعمال ملوك السكسون الأوائل .

ولكن المؤكد أنه نشبت بين سكان بريطانيا من البريطانيين والرومانيين وبين الغزاة الجرمان الأنكل والسكسون والجوت حرب عنيفة لا هوادة ولا رحمة فيها امتدت منذ منتصف القرن الخامس حتى نهاية القرن السادس ، وكانت تتخلل هذه الحرب فترات سلم وهدوء نسبيين على أثر المعارك الكبرى التي كان المتحاربون فيها يبيد بعضهم بعضا .

كانت قبائل السكسون تقطن في الشمال الغربي من جرمانيا بين نهري ايمس والويزر وقبائل الأنكل في الجزر المقابلة لسواحل شبه جزيرة جوتلاند بينما سكنت قبائل الجوت في حوض الراين الأسفل الى جوار بعض الفرنجة .

وقد اخذ القراصنة الذين ينتمون الى هذه القبائل ـ كانوا يجوبون بحر الشمال ـ بمهاجمة سواحل بريطانيا الشرقية

والجنوبية مستهدفين السلب والنهب فقط ، ولكن في القرن الخامس وعلى أثر الغارات البربرية الكبرى في القارة الأوربية وانسحاب الرومان من بريطانيا ، اخذت جماعات عديدة من الأنكل والسكسون والجوت بغزو بريطانيا بقصد التوطن والاستقرار فيها . واشتدت هذه الغزوات واتخذت شكل هجرات حقيقية بعد عام ٤٥٠ م.

ففي عام ٤٤٩ م نزلت جماعة من السكسون ، كما يروي المؤرخ بيد ويؤيده في ذلك الراهب جيلداس في منطقة كنت في الزاوية الجنوبية الشرقية من انكلترا وتوصلت إلى تأسيس مملكة سكسونية فيها خلال نحو ربع قرن .

وفي عام ٤٤٧ م قامت جماعات اخرى من السكسون بغزو مقاطعة ساسكس على الساحل الجنوبي من الجزيرة وتوصلت إلى إخضاعها في غضون نحو من خمس عشرة سنة .

وغزت جماعات غيرها ، من السكسون أيضا ،مقاطعة الوسيكس في جنوب الجزيرة حوالي عام ٤٩٤ م واستتب لها الأمر فيها عام ٥٠٨ م وفي نهاية القرن الخامس احتلت جماعة من المغامرين الجوت جزيرة وايت مقابل الساحل الجنوبي .

وهاجمت عصابات من قبائل الانكل والسكسون السواحل الشرقية للجزيرة عند مصبات الأنهار ولاسيما في خليج واش واتبعوا مجاري الأنهار متوغلين نحو الداخل كمجرى نهر نين ونهر أوز ونهر التيمس وأنشأوا محطات ونقاط ارتكاز لهم في تلك المناطق .

ولم يتم استقرار الغزاة الجرمان في المقاطعات التي نزلوا فيها إلا بعد حروب دامية ومقاومة ضارية عنيفة من قبل البريطانيين ، وكانت المعارك بين الطرفين أشبه بمجازر يسقط فيها الاف القتلى من الطرفين ، وغالبا ماكان السكسون يلاحقون البريطانيين المهزومين إلى قلب الغابات للقضاء عليهم ، كما أن نقمتهم وبطشهم كانا يتناولان غير المحاربين من سكان المناطق التي يحتلونها فكانوا يستبيحون المدن ويعملون فيها النهب والسلب والقتل .

غير أن البريطانيين الذين اذهلتهم المفاجأة بالغزو استعادوا تنظيم جهودهم وتوحيدها بفضل بعض زعمائهم مثل أوريليانوس فاستطاعوا في القرن السادس إيقاف توسع ممالك السكسون في الجنوب والاحتفاظ بكل انكلترا الغربية وحوض التيمس وفرض سياستهم على مستوطنات الانكل ـ سكسون في حوض التيمس الأوسط . ولكنهم رغم انتصاراتهم العسكرية ، لم يستطيعوا استئصال الممالك البربرية أو إعادة بناء المدن المخربة أو القضاء على التنافس والمنازعات بين الزعماء المحليين .

ثم استعاد الجرمان زمام المبادهة والهجوم في أواخر القرن السادس ، وحقق ملوك وسيكس انتصارات حاسمة على البريطانيين ولاسيما في معركة ديرهام عام ٥٧٧ م ، وعلى إثر ذلك انسحب البريطانيون إلى المناطق الجبلية الغربية واعتصموا فيها وهاجر قسم كبير منهم إلى غاليا ، وانتقلت ملكية السهول الخصبة في شرق بريطانيا إلى أيدي الجرمان الغزاة .

ويصبح تاريخ بريطانيا والممالك البربرية فيها شديد الغموض والاضطراب في القرن السابع ، ويبدو أن البريطانيين استمروا في المقاومة في الجنوب حيث أسسوا دولا منيعة في منطقتي كورنويل وويلز الجبليتين ، كما استمرت مقاومتهم طوال القرن السابع ، في شمال انكلترا ، ولم يستطع الانكلو ـ سكسون تشكيل مملكة موحدة قوية ، ويبدو أن الجرمان شكلوا خلال هذا القرن ثماني ممالك في بريطانيا وهي : مملكة نورثمبريا في الشمال ومملكة لندسي على الساحل الشرقي شمال خليج واش ، ومملكة أنغليا الشرقية جنوب خليج واش ومملكة اسكس شمال نهر التيمس وممالك كنت وساسيكس ووسيكس وجزيرة وايت في الجنوب ، وفي هذا القرن أيضا تم أعتناق الانكلو ـ سكسون للديانة المسيحية بفضل البعثات التبشيرية التي أرسلها البابوات إلى الجزيرة .

وكانت هذه الممالك الانكلو ـ سكسونية في خلاف ونزاع دائمين فيما بينها واهمها ممالك كنت ووسكس ومرسيا ونورثمبريا ، وقد حاولت

- ١٠٣٠ -

كل من هذه الممالك الاربعة توحيد بريطانيا تحت سيادتها ، ولكن جميع محاولات التوحيد لم تنجح إلا لفترة بسيطة من الزمن وانتهت بالاخفاق ، وذلك لأنها كانت تقوم على جهود ملك قوي يتمتع بالنبوغ العسكري بحيث يتمكن من إخضاع الملوك المجاورين ، ولأن محاولات التوحيد كانت تصطدم بمقاومة البريطانيين الشديدة الذين عرفوا كيف يستغلون الخلافات بين ملوك الانكلو ـ سكسون للحيلولة دون تشكيل مملكة انكلو ـ سكسونية موحدة وقوية .

النظم الانكلو ـ سكسونية

كان الغزاة الانكلو ـ سكسون يتألفون من جماعات عديدة لكل منها زعيمها ، وبعد أن تم لها النصر على البريطانيين لم تتحد فيما بينها لتؤلف مملكة واحدة على غرار ماحدث في غاليا الفرنجية او إسبانيا القوطية ، بل أقامت عددا كبيرا من الدويلات وكان لكل دويلة ملك منتخب من بين افراد عائلة يعتقد أن نسبها يتصل إلى الآلهة ، فالملكية لم تكن مؤسسة سياسية بقدر ماكانت امتيازا لشخص يتمتع بمواهب عسكرية لأن الملك زعيم عسكري قبل كل شيء ، وكان النشاط الرئيسي للملك هو شن الحرب ضد الملوك المجاورين فإذا تغلب على احدهم ضم مملكته أو فرض عليه الجزية ، وقد نجح بعض الملوك في فرض سيطرتهم على انكلترا بأكملها وحملوا لقب « برتويلد » وكان في كل دويلة ، إلى جانب الملك مجلس يدعى مجلس العقلاء يضم اهم نبلاء المملكة وهو الذي ينتخب الملك ، وعلى هذا الأخير أن يستشير المجلس في كل الأمور الهامة .

ويتألف المجتمع من عدة طبقات تختلف نوعا ما من مملكة إلى اخرى ، وكانت أعلى طبقات المجتمع هي الطبقة التي تشكل أفراد العائلة الملكية ويطلق عليهم اسم أكثيلنغ وكان يليها طبقة النبلاء الذين يحملون لقب ايدل وكان جميع هؤلاء من المحاربين الذين يخدمون الملك وأعضاء الأسرة الملكية ، وأتى على رأس الطبقات العامة في استثمار الأرض الفلاحون الأحرار وتلاهم طبقات عدة من غير الأحرار وادناها طبقة العبيد .

وقد حافظ الانكلو ـ سكسون على أعرافهم القديمة وانشأ الملوك محاكم شعبية رأس كل منها ممثل عن الملك من النبلاء ، وتمتع جميع الرجال الأحرار بحق حضور المحاكمات وكانت الاحكام تصدر

بإجماع أصوات الحاضرين ، وحق للملك أن يصدر ، بالاتفاق مع مجلس العقلاء ، قرارات تعدل الأعراف التقليدية أو تضيف إليها قوانين جديدة .

وكان الانكلو ـ سكسون ، كغيرهم من الشعوب الجرمانية ، وثنيين يعبدون قوى الطبيعة ، وأشهر الآلهة أودان الذي ادعت اكثر الأسر الملكية أن نسبها يرتقي إليه ، وإلى جانب الآلهة وجد العديد من الكائنات العلوية مثل الفالكيرى والايلف ، وتوجد شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يحرقون الموتى بدلا عن دفنهم .

وكانت الزراعة هي عماد الحياة الاقتصادية ، وكان الانكلو ـ سكسون يطبقون أسلوب الدورة الثلاثية في الزراعة ، وكانوا يعرفون الحبوب ولكنهم جهلوا اكثر أنواع الخضر والفواكه ، وكانت الصناعة بسيطة جدا تقتصر على صنع الأدوات الضرورية للأعمال الزراعية والأسلحة والحلي أما أهم المبادلات التجارية فكانت مع مملكة الفرنجة والمركز التجاري الرئيسي هو مدينة لندن .

الكنيسة الانكلو ـ سكسونية

كان اعتناق الانكلو ـ سكسون للديانة المسيحية الكاثوليكية عاملا مساعدا إلى حد بعيد على تحقيق الوحدة الأخلاقية والسياسية في وطنهم الجديد ، وفي إعادة الصلات بين بريطانيا والعالم الروماني .

ويعود بدء النشاط التبشيري بين الانكلو ـ سكسون إلى نهاية القرن السادس عندما بادر البابا غريغوري الكبير إلى إرسال بعثة تبشيرية مؤلفة من اربعين راهبا إيطاليا تحت رئاسة أوغسطين ، وحلت هذه البعثة في مملكة كنت حيث سمح لها الملك بالاقامة في مدينة

كانتربري منذ عام ٥٩٧ م ، وكانت توجيهات البابا لاوغسطين تتمتع بالاعتدال نحو الجرمان الذين يعتنقون الكاثوليكية الرومانية ونحو البريطانيين المرتبطين بالطقوس الدينية الايرلندية . وكلف البابا أيضا أوغسطين برسم الأساقفة الجدد في بريطانيا .

اقتصرت اعمال التبشير لزمن طويل على مملكة كنت التي كان ملكها يحمي ويشجع المبشرين ، واعتنق هو نفسه الدين الجديد ، وقد حاول المبشرون الايطاليون دون جدوى ، التعاون مع الأساقفة البريطانيين الذين كانوا يعدون الايطاليين أجانبا ويكرهون الجرمان إلى حد أنهم « يخشون الالتقاء بهم في الجنة في اليوم الآخر إذا هم اهتدوا إلى الدين الصحيح » ، واقنع ملك كنت حليفه ملك أنغليا الشرقية باعتناق الكاثوليكية والتعمد ، ولكن رعاياه سكان انغليا الشرقية لم يحذوا حذوه ، كما أن سكان مملكة كنت ارتدوا إلى الوثنية بعذ موت ملكهم التقي عام ٦١٦ ، مما دفع أوغسطين وزملاءه إلى القنوط واليأس حتى كانوا أن يرجعوا إلى غاليا هربا من ردة فعل الوثنيين ، غير أنهم استعادوا شجاعتهم وتصميمهم على البقاء في بريطانيا ومتابعة التبشير برغم كل المصاعب ، وكانت نتيجة هذا التصميم استمرار بقاء مركز كانتربري حتى توصل احد خلفاء اوغسطين الى تعميد الملك الوثني في كنت ، ومنذ ذلك الحين اصبح ملوك كنت حماة مخلصين للكنيسة .

واحرزت بعثة كانتر بري التبشيرية نجاحا كبيرا عندما اعتنق ادوين ملك نورثمبريا المسيحية واصبحت مدينة يورك مركزا للأسقفية ، غير أن خلف ادوين شجع الرهبان الايرلنديين واعتمد عليهم في نشر المسيحية في مملكته ، واستخدم ملك نورثمبريا نفوذه وصلات القربى التي تربطه بملكي الوسكس والساسكس لكي يحملهما على اعتناق المسيحية وعلى قبول المبشرين في مملكتيهما ، وماان أطل النصف الثاني من القرن السابع حتى كانت المسيحية قد عمت في كل انكلترا الوسطى والشمالية .

وفي عام ٦٦٧ م عين البابا أسقفا جديدا في كانتر بري يدعى

ثيودور . وقد عمل الأسقف الجديد على تنظيم الكنيسة الكاثوليكية في بريطانيا وبعث نشاط بعثة كانتر بري ففرض نظاما شديدا على رجال الدين وعزل الأساقفة المنشقين أو الهراطقة ، ودعا الى عقد مجمع ديني للأساقفة الكاثوليك عام ٦٧٢ م وعين أسقفا لمدينة يورك في نورثمبريا يدعى ويلفرد استطاع بنشاطه وحماسه للكاثوليكية والمذهب الرهباني البندكتي أن يحقق انتصاراً لطريقة البندكتية على الطرق الايرلندية في مملكة نورثمبريا ، غير أن طمعه وحبه للسلطة أدى في أواخر القرن السابع الى ايقاع الخلاف والنزاع بينه وبين ملوك نورثمبريا وأساقفتها الوطنيين ، وقد استمر النزاع مدة طويلة وتدخل اسقف كانتر بري والبابا نفسه فيه .

ورغم أنهما توصلا الى تحقيق تسوية بين الطرفين المتنازعين فقد بقيت بذور الشقاق والانقسام بين كنيسة نورثمبريا والكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وفقد أساقفة كانتر بري وممثلوا البابا في بريطانيا كل سلطة لهم على اساقفة نورثمبريا منذ عام ٧٣١ م حتى أن البابا نفسه اضطر عام ٧٣٥ م الى منح أسقف مدينة يورك مرتبة رئيس أساقفة .

وهكذا كانت انكلترا في اواسط القرن الثامن بعيدة عن تحقيق الوحدة الدينية بعدها عن تحقيق وحدتها السياسية .

الامبراطورية الكارولنجية

- اوائل الكارولنجيين:

أقدم من يعرف من الكارولنجيين هو بيبن لاندن الملقب بالشيخ والذي كان حاجبا للقصر في عهد داغوبيرت الأول . ثم تولى حفيده بيبن الهرستالي الملقب بالشاب حجابة القصر في اوستراريا في دور الضعف الميروفنجي واصبحت حجابة القصر وراثية في عائلته . وقد استطاع بيبن الشاب ان يحقق الوحدة السياسية لملكة الفرنجة تحت سيادته بعد انتصاره على حاجب قصر نوستريا في موقعة ترتري عام ٦٣٦ م وتنصيبه ابنه غريموالد حاجبا لملكتي نوستريا وبرغنديا ولكن بيبن لم يدع خلفا له بعد موته عام ٧١٤ م سوى حفيد في السادسة من عمره لأن ابنه غريموالد كان قد قتل قبل ذلك بوقت قصير . واغتنم كبار مملكة نوستريا هذه الفرصة ليثوروا على عائلة بيبن وينتخبوا واحدا منهم حاجبا لقصر نوستريا وانضم اليهم دوق اكيتانيا فقدم على رأس جيش لمساعدتهم في محاربة الاوسترازيين . وكادت منجزات بيبن تنهار لولا أن ابنه الطبيعي شارل استطاع الهرب من سجن ارملة ابيه وتزعم الاوسترازيين في الحرب وانتصر على النوستريين وحليفهم دوق اكيتانيا في موقعة قرب مدينة سواسون واصبح في عام ٧١٩ سيد اوسترازيا ونوستريا وفي عام ٧٢١ م اعترف بتييري الرابع الميروفنجي ملكا ، وقاد عدة حملات ضد السكسون.وفي عام ٧٣٢ م تمكن من ايقاف تقدم العرب في موقعة بواتية ولقب على اثرها بـ « شارل مارتل » (من اللاتينية أي المطرقة) ثم اعاد اخضاع اكيتانيا وبرغنديا محققا بذلك توحيد مملكة الفرنجة من جديد تحت سيادته الفعلية اذ لم يكن للملك الميروفنجي أي سلطة ، وقد اصبح شارل مارتل يتمتع بنفوذ واسع

ولاسيما بعد انتصاره على العرب حيث ظهر بمظهر المدافع عن المسيحية وبلغ من نفوذه أنه ترك منصب الملكية شاغرا بعد موت الملك تييرى الرابع عام ٧٣٧ م ، ولكنه برغم ذلك لم يقدم على قلب السلالة الميروفنجية ، واتخاذ اللقب الملكي لنفسه ، وقد يكون السبب في ذلك راجعا الى وجود حزب قوي بين كبار المملكة يقر بشرعية حكم السلالة الميروفنجية فالجرمان منهم لايزالون متأثرين بالصفة القدسية التي تتمتع بها تلك السلالة التي كانوا يعتقدون ، عندما كانوا وثنيين ، انها من نسل احد الآلهة ، ويرون أن المملكة التي انشأها كلوفيس بقوة السلاح حق طبيعي لأحفاده من بعده ، كما أن الغالو ـ رومانديين منهم كانوا يرون شرعية حكم الميروفنجيين لأنهم احفاد كلوفس الذي حقق انتصار المسيحية الكاثوليكية على الوثنية وعلى الأريوسية . والذي تلقى شارات القنصلية ولقب باتريس من الامبراطور ، ويمكن بذلك عده ممثلا أو نائبا في الغرب .

هذا وقد عمل شارل مارتل على تأمين خلافته فقسم المملكة بين ابنيه كارلومان وبيبن قبل موته عام ٧٤١ م .

تأسيس الملكية الكارولنجية : بيبن القصير:

٢ـ انقلاب بيبن القصير:

حكم كارلومان وببين الملقب بالقصير ابنا شارل مارتل المملكة الفرنسية بعد موت أبيهما معا ، وابقيا منصب الملكية شاغرا عدة اشهر اضطرا بعدها إلى انتخاب أحد الميروفنجيين شيلدريك الثالث ، ملكا ويبدو أن ذلك كان بإصرار من جانب كارلومان الذي يعده بعض المؤرخين زعيما للحزب المؤيد تقيا ورعا ، ولذا اعتزل الحكم بعد بضع سنوات وانسحب إلى دير تاركا أخاه بيبن ينفرد في الحكم .

أما بيبن الذي أصبح بعد انسحاب أخيه الحاكم الوحيد فكان يتصف بأنه واقعي ، ويزن الأمور قبل الاقدام عليها ، وقد توطدت له السلطة بانسحاب أخيه وهو الذي سيحقق مالم يقدم عليه أبوه أي قلب السلالة الميروفنجية وتأسيس الملكية الكارولنجية . ولكن بيبن لم يتعجل الأمور إذ كان عليه أن يجد أولا المسوغ الشرعي لتنفيذ انقلابه ، وقد وجد هذا المسوغ في الفتوى التي اصدرها البابا ، وتتباين الآراء حول هذا الموضوع : هل بيبن هو الذي سعى إلى إيجاد المسوغ الشرعي الذي يحتاج إليه لدى الكرسي المقدس أم أن الكرسي المقدس هو الذي دفع بيبن ، بشكل غير مباشر ، إلى اللجوء إليه لهذا الغرض ؟ المهم أن حاجة كل منهما إلى الآخر جمعت بينهما . فبيبن كان في حاجة إلى الكرسي المقدس لمنحه الفتوى الدينية التي تسوغ له اتخاذ لقب ملك . وكان الكرسي المقدس في حاجة إلى مساعدة بيبن العسكرية ضد أطماع اللومبارديين التوسعية .

وعندما أصبح اللومبارديون يهددون دوقية روما بالاكتساح انتهز بيبن تلك الفرصة لكي يرسل إلى البابا زكريا وفدا مؤلفا من بركارد أسقف مدينة وورتزبرغ ومن كاهنه الخاص فولراد يطلب إليه باسم الفرنجة : « من الذي يجب أن يكون ملكا عليهم : الأمير الذي لايملك شيئا من السلطة أم ذلك الذي يملك السلطة ؟ » ولم يتردد البابا في الاجابة : « الأفضل أن يسمى ملكا من يملك السلطة الحقيقية لا من لايلمس بيده شيء منها » ، وكان هذا بمثابة صك التحالف بين الأسرة الكارولنجية والكرسي المقدس ، وكافأ البابا الكاهن فولراد لماقام به من دور في التقريب بين الطرفين بأن عينه راعيا لدير سان دنس .

كان جواب البابا الحجة التي استند إليها بيبن عندما تقدم إلى كبار المملكة بترشيح نفسه لكي ينتخبوه ملكا عليهم وذلك في عام ٧٥١ م ، فنادوا به ملكا حسب المراسم الجرمانية التقليدية وفي نهاية عام ٧٥١ م مسح القديس بونيفيس الملك الجديد في مدينة

سواسون مضفيا بذلك على سلطته الزمنية صبغة دينية قدسية . أما الملك الميروفنجي المخلوع شيلديريك الثالث فقد أرسل إلى دير سان برتان ليقضي فيه بقية حياته .

لم يتم هذا الانقلاب في السلالة المالكة ، رغم تأييد البابا دون معارضة فقد أثار على مايبدو بعض القلاقل والاضطرابات الشعبية المناهضة له ولكن هذه الاضطرابات كانت بسيطة استطاع بيبن إخمادها بسهولة

بيبن القصير والكرسي المقدس:

شعر البابا ايتين الثاني الذي خلف البابا زكريا بالحاجة إلى وضع التحالف مع بيبن موضع التطبيق بعد أن توغل ملك اللومبارديين ايستولف بأعمال توسعية داخل دوقية روما عام ٧٥٢ م ، فأرسل البابا الجديد إلى بيبن يسأله ماإذا كان يمكنه الاعتماد عليه عند الحاجة وكان جواب بيبن إيجابيا .

ولم يعد البابا يفكر بغير الالتجاء إلى ملك الفرنجة ، وكان عليه ، لتحقيق ذلك ، أن ينجو في أن واحد من البيزنطيين ومن اللومبارديين وجاءت المناسبة المواتية لتنفيذ مايحلم به عندما طلب إليه الأمبراطور البيزنطي أن يلتحق بالمندوب الذي أرسله إلى ملك اللومبارديين ليطلب منه باسم الأمبراطور التخلي عن الأراضي التي احتلها ، وتمت المقابلة مع ملك اللومبارديين في عاصمته بافيا في أواخر عام ٧٥٣ م دون أن تؤدي إلى نتيجة مرضية لأن ايستولف رفض الاستجابة إلى طلب الامبراطور ، وبدلا من أن يعود البابا ايتين الثاني إلى روما استطاع الهرب من مندوب الأمبراطور ومن الملك اللومباردي وأخذ طريقه نحو فرنسا .

وعندما اصبح البابا في مأمن خطرت له مسألة هامة : كيف سيستقبله بيبن ؟ ... هل سيستقبله بصفته أسقفا لمدينة روما كغيره من الأساقفة أم بصفته الحبر الأعظم والرئيس الروحي للكنيسة

المسيحية كلها ؟ ... ولكي لايدع مجالا للتردد في هذه المسألة وضع ، حسب رأي النقاد الوثيقة التي عرفت باسم « هبة قسطنطين وهي رسالة موجهة من الامبراطور قسطنطين الكبير إلى أسقف مدينة روما المعاصر له سيلفستر الأول يمنحه فيها الأمبراطورية ويقول فيها إن الأباطرة سيكونون من رعايا الحبر الأعظم وانهم سيقودون مطيتهم في الاحتفالات ، وقد اعتقد رجال العصر الوسيط بصحة هذه الرسالة حتى كشف عن تزويرها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

ومهما يكن من أمر ، فقد استقبل بيبن القصير البابا أيتين عند وصوله إلى المقر الملكي في بونتون حسب ماجاء في تلك الوثيقة وبدأت المفاوضات بين الطرفين في بونتون ثم توبعت في دير سان دنس وقد هدفت إلى تحقيق شرطي التحالف أي : اعتراف البابا الشخصي ببيبن القصير ملكا على فرنسا ، وتقديم بيبن المساعدة العسكرية للبابا ضد اللومبارديين ، وتم تنفيذ الشرط الأول في ربيع عام ٧٥٦ م عندما توج البابا بنفسه بيبن ومسحه مع ابنيه ملوكا على الفرنجة وحماة للرومانيين ، وحرم على كبار رجالات المملكة أن ينتخبوا ملكا عليهم من غير السلالة الجديدة .

بقي على بيبن تنفيذ تعهده للبابا . فبدأ لذلك مفاوضات مع ايستولف ملك اللومبارديين لكي يعيد إلى البابا مااحتله اللومبارديين من أرض دوقية روما ونيابة رافين ، ولما كانت المفاوضات عقيمة فقد توجه بيبن ، يرافقه البابا ، إلى إيطاليا في ربيع عام ٧٥٥ وحاصر ايستولف في عاصمته بافيا . ولم يرفع الحصار عنها ويرجع إلى بلاده حتى وعد ايستولف بتنفيذ طلبات ملك الفرنجة . غير أن ايستولف نكث بوعده وزحف مجددا نحو روما وحاصرها في مطلع ٧٥٦ م ، فعجل البابا بإرسال مندوب إلى بيبن ثم برسالة مؤثرة حررها باسم القديس بطرس نفسه ، يستنجد فيها بملك الفرنجة . فعاد بيبن إلى إيطاليا في ربيع ٧٥٦ م وحاصر بافيا واجبر ايستولف على أن يسلم مندوب البابا ماكان احتله من نيابة

رافين ، بالاضافة إلى الاراضي التي كان يحتلها في دوقية روما ، كما فرض عليه غرامة حربية وجزية وكان ذلك بداية تكوين دولة الكنيسة التي ستستمر خلال عدة قرون ، وبعد موت أيستولف عام ٧٥٦ م عمل البابا وبيبن على تعيين الأمير اللومباردي ديديه خلفا له ، ومالبث الخلاف أن نشب بين البابا والملك اللومباردي الجديد الذي عاد إلى اتباع سياسة أسلافه ، ولكن بيبن سلك سياسة التوفيق بينهما وتوصل إلى تسوية الخلافات بينهما عام ٧٦٣ م .

بيبن وزعيم السلطة الملكية:

كان على بيبن أن يؤمن توطيد سلطته في داخل مملكته وأن يؤمن حماية حدودها . ولذا فقد اهتم بإخضاع دوقية اكسيتانيا التي كان دوقها يعود إلى التمرد والاستقلال بعد كل مرة يعلن فيها خضوعه للملك ، ولذا كان بيبن يوجه إليها كل سنة حملة عسكرية حتى عام ٧٦٨ م حيث قتل الدوق المتمرد وتم إخضاع اكسيتانيا نهائيا .

وتمكن بيبن بين عامي ٧٥٢ و ٧٥٩ أن ينتزع مقاطعة سبتمانيا في الجنوب من المسلمين بفضل مساعدة سكانها له ومساعدة اللومبارديين ، وقد عرف بيبن كيف يستميل سكان المقاطعات المفتوحة بأن ضمان لهم سلامة أملاكهم وترك لهم القوانين والأنظمة التي اعتادوا عليها .

وعمل بيبن على اخضاع السكسونيين الذين كانوا يقومون بالغزو على مقاطعتي هسن وتورنجة فوجه ضدهم حملتين عام ٧٥٣ وعام ٧٥٨ واجبرهم على الرضوخ ودفع الجزية

وكان الاخفاق الوحيد الذي لقيه بيبن في سياستة الخارجية هو استقلال دوق بافاريا عام٧٦٣ فقد كان تاسيلون دوق بافاريا من الرعايا المخلصين لملك الفرنجة ، ولكنه بعد أن ساهم في الحملات الموجهة إلى اكيتانيا ، رأى أن بافاريا لا تجني أي فائدة من ذلك

فأعلن استقلاله عام ٧٦٣ م ، وتوفي بيبن القصـير دون أن تتـاح له الفرصة لاعادة دوق بافاريا الى الاعتراف بسيادته .

وحافظ بيبن ، برغم تدخله في ايطاليا ، على علاقـات ودية مـع الامبراطورية البيزنطية ، وقد حاولت بيزنطـة جـره الى صـفها في خلافها مع البابا حول بعض القضايا الدينية كعبادة الصور ومسألة انبثاق الروح القدس الا أن بيبن كان كاثوليكيا مخلصا يحترم الدور الروحي الذي يمثله البابا ، ولذا لم يؤيد بيزنطة في هذا الخلاف .

ويمكن الكلام عن سياسة تقارب بين بيبن وبين الدولة العبـاسية قائمة على العداء المشترك بينهما للدولة الأموية في الأندلس وقد ظهر هذا التقارب في تبادل السفراء بين بيبن القصير والخليفـة العبـاسي المنصور .

رغم أن بيبن بذل جهودا كبيرة في توحيد مملكة الفرنجة فقـد عاد الى تقسيمها قبل موته بين ابنيه شارل وكارلومان حسب خط يذهب من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، فخص ابنه الكبير شارل بولايات المانيا والالزاس وبرغنديا وبروفانس وسبتيمانيا وجزء من اكيتانيا وخص الابن الآخر كارلومان بنوستريا واوسـترازيا وبقية اكيتانيا .

١ ـ شخصية شارلمان وبداية حكمه:

ولد شارلمان عام ٧٤٢ م . وكان جرمانيا متين البنيان .متوازن التركيب مستدير الراس ، واسع العينين ، بشـوشا ، بسـيطا في مظهره الخارجي وفي نمط حياتـه . وكان ولوعا بـالصيد ، كريمـا وعطوفا ، وكان أبا محبا لأبنائه وبناته ، وقد اكتسـب ثقـافة جيدة بجهوده الخاصة وأحاط نفسه بعدد من كبار المثقفين في عصره .

تولى شارل الحكم مع أخيه الأصغر كارلومان حسب وصية ابيهما بيبن الذي قسم بينهما مملكته قبل موته . ولكن بدا الشقاق بين الأخوين على اثر رفض كارلومان مساعدة اخيه شارل في اخماد ثورة دوق اكيتانيا عام ٧٦٩ م ، ثم تجدد الشقاق بينهما في السنة التالية بسبب موقف كل منهما تجاه ملك اللومبارديين ديدييه الذي اعتقد انه ، بتزوج شارل من ابنته ، أصبح في مأمن من جانب ملوك الفرنجة حماة الكرسي المقدس ، فسار الى روما وأجبر البابا اتيين الثالث على أن يسلمه رؤساء الحزب المناصر للفرنجة في الأجهزة الادارية في الكنيسة وذلك في ربيع عام ٧٧١ م ، وبعد وقت قصير مات كارلومان فجأة مخلفا طفلين صغيرين ، فسارع شارل الى احتلال ممتلكاتهما وضمها الى مملكته ، واضطرت أرملة اخيه الى الهرب بطفليها والتجأت الى ديدييه ملك اللومبارديين .

التدخل في ايطاليا:

اتخذ شارلمان موقفا مؤيدا للبابا ووقف ضد غزو اللومبارديين لأراضي الكرسي المقدس وأعرب عن موقفه هذا بتطليق ابنة الملك اللومباردي وقد حاول هذا الأخير فصم عرى التحالف بين البابا وشارلمان بأن يجبر البابا هادريان الأول على تكريس ابني كارلومان ملكين على الفرنجة ، وبدأ باكتساح الأراضي التي كان قد تنازل عنها للكرسي المقدس ، مصطحبا معه ابني كارلومان لتكريسهما في روما ، وكان شارلمان انذاك يقود حملته الأولى ضد السكسون ، لذا حاول التهرب من تلبية استغاثة البابا والمفاوضة مع ديدييه ولما اخفقت هذه المفاوضات توجه شارلمان على رأس جيشه الى ايطاليا في أواسط عام ٧٧٣ م فاجتاز جبال الألب وتملك الخوف اللومبارديين الذين هربوا أمام زحف جيش الفرنجة والتجأوا ، بعد سقوط مدنهم إلى العاصمة بافيا حيث فرض عليهم الحصار ، وقد امتد الحصار أمدا طويلا مما اتاح لشارلمان الفرصة لقضاء أعياد الفصح عام ٧٧٤ م في روما .

وقد استقبل هادريان الأول شارلمان في روما بمظاهر الحفاوة والتكريم ، ولكنه خشي مما قد تجره اقامة مثل هذا الزائر العظيم في روما من اخطار على سلطة البابا ، ولذا رغب في أن تكون اقامته خارج المدينة المقدسة ، وقد نزل شارلمان عند هذه الرغبة ، واستفاد البابا مما أبداه ملك الفرنجة من النوايا الحسنة لكي يحصل منه على تأكيد جديد للهبة التي منحها ابوه بيبن للكرسي المقدس .وكانت الوثيقة الجديدة التي حصل عليها تمنح الكرسي المقدس ، عدا ما سبق أن منحه بيبن مقاطعة توسكانا مع جزيرة كورسيكا، ودوقية سبوليت ، ودوقية بينفيان ، والبندقية التي كانت لا تزال تحت الادارة البيزنطية ، وقد اختلف المؤرخون المحدثون في تعليل هذه الوثيقة التي منحها شارلمان الى البابا هادريان الأول ، فمنهم من يذهب الى القول بعدم صحتها ، ويرى بعضهم أن شارلمان اراد أن يكون له حليف قوي في ايطاليا ولذا اقتسمها مع البابا ، بحيث يحتفظ لنفسه بكل مالم يمنح صراحة الى الكرسي المقدس ، بينما يرى أخرون أن البابا استطاع أن يستغل تقوى شارلمان وورعه لكي يلعب عليه ويحصل منه على تلك الوثيقة .وسواء اكانت هذه الزيادة في الهبة للكرسي المقدس عن طواعية وبارادة شارلمان ، أوان البابا خدعه للحصول عليها فقد كانت سياسته في ايطاليا خلال العشرين سنة التالية ترمي إلى الحد من مطامح البابا هارديان الأول .

عاد شارلمان بعد قضاء أعياد الفصح في روما الى جيشه الذي كان لا يزال يحاصر بافيا وبعد قليل استسلم ديدييه الذي نفي الى احد الأديرة وتوج شارلمان نفسه ملكا على اللومبارديين . وكان اول اعماله بعد ذلك أن وضع تحت سيادة البابا الاراضي التي انتزعت من اللومبارديين • عاد شارلمان الى ايطاليا مرة أخرى في أواخر عام ٧٨٠ م تلبية لنداء البابا الذي اصطدم بمعارضة الحاكم البيزنطي في ايطاليا الجنوبية ، عندما طالب بأن يكون له السيادة على دوقيتي سبوليت وبينيفيان ومدينة تيراسينا (جنوب روما) غير أن التسوية التي أقرها لم تحقق شيئا من مطامع البابا الذي اضطر للاعتراف بسيادة البيزنطيين على تيراسينا والى التنازل عن دوقية سبوليت

لشارلمان الذي نصب ابنه بيبن ملكا لايطاليا وكان رد فعل البابا على ذلك أن اخذ بالتقرب الى البلاط البيزنطي .

قدم شارلمان الى ايطاليا مرة ثالثة عام ٧٨٧ لكي يخمد المؤامرات التي كان يحيكها دوق بينفيان فتم له ما أراد . ووعد شارلمان البابا بالتخلي له عن جنوب مقاطعة توسكانا ، واجبر دوق بينفيان على الاعتراف بسيادة رئيس الكنيسة وذلك لكي يبعده عن التحالف مع الامبراطورية البيزنطية ولكنه فيما بعد تنصل من تنفيذ ما وعد به .
وعلى هذا فقد كانت سياسة شارلمان في ايطاليا تقوم دائما على اساس تسويات موقتة مع البابا واجتناب الدخول في صراع صريح معه ، فاكتفى الكرسي المقدس بما حظي به في عهد بيبن القصير من املاك كما فرض شارلمان سيادته على قسم كبير من ايطاليا الشمالية ، وكان شارلمان يناصر البابا ويؤيده في أدارة الكنيسة برغم انه ، بصفته حامي الرومانديين ، وكان يتلقى شكاوى رعايا الدولة البحرية ، ورغم أن شارلمان كان يتدخل في الأمور الدينية والكنسية في مملكته فإنه لم يتدخل في الانتخابات الحبرية التي جرت على اثر وفاة البابا هادريان الأول عام ٧٩٥ وانتخب فيها البابا الجديد الذي حمل أسم ليون الثالث .

أعمال شارلمان التوسعية:

امضى شارلمان ثلاثين سنة في حروب دائمة . فكان في كل سنة يقود حملة الى احدى جبهات الحدود للدفاع عنها او للتوسع باحتلال اراضي جديدة ، فاضطر الى خوض حروب ضد السكسون والعرب في اسبانيا والبافاريين والافار

الحروب مع السكسون:

كانت اشد حروبه عنفا وضراوة هي تلك التي خاض غمارها ضد

السكسون الذين عادوا ، بعد أن شغلوا خلال القرن السابع باحتلال بريطانيا ، الى غزو حدود المملكة الفرنجية في مقاطعتي هس وترنج في الشمال الشرقي وقد كانت الحملة الأولى التي وجهها شارلمان ضدهم عام ٧٧٢ م حملة تأديبية على غرار الحملات التي سبق أن وجهها ضدهم شارل مارتل وبيبن القصير . ولذا اقتصر شارل على تخطي حدود هس الى مسافة قليلة ومهاجمة احدى قلاع السكسون وتدمير معبد الشجرة المقدسة لديهم واخضاع بعض قبائل منطقة الويزر وكان رد فعل السكسون في العام التالي ان غزوا مقاطعة هس ولم يقم شارلمان بأي تدبير ضدهم قبل عام ٧٧٥ م بسبب انشغاله بالتدخل في ايطاليا ،ودفع شارلمان بقواته هذه المرة الى داخل بلاد السكسون واقام حاميات قوية في مواقع على نهر الرور غير أن السكسون استفادوا من عودته الى ايطاليا في نهاية عام ٧٧٦ م لكي يعودوا الى احتلال تلك المواقع . وفي عام ٧٧٧ م هاجم شارلمان السكسون ووصل في تقدمه حتى منابع نهر ليب واصبحت بذلك وستفاليا الجنوبية كلها تحت سيطرة الفرنجة وعلى اثر هذا النصر اخذت أفواج السكسون تقبل على شارلمان معلنة خضوعها ، واعتقد شارلمان أن الأمر قد استتب له وأنه قد حان الوقت لاستبدال الجنود بالمبشرين فشجع على اقامة الأديرة والأسقفيات .

وبينما كان شارلمان في العام التالي ٧٧٨ يقاتل العرب المسلمين في اسبانيا ، قام أحد زعماء السكسون في وستفاليا واسمه فيدو كنت فحرض السكسون على الثورة ضد الفرنجة لاستعادة استقلالهم والهتهم فهاجموا الأديرة والكنائس واحرقوها وقتلوا رجال الدين المسيحيين الموالين للفرنجة ، واضطر شارلمان لاعادة اخضاعهم خلال عامي ٧٧٩ ها ٧٨٠ م وهرب فيدو كنت الى الدانمرك ، واراد شارلمان تنظيم ادارة بلاد السكسون لكي يضمها نهائيا الى مملكته فقسمها الى كونتيات عهد بادارة كل منها الى أحد النبلاء الموالين له ، غير أن فيدو كنت رجع من الدانمرك وقاد اتباعه في ثورة جديدة وسحق جيشا فرنجيا كبيرا في معركة قتل فيها عدد كبير من كبار الفرنجة ، وقد زادت هذه الهزيمة في تصميم شارلمان

على اخضاع السكسون فقدم بنفسه على رأس جيش كبير وخاض معارك عديدة مع السكسون خلال أعوام ٧٨٣ - ٧٨٥ م وطارد زعيمهم فيدو كنت حتى سواحل بحر الشمال . واضطر فيدو كنت ، بعد أن تخلى أتباعه عنه إلى الاستسلام وقبل باعتناق المسيحية بعد أن عفا شارلمان عنه واصدر الملك الفرنجي مرسوما يعاقب بموجبه بالموت كل من يتمرد من السكسون او يعتدي على رجال الدين أو يرفض التعميد .

إن فرض اعتناق المسيحية بالقوة دفع السكسون إلى الثورة من جديد منذ عام ٧٩٢ ولم يتمكن شارلمان من إخضاعهم نهائيا إلا بعد أربع حملات بين سنتي ٧٩٤ و ٧٩٧ ولا سيما بعد أن لجأ الى نقل السكسون ، الثائرين من بلادهم وتوطينهم في مناطق أخرى داخل المملكة الفرنجية واستعاض عنهم بالفرنجة أو بجماعات موالية لهم.

الحرب مع العرب في اسبانيا:

عندما كان شارلمان في بلاد السكسون ٧٧٧م جاء والي مدينة سرقسطة العربي الذي كان مشتركا في مؤامرة قيل كان يدعمها الخليفة العباسي في بغداد ضد الأمير عبد الرحمن ، إلى بلاط شارلمان يطلب المساعدة ، وبذلك أعطى شارلمان فرصة التدخل بين المسلمين ومن ثم الذهاب الى اسبانيا وتوسيع حدود مملكته إلى ما وراء جبال البيرنيه، ولذا اعد في عام ٧٧٨ حملة مؤلفة من جيشين دخل أحدهما بقيادة شارلمان نفسه إلى مقاطعة نافار بعد اجتياز البيرنيه الغربية بينما اجتاز الجيش الآخر البيرنيه الشرقية وتقدم في مقاطعة كاتالونيا بعد احتلال مدينتي جيرونة وبرشلونة على الساحل الشرقي ، والتقى الجيشان أمام أسوار سرقسطة التي رفض واليها الجديد تسليمها ودافع عنها بشجاعة ملحقا بالفرنجة خسائر فادحة ، وعندما علم شارلمان بقدوم الأمير عبد الرحمن لنجدة مدينة سرقسطة خشي من التطويق فأثر التراجع والانسحاب من اسبانيا ،

وبينما كانت مؤخرة جيشه مارة في ممر رونسفو الضيق في جبال البيرنيه اثناء تراجعها فاجأها العرب والباسك (البشكنس) الجبليون بالانقضاض عليها وابادتها ، وكان بين القتلى حاكم بند بريتاني المدعو رولان والذي اصبح من أبطال الفرنجة الأسطوريين ، وخلدت ذكراه في اشعار الملاحم الفرنجية التي حملت اسم «نشيد رولان»

اراد شارلمان الثأر لكارثة رونسفو فوجه حملة جديدة إلى اسبانيا عام ٧٨٥ م استولت على مدينة جيرونة والمنطقة الساحلية الشرقية المكملة لمنطقة سبتيمانيا .غير أن المسلمين استرجعوا ما استولى عليه الفرنجة وطردوهم خارج اسبانيا ولاحقوهم حتى ما بعد مدينة نربونة في جنوب فرنسة ومن ثم توجهوا نحو قرقشونة فالتقوا بجيش للفرنجة يقوده غليوم كونت مدينة تولوز وابن عم شارلمان وكان النصر في المعركة التي دارت بين الطرفين الى جانب العرب المسلمين وقتل فيها غليوم ، ولكن العرب لم يحتفظوا بفتوحاتهم في جنوب فرنسا بل عادوا الى اسبانيا .

وعاد الفرنجة إلى مهاجمة اسبانيا عام ٧٩٥ وتوصلوا الى احتلال برشلونة عام ٨٠١ م ودعا الفرنجة هذه المنطقة الساحلية التي احتلوها في اسبانيا غوتالانيا أو بالحري بلاد كاتالونيا اي «بلاد القوط .

اخضاع بافاريا والآفار:

اعلن تاسيلون دوق بافاريا استقلاله عن ملك الفرنجة منذ أواخر عهد بيبن القصير في عام ٧٦٣ م ولكن شارلمان اجبره في عام ٧٨١ م على الرجوع إلى الانطواء تحت سيادته غير أن متاعب شارلمان مع السكسون والمؤامرات التي كانت تحاك ضده في ايطاليا دفعت تاسيلون الى اضطهاد الموالين لشارلمان في با فاريا ثم الى الثورة عام ٧٨٧ م ، ولما هدده البابا بالحرمان رجع الى الطاعة وحلف ، هو وشعبه ، يمين الولاء لملك الفرنجة ، بيد انه تحالف في العام

التالي مع الأفـــار الوثنيين ومـــع البيزنطيين ضـــد شـــارلمان فتخلى اتباعه عنه وحكم عليه البلاط الملكي بالموت غير أن شارلمان عفا عنه وسجنه في عدة اديرة ، ولم يخرجه منها قبل عام ٧٩٤ م حيث اعلن تنازله عن كل حـــق له في دوقية بـــافاريا التـــي ضـــمت الى المملكة الفرنجية .

أدى تحالف تاسيلون مع الافار بهذه القبائل المغولية الأصـــل الى تجديد غزواتها على الغرب ، ولذا قرر شارلمان التخلص من خطرهم باخضاعهم فوجه اليهم منذ عام ٧٩١م عدة حمـــلات ضـــارعت في ضراوتها الحملات ضد السكسون . وتم له في عام ٧٩٥ م قهـــرهم حيث لم يبق أمامهم سوى الخضوع أو الالتجاء الى البلغار .

تتويج شارلمان امبراطورا :

في يوم ٢٥ كانون الاول مـــن ســـنة ٨٠٠ م (اي يوم الميلاد)تـــوج البابا ليون الثالث شارلمان امبراطورا على الغرب في كنيسة القديس بطرس في روما ، ولكن قبل أن نبحـــث في حـــادثة التتـــويج هـــذه لنستعرض ما تقدمها من الحوادث التي تتعلق بـــالكرسي المقـــدس في روما ، والتي ترتبط بها ارتباطا مباشرا .

في عام ٧٩٥ توفي البابا هادريان الأول فانتخب خلفا له البـــابا ليون الثالث الذي كان يمثل البيرقراطية الرومانية ، ويبدو أنه شـــعر منذ الأيام الأولى لتوليه منصب البابوية بمعـــارضة انصـــار البـــابا الراحل ، وهذا ما يفسر وقوفه منذ البـــداية مـــوقف التـــابع نحـــو شارلمان حامي الرومانيين ، فقد ســـارع الى ارســـال مندوبين الى الملك الفرنجي يحملون اليه إعلامـــا بـــانتخاب البـــابا ليون الثـــالث ومفاتيح كنيسة القديس بطرس وعلم مدينة روما ، وقد يكون ارسال مفاتيح الكنيسة نوعا من المجاملة ، أما ارسال العلم فهـــو دليل على الاعتراف بشارلمان قائدا للكنيسة وانه القاضي الأعلى في روما ، كما أن إرســـال العلم إليه ، وهـــو الذي كان يوجـــه عادة الى الأبـــاطرة

البيزنطيين ، يعني أن البابا بات يعد شارلمان ندا لأولئك الأباطرة ، يضاف الى ذلك أن ليون الثالث طلب من شارلمان ان يرسل احد أعيان بلاطه الى روما ليتلقى عن الرومانيين يمين الولاء والأخلاص له .

وقد أوفد شارلمان احد المقربين اليه وهو أنغلبيرت إلى البابا مع رسالة تحدد بدقة واجبات وسلطات كل من البابا وحامي الرومانيين : يقوم الأول بالصلاة والدفاع ويمارس الثاني السلطة الفعلية ، وقد قبل البابا ليون الثالث بهذا التحديد والفصل بين السلطات حتى انه عبر عنها في قطعة فسيفساء في قصر اللاتران تمثل القديس بطرس وهو يقدم الوشاح (رمز السلطة الدينية والكهنوتية) الى ليون الثالث والعلم (رمز السلطة العسكرية والقضائية)الى شارلمان .

والواقع أن البابا الجديد ترك شارلمان يهيمن على جميع الشؤون الادارية في الكنيسة .

ويبدو ان مباذل ليون الثالث كانت ذات اثر في دفعه الى ذلك الخضوع لشارلمان الذي كتم عدة شكاوي وردته عام ٧٩٨ م عن سوء سلوك البابا خشية اثارة فضيحة . وفي ٢٥ نيسان عام ٧٩٩ اتهم اثنان من اقرباء البابا المتوفى وكبار موظفي الكنيسة ليون الثالث بالتجديف والزنا وهجما عليه اثناء احتفال ديني محاولين قلع عينيه ، ولم ينقذه من ذلك سوى تدخل المقيم الفرنجي ، وسارع ليون الثالث بعد نجاته ، إلى الذهاب الى بلاط شارلمان الذي اعاده إلى روما بصحبة عدد من كبار رجال الدين الفرنجة والكونتات وطلب اليهم اجراء تحقيق في الأمر ، وفي أواخر عام ٨٠٠ م قدم شارلمان بنفسه الى روما وبعد اسبوع من وصوله اليها ، اي في أول كانون الأول ، عقد محاكمة علنية ونظرا لصعوبة اصدار حكم في القضية تقرر الاستماع الى الاتهامات الموجهة الى البابا في جلسة علنية وبعد ذلك يحلف البابا يمينا بأن برىء من تلك الاتهامات،وهذا ما جرى في كنيسة القديس بطرس يوم ٢٣ كانون الأول

عام ٨٠٠ م وعلى الأثــــــر قبض على المتهمين وسـلما إلى الجلاد ،ولكن البابا توسط للعفو عنهما والاكتفاء بنفيهما الى فرنسا.

لايمكن فصل ما جرى في كنيسة القديس بطرس يوم ٢٣ كانون الأول عن حادثة التتويج في الكنيسة نفسها بعد يومين برغم ما بينهما من خلاف في طبيعة كل منهما، ولدينا خمس روايات حول ما حدث يوم عيد الميلاد ، انها تتفق جميعا على القول بأن شارلمان كان اثناء قداس يوم عيد الميلاد عام ٨٠٠ م يصلي راكعا امام ضريح القديس بطرس ، وبينما كان الملك ينهض وضع البابا على رأسه تاجا وهتف الشعب الروماني مناديا :«الحياة والنصر لشارل المجيد ، الذي توجه الرب على الرومانيين امبراطورا عظيما ومحبا للسلام» . وقدم له البابا ايات التعظيم والاحترام كما كانت العادة في عصر الأباطرة الماضين ومنذ ذلك الوقت حمل شارلمان لقب امبراطور واغسطس بدلا من لقب حامي الرومانيين .

ولكن هذه الروايات تختلف حول من كان صاحب الدور الأول في حادثة التتويج وموقف شارلمان منها ، فبعضها يعزو الدور الأول والمبادرة في التتويج إلى البابا الذي وضع التاج بيديه على راس شارلمان ، وللشعب الروماني دون أن يبدو على شارلمان اثرا للدهشة او الاستياء اما بعضها الآخر «فيقول بأن البابا توج شارلمان دون أن يكون له اي (شارلمان) علم مسبق بما سيجري »، بينما ذهب ايكنهارد صاحب كتاب «حياة شارلمان» الى القول بأن الملك الفرنجي كان مستاء الى حد انه لو كان يعلم بما سيجري ذلك اليوم لما دخل الى كنيسة القديس بطرس .

وادى الخلاف بين الروايات التي روت حادثة التتويج الى انقسام اراء المؤرخين المحدثين وعدم اتفاقهم ، ومع هذا يرجح أن شارلمان كان على اتفاق مع البابا ومختلف الجماعات التي حضرت بشأن التتويج وأن الاحتفال اتفق عليه مسبقا ليتضمن : هتاف الشعب ومناداته بشارلمان امبراطورا ثم التتويج مع تقديم ايات التعظيم والاحترام ، غير ان البابا قلب هذا الترتيب بأن جعل التتويج يسبق

الهتاف الشعبي لكي يجعل لنفسه دورا رئيسيا في التتويج ، وهذا ما ادى الى استياء شارلمان الذي كان ينوي ، على ما يبدو ، أن يضع التاج على رأسه بنفسه بعد أن يتناوله من البابا لكي لايدع لهذا الأخير اي حجة للادعاء بسلطة تعلو سلطة الامبراطور ، ويؤيد هذا الراي أن شارلمان عندما توج ابنه لويس فيما بعد في عام ٨١٣ م لم يدع البابا أو أحد ممثليه لحضور حفل التتويج ووضع بيديه التاج الامبراطوري على رأس ابنه .

اختلف المؤرخون المحدثون ايضا حول ما هية هذه الامبراطورية التي انشأها شارلمان ، ويبدو أن شارلمان نفسه كان مترددا حول هذا الموضوع اذ انه ظل يحكم سنتين بعد تتويجه دون أن يستخدم لقبه الجديد ولعله كان يتساءل عن حقيقة هذا اللقب وعما يعمل به .

لقد عرفت اوربا الغربية حتى ذلك الوقت نوعين من الأمبراطورية وهما الامبراطورية الرومانية القديمة الكبرى وامبراطورية الغرب ، فهل كان المسؤولون عن تتويج شارلمان يهدفون الى اعادة الأمبراطورية الرومانية الكبرى أم اعادة امبراطورية الغرب ؟ ترجح بعض الروايات أن الهدف كان احياء الأمبراطورية الكبرى لأنه لم يعد يوجد امبراطور في بلاد الاغريق واصبح هؤلاء تحت سيادة امرأة وشغر عرش الامبراطورية في الغرب وفي الشرق حيث كانت ايرين تحكم بعد اغتصابها لعرش ابنها قسطنطين السادس ، ولكن مثل هذا الأدعاء كان سيؤدي بلا ريب الى حرب مع البيزنطيين ، وهذا ما لم يكن يرغب شارلمان فيه بل على العكس كان يسعى الى انشاء علاقات ودية مع بيزنطة منذ عام ٧٩٣ م في عهد قسطنطين السادس الذي كان يحكم تحت وصاية امه ايرين ، ففي عام ٧٩٧ م استقبل شارلمان سفراء بيزنطة استقبالا رائعا ، وعندما عزلت ايرين ابنها قسطنطين عن العرش عام ٧٩٨ م وتولت الحكم بنفسها لم يظهر شارلمان اي استنكار لهذا العمل ، وفي السنة التالية استقبل سفراء مغتصبة العرش بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وهذا كله لا يدل على نوايا عدوانيبة بل سعى شارلمان إلى إعادة الوحدة بين قسمي

الأمبراطورية الرومانية القديمة بـطريقة سـامية وهـي الزواج بين صاحبي السلطة فيهما ، ولذا ارسل شارلمان عام ٨٠٢ م بمـوافقة البابا ليون الثالث سفراء عنه إلى القسطنطينية للمفـاوضة بشـأن زواجه مـن ايرين ، ولكن هـذا الحلم الجميل لم يتحقـق لأن ثـورة نشبت في القسطنطينية بعد وصـول سـفراء شـارلمان اليهـا بقليل وأطـاحت بـالامبراطورة ايرين ، ورفض الأمبـراطور البيزنطـي الجديد ، نقفور الأول ،الاعتراف باللقب الامبراطوري لشـارلمان ولم يعد شارلمان يطمح الى اكثر مـن اجبـار نقفـور على الاعتـراف له بذلك ، واستفاد شارلمان من متاعب نقفور في حروبه مع العبـاسيين في الشرق لكي يحتل منطقة البندقية ود الماسيا ويسـتخدمها وسـيلة للضغط على بيزنطة ، وقد تم له مـا أراد في المعـاهدة التـي بـدا التفاوض عليها بينه وبين نقفور عام ٨١١ م - ليعتـرف له نقفـور بلقب امبراطور مقابل اعادة البندقية ود الماسـيا وتـم عقـد هـذه المعاهدة في عهد خلفاء نقفور حيث تقـرر وجـود امبـراطورين يعـد احدهما الآخر بمثابة اخ له فهـي أعادت وضـعا شـبيها بـوضع الامبـراطورية بعـد مـوت تيودور عام ٣٩٥ م،على هـذا إن الامبراطورية التي اعاد شارلمان انشاؤها هي امبراطورية الغرب ، ويؤكد ذلك أن شارلمان كتب يقول : «تبارك الله الذي احـل السـلام المنشـود بين امبـراطورية الشرق وامبـراطورية الغـرب » ولكن امبراطورية الغرب هذه ليست مجـرد اعادة لامبـراطورية الغـرب الرومانية بل هي تـكوين اصـيل لامبـراطورية الغـرب الفرنجية .والواقع أن شارلمان :

١ - لم يفكر قط في جعل روما عاصمة لحكمة ، ولم يحـاول ان تكون ايطاليا مركز الثقل في امبراطوريته ، بل اتخذ عاصمة له مدينة ايكس لا شابل (اخن) وهي مدينة جرمانية محصنة ، كما كان مركز الثقل في امبراطوريته املاكه الفرنسية - الجرمانية ولم تعد ايطاليا اكثر من مقاطعة ملحقة بها .

٢ - لم يحاول شارلمان ، كغيره من زعمـاء البـرابرة الماضـين ،

الظهور بمظهر الاباطرة الرومان ، فقد حافظ على لباسه الفـرنجي ونادرا ما كان يرتدي الشارات الامبراطورية ، ومـع أنه كان يتقـن اللاتينية ، كان يتكلم باللهجة الجرمانية الفرنجية وكان فخورا بها .

٣ - كان اللقب الرسمي الذي استخدمه شارلمان بعد تتـويجه هـو «شارلمان المجيد اوغسطس ، توجه الله امبراطورا عظيما ومسـالما وحـاكما للامبـراطورية الرومـانية ، وملكا على الفـرنجة وعلى اللومبارديين برعاية الرب» ، فهو امبـراطور يحـكم الامبـراطورية الرومانية وهو يعتز بـذلك ، ولكنه ليس امبـراطورا رومـانيا بـل فرنجيا .

انصرف شارلمان بعد تتويجه امبراطورا الى الاهتمام بـالنواحي التشريعية والادارية في امبراطوريته ، واقتصرت أعمـاله الحـربية على اتمام ما بدأ به قبل التتـويج ومتـابعته كاخضـاع السـكسون والحملات على اسبانيا المسلمة

ويظهر مفهوم شارلمان عن السلطة من القـابه التـي ذكرهـا في القرارات والمراسيم الملكية ، فهو راى انه كان يتمتع بكل السـلطات بحكم كونه ملكا بموجب الحق الالهـي ، ورأى أن السـلطة واجـب و لتزام تتمثل في الخارج بواجب الدفاع عن الكنيسة وعن رئيسـها الروحي البابا ، ونشر المسـيحية بين الوثنيين وتتمثـل في الداخـل بواجب احلال السلم واقرار النظام وقد عمل شارلمان خـلال حـكمه على تحقيق هذا الواجب ، فكان نشر المسيحية والدفاع عنها شـغله الشاغل ، لم يدع وسيلة الا واستخدمها لهذه الغاية سواء بـالحرب والارغام او التبشـير ، وكان يحتـرم رئيس الكنيسـة الرومـانية ويجله ، ولكن هذا لم يكن يمنعـه مـن القبض على زمـام الكنيسـة والتدخل في قضاياها ومشاكلها ، ودعوة المجامع الدينية لمعالجة تلك المشاكل وفرض رأيه الخاص احيانا .

ويبدو أن مفهوم شارلمان عن فكرة الامبراطورية بقي فهما متأثرا بالتقاليد الجرمانية الفرنجية . ولذا نرى شارلمان يلجأ عام ٨٠٦ م الى تقسيم امبراطوريته بين أولاده الثلاثة : شارل ولويس وبيبـن .

ولم ينقذ الأمبراطورية من التجزئة سوى موت ابنيه شارل وبيبن خلال حياته فلم يبق سوى واحد هو لويس توجه شارلمان امبراطوريا عام ٨١٣ .

وفي حزيران من عام ٨١٤ م توفي شارلمان عن إحدى وسبعين سنة من العمر بعد حكم حافل بالاعمال الجليلة .

٥ ـ انحلال الامبراطورية الكارولنجية:
لويس التقي (٨١٤ ـ ٨٤٠)

كان للامبراطورية التي انشأها شارلمان بجهوده الخاصة ان تستمر بعده اذا كان خليفته يضارعه في قوة شخصيته وفي دأبه ونشاطه ، ويبدو أن مفهوم شارلمان نفسه عن فكرة الامبراطورية بقي بعيدا عن المفهوم الروماني الذي يعد الامبراطورية وحدة أرضية ذات كيان مستقل عن الشخص الذي يمارس السلطة ، فقد ظل شارلمان متأثرا بالمفهوم الجرماني الذي كان يرى في المملكة ملكا شخصيا للملك ، فهو نفسه لم يكن يفكر بالمحافظة على الوحدة الأرضية للامبراطورية التي انشأها إذ انه قام عام ٨٠٦ م بتنظيم خلافته وذلك بتقسيم امبراطوريته بين ابنائه الثلاثة على الوجه التالي :

١ – شارل : يأخذ شمال فرنسا وشمال المانيا
٢ –لويس : فرنسا الجنوبية مع تخوم الجبهة الاسبانية .
٣ – بيبن : جنوب المانيا وايطاليا .

ولم تحتفظ الامبراطورية بوحدتها قبل موت شارلمان في ٢٨ شباط ٨١٤ م إلا لأن ابنيه شارل وبيبن ماتا قبله وبقي لويس وحده وريثا لابيه ، ولذا فقد اشرك شارلمان ابنه لويس معه في الحكم منذ عام ٨١٣م حيث توجه امبراطورا بنفسه في ايكس شابل (اخن) • وكان الاحتفال بالتتويج احتفالا علمانيا لم يحضره البابا بل ولم يكن ممثلا فيه وحضره بعض الاساقفة بصفتهم من كبار رجال المملكة مثل الكونتات لا بصفتهم الدينية ،وقد يكون هدف شارلمان من ذلك تأكيد استقلال ابنه تجاه الكنيسة•

كان لويس قبل تتـويجه ملكا لأكيتـانيا ، وسـاهم في حــروب السكسون وقاد الحملات الأخيرة في اسبانيا ، وكان واسع الثقـافة شديد التقى والورع حتى لقب بالتقي . ولكنه لم يكن بالشخص الذي يستطيع متابعة سـياسة شـارلمان ، لأنه كان ضـعيف الشـخصية تسيطر عليه الوساوس الدينية التي كانت تشل ارادتـه وعزيمتـه في أغلب الأحيان ، وقد أحاط به بعد توليه العرش إثـر مـوت أبيه عدد من المستشارين من رجال الدين الذين كانوا يحملون فـكرة سـامية عن الامبراطورية فاقتصر على لقب «امبراطور اوغسـطس بـرعاية الله » دون الألقاب الأخرى التي كان يستخدمها أبوه مـؤكدا بـذلك أفضلية الامبراطورية ، وقد حافظ على وحدة أراضي الامبـراطورية بالدفاع ضد الدانمركيين وقمع الثـورات في بـريتاني ، وفي عام ٨٢٤ وجه حملة الى بمبلونة في اسبانيا ولكنهـا انتهـت بـكارثة نتيجـة هزيمتها أمام العرب وكادت تؤدي الى فقدان بنود الجبهة الاسبانية لولا الحملة التي قادها برنارد كونت سبتيمانيا .

وعمل لويس منذ توليه الحكم على اصلاح أخلاق وعادات البلاط فطرد اخواته من القصر وأرغمهن على الرهبنة ، وأقصى مستشاري والده السالفين ، وقرب حاشيته الاكيتانية . ودعا الى عقـد مجمـع ديني وأصـدر قـــرارات بتنظيم الاكليروس العصري والاكليروس النظامي . ولكن لويس لم يستطع اتباع خطة أبيه في العلاقات التـي اقامها بين سلطات الأمبراطور العليا وسـلطات الكرسي المقـدس ، فأبدى البابا ميلا الى الاسـتقلال عن الامبـراطور بـل انصرف الى اعتبار نفسه في مقام الأمبراطور .

جرى تتويج لويس امبراطورا بدون استشارة البابا ليون الثـالث كما سبق أن رأينا ، وقد تجـاهل البـابا ذلك أيضـا ولم يطلب الى الرومانيين اداء يمين الولاء للامبراطور الجـديد ، وعندمـا اخفـق أعداء ليون الثالث في مـؤامرتهم لاغتياله عام ٨١٥ م قبض عليهـم وحاكمهم وأعدمهم دون الرجوع الى الامبراطور الذي اكتفى بـطلب بعض الايضاحات عن القضية . وأرسـل ايتين الرابـع الذي خلف

ليون الثالث اعلاما الى الامبراطور بانتخابه ، ولكنه لم ينتظر «التثبيت» منه لكي يستلم منصبه رسميا وفقا لما كانت عليه العادة المتبعة قديما . واغتنم البابا الجديد فرصة لقائه بالامبراطور في مدينة رانس عام ٨١٦ لكي يتوجه من جديد . وقد كان هذا بالنسبة للويس مجرد تثبيت لتتويجه ، أما بالنسبة للكرسي المقدس فقد كان اعادة لما جرى يوم ٢٥ كانون الأول عام ٨٠٠ وتأكيدا لتفوق سلطة الكرسي المقدس أو السلطة الروحية على سلطة الامبراطور أو السلطة الزمنية ، وفي عام ٨١٧ تلقى البابا باسكال الأول من لويس تأكيدا بتوفير حماية الامبراطور للبابا ولدولة الكرسي المقدس وبتخلي الامبراطور عن أي تدخل في الانتخابات الحبرية أو في التشريعات الرومانية .

غير أن الفضائح التي كان يثيرها البابوات في روما سمحت للوثر ابن لويس أن يصدر عام ٨٢٤ م «الدستور الروماني» الذي يلغي امتيازات عام ٨١٧ وهو يتلخص في :

١ – امتناع البابا عن استعمال الشدة ضد الأشخاص الذين يتمتعون بحماية الامبراطور .

٢ – حق الرومانيين في اختيار القانون اللومباردي أو القانون الفرنجي .

٣ – اخضاع الادارة الرومانية الى رقابة مفتشين يعين الامبراطور أحدهما ويعين البابا الآخر ، ويرفع المفتشان تقريرا سنويا إلى الامبراطور بعد انتخابه وقبل تثبيته .

٤ – على البابا أن يؤدي اليمين أمام مبعوث الامبراطور بعد انتخابه وقبل تثبيته .

وكان هذا الدستور ظفرا للسلطة الامبراطورية ، ولكن البابوات سيستفيدون من المنازعات بين أفراد العائلة الكارولنجية لكي يقلبوا الوضع وتكون لهم اليد العليا .

المنازعات العائلية وتقسيم الامبرا طورية:

اراد لويس أن يؤمن كما فعل ابوه تنظيم خلافته أثناء حياته ، ولذا فقد أشرك معه في الحكم ابنه البكر لوثر وتوجه امبراطورا وظهر اسمه الى جانب اسم أبيه في المراسيم والقرارات الامبراطورية.وفي الوقت نفسه منح لويس حصة من الامبراطورية لكل من ابنيه الآخرين بيبن ولويس مع لقب ملك . فنال بيبن مقاطعات اكيتانيا وسبتيمانيا وبورغونيا ونال لويس مقاطعات بافاريا وكارتينا وبوهيميا وكرواتيا ،.وحافظ ظاهريا على وحدة الامبراطورية بأن اشترط على بيبن ولويس أن يكونا تابعين لاخيهما البكر الذي يحمل وحده لقب امبراطور وواجب عليهما اطاعته .

غير أن هذا الترتيب لم يتحقق لان لويس تزوج عام ٨١٩ من اميرة بافارية وضعت له ولدا رابعا سمي شارل (٨٢٣) فتوجب اعادة التقسيم لمنح الولد الجديد حصة من الأرث ، وبعد التقسيم الجديد(٨٢٩)أبعد لوثر الى ايطاليا وحذف اسمه من المراسيم والامبراطورية تحت تأثير زوجة أبيه كما أبعد مستشارو الامبراطورية السالفون .

وعلى الأثر تشكل حول لوثر حزب معارض للامبراطور والامبراطورة وأعوانهما يضم المستشارين السالفين وبعض رجال الكنيسة ، وثار لوثر ضد أبيه وأيده في ثورته أخواه بيبن ولويس كما أيده البابا الذي وضع كل جهوده ضد الامبراطور لكي يؤكد تفوقه عليه وارسل كتبا الى الأساقفة الذين كانوا يؤيدون الامبراطور يدعوهم فيها الى عصيان أوامر الامبراطور واطاعة أمر الكرسي المقدس ، لأن سلطة الكرسي المقدس الروحية اعلى من سلطة الأمبراطور الزمنية ، وقد اضطر الامبراطور العجوز عام ٨٣٣ بعد هزيمته امام ثورة ابنائه وانقلاب رجال الدين ضده الى الاعتراف العلني باخطائه ثم تخلى أمام مذبح كنيسة سان - ميدار في سواسون عن شارات الامبراطورية ، ونزع سيفه وتاجه وارتدى

ثياب التوبة وانزوى بعد ذلك في أحد الأديرة ونفيت زوجته البافارية وسجن ابنها شارل في أحد الأديرة .

إن هذا الاذلال الذي لقيه الامبراطور لويس أكسبه انصارا عطفوا عليه مما شجعه في العام التالي (٨٣٤) على الهرب من الدير واستعاد شارات امبراطوريته والتاج الامبراطوري وعاد الى تقسيم الامبراطورية معطيا النصيب الأكبر لابنه الصغير شارل ، فتكررت ثورة أبنائه الآخرين وتكرر التقسيم وفي كل مرة يصبح نصيب شارل الصغير أكبر من المرة السالفة . واخيرا وفي عام ٨٤٠ م مات الامبراطور أثناء عودته من قتال ابنه لويس في جرمانيا وكان قبل موته قد أرسل شارات الامبراطورية الى ابنه البكر لوثر٠

معاهدة فردان:

دب الخلاف بين الأخوة بعد موت لويس التقي وسبب ذلك أن لوثر الذي حصل على التاج واللقب الامبراطوري اراد أن يفرض سلطته على أخويه الآخرين لويس وشارل (الأخ الرابع بيبن توفي منذ عام ٨٣٨) فاتحدا ضده واقسم كل منهما على مساعدة الآخر والا يعقد أحدهما اتفاقا مع لوثر يلحق به الضرر (قسم سترا سبورغ..).
وقد أدى لويس القسم باللغة الرومانية امام جنود أخيه شارل الاصلع والذي أدى القسم بدوره باللغة الجرمانية أمام جنود أخيه لويس • ويعتبر نص هذين القسمين أقدم الوثائق الكتابية باللغتين الفرنسية والالمانية •

واخيرا وبعد هزيمة لويس عام ٨٤٣ اتفق الاخوة الثلاثة في معاهدة عقدت في مدينة فردان على اقتسام الامبراطورية على الوجه التالي :
١ ـ ينال لويس الجرمني جميع الاراضي الواقعة الى شرق نهر الراين مع بعض المزارع على الضفة اليسرى من النهر •

٢ ـ ينال شارل الأصلع معظم الاراضي الواقعة الى الغرب من انهار الايسكو والموز والصون والرون يضاف اليها الجبهة الاسبانية٠
٣ ـ ينال لوثر الشريط المحصور بين مملكتي اخويه مع ايطاليا ويمتد هذا الشريط من بحر الشمال حتى البحر المتوسط ويشتمل على العاصمتين روما وايكس لاشابيل، ويحتفظ لوثر باللقب الامبراطوري دون أن يمنحه ذلك اي سلطة على اخويه اللذين اصبحا مساويين له٠

وقد استند هذا التقسيم الى اساسين هما :
١ ـ تامين حصص متكافئة في وارداتها لكل من الاخوة
٢ ـ اشتمال حصة كل منهم على الاراضي التي كانت تحت سيادته من قبل ٠ ولقد كانت معاهدة فردان حادثا هاما في تاريخ أوربا الغربية٠

فقد قضت هذه المعاهدة نهائيا على الوحدة الأرضية في الغرب، وتكونت منذ ذلك التاريخ الاطر الجغرافية لدولتين متمايزتين عن بعضهما من حيث اللغة،كما اتضح ذلك في قسم ستراسبورغ ، واخذت كل منهما تعيش حياتها الخاصة وتصنع تاريخها الخاص وهما الدولتان اللتان ستحملان فيما بعد اسم فرنسا والمانيا٠

٤ ـ الممالك الفرنجية وأواخر الكارولنجيين

قضت معاهدة فردان على الوحدة الأرضية للامبراطورية الكارولنجية وادت الى ايجاد ثلاث ممالك مستقلة ٠ وسنرى فيما يلي تطور كل منها حتى نهاية عهد السلالة الكارولنجية :

١ ـ مملكة لوثر (لوثرنجيا)

حصل لوثر كما راينا على الاراضي التي كانت تؤلف شريطا يمتد من بحر الشمال حتى البحر المتوسط وقد عرفت فيما بعد باسم لوثرنجيا وتالفت هذه المملكة من ثلاث وحدات جغرافية متمايزة

هي :
ا ـ اللورين (مشتقة من لوثرنجيا)
ب ـ شمال ايطاليا في الجنوب .
ج ـ حوض نهر الصون وحوض الرون في الوسط
وتشمل بورغونيا ودوقية ليون وبروفانس
كان لوثر الذي حصل على اللقب الامبراطوري أيضا شديد التعلق بفكرة وحدة الامبراطورية ، ولذا حاول أن يقلب التعاون الأخوي الذي كان قائما بينه وبين أخويه الآخرين ويستبد له بفرض سيادة لوثرنجيا على المملكتين المجاورتين .

ولكنه لم ينجح في مسعاه ، كما لم ينجح في المحافظة على وحدة مملكته ذاتها فقد عهد الى ابنه البكر لويس بحكومة شبه الجزيرة الايطالية ومنحه لقب ملك ايطاليا (وفي عام ٨٥٠ م)منحه اللقب الامبراطوري ، وفي عام ٨٥٥ قسم لوثر ، قبل موته بوقت قصير مملكته بين أولاده الثلاثة : لويس الثاني الذي احتفظ بإيطاليا ، ولقب امبراطور ولوثر الثاني الذي حصل على اللورين وبورغوينا وشارل الذي نال دوقية ليون وبروفانس . ولكن شارل مات شابا عام ٨٦٣ ، واقتسم أخواه الباقيان حصته فأخذ الامبراطور لويس الثاني بروفانس وأخذ لوثر الثاني دوقية ليون .

وبعد قليل طرحت قضية خلافة لوثر الثاني وذلك أن زوجته كانت عقيما لم تنجب له وريثه فأراد طلاقها للتزوج من خليلته التي وضعت منه ولدا ، ولكن عمه شارل الأصلع عارض هذا الطلاق طمعا في وراثة مملكته ، وانضم اليه في ذلك العم الآخر لويس الجرماني ، وتدخل البابا في هذه القضية مؤيدا موقف شارل الأصلع ولويس الجرماني ، وأخيرا مات لوثر الثاني عام ٨٦٩ م بعد صراع دام عدة سنوات انهكت قواه دون أن يتحقق مسعاه ، وكان من المفروض أن تنتقل مملكته الى أخيه الامبراطور لويس الثاني فتعود بذلك وحده مملكة لوثرنجيا ولكن هذا الأخير كان مشغولا في الحروب ضد المسلمين في جنوب ايطاليا مما ترك المجال فسيحا امام شارل

الأصلع ولويس الجرماني للاتفاق عام ٨٧٠ على اقتسام اللورين فحصل شارل الأصلع على اللورين الواقعة قرب نهر الموز والموزيل وعلى دوقية ليون وحصل لويس الجرماني على اللورين الشرقية وأصبحت بذلك مملكتا فرنسا والمانيا متجاورتين . ثم اضطر احفاد شارل الأصلع للتخلي عن القسم الغربي من اللورين الى لويس الشاب ابن لويس الجرماني فأصبحت اللورين كلها ملحقة بمملكة المانيا . وبقيت اللورين فيما بعد محورا للتنازع بين مملكتي فرنسا والمانيا خلال عصور طويلة .

وفي عام ٨٧٥ م مات الامبراطور لويس الثاني فسارع عمه شارل الأصلع الى احتلال مقاطعة بروفانس وعهد بحكمها مع دوقية ليون الى ابن حميه بوزو الذي مالبث أن استقل في حكمها وانتخب ملكا على بورغوينا وبروفانس عام ٨٧٩ م بعد موت شارل الأصلع . وخلفه ابنه لويس الأعمى (٨٨٧ ـ ٩٢٨)الذي اعترف بسيادة ملوك جرمانيا ، ثم قام بحملة الى ايطاليا واتخذ لنفسه لقب ملك ايطاليا وحصل على لقب امبراطور بين عامي ٩٠١ ـ ٩٠٥ وظلت بورغوينا و بروفانس تؤلفان مملكتين مستقلتين ، تتوحدان حينا وتنفصلان حينا اخر ، حتى أواسط القرن الحادي عشر .

٢ـ مملكة لويس الجرماني (جرمانيا) :

حصل لويس الجرماني بموجب معاهدة فردان عام ٨٤٣ على الاجزاء الواقعة الى شرق نهر الراين وبعض المزارع الواقعة على الضفة الغربية منه ، وقد عمل لويس الجرماني على توطيد سلطته في مملكته ، فقام بعدة حملات لاخضاع الأقوام القاطنة في الشمال كما خاض حربا ضد البلغار الذين هاجموا مملكته عام ٨٥٣ م ، وعمل ايضا على توسيع رقعة مملكته فاقتسم مع اخيه شارل الأصلع ، كما مر من قبل اللورين بعد موت ملكها لوثر الثاني دون وريث وفي عام ٨٥٨ م انتهز فرصة انشغال اخيه شارل الأصلع في الصراع ضد الغزاة النورمان لكي يهاجم مملكة فرنسا دون أن يلقى أي مقاومة وكاد ان يتم له الأمر فيها بعد هرب شارل الأصلع لولا أن

الأساقفة رفضوا الموافقة على تتويجه ومباركته ملكا على فرنسا مما اضطره الى التراجع والمصالحة مع أخيه شارل عام ٨٦٠ م ، وكانت هذه الحرب أول حرب بين فرنسا والمانيا . وساءت العلاقات بين لويس الجرماني وشارل الأصلع من جديد بعد أن حصل شارل على التاج واللقب الامبراطوريين عام ٨٧٥ م وقام لويس بمهاجمة فرنسا مرة ثانية ولكنه مات في عام ٨٧٦ م ، واقتسم كارلومان ولويس الشاب وشارل السمين ابناء لويس الجرماني مملكة أبيهم بعد وفاته ودخلوا في مرحلة من النزاعات استمرت الى أن استعادت مملكة جرمانيا وحدتها تحت سيادة شارل السمين عام ٨٨٢ م بعد موت اخويه كارلومان ولويس الشاب عامي ٨٨٠ و ٨٨٢ م وكان شارل السمين قد حصل قبل ذلك على لقب ملك ايطاليا عندما استنجد به البابا عام ٨٧٩ لصد هجمات المسلمين على ايطاليا ، وفي عام ٨٨١ م توجه البابا امبراطورا للغرب خلفا لشارل الأصلع ، كما أن كبار مملكة فرنسا انتخبوه ملكا بعد موت كارلومان حفيد شارل الأصلع وعادت بذلك الوحدة نظريا الى امبراطورية شارلمان ، ولكن ضعف شارل السمين وتخاذله امام كبار رجالات المملكة وانحطاطه الأخلاقي وإصابته بنوبات الصرع جعلته عاجزا عن القيام بالدور الذي كان يتطلبه منه منصبه ، وعندما قدم الى فرنسا على رأس جيش كبير لصد النورمان وتحرير باريس من حصارهم أثر شراء رحيلهم بالذهب على خوض غمار معركة معهم . وقد دفع هذا الموقف المتخاذل مجلس كبار مملكة المانيا عام ٨٨٧ الى عزل شارل السمين الذي توفي بعد ذلك بقليل .

تولى عرش المانيا بعد شارل السمين ارنولف وهو ابن طبيعي لكارلومان بن لويس الجرماني ، وقد شغل ارنولف في بداية حكمه بالدفاع عن مملكته ضد غزوات النورمان في الشمال والغرب وضد توسع وتعاظم قوة الامبراطورية المورافية التي تشكلت في الشرق ، ولذلك لم يستطع أن يحول دون حصول غي دوق سبوليت على لقب ملك ايطاليا ثم على التاج الامبراطوري عام ٨٩١ م وبعد

أن استقرت الأحوال في مملكة جرمانيا ، وجه عام ٨٩٤ م حملة الى ايطاليا بقيادة ابنه ، ثم قاد بنفسه حملة اخرى في العام نفسه دون أن يتوصل الى تحقيق نصر حاسم على سبوليت ، ثم قام بحملة جديدة في عام ٨٩٥ بعد موت غي ، ورغم المقاومة العنيفة التي ابدتها ارملة غي دفاعا عن حقوق ابنها لامبيز فقد دخل أرنولف الى روما حيث توج امبراطورا عام ٨٩٦ ، ومن ثم اتجه نحو سبوليت مقتفيا آثار منافسية وبينما كان في طريقه اليها اصيب بالشلل فأعيد الى المانيا حيث مالبث أن توفي عام ٨٩٩ . لم يخلف أرنولف وريثا سوى ولد في السادسة من العمر هو لويس الثالث وذلك في الوقت الذي كانت فيه المانيا بحاجة الى ملك قوي اذ انها كانت مهددة بخطر رهيب هو خطر الغزو الهنغاري ، فقد ظهر الهنغار ، وهم من اصل مغولي ، في وادي الدانوب قادمين من الشرق فاقتحموا هنغاريا واكتسحوا منطقة البندقية ولومبارديا في شمال ايطاليا (٨٩٩) واقتحموا موزافيا (٩٠٥ ـ ٩٠٦) ومن ثم اندفعوا نحو الساكس (٩٠٦) وبافاريا (٩٠٧) ولم يستطع مجلس الوصاية تنظيم الدفاع عن المملكة ومنع الغزوات السنوية التي كان الهنغار يقومون بها على هاتين المنطقتين والقيام بأعمال السلب والنهب والتخريب . وفي عام ٩١١ مات لويس الثالث وله من العمر ١٨ عاما .

أدى عجز حكومة لويس الثالث الى التفاف سكان المقاطعات المتاخمة للحدود حول زعماء محليين ، وظهرت بنتيجة ذلك خمس « د و قيات وطنية » هي :

الساكس ، وبافاريا ، وسواب ، وفرانكونيا ، واللورين . وقد انتخب في عام ٩١١ دوق فرانكونيا ، ملكا خلفا للويس الثالث وهو يعد من السلالة الكارولنجية من طرف امه ، وكان عهده عهد اخفاق سواء في الدفاع عن المملكة ضد غزوات الهنغار أو في الحفاظ على وحدتها اذ انتزع ملك فرنسا مقاطعة اللورين ، أو في فرض احترامه وطاعته على دوقات بافاريا والساكس وسواب الذين كانوا يعارضونه بالقوة أحيانا ، وقد اضطر ، قبل موته الى تعيين خلف

اقوى اعدائه وهو هنري دوق الساكس الذي انتخب ملكا وحكم باسم هنري الأول وبتوليه العرش ينتهي حكم السلالة الكارولنجية في جرمانيا .

كان شارل الأصلع يتمتع بمواهب تجعله جديرا بمنصبه ، فقد كان واسع الثقافة محبا للاطلاع والمعرفة وجمع في بلاطه ، نخبة من المثقفين والمفكرين في عهده . وكان ايضا مقداما وكريما وبليغا في أن واحد ، وهذه هي صفات الملك المثالي كما كان يراها رجال العصر الوسيط .وكان ذا عزيمة لاتعرف الوهن ولا يدع اليأس يتسرب الى نفسه ، ويعرف كيف يكتسب ولاء رجاله واخلاصهم باللجوء الى اللين في معاملتهم حينا والى الشدة والقسوة حينا أخر .

وكانت هذه الصفات ضرورية لكي يتغلب على الصعوبات التي واجهته في حكمه الذي كثرت خلاله الثورات الداخلية ، في بريتاني واكيتانيا خاصة ، وغزوات النورمان التي بدات منذ عام ٨٤١ م واضطر شارل الأصلع في الاجتماع المعقود في كولين عام ٨٤٣ خلال حملته على بريتاني لاخماد ثورة فيها ، أن يمنح رجال الكنيسة وكبار المملكة امتيازات واسعة لكي يكسب تأييدهم ومناصرتهم له ، فوعد الكنيسة بعدم مصادرة املاكها وبعدم التدخل في شؤونها الادارية ، كما تعهد باحترام حقوق كبار المملكة واحترام وظائفهم واملاكهم والقابهم ، ويمكن القول بأن هذا التعهد كان نوعا من وثيقة دستورية تقيد سلطة الملك وتسبق (الما غناكارتا) الوثيقة الكبرى الانكليزية (١٢١٥ م) بأربع قرون .

وبعد ذلك سار الى اكيتانيا لاخماد الثورة التي قامت فيها عام ٨٤١ م بزعامة ابن اخيه بيبن الثاني وبينما كان يحاصر تولوز اتته انباء ثورة بريتاني واكتساح الثوار القسم الغربي من المملكة مما اضطره الى رفع الحصار عن تولوز تاركا اكيتانيا لبيبن الثاني الذي اعترف بسيادته . وفي عام ٨٤٦ م قبل باستقلال بريتاني كامر واقع . وفي عام ٨٤٨ اقام احتفالا دينيا كبيرا في مدينة أورليان حيث توجه رئيس اساقفة سانس ومسحه بالزيت وازدادت متاعب

شارل الأصلع بسبب توسع الغارات النورمانية عبر انهر الايسكو والسين واللوار ، وفي منطقة بروفانس وبلغت هذه الغارات اوج شدتها بين عامي ٨٥٦ و ٨٦١ م وفي هذه الأثناء ثار كبار اكيتانيا ونوستريا ضد شارل عام ٨٥٨ م، ووجهوا نداء الى أخيه لويس الجرماني للتدخل فسارع هذا الأخير الى مهاجمة فرنسة ولكن رجال الدين رفضوا تأييد لويس الجرماني مما اضطره الى العودة الى مملكته .وعهد شارل عام ٨٦١ م بقيادة البلاد الواقعة بين نهري السين واللوار الى روبرت الملقب بالقوي وكلفه بالدفاع عنها ضد غارات النورمان فاستطاع روبرت أن يحقق عليهم انتصارا باهرا عام ٨٦٦ م .

وضم شارل الاصلع الى مملكته في عام ٨٦٩ النصف المغربي من اللوريين ودوقية ليون وذلك على أثر موت ملكها لوثر الثاني . كما انه ضم عام ٨٧٥ م مقاطعة بروفانس بعد موت الامبراطور لويس الثاني ، وفي أخر عام ٨٧٥ (في كانون الأول) توجه البابا يوحنا الثامن في كنيسة القديس بطرس أمبراطورا .

وقام شارل الأصلع بمهاجمة مملكة جرمانية بعد وفاة أخيه لويس الجرماني والخلاف الذي دب بين ابناء أخيه حول الارث ، ولكن ابن أخيه لويس الشاب استطاع صده ، وفي هذه الأثناء شن النورمان غارة جديدة على فرنسا في مجرى نهر السين . كما أن البابا وجه اليه نداء لمساعدة ايطاليا ضد غارات المسلمين عليها لذا عمل على ترحيل النورمان عن فرنسا بأن دفع لهم مبلغا كبيرا من المال، وضمان اخلاص كبار المملكة بمنحهم امتيازات جديدة جعلتهم شبه مستقلين في مقاطعاتهم ، ومن ثم توجه الى ايطاليا ، ولكن ما ان وصل الى ايطاليا الشمالية حتى قام بعض كبار المملكة بثورة ضده بحجة أنه ترك فرنسا فريسة لغزوات النورمان سعيا وراء الحكم الامبراطوري فسارع بالعودة الى فرنسا ، ولكن صحته كانت معتلة وبلغ منه التعب والاجهاد اقصاه فوافته منيته بينما كان يجتاز ممرا في جبال الالب في طريق العودة .

خلفاء شارل الاصلع (٨٧٧ ـ ٩٨٧):

كان شارل الاصلع آخر ملك كارولنجي حكم فعلا في فرنسا مع أن السلالة الكارولنجية بقيت فيها مائة وعشر سنوات أخر ، واتصفت بانقسام كبار المملكة الى فريقين احدهما السلالة الكارولنجية الشرعية بينما أيد الفريق الآخر سلالة الروبرتين (نسبة الى روبرت القوي) ، واستمر الصراع بين الفريقين حتى نهاية عصر السلالة الكارولنجية .

كان حكم خلفاء شارل الأصلع الثلاث الأوائل قصيرا جدا توفي الواحد بعد الآخر خلال خمس سنوات وهم ابنه لويس الأ لكن (٨٧٩ م) وحفيداه لويس الثالث (٨٨٢) وكارلومان (٨٨٤) وهنا لم يفكر كبار المملكة بتقديم العرش لوريثه الشرعي وهو اخوه شارل الساذج الذي كان لا يزال قاصرا بل انتخبوا ملك جرمانيا شارل السمين ملكا على فرنسا ايضا . ولكن الآمال التي عقدوها عليه منيت بالخذلان كما مر من قبل ، وبعد موت شارل السمين ٨٨٨ ،انتخب كبار مملكة فرنسا ملكا جديدا هو أود كونت باريس وابن روبرت القوي .وكان أود قد اكتسب شهرة على اثر دفاعه عن مدينة باريس ضد هجمات النورمان .

استمر حكم أود عشر سنوات ٨٨٨ ـ ٨٩٨ قضاها في محاولات غير ناجحة لصد غارات النورمان على فرنسا وفي الحرب ضد انصار الحزب الشرعي الذي لم يقر بشرعية تولي أود الحكم،وظل صاحب الحق الشرعي شارل الساذج الذي توجه رئيس اساقفة رانس ملكا عند بلوغه سن الرابعة عشرة ، وفي مطلع عام ٨٩٨ مات اود بعد ان أوصى أخاه روبرت وانصاره بالاعتراف بالملك الكارولنجي ، وقد أخذ روبرت بوصية اخيه فاكتفى بان يكون كونتا على باريس وانجو وتور وبلوا والمستشار الأول الذي يتمتع بالسلطة الحقيقية الى جانب الملك الكارولنجي شارل الساذج .

وتميز عهد شارل الساذج بحادثتين هامتين وهما :

١ ـ توطين النورمان في المنطقة الساحلية التي ستحمل اسمهم اي نورماندي .
٢ ـ استعادة مقاطة اللورين .

وحاول شارل الساذج التخلص من وصاية مستشاره روبرت وحاول ابعاده عن القصر ، ونجم عن ذلك قيام انصار روبرت بالثورة وبتتويج روبرت ملكا عام ٩٢٢ م ، ولكن هذا الأخير قتل في العام التالي في موقعة بينه وبين انصار الملك الكارولنجي .وانتخب اتباع روبرت بعد موته صهره راؤول دوق بورغونيا الذي توج وتخلص من الملك الشرعي شارل الساذج فاعتقله وبقي اسيرا حتى موته عام ٩٢٩ .ولكن حكم راؤول لم يكن اسعد حالا من حكم الملوك السالفين إذ أنه اضطر الى التخلي عن بايو للنورمان كما تنازل عن مقاطعة اللورين الى ملك جرمانيا الأول .

عاد الكارولنجيون الى تولي عرش فرنسا بعد موت راؤول عام ٩٣٦ م ، فقد فضل كونت باريس هيو بن روبرت الملقب بالكبير ، ان يحكم بشكل غير مباشر وراء اسم لويس الرابع ابن شارل الساذج .ولكن سرعان ما نشب النزاع بين هيو الكبير ولويس الرابع الذي لم يقبل أن يكون ملكا اسميا فقط ، وطلب كل منهما تأييد ملك جرمانيا القوى أوتو الأول ومناصرته ، لأنه كانت تربطهما به رابطة المصاهرة ثم تصالح الاثنان عام ٩٥٠ م .وقد بذل لويس الرابع جهودا كبيرة لاخضاع النورمان ، ثم اجبرهم على الاعتراف بسيادته عام ٩٤٥ م ، كما اضطر دوق اكيتانيا الى الاعتراف بسيادته ايضا .

بعد موت لويس الرابع عام ٩٥٤ تولى العرش ابنه البكر لوثر ، الذي كان له من العمر ثلاث عشرة سنة ، تحت وصاية هيو الكبير الذي مات بعد سنتين عام ٩٥٦ .وكان لوثر نشيطا مثل ابيه ، وحاول استعادة اللورين من خاله ملك جرمانيا أوتو الثاني

الذي صد المحاولة واكتسح فرنسا حتى وصل الى باريس التي دافع عنها هيو كابيه ابن هيو الكبير (٩٧٨).

وقد مات لوثر عام ٩٨٦ م خلال حملة جديدة لاستعادة اللورين وخلفه على العرش ابنه لويس الخامس دون أي صعوبة ، ولكنه مات في حادث في السنة التالية ٩٨٧ م .

وعلى الاثر عقد كبار المملكة العلمانيون والدينيون ، اجتماعا في مدينة نوايون لانتخاب ملك جديد ووقع اختيارهم على هيوكابيه كونت باريس الذي توجه رئيس اساقفة رانس ملكا .وبدأ بذلك حكم سلالة جديدة في فرنسا هي أسرة كابيه التي سنتعرف الى شي من تاريخها .

الحضارة الكارولنجية

كان وصول الاسرة الكارلونجية الى الحكم وتوحيد قسم كبير من اوربا الغربية في عصرها وتوطيد النظام والأمن فيها خلال اكثر من نصف قرن ، عاملا ساعد على خلق جو موائم للنشاط الثقافي فازدهرالنشاط الفكري في البلاد الانكلوسكسونية ، والنشاط الفني في غاليا الشمالية ، أما العناصر المادية والاتجاهات الاقتصادية والبنيان الاجتماعي في حضارة أوربا في هذا العصر فقد تابعت تطورها الذي بدأته في العهود السالفة وكان عاملا رئيسا في انحطاط الحضارة الغربية .

الحياة الاقتصادية:

كان البنيان الاقتصادي في القرن الثامن بدائيا جدا ، فالادوات الزراعية البسيطة والاساليب البدائية كانت لا تسمح باستثمار غير الأراضي الخفيفة السهلة الحراثة ، التي سرعان ما تنفد خصوبتها .أما الأراضي الثقيلة الرطبة فكانت تغطيها الغابات أو المستنقعات ، ويبدو أن توطيد الأمن والسلام بين عامي ٧٥٠ و ٨٥٠ أدى الى زيادة هامة في عدد السكان ، ولكن هذه الزيادة في عدد السكان لم تدفع رجال ذلك العصر إلى توسع رقعة الأراضي المزروعة .

وكان النشاط التجاري في هذه الشروط محدودا جدا ، فقد قضت الحروب المستمرة بين الفرنجة والعرب المسلمين في الجنوب على بقايا الاقتصاد القديم المرتبط بالبحر المتوسط ، ولم يعد يوجد في مدن الجنوب ، كما كان في العصر الميروفنجي ، جماعات من التجار الشرقيين ، وكان بعض سكان المدن يتعاطون التجارة أحيانا دون

أن يجعلوا من التجارة مهنة لهم ، وأدى تدعيم النظام السياسي في غاليا الشمالية الى تشجيع التجارة بعض الشيء حيث بدات حركة المبادلات التجارية تنشط تدريجيا .

هذا واستمر استيراد السلع الشرقية الخفيفة الوزن ، الغالية الثمن التي احتاجت اليها الارستقراطية العلمانية والدينية مثل التوابل ، والعطور والأقمشة الفاخرة،ولكن طرأ تغيير على طرق التجارة .فقد اصبحت هذه البضائع تصل الى الغرب عن طريق الموانيء البيزنطية في ايطاليا الجنوبية وعلى البحر الادرياتيكي أو بسلوك الطريق البرية التي تمر عبر بلاد السلاف ،أو بواسطة الطرق البحرية في بحر البلطيق التي تكملها الطرق النهرية في الأنهر الكبرى في أوربا الشمالية وكانت جزيرة جوتلاند عقدة تلك المواصلات البحرية في الشمال .

كما ونشأت تيارات جديدة للمبادلات التجارية ، فقد أدى تطور صناعة الأقمشة الصوفية ونموها في البلاد المتاخمة لسواحل بحر الشمال الى حركة تصدير لهذه المصنوعات الى البلاد المجاورة ، واخذ التجار الفرنجة منذ نهاية القرن الثامن ينقلون المنسوجات المصنوعة في شمال غاليا ، والعبيد المأسورين في بلاد وثنية ، وبيعهم في البلاد الاسلامية وأدت هذه التجارة مع البلاد الاسلامية الى نتيجة هامة في الاقتصاد الغربي ، وهي اعادة ادخال المعادن الثمينة في النظام الاقتصادي مما جعل النشاط يدب في تداول النقود والمبادلات المحلية وسمح بدفع قيمة البضائع المستوردة من بيزنطة ، تلك البضائع التي كاد فقر أوربا بالمعادن الثمينة أن يؤدي الى انقطاع استيرادها .

ونجم عن عودة النشاط الى حركة المبادلات التجارية ، على الرغم من بساطتها وعن الاتجاهات الجديدة في التجارة :
اصلاح نظام النقد الفرنجي تدريجيا حيث توصل الملوك الكارولنجيون ، امام تداول النقود العربية والصقيلة ، إلى اصلاح قيمة الدانق الفضي وتثبيتها بربطه على ما يبدو بالنظام النقدي

الاسلامي ، وقاموا بصك النقود الذهبية احيانا وبشكل متقطع وغير منتظم وشهدت المدن وخاصة في المنطقة الواقعة بين نهري السين والراين بعض النهضة ، وعادت الحياة الى مدن قديمة مثل أراس ومتز وفردان ، كما ونشأت تجمعات سكنية جديدة حول مراكز المبادلات التجارية النشيطة على طول مجاري الأنهار الكبرى وعلى ساحل بحر المانش وبحر الشمال .

غير أن مظاهر النشاط الاقتصادي هذه ظلت محدودة النطاق جدا ، ويشير الباحث اليها فقط لأنها كانت ممهدة للتوسع الاقتصادي الكبير في القرن الحادي عشر ، ويجب الا يغرب عن البال أن الاقتصاد الكارولنجي كان اقتصادا زراعيا قبل كل شيء شغلت فيه المدن دورا ضئيل الأهمية .

وبناء عليه كان قوام العمل الاقتصادي في هذا العصر هو الملكية الزراعية الكبرى المسماة « الدومين او الفيلا » وترجع اصول نظام الدومين الى أواخر أيام الامبراطورية الرومانية وبدايات العصر الميروفنجي ، ولكنه لم يظهر كنظام متكامل الأطر ، واضح الحدود والمعالم الا في السنوات الأولى من القرن التاسع ، فهذا مانراه من خلال الوثائق وكان عدد « الفيلات » كما يظهر من الوثائق ، كبير في نوستريا واوسترازيا ، ولكنها لم تشمل جميع الأراضي المزروعة ، فقد كان يوجد الى جانب هذه المزارع االكبرى مزارع مستقلة اصغر مساحة . وكانت مساحة الفيلات عرضة للتبدل المستمر بسبب الوراثة أو البيع والشراء أو الهبة ولكن برغم التنوع الخارجي في شكل الفيلات كانت بنية استثمارها واحدة . فالفيلا تقسم الى قسمين :

١ـ الاحتياطي أي القسم الذي يحتفظ به المالك لنفسه ويستثمره مباشرة ، وتعادل مساحته ثلث أو ربع مساحة الفيلا ويشتمل على اراضي زراعية ومراعي وغابات وكروم ـ اذا كان المناخ موائما لذلك ـ وأراضي بور ، وقام في مركز الاحتياطي سكن المالك أو وكيله واحاطت به قطعة من الأرض قامت عليها مساكن الخدم والعبيد

وأبنية الاستثمار (اسطبلات ، اهراء ، فرن ، معصرة مطحنة) وفي أغلب الأحيان كنيسة .

٢ـ شمل القسم الثاني من الفيلا الأراضي الزراعية المتبقية ، وكانت تنقسم الى عدة قطع صغيرة تسمى كل منها « مانس » تناثرت في انحاء الفيلا ، واعتاد المالك أن يعهد باستثمار المانسات الى فلاحين او الى عبيد واستدعت هذا التقسيم لأراضي الفيلا او الدومين وسببته ضرورات الاستثمار ، فالمالك كان لايستطيع وحده تنظيم استثمار جميع الأراضي التي يمكن زراعتها في دومينه . ويتطلب استثمارها عددا كبيرا من الأيدي العاملة لأن الأدوات والأساليب التي كانت مستخدمة في الزراعة بسيطة وبدائية ، وحالت قلة النقد وسيولة تداوله دون استخدام عمال مأجورين ، كما أن استخدام العبيد اصبح قليل الجدوى بسبب صعوبة الحصول على العبيد بعد تحريم الكنيسة لإسترقاق المسيحيين ، وبسبب ارتفاع كلفة اعالتهم وضعف مردود عملهم ، لذا لجأ الملاكون الكبار الى تقسيم جزء من اراضيهم الى مانسات وعهدوا باستثمارها الى عبيدهم او الى فلاحين احرار ، وكان كل من هؤلاء يتمتع بموارد المانس التي يستثمرها والتي تكفي لاعالة اسرته مقابل بعض الالتزامات نحو المالك وكانت هذه الالتزامات على نوعين :

١ـ المساهمة في تأمين الموارد اللازمة لاعالة بيت المالك وذلك بتقديم بضع قطع نقدية كل عام ، وكمية محدودة من المحصولات الزراعية ، وبعض المصنوعات (أدوات خشبية ، منسوجات) .

٢ـ أو المساهمة في استثمار الاحتياطي وذلك بزراعة قسم صغير منه لفائدة المالك في أن يضع نفسه تحت تصرف المالك عددا من الأيام في السنة،للمساهمة في الأعمال الزراعية التي تحتاج الى ايدي عاملة كثيرة،مثل الحصاد والقطاف ونقل المحصولات وصيانة مباني المزرعة ، وكانت هذه الأعمال المجانية أهم من الالتزامات العينية التي يؤديها الفلاح الى المالك لأنها أوجدت الحل لمشكلة تأمين العمال الضروريين لاستثمار ارضهم بدون دفع اجور .

وأمن هــذا النظــام في اســتثمار الدومين ، او الفيلا للمــالكين العقــاريين الكبــار المواد الاســتهلاكية الضرورية لحياتهــم وحياة عائلتهم وخدمتهم ، كمــا أن حفنة النقــود التــي كان الفــلاحون يدفعونها له كفت لدفع ثمــن الحــاجيات مــن الكمــاليات الضرورية للمحافظة على المظاهر الخارجية التي تطلبها مركز كل مالك ومكانته الاجتماعية .

ب ـ المجتمع:

كان المجتمع الفرنجي في العصر الكارولنجي مجتمعا زراعيا ينظم تبعا لنظام الدومين ، فهو مجتمع كان يقر الرق كمؤسسة اجتماعية كمــا كان الحــال في أيام الامبــراطورية الرومــانية والدولة الميروفنجية ، وظل التقسيم الرئيسي في المجتمع من الوجهة الحقوقية والشرعية هو التقسيم الى احرار وعبيد . فــالأحرار هــم وحــدهم الذين كانوا يعدون اعضاء في الجمــاعة يحــق لهــم الاشــتراك في نشاطاتها المختلفة من حربية وقضائية .

وقــــد أخــــذ الرق بــــالتقلص في الواقــــع منذ العصر الميروفنجي ، وساهمت التعاليم الاخــلاقية المســيحية التــي كانت تحرم استرقاق من يعتنق المسيحية وتعد تحرير العبيد عمــلا يكافــأ فاعله بالخلاص ، في تناقص طبقة العبيد ، ولكن في الحقيقــة كانت الاسباب الرئيسية لهذه الظاهرة اسبابا اقتصادية ، فقد ارتفع ثمن العبيد الذين كان تجار النخاسة يجلبوهم من البلاد الوثنية ارتفــاعا كبيرا بسبب الطلب المتزايد على العبيد في أسواق البــلاد الاســلامية كما ان تطبيق نظام الدومين ادى الى ابطال استخدام عدد كبير مــن العبيد في استثمار الأرض ، وعلى هذا كان عدد العبيد في بداية القرن التاسع لايزيد عن عشر مجموع الســكان الريفيين ، وبقــي وضــع العبيد الشرعي وراثيا حيث يتمتع المالك بحق معاقبة عبــده حســب هــواه ، وبســلطة عليا عليه وعلى ابنائه ومــايملك . فــالعبد كان لايستطيع الانتقال او الزواج دون موافقة سيده وتوجب عليه ان يلبي طلبات السيد .

وقد لجأ كبار الملاكين منذ تطبيق نظام الدومين الى اعطـاء بعض عبيدهم بعض المانسات مما أدى ايضا الى اضعاف ارتبـاط العبـد بسيده لأن التزاماته نحو السـيد اخـذت تميل الى الاقتصـار على الالتزامات التي يحددها استثمار المانس وصار باستطاعة العبد ان يعمل بحرية في الأرض التي أوكلت اليه وبيع جزء مـن محصـولاته ومن ثم ان يحقق شـيئا مـن الادخـار وان يشـتري ، اذا كان نشيطا ، قطعة مـن الأرض الحـرة ، واكتسـب العبيد نوعا مـن الشخصية الأخلاقية ولو معنويا اثر اعتناقهم للديانة المسيحية التي كانت تتابع انتشارها في الريف .

شهدت احوال العبيد اذن شيئا من التحسن ضـمن اطـار نظـام الدومين أما الفلاحون الأحرار الذين كان المالك يعهد اليهم باستثمار المانسات وتسميهم الوثائق المعـاصرة «معمـرين » فقـد سـاءت احوالهم ، وتضاءلت حريتهم ، وكان هؤلاء نظريا جزءا من الشعب الفرنجي ويتمتعون بالحقوق العامة للفرنجة ، غير انهم عمليا باتوا يخضعون لسلطة مالك الأرض الذي عدهـم خـدما له واسـتثمرهم وفرض عليهم مشيئته دون رقيب ، وقد اعفي هؤلاء المعمـرون مـن الخدمة العسكرية ، ولكن اصبح لزامـا عليهـم ، مقـابل ذلك ، ان يسهموا في تجهيز مالك الأرض واداء ضريبة البدل ، والقيام بأعمال سخرة مهنية ، ومع هذا ظل التمييز بين المعمرين الأحـرار والعبيد قائما مع انهم الفوا جميعا طبقة واسعة مستضعفة وفي الواقع أخـذ التمييز الاجتمـاعي المبني على اسـاس اقتصـادي بين المعمـرين العاملين في الدومين وبين المزارعين الأحـرار الذين يملكون ارضـا مستقلة حرة ، يزداد اهمية يوما بعد يوم .

وكان المزارعون الأحـرار يشـتركون فعـلا في كل نشـاطات الجماعات الفرنجية الحـربية والقضـائية . ولكن عدد هؤلاء اخـذ بالتناقص ، وذلك لأن اعبـاء الواجبـات في حضـور المحـاكمات والاشتراك في الحملات الحربية كل عام كانت ثقيلة عليهم ولاسـيما اذا كانت مساحة ارضـهم بسـيطة ولايسـتطيعون ان يعهـدوا الى

سواهم باستثمارها ولذا كان الكثير منهم يسعى الى التهرب من تلك الواجبات بان يضع نفسه تحت حماية احد المتنفذين أو بـان يحـول ارضه الى « مانس » ويصـبح معمـرا في خـدمة احـد الملاكين الكبار ، وعلى هذا الشكل كانت هذه الطبقة الوسطى من الأحـرار تتضائل .

وجعل انحطاط الطبقة الوسطى تفوق طبقة الملاكين الكبار اكثـر بـروزا ولاسـيما الذين كانوا يملكون عدة فيلات ، وأصـبح هؤلاء يحملون القابا شرفية مثل : المقدمون أو الأعيان او النبـلاء وكانوا يزدادون غنى وثروة بضم أراضي المزارعين الأحرار الذين يدخلون في خدمتهم وحمايتهم ، وبـالهبات التـي كان يغـدقها عليهـم الملوك ، يضاف الى ذلك انهم كانوا يتقلدون الوظـائف العليا المدنية والدينية ، وهم الوحيدون الذين يتمتعون حقا بالحرية ويقتربون من الملك سواء عند التحاقهم بالجيش او في المجـامع التشريعية ، فهـم الذين يملكون الثروة والسلطة .

نظام الحكم والادارة:

ظل مفهوم الدولة كفكرة مجردة ومفهوم الواجب المدني مفقـودين في العصر الكارولنجي وبقيت التقاليد الجرمانية ، التي تعـد المملكة ملكا شخصيا للملك يتقاسمه ورثته بعد موته ، سائدة .

كانت السلطة الملكية مطلقة لاتخضع لأي قيد او تحديد ، ولم يكن لمجالس كبار رجالات المملكة سوى صفة استشارية ، ومع ذلك فقـد كانت تعتـرض ملوك الكارولنجيين بعض الصـعوبات في فـرض سلطتهم على كل انحاء المملكة وعلى جميع رعاياهم وهذه الصعوبات هي :

١ ــ ضعف الجهاز الاداري في المقاطعات واقتصار هذا الجهـاز على كبـار الموظفين ، فليس للملك مـن يمثله في المقـاطعات سـوى الكونتات يسـاعدهم بعض مـوظفي القضـاء ولم يكن الكونتـات

يحكمون مقاطعاتهم ويديرون شؤونها فعلا بسبب عدم وجود العـدد الكافي من الموظفين المساعدين .

٢ ـ صعوبة المواصلات بين اطراف المملكة بسبب تـردي حـالة الطرق القديمة ، وعدم انشاء طرق جديدة ، وزاد في هذه الصعوبات اتساع رقعة المملكة بعد أعمال شارلمان التوسعية الكبيرة .

٣ـ قلة استعمال الكتـابة في الشـؤون الادارية والسـياسية والاكتفاء بالكلام الشفوي والاتصالات الشـخصية والاعتمـاد على الذاكرة .

٤ـ عدم وجود موارد مالية منتظمة ووفيرة لتزويد خزانة الملك فقد اقتصرت هـذه الموارد على الضرائب الموروثـة مـن العصر الكارولنجي . وهذا ماجعل من العسير على الملك ان يقـوم بتـوزيع أعطيات مالية دورية على اتباعه للمحافظة على ولائهم واخـلاصهم له .

وقد توصل الكارولنجيون على الرغم مـن هـذه الصـعوبات الى فرض سلطتهم ، لأن بنيان المجتمع وتركيبه كان يمثل عاملا مساعدا في تسهيل الحكم ، فقد كان يكفي ان يحقق الملك حضوع بعض مئات من كبار رجالات المملكة : وملاكين عقاريين واساقفة ، وكان هؤلاء بدورهم يخضعون جماهير الفلاحين المرتبـطين بهـم والعـاملين في أراضيهم ، وقد لجأ الملوك الكارلنجيون في أواخر القرن الثـامن الى تحقيق هذه الغاية بوسائل عديدة ، نجملها فيما يلي :

الحرب:

كان الملك وخاصة في عهد شارلمان ، يقود كل سـنة حملة خـارج حدود مملكته فالمملكة الفرنجية كانت حسب التقاليد البربرية ، ملكية عسكرية قبل كل شيء، والشـعب هـو الجيش والملك هـو القـائد الحربي ، وعندما يقوم باداء هذا الدور فله ان يبسط سلطانه ويدعم سـيادته ، ولذا كان على جميع الرجـال ان يلبـوا نداء التعبـئة ويسارعوا ، ولاسيما الأغنياء منهم ، الى اللقاءفي الموعد المحدد من

شهر أيار حتى شــهر تشرين اول تحــت راية الملك وكل مــن يتــأخر يعرض نفسه لغرامة باهظة ، وكل من تبدر عنه بــوادر التخــاذل او الجبن اثناء القتال يتعرض لاشد انواع العقوبات .

وهكذا كان رجال الطبقــة الارســتقراطية يجتمعــون كل عام في مجموعة متماسكة تحت قيادة الملك المباشرة .

اضف إلى ذلك ان الحرب وماتدره من غنائم واســلاب في حــالة النصر كانت تــزود الملك بــوسيلة لمكافــأة الذين يخلصــون له الخدمة ، ولاكتساب مودة وصداقة الآخرين . ولذا كانت محــاولات العصيان والتحرر تعقب في اغلب الأحيان ، الحروب التــي لاتــكلل بالنصر .

ولكي يؤمن الملك سيادته وسلطته على الارستقراطيين خلال فترة السلم في فصل الشتاء ، وبعد ان يتفرق الجيش ويذهب كل فرد الى بلده ، عمد الى اختيار عدد من حكام المقاطعات (الكونتــات) مــن بين أصدقائه الحميمين الذين يرتبطون به اما بصلة القــربى وهــي أمتن صلة ، وإما برابطة أخرى شخصية تشــبه في متــانتها صــلة القربى ،وكان الملك يلجأ الى تــربية ابناء بعض الارســتقراطيين في قصره بحيث يكونون من جانب رهائن بمثابة ضمانة لاخلاص ابائهم ووفائهم ، وينشؤون مــن جهــة أخــرى على احتــرام الملك وطاعته ، وعندما يبلغون سـن الرشــد ويعــودون الى امــلاكهم يصبحون من اشد المخلصين له .

نظام التبعية:

اخذ الكثير من الرجال الاحرار منذ اوائل القرن الثامن يضــعون انفسهم تحــت رعاية احــد « الســادة » دون أن يفقــدوا حريتهم ، ويصبحون « تابعين » له ويتم ذلك وفق مــراسم معينة : يركع « التابع » على ركبتيه امام السيد ويضم يديه ويضــعهما بين يدي السيد ويصبح بذلك « رجله » ثم يقسم يمينا يعد فيه (سيده)

بالاخلاص الكامل ، ويتلقى منه مقابل ذلك الحماية وقطعة من الأرض تسمى « الانتفاع » يتمتع بمواردها ما دام مخلصا للسيد ، وقد استغل اوائل الكارولنجيين هذا النظام لكي يجعلوا من كبار رجالات المملكة :الكونتات ورجال الدين والملاكين العقاريين « اتباعا » للملك وذلك بمنحهم (انتفاعات) من املاك الخزانة الملكية أو من املاك الكنيسة المصادرة ، وتوجب على هؤلاء الاتباع مراعاة القيام بواجباتهم مثل :الالتحاق بالجيش بأتم واحسن تجهيز ، وحضور جلسات المحكمة الملكية ، ومساعدة الملك في اقرار النظام والسلام في انحاء المملكة ، ووضع الملاكون العقاريون الأقل غنى وثروة أنفسهم تحت « رعاية ، اتباع الملك وغدوا « اتباعا » له كما انهم اصبحوا بدورهم « اسيادا » لمن هم دونهم في الثروة والغنى ، وهكذا اصبح جميع الناس الأحرار مرتبطين ببعضهم برباط « التبعية » مؤلفين تسلسلا هرميا ينتهي بشخص الملك .

وقد وضعت قواعد لهذا النظام اصبحت محددة وثابتة مع الزمن ، فصارت رابطة « التبعية » التي تربط بين السيد و« التابع »تدوم مدى حياة الطرفين . وغدا « الانتفاع » يمثل أجر التابع على اخلاصه للسيد الذي يحق له استرجاع الانتفاع اذا ما خانه التابع أو لم يقم نحوه بالواجبات المفروضة عليه ، وقد ظلت هذه الواجبات غامضة مبهمة دون تحديد كاف وتتضمن مساعدة التابع لسيده ، باستمرار وفي جميع الظروف في السلم أو في الحرب .

التنظيم الاداري

سعى الكارولنجيون الى تقوية سلطتهم أيضا عن طريق تحسين المؤسسات والنظم الادارية التي ورثوها عن الميروفنجيين ، فطلبوا الى الكونتات تنظيم سجلات ودواوين لحفظ المراسلات والتعليمات والأوامر الملكية ولكن دون أن يحققوا نجاحا كبيرا في هذا المجال .وعملوا ، هم انفسهم ، على تدوين المراسيم والقرارات

الملكية التي تتضمن الأوامر والتعليمات الشفهية التي كانوا يلقونها في بدايةكل حملة امـام افـراد الجيش ، وسـعى الملوك الى تـأمين مراقبة اعمال حكام المقـاطعات (الكونتـات) عن كثـب . فـأنشأ شارلمان ، لهذه الغاية ، نظـام المفتشـين الجـوالين ، وكان هؤلاء المفتشون يتألفون من جماعات صغيرة تضم كل منها كونتا واسـقفا وتطوف في عدد من الكونتيات دون أن يكون لأي واحد من اعضـائها أي رابطة تربطه باحدى تلك الكونتيات واصبحت جولات المفتشـين على المقاطعات منتظمة تتكرر اربـع مـرات في السـنة . ويحمـل المفتشون أوامر الملك الجديدة ويتـأكدون مـن تنفيذ الأوامـر الملكية السالفة ويتحققون من أن الأمن والعدل مستتبان . ويتلقون شكاوى الرجـال الاحـرار ، ويدخلون الاصـلاحات اللازمـة على ادارة المقاطعات .

ولجأ الملوك الكارلنجيون ايضـا إلى تقليص سـلطات الكونتـات وخاصة في الشؤون القضائية إذ انهم وسعوا وزادوا في صـلاحيات محكمة القصر ، وأحدثوا في كل كونتيه جهازا من القضاة المحترفين يختارهم المفتشون ، وهم مجبرون على حضور الجلسات العلنية في جميع المحاكم العامة ويتوجب على الكونت أن يحترم قـراراتهم وان ينفذها .

وبعـد أن تـوسعت المملكة الكارولنجية وخـاصة في عهـد شارلمان ، أنشأ الكارولنجيون في بعض المقاطعات البعيدة عن مركز المملكة ، كايطـاليا ، وبـافاريا واكتيانيا ، ممـالك ذات اسـتقلال داخلي ، وأنشأووا بالقرب من الحدود التي كانت تتهـددها اخـطار غزو خارجي مناطق عسكرية واسـعة تضـم عددا مـن الكونتـات واطلقوا عليهم اسم « التخوم » وعهدوا بادارتها الى حاكم عسكرى « دوق » يهيمن على جميع الكونتات المرتبطين به .

واخيرا زاد الكارولنجيون في منح امتيازات « الحصـانة » للمؤسسات الدينية الكبرى حتى أصبحت جميع امـلاك الاسـقفيات والأديرة في القرن التاسع تتمتع بالحماية ولا يحـق للكونت واعوانه

التدخل في شؤونها . وبذلك أصبح الأسقف هو الممثل الوحيد للسلطة الملكية بين الرجـال الاحـرار المقيمين في الأراضي المتمتعـة بالحصانة ، فهو الذي كان يقودهم للالتحاق بالجيش ، وهـو الذي يقمع المخالفات ويقيم القضاء ويقدم كبـار المجـرمين إلى المحـكمة الملكية ، وبهذا الشكل أخذ رجال الدين يساهمون في ادارة قسم كبير من المملكة ،وهـذا مـا يميز المؤسسـات السـياسية والادارية الكارولنجية اي الارتباط الوثيق بين السلطة الملكية والكنيسة .

ـ اضفاء الصبغة الدينية على المملكة :

اكتسبت الملكية الفرنجية في القرن الثامن صفة دينية كما هو الحال في بيزنطة وفي العالم الاسلامي ، واستمد الملوك هذه الصـفة الدينية من الاحتفال الديني بالمسح بالزيت المقدس والتتويج وأصبح الملك يمـارس نوعا مـن وظيفـة كهنوتية وغدا ممثـلا لله على الأرض ، وتغيرت طبيعة السلطة الملكية بنتيجة ذلك ، فلم يعـد الملك مستبدا بل أصبح على عاتقه واجبات نحو شعبه وهي رعاية الكنيسة وحماية الضعفاء ، وتـوطيد الأمـن والعـدل ، ويجـب على جميع الرعايا أن يعاونوه في هذه المهمة ، وهـكذا نرى عودة فـكرة الدولة المجردة الى الظهور ولكن على شكل جديد هو « الدولة المسـيحية » التي تضم الناس المعمدين . وأصـبح هـذه المفهـوم الدعامـة الايديولوجية لكل ملكيات العصر الوسيط .

ولجأ ملوك الكارولنجيين منذ عهد شارلمان إلى تـدعيم سـلطتهم على اتباعهم بأن طلبوا اليهـم تـأدية يمين على اشـياء مقـدسة (الكتاب المقدس ، مخلفات القديسين الخ...) بأن يخلصوا لهم والا يقدموا على فعل شي يضر بالملك . وهكذا أصبحت التـزامات الرعايا تتضمن عدم مخالفة القوانين الدينية والمدنية وخـدمة الله والعـدالة والسلام .

الكنيسة الكارولنجية:

سمح الاستقرار وتوطيد السلم الداخلي نحو نصف قرن في المملكة الكارولنجية بتفتح الحياة الدينية والحياة الفكرية فيها .

وكان أول العاملين على يقظة الحياة الدينية المبشرين الانكلو ـ سكسون الذين نصروا جرمانيا بمساعدة حجاب قصر اوستراريا الذين اعتقدوا أن التعاون مع الكنيسة سيكون عاملا في تدعيم سلطتهم . وكان أول مظاهر هذا التعاون الاصلاح الكامل للكنيسة الفرنجية التي قام بها القديس بونيفيس بطلب من بيبن القصير واخيه كارلومان . ووضعت اسس هذا الاصلاح في المجامع الدينية الثلاث التي عقدت في اوستراريا ونوستريا بين عامي ٧٤٢ ـ ٧٤٤ م وتابع ملك الفرنجة الذي غدا حليفا للبابا ذلك الاصلاح ، وفي بداية القرن التاسع اصبحت كنيسة العصر الوسيط راسخة البنيان .

ولنبدأ الكلام عن الكنيسة النظامية . كانت غاليا الشمالية في نهاية العصر الميروفنجي ممتلئة بالأديرة . وكانت هذه الأديرة تمثل الجزء السليم من الكنيسة الفرنجية مع أنها كانت تعاني من الفوضى وتدخل العلمانيين في شؤونها ، وعلى الرغم من أن انظمتها كانت متنوعة ومختلفة ولا تراعى بدقة ، كما أن شارل مارتل صادر قسما كبيرا من ممتلكاتها ووزعه على اتباعه المخلصين .كان اهتمام القديس بونيفيس بالأديرة ضعيفا ، فلم يتوصل الى تعميم القاعدة البندكتية في جميع الأديرة ، واقتصرت هذه القاعدة في زمنه على الأديرة والابويات التي اسست حديثا في جرمانيا ومنها انتقلت الى اديرة وابويات اوستراريا ، وقد سادت في تلك المؤسسات الرهبانية الاتجاهات الانكلو ـ سكسونية في الرهبنة ، فلم يكن الرعاة كما اراد القديس بندكت ، رؤساء جماعات منعزلة بل كانوا رسلا

للتبشير بالديانة المسيحية ونشرهـا وارتبـطوا بـالكرسي المقـدس مباشرة ، واهتم الرهبان فيها بالاعمال الفكرية أكثر من اهتمـامهم بالاعمال اليدوية .

سعى بيبن القصير ومن بعده شارلمان الى المحـافظة على نظـام الأديرة والى اسـتخدامها لأغراضهما السـياسية .واسـتمرا على اقتـطاع بعض الأراضي مـن امـلاك الأديرة ومنحهـا الى اتباعهما ،وعملا على تعيين بعض انصارهما مـن العلمـانيين رعاة لبعض الأديرة ، وسـهرا على حسـن ادارة الأراضي التـي بقيت في ملكية الأديرة ، وقد تمتع الرهبان في عهدي بيبن وشارلمان بـالراحة والسعة ، وأدى تطبيق نظام الدومين في الاملاك الديرية ، الى تحرير الرهبان من العمل بأنفسهم لاستثمار الأرض ، وبالتالي سمح لهـم بالانصراف الى حياة الدراسة والعمل الفكري .

وكان الملوك الكارولنجيون يعـدون رعاة الاديرة بمثـابة مـوظفين لديهم • فكانوا يختارونهم من الطبقة الاجتماعية نفسها التي كانوا يختارون منها الكونتات أي من ابناء الأعيان الذين كانوا يدبـون في القصر ، وكان الملوك يعهدون الى هؤلاء الرجـال النشـيطين وهـم شباب بوجه عام ، بمهمـات ادارية وسـياسية عليا ، وقـد تـكيفت الكنيسة النظامية بين عامي ٧٥٠ ـ ٨١٤ م مع النظام الاقتصادي السائد في ذلك الوقت وأصبحت مـركزا رئيسـيا للنشـاط الفـكري والفني وعنصرا هاما من عناصر الحضارة الفرنجية •

وطرأ تبدل هام في عهد لويس التقي بتأثير الراهب بنوا راعي دير أميان في اكيتانيا الذي كان يرغب في تطبيق القاعدة البندكتية تطبيقا اكثر دقة ، فأصدر الامبراطور لويس التقـي عام ٨١٧ م مـرسوما يفرض بمـوجبه القـاعدة البندكتية على جميع الأديرة في كل أنحـاء الامبراطورية ، واستبدل المفهـوم الانكلو ـ سـكسوني عن الحياة الديرية الرهبانية ، أي المفهوم المنفتح الذي يميل الى العمل الفكري

والتبشير بالمفهوم الذي كان سائدا في بلاد البحر المتوسط أي بالميل الى حياة الزهد والعزلة واقامة الطقوس الدينية ، وأقلع الامبراطور من جهة أخرى ، عن مصادرة املاك الاديرة ومنح بعضا منها الحق في اختيار راعيهـا اختيارا حـرا ، ومنذ ذلك الحين فقـدت الاديرة اشعاعها ، وعادت الكنيسة العصرية والأساقفة الى احتلال المكان الأول في العالم المسيحي . وكانت وظيفة الأسقف ، وهي الوظيفـة الرئيسية في النظام الكنسي ، في حالة انحطاط شديد في بداية القـرن الثامن . ولذا ركز القديس بونيفيس اهتمامه على اصلاحها فعمـل على تعيين أشخاص اكفاء في المناصب الشـاغرة وعلى طـرد رجـال الدين الفاسدين واعادة تنظيم المجامع الدينية . غير أن هذا العمـل كان طويلا وشاقا لم ينته الا في عهد شـارلمان ، واصـبح الملك ، في هذا العهد هو الذي يعين الأسقف ويختاره من رجـال الدين المقيمين في القصر الملكي او من أباء الاديرة المتقدمين في السن ، وهـو في كل الأحوال ، من الرجال ذوي الكفاءة والمقدرة للاطلاع بمهـامه الدينية كراع للجماعة المسيحية في مقاطعة مركزها احـدى المدن الرومـانية القديمة ، وكان الأسقف يختار بنفسه رجـال الاكليروس التـابعين له ، ويعلمهم في المدرسة الملحقة بدار الأسـقفية ويراقـب سـلوكهم الديني ، ويساعد الكونت والملك في مهمتهما لاقـرار السـلم وتحقيق العـدل بين الرعية ، لأن الواجبـات الروحية لم تـكن منفصـلة عن الواجبات المدنية .

وكان رجال الدين الكبار انفسهم خـاضعين لمراقبـة مفتشي الملك ويمكن عزلهم من مناصبهم بموجب قرار مـن المجتمـع الديني الذي كان يراسه ويدير أعماله الملك . وكان الملك يصدر مراسيم تتضـمن قرارات المجامع الدينية العامة والتعليمات التي توجه الى كبار رجال الدين ، وفي بداية القرن التاسع عهد شارلمان الى المطارنة بمـراقبة الأساقفة التابعين لهم وصـاروا يحملون لقـب « رئيس اسـاقفة » اسوة بـالكنيسة الانكلو ـ سـكسونية ، واصـبحت الكنيسـة الكارولنجية بعد الاصلاح تحتل مكانة هامة في العـالم الكارولنجـي بعد عام ٨١٤ م.

وسمح اصلاح النظام الاسقفي بتدعيم الاجهزة الدنيا في الكنيسة العصرية وتقويتها فالف كهنة المدن روابط تجمع بينهم حسب القاعدة التي وصفها اسقف مدينة مس في أواسط القرن الثامن ، وتم في الريف تنظيم الأبرشيات الذي بدا في العصر الميروفنجي ، ولكن بقي الكهنة الريفيون مرتبطون بالملاك وكانت ثقافة أكثرهم سطحية وسرعان ما انحط مستواهم الفكري لاتصالهم الدائم بالفلاحين غير المثقفين . ومع ذلك حصل تقدم رئيسي في القرن التاسع وهو ان المسيحية عمت في كل الأرياف وقضت على بقايا الوثنية فيها .

وأخيرا تم توحيد النظم والعادات الكهنوتية نتيجة لتضافر جهود البابا وملك الفرنجة ، فقد تلقى شارلمان عام ٧٧٤ م من روما مجموعة القوانين الكنسية المسماة « هدريانا » وجعل منها قانونا للكنيسة الفرنسية ، كما توحدت طرق اقامة الطقوس الدينية في الكنيسة الفرنجية حسب الطرق الرومانية .

وقد كان اصلاح الكنيسة اساسا لاصلاح اخلاقي وثقافي وتجلى هذا في الاصلاح الاخلاقي في سلوك العلمانيين الذين اصبحوا اقل خشونة وادنى قساوة وذلك تحت تأثير رجال الدين ، ومع هذا ، لاينبغي ان يذهب بنا الراي الى القول ان رجال ذلك العصر كانوا يراعون تعاليم الانجيل بدقة ويطيعونها ، فقد كان الدين خارج اسوار المدن أو جدران الكنيسة بدائيا بسيطا ، ولكن حصل شي من التقدم في مراعاة الأصول والقواعد الدينية وخاصة في العائلة الملكية فلم يعد القتل والاغتيال وسيلة من وسائل الوصول الى الحكم وذلك منذ عهد بيبن القصير كما أن لويس التقي طهر القصر الملكي من الخليلات والمحظيات منذ وصوله الى العرش ، واخذ الشعب الفرنجي ، على وجه الاجمال ، بالتخلص تدريجيا من عاداته البدائية .

الحياة الفكرية والفنية:

شهد العصر الكارولنجي نهضة وتجديدا في الثقافة والفن . ولكن اشعاع هذه النهضة الفكرية ظل محدودا جدا ولم يستفد منه سوى فئة مختارة قليلة العدد من رجال الدين،والواقع ان زعماء اصلاح الكنيسة الفرنجية ، اي القديس بونيفيس ومساعديه . لم يكونوا يتصورون امكانية فصل الحياة الدينية عن الدراسة والتعليم ، وانشأ الرهبان المبشرون مدرسة في كل دير من الاديرة الجديدة التي اسسوها ، فكان اصلاح الكنيسة الفرنجية مرتبطا منذ البداية بالتجديد الثقافي ، ولكن الثقافة الجديدة اتصفت بانها ثقافة دينية ولاتينية ، فهي ثقافة دينية الغاية منها خدمة الرب ، وشرح وايضاح العقائد الدينية ، ومثلت مراكزها القليلة ، من اديرة او كنائس جزرا منعزلة وسط العالم العلماني الجاهل ، وهي ثقافة لاتينية كانت ترمي الى احياء اللغة اللاتينية بدراسة قواعدها ودراسة المؤلفات الكلاسيكية ، وذلك لكي يسهل على رجال الدين مطالعة الكتابات المقدسة الموضوعة باللغة اللاتينية وفهمها ، مثل ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس ، وكتابات اباء الكنيسة الغربية .

بدأت النهضة بتأثير الرهبان الانكلو ـ سكسون وخطت خطوات واسعة في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عندما افضت أعمال التوسع الكارولنجية الى احتكاك المقاطعات الفرنجية بايطاليا و (اطراف اسبانيا) حيث كان التراث الفكري والأدبي الروماني لايزال محافظا على بقائه بشكل أقل تحويرا وتشويها ، وعندما اهتم شارلمان شخصيا برفع المستوى الثقافي لرجال الدين في غاليا الشمالية ، ولذا جذب شارلمان الى بلاطه ابرز رجال الفكر الأوربيين في عصره وساعد هؤلاء الامبراطور على تشغيل اطر للتعليم المنهجي في مدارس الأديرة ومدارس الكاتدرائيات ، ومدرسة القصر التي كانت خاصة بابناء الطبقة الارستقراطية الذين كان الملك يختار

الأساقفة منهم ، وكانت نتائج هذه الاصلاحات في البداية متواضعة فلم يكن الكتّاب المعاصرون لشارلمان ، يهتمون بان يضعوا مؤلفات اصلية بل بتقليد الكتاب القدماء ، ولعل هـذا كان ضروريا في هـذه المرحلة ، فـالمهم هـو ايجـاد الأدوات الأسـاسية الضرورية للمعرفة ، وكتابة النصوص المسيحية بلغة لاتينية سـليمة ، وتعليم الناس قراءتها وفهمها . وهـكذا عادت اللغـة اللاتينية السـليمة لتصبح لغة العلم والثقافة متميزة بذلك عن اللغات الشـعبية ، وادى صبر ومثابرة النساخين في الأديرة الى انقاذ القسـم الاعظـم مـن التراث الأدبي الروماني ، وثمة حدث هـام ورئيسي في هـذا العصر كان النتيجة المباشرة لهـذه النهضـة الفـكرية الكارولنجية هـو أن اللغات المحلية اكتسبت شخصية مستقلة ، ووافقت المجـامع الدينية في غاليا في مطلع القرن التاسع على ان يكون الوعظ والارشاد باللغة العامية ، ومنذ ذلك الوقت اصبح الغرب مسيحي ثنائي اللغة (اللغة اللاتينية بالاضافة الى اللغة المحلية) .

وقد دفع الجيل الذي نشأ في تلك المرحلة بالتقدم الى الأمام وبـدأ بالانتاج الفكري والأدبي غداة موت شارلمان ، وممـا يدل على قـوة واتساع اليقظة الفكرية رد الفعل الذي قام به الراهب بنوا راعي دير اميان الذي خشي من شغف الرهبان بمـطالعة المؤلفـات العلمـانية فأراد تقليص الوقت المخصص للدراسة والأعمال الفـكرية في الحياة الديرية ، وقد ساهم في هذه النهضة ايضا بعض الأجانب وخـاصة الأيرلنديين الذين هربوا امام الغزو السـكانديناڤي ، ولكن في القـرن التاسع كان جميع الكتاب تقـريبا مـن الفـرنجة الذين اتسـعت افاق افكارهم ، وازداد غنى ثقافتهم وسعى اكثرهم الى انتاج آثار فكرية وادبية شخصية ، واتخذ نشاطهم أربـع اتجـاهات رئيسـية هي :

اللاهوت والتاريخ والسياسة الدينية الاجتماعية ، وشعر التـراتيل الدينية،وينبغي ألا نغالي في تقدير النتاج الأدبي والفـكري في هـذه

الفترة لأنه كان مليئا بالنقل والاقتباس عن الأقدمين وتنقصه الاصالة العفوية ، وعلى هذا تنحصر قيمته في أنه مثل الخطوة الاولى في يقظة الفكر الغربي .

وكانت نهضة الفن في العصر الكارولنجي وثيقة الارتباط ايضا بتوطيد النظام السياسي وباصلاح الحياة الدينية ،ولكنها بدات قبل النهضة الفكرية الثقافية وكانت اكثر اصالة منها واقل تأثيرا بالفن الأجنبي او الفن القديم . فقد كان الفنانون اقل اهتماما بتقليد مخلفات الماضي الروماني ـ اليوناني وتجلت في اعمالهم الميول والاتجاهات التي ظهرت منذ اواخر القرن السابع في البلاد الواقعة بين نهري اللوار والراين حيث تم الانصهار بين التقاليد الفنية القديمة وبين التقاليد الفنية البربرية .

وظهرت براعة المهندسين المعماريين الغاليين في المنجزات المعمارية التي تمت في عهد شارلمان مثل كنيسة جرميني التي بنيت على الطراز التقليدي المحلي ، واذا كان شارلمان قد امر ببناء كنيسة القصر في عاصمته اكس لاشبل على طرازكنيسة سان فيتال البيزنطية في رافين فقد فعل ذلك لكي يثبت ان سلطته لاتقل عن سلطة الأباطرة البيزنطيين ، وكان المهندس المعماري الذي بناها اوسترازيا من مدينة مس .

وقد ازدهرت الحركة الفنية ، مثل الحركة الفكرية ، وكانت التجديدات التي ادخلت على بناء الكنائس في عهد لويس التقي ولوثر ، مثل كاتدرائية رانس وكنيسة سان جرمان في اوكسير تلبي الحاجات الجديدة للطقوس الدينية، وتمثل المرحلة التمهيدية للثورة المعمارية التي جاء بها فن العمارة الروماني فقد ادى توسع انتشار عبادة بقايا القديسين الى اضافة اجنحة جديدة على الكاتدرائيات القديمة ، كاضافة قبو في المقدمة يضم ضريح القديس الذي يحيط بممرات جانبية ، وكنيسة صغيرة ثانوية يقوم على جانبيها برجان

ويعلوها ناقوس ، وهناك تغيير هام وحاسم في فن البناء في هذا العصر وهو استبدال اعمدة الرخام بأعمدة مبنية من الحجارة واستبدال السقوف الخشبية بالقباب والعقود .

وقد بلغ الفن الكارولنجي أعلى درجات الكمال في تزيين الكتب والمنمنمات والتجليد بصفائح العاج ، وقد ساعد على ازدهار هذا الفن ونموه التجديد الذي أدخل على الطقوس والتراتيل الدينية ، فنشأت عدة مدارس لتعليمه في بعض المدن تخرج منها الفنانون الذين كانوا يستلهمون موضوعاتهم من الرسوم الجدارية ومن المنسوجات المستوردة من الشرق ، وأبدعوا في هذا المجال كثيرا .

الفايكنغ

نقصد بالفايكنغ العناصر الشمالية التي سكنت شبه جزيرة سكندنافية وشبه جزيرة الدانمارك ، والتي شكلت غاراتها على اوربا شكلا خطيرا في القرن التاسع ، وقد أطلقت هذه العناصر على نفسها ـ وكذلك فعل المعاصرون لها ـ اسم الفايكنغ بمعنى سكان الفيوردات ، اي الخلجان ، وهي الظاهرة الطبيعية التي تمتاز بكثرتها شواطىء الجهات الشمالية الغربية من أوربا .

وإذا كان الفايكنغ يرجعون في الناحية العرقية إلى الأصل التيتوني او الجرماني ، إلا أننا يجب أن نفرق بينهم وبين العناصر الجرمانية الأولى التي اغارت على أوربا في أواخر العصور الوسطى ، ذلك ان الفايكنغ ظلوا برابرة خلص محافظين على اوضاعهم التيتونية البدائية فيما يختص بنظم الحكم والبناء الاجتماعي والديانة ، واستمروا حتى القرن التاسع يعيشون في هذه العزلة بعيدين عن العالم الروماني والبحر المتوسط ، بخلاف غيرهم من العناصر الجرمانية السالفة التي اتصلت بالحضارة الرومانية واحتكت بالمسيحية قبل اقتحامها حدود الأمبراطورية ولم تحاول مملكة الفرنجة مد سيطرتها على تلك العناصر الشمالية حتى كان القرن التاسع ، وعندئذ بدات هذه العناصر تغير على العالم الأوربي الجنوبي مما جعل بعض الكتاب يقول بأن الفايكنغ هم الذين اكتشفوا اوربا وليست اوربا هي التي اكتشفت الفايكنغ .

ولم يختلف الفايكنغ عن غيرهم من العناصر البربرية الجرمانية في نظمهم وعاداتهم واسلوب حياتهم الاان طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأحراش والمستنقعات ، لم تترك لهم مجالا يعيشون فيه سوى السهول الساحلية ، وهي لا تعدو في كثير من الأحيان اشرطة ضيقة من الأرض الصعبة وهكذا دفعت الطبيعة الفايكنغ نحو

البحر ، فبرعوا في بناء السفن الصغيرة المكشوفة التي اتصفت بطولها وقلة عرضها وسارت بالمجذاف أو الشراع ، وجابوا بها شواطيء أوربا من البحر البلطيكي حتى البحر المتوسط ، بل قاموا ايضا برحلات بعيدة في المحيط الاطلسي حتى اصبحوا أعظم الشعوب البحرية التي عرفتها أوربا في العصور الوسطى . لذلك اتخذت اغارات الفايكنغ شكلا بحريا أقرب الى القرصنة منه إلى الزحف البرى الذي اتصفت به هجمات بقية الشعوب التيتونية الجرمانية قبل ذلك بأربعة قرون أوخمسة ، كذلك عرف عن الفايكنغ مهارتهم في القتال ، وقوة تسلحهم فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحربة طويلة ، زيادة على درع واق وخوذة من الحديد .

أما الأسباب التي دفعت الفايكنغ الى الخروج من بلادهم والقيام بهذه الحركة التوسعية الهائلة ، فيمكن تفسيرها على أسس اقتصادية واجتماعية وسياسية،فمن الناحية النفسية اثبت البحث التاريخي دائما أن الشعوب المتأخرة يغلب عليها شعور الحسد والطمع للبلاد المتحضرة القريبة منها ، والرغبة في الاغارة عليها لنهب ثرواتها أو على الأقل مشاركتها حضارتها وعيشها الهني . وهذا الشعور كان أحد العوامل التي حركت الجرمان نحو أراضي الامبراطورية الرومانية المتوسطية من قبل ، كما يمكن القول بأنه أحد البواعث الهامة الكامنة خلف حركة الفايكنغ في القرن التاسع ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الفايكنغ كانوا عملاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا .

لذلك اهتز الفايكنغ عندما غزا الفرنجة فريزيا وسكسونيا نظرا لما ترتب على هذا الغزو من شل نشاطهم التجاري ، وبالتالي مضايقتهم اقتصاديا ، ومن الناحية الاجتماعية الاقتصادية يقال أن أعداد الفايكنغ تزايدت في القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطيء سكندناقية والدانمرك، مما دفعهم الى الهجرة الى أرض الله الواسعة والاغارة على البلاد القريبة ، بغية الحصول على ما

يمسك رمقهم وبسد حاجتهم ، هذا وأن كانت لا توجد في الواقع ادلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سببا اساسيا لهجرة الفايكنغ في القرن التاسع فان ذلك مقبول كتعليل على سبيل الفرضية،وأخيرا يأتي العامل السياسي مثلا في نشأة الملكية بين الفايكنغ وبخاصة في النرويج حيث تركزت السلطة قرب منتصف القرن التاسع في يدي هارولد الأشقر ، الأمر الذى جعل كثيرا من الزعماء يفضلون الهجرة الى اوطان جديدة على الخضوع لنظام لم يألفوه ، وهناك من الدلائل ما يشير الى أن السويد والدانمرك . شهدتا ايضا تطورات سياسة داخلية أدت بكثير من جموع الفايكنغ الى الهجرة ، وهنا نلاحظ أن الفريزيين ظلوا منذ القرن السادس حتى منتصف القرن الثامن يمثلون أعظم قوة بحرية وتجارية في شمال غرب أوربا ، حتى أن قوتهم كانت عقبة كأداء في سبيل توسع الفايكنغ جنوبا . ولكن حدث عندما اصطدم الفرنجة بالفريزيين وحطموا قواتهم على ايدي شارل مارتل سنة ٧٣٤ م ، ثم شارلمان سنة ٧٨٥ م أن زالت هذه العقبة من طريق الفايكنغ واصبح طريق التوسع جنوبا مفتوحا أمامهم .

وإذا كنا في حديثنا عن الفايكنغ نقسمهم الى نرويجيين وسويديين ودانيين (نسبة الى الدانمرك) فإننا يجب أن نشير الى أن هذا التقسيم لا يعني وجود فوارق بين هذه الفئات الثلاث ، وانما كل ما يقصد هو الاشارة الى جماعات الفايكنغ التي سكنت الأجزاء الغربية أو الشرقية من سكندنافية أو شبه جزيرة الدانمرك ، وبعبارة أخرى فان العصر الكارولنجي لم يعرف وحدات سياسية تحمل اسم النرويج أو السويد أو الدانمرك .

وهنا نلاحظ أثر التوجيه الجغرافي في توزيع غزوات الفايكنغ . فالسويديون الذين يواجهون شرقي أوربا عبروا البلطيق وسلكوا الطرق الطبيعية التي هيأتها وديان الأنهار للوصول الى سهول شرقي أوربا والبحر الأسود ، أما النرويجيون فقد اتجهوا غربا فوصلوا انكلترا وايرلندا والجزر القريبة ، فضلا عن الجزر

الشـمالية في المحيط الاطلسي . هـذا في حين اتجـه الدانيون نحـو الجنوب والغرب فهددوا شواطي الامبراطورية الكارولنجية في المانيا وفرنسا ، فضلا عن ايرلندا والجزر القريبة .

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها علاقة الفايكنغ بغرب أوربـا الى ثـلاثة ادوار :الاول دور الهجـوم ، والثـاني دور الاستقرار ،والثالث دور الدفاع ، أما دور الهجوم فقد بدأ في أواخـر القرن الثامنـ أي منذ سنة ٧٨٩ ـ عندما أخذ الفـايكنغ يهـددون شواطي انكلترا واسكوتلندا وايرلندا وفي ذلك الوقت لم تحل قبضـة شارلمان القوية دون تعرض امبراطوريته لهجمات الفـايكنغ ، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلا خطيرا الا بعد وفاة شارلمان ، ثم بوجه خاص وفاة لويس التقي ،وقد اتخـذ نشـاط الفـايكنغ في ذلك الدور شكل غزوات صيفية حيث كانوا يخرجون من بلادهم صـيفا عندمـا يعتدل الجو ويعودون اليها في الخريف ، وقد اكتظت سفنهم بالغنائم والاسلاب ، على أن حركة توسع الفـايكنغ لم تلبـث أن دخلت دورا جديدا عند منتصف القرن التاسع عندما اخذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم في معسكرات حصينة أو في الجزر المنيعة الواقعة قرب شواطىء البلاد التي كانوا يغيرون عليها أو عند مصبات انهـارها ، وبعد أن كانوا في الدور الاول يأتـون على هيئة جمـاعات صـغيرة أصبحوا في هذا الدور الثاني يغيرون على بـلاد غرب أوربـا في هيئة جموع ضخمة ومعهم نساؤهم وأولادهم بغية الاسـتقرار في البـلاد التي يغزونها ، وهكذا اقام الفايكنغ مسـتعمرة قصـيرة العمـر في ايرلندا سنة ٨٤٣ م كما قضوا الشتاء لأول مـرة في انكلتـرا سـنة ٨٥١ م وكذلك أخذوا يستقرون حوالي ذلك الوقت في الجزء الغربي من فرنسا الذي عرف فيما بعد بـاسم نورمـاندي ولكنهـم اخـذوا يتوغلونتدريجيا داخل البلاد ، وصار كلما هجر الاهـالي الأجـزاء القريبة الى الداخل تبعهم الفـايكنغ في حين التـزم هؤلاء الاخيرون جانب الدفاع ،وقد بدأت هذه المقاومة من جـانب الكونت أود حـاكم باريس مما أدى إلى اخفـاق حصـار الفـايكنغ لبـاريس (٨٨٠ ـ ٨٨٧ م) وقبل ذلك بقليل كان الفرد ملك وسكس بانكلترا

قد انزل بالدانيين هـزيمة كبـرى في ادنجتـون سـنة ٨٧٨ ، وفي سنة ٨٩١ استطاع ارنولف ـ احـد ملوك البيت الكارولنجـي في المملكة الوسـطى ـ أن ينزل هـزيمة بـالفايكنغ في مـوقعة ديل في برابانت .

أغارات الفايكنغ على الامبراطورية الكارولنجية

بدأت اغارات الفـايكنغ على الامبـراطورية الكارولنجية في حياة شارلمان الذي ادى توسعه شمالا الى ايجاد حدود مشتركة بينه وبين الدانيين ، ولم يلبث أن ساد سوء التفاهم العـلاقات بين الطـرفين عندما دخل بعض السكسون الهاربين من وجه شارلمان تحت حماية الدانيين ، هـذا في الوقـت الذي اخـذت بعض سـفنهم تغير على اكوتين . ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع اغارات الفايكنغ على شـواطىء الامبراطورية الغربية بحيث لم تمر سـنة واحـدة دون أن يدهمـو احدى القرى أو المراكز الساحلية ، ويبدو أن هذه الاغارات أفـزعت شارلمان فأعد اسطولا قويا في موانيء نسـتريا لحمـاية شـواطىء امبراطوريته من هجمات الفايكنغ ، ومع ذلك قد استمر غود فـري ملك الدانيين يسبب متـاعب خـطيرة لشـارلمان في جنوب البحـر البلطيكي وشواطىء فريزيا حتى حاول شارلمان مفاوضتهم والاتفاق معهم فيما بين ٨٠٤ ـ ٨٠٩ م كوسيلة لدفع شرهم ثم حدث في عهد لويس التقي خليفة شارلمان ـ أن استغل الدانيون فرصة الخلافات والحروب الداخلية التي قامت حول تقسيم الامبـراطورية ، وانزلوا قواتا ضخمة على شواطىء فريزيا سنة ٨٣٥ ونهبوا أوترخت مركز رئيس اساقفة فريزيا ودورشتد اكبـر مـواني الاقليم ، وفي العـام التالي اغار الدانيون على فلاندرز واحرقوا مدينة انتورب ثـم عادوا سنة ٨٣٧ إلى مهاجمة جـزيرة والشرن عند مصـب الراين وأوغلوا حتى وصلوا الى نموجن ، ولكنهم لم يلبثوا أن لاذوا بالفرار عندمـا حضر اليهم لويس التقي على رأس جيشه ، ويبدو أن لويس حـاول شراء مسالمة الدانيين بالهدايا والمال كما منحهم المنطقة في دورشـتد سنة ٨٣٩ ليقيموا فيها ويحلوا دون وقوع اعتداءات جديدة من جانب

الفايكنغ ، وإن كانت هذه الاجراءات واشباهها لم تؤد في الواقع إلا إلى زيادة مطامعهم في اراضي الامبراطورية .

ويلاحظ ان انهار فرنسا الغربية مثل السين واللوار والجارن كانت بمثابة طرق عظيمة سهلة مهدت للفايكنغ السبيل الى جوف البلاد ، فأوغلوا في نهر اللوار حتى تور حيث نهبوا كتدرائيتها ، ودخلوا في الجارن حتى تولوز ، في حين أوصلهم السوم إلى اميان والسين إلى باريس . وقد ساعد الفايكنغ على التوغل في الامبراطورية الكارولنجية الحالة السيئة التي امست فيها هذه الامبراطورية في القرن التاسع من نزاع وحروب اهلية بين الامراء والحكام ، ومهما يكن من امر فان اغارات الفايكنغ اخذت تشتد على فرنسا بشكل خطير بعد وفاة لويس التقي سنة ٨٤٠ اذ أوغلوا في نهر السين لاول مرة سنة ٨٤١ واستولوا على روان ، وربما شجع الفايكنغ في سياستهم الهجومية عندما لجأ اليهم لوثر بالذات وحضهم على مهاجمة أراضي منافسيه ، وذلك اثناء النزاع الذي قام حول تقسيم الامبراطورية عقب وفاة لويس التقي ، وهكذا اوغل الفايكنغ في اللوار قبيل عقد اتفاقية فردان مباشرة وأحرقوا ميناء نانت . ولم تلبث أن ازدادت اغارات الفايكنغ حدة وعنفا عقب تقسيم الامبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣ حتى اصبح هذا الخطر بمثابة الشغل الشاغل للاخوة الثلاثة الذين اقتسموا الامبراطورية ، وكان لويس الالماني اوفر اخوته حظا لان قبائل السكسون القائمة على حدود دولته هيأت درعا قويا يحمي هذه الدولة من خطر الفايكنغ ، ومع ذلك فقد شهدت بلاد لويس الالماني حرق مدينة هامبرغ سنة ٨٤٠ ففر اسقفها الى برمن ، كما أن قوة كبيرة من الفايكنغ أوغلت في نهر الالب سنة ٨٥١ م وهزمت امراء السكسون ثم عادت ظافرة الى الدانمارك بعد أن نهبت شطرا كبيرا من سكسونيا .

أما الأخ الثاني لوثر فكانت خسارته فادحة ، اذ أخذ الفايكنغ يغيرون على شواطيء فريزيا سنويا ، وعندئذ حاول لوثر أن يمنح جزيرة والشرن عند مصب الراين لزعيم الدانيين المسمى رودريك ليسترضيه ويتفادى شره ، ولكن هذا الحل لم يجد اذ سرعان ما

اصبحت شواطيء فريزيا (الاراضي المنخفضة) قلاعا للفايكنغ ، استغلوها في التواغل داخل البلاد حتى غدا لوثر في قصره بمدينة أخن لايامن على نفسه من خطرهم .

وأما الاخ الثالث ـ وهو شارل الاصلع فكان اسوأ الثلاثة حظا لان مملكته امتازت بشاطيء طويل مكشوف ، وعدد كبير من الانهار التي ساعدت الفايكنغ على التوغل داخل البلاد وقد استغل الفايكنغ فرصة انشغال شارل في حرب اهلية مع ابن أخيه بيبن أمير اكوتين وجددوا هجماهم على الاجزاء الشمالية من مملكته وكان أن تجاسروا سنة ٨٤٣ على قضاء الشتاء لاول مرة في نستريا ، بعد أن استولوا على دير نوار موتبية ، واتخذوه قاعدة لمهاجمة الاجزاء الجنوبية من فرنسا ، ولم يلبث أن ساعد النزاع بين بيين وعمه شارل على ازدياد نفوذ الفايكنغ ، اذ استعان بهم الاول وساعدهم على التوغل في حوض الجارون حتى وصلوا الى مدينة تولوز ، وفي ذلك الوقت كان الفايكنغ قد عادوا الى تهديد حوض السين من جديد فأغاروا على مدينة روان ونهبوها للمرة الثانية سنة ٨٤٥، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا الى اسوار مدينة باريس . وهنا لم يجرؤ شارل الاصلع على صدهم أو الوقوف في وجههم فحصن نفسه في مرتفعات مونتمارتر ، وفي ديرسانت دنيس ، وترك باريس ليدخلها الفايكنغ وينهبوها ،ولم تقف اغارات الفايكنغ على فرنسا عند هذا الحد ، بل انهم اغاروا على بوردو ـ كبرى مدن الجنوب ـ ونهبوها سنة ٨٤٧ ، ثم استولوا عليها تماما بعد قليل فظلت بايديهم عدة سنوات ، ومن الواضح ان استيلاء الفايكنغ على مثل هذه المدن الضخمة كان يعود عليهم بارباح طائلة وغنائم وفيرة ، اغرتهم على مواصلة نشاطهم التدميري بأعداد اكبر حتى وصلت مملكة شارل الاصلع الى درجة يرثى لها من الخراب والانحلال ، وقد حدث عندما تجددت هجمات الفايكنغ على حوض السين سنة ٨٥٢ ان اتى لوثر على رأس جنده لمساعدة أخيه شارل الأصلع ، ولكن الاخير لم يلبث أن عقد صلحا مع زعيم الدانيين ومنحه مبلغا طيبا من المال ، واجاز له الاستقرار في منطقة قرب اللوار ، ومن ثم انسحب لوثر عائدا الى

بلاده ، ولم تلبث أن تجددت الحروب الاهلية بين لويس الالماني واخيه شارل الاصلع سنة ٨٥٤ فأتاحت فرصة جيدة للدانيين ، فأوغلو في مملكة شارل وحرقوا نانت وتور ونهبوا المناطق المحيطة بانجرزوبلوا ، وكذلك لم تقاومهم سوى مدينة أورليان (٨٥٣ ـ ٨٥٤) .

وخير ما يوضحلنا عجز ملوك البيت الكارولنجي عند منتصف القرن التاسع عن دفع خطر الفايكنغ انهم لجأوا الى شراء مسالمتهم بالمال من ذلك ما فعله شارل الاصلع سنة ٨٦٠ من عقد معاهدة مع ولاند احد زعماء الفايكنغ تعهد فيها الملك بدفع مبلغ ضخم من المال ليقوم الاخير باخلاء دستريا من الغزاة ، ولكي يحصل الملك الكارولنجي على هذا المبلغ الذي تعهد بدفعه للفايكنغ فرض على رعاياه ضريبة ثقيلة ، بحيث لم تعف منها الكنائس والاديرة والنبلاء والتجار بل فقراء الفلاحين ، وهكذا جاءت الضريبة لتضيف حملا جديدا الى الاثقال التي كان يتحملها اهالي دولة الفرنجة ، في الوقت الذي اتضح فيه عجز ملوكهم عن الدفاع عنهم وعن حريتهم .

والواقع ان الفترة الواقعة بين سنتي ٨٥٥ ـ ٨٨٧ تعد أحلك عصور التاريخ الغربي ، ففي سنة ٨٥٥ توفي لوثر ، فكان ذلك نذيرا لحرب أهلية جديدة بين ابنائه واخوته حول اقتسام مملكته ، وفي هذه الظروف لم يتوقف خطر الفايكنغ ، بل ازداد عنفا مما دفع شارل الاصلع الى اصدار مرسوم بيستر سنة ٨٦٤ لتعديل نظام الدفاع وجعله يعتمد على جيوش خفيفة سهلة الحركة بدلا من الخيالة الثقيلة من جهة ؛ ولعمل جسور وعقبات في مجاري الانهار لتعوق تقدم سفن الفايكنغ من جهة اخرى . على أن وفاة لويس الالماني سنة ٨٧٦ ، ثم شارل الاصلع سنة ٨٧٧ م زادت من انقسام الامبراطورية الكارولنجية ، ومن ضعفها وعجزها عن مقاومة اخطار الفايكنغ ، وفقد السوم باكمله بما فيه من مدن وأديرة مهمة ، كذلك تعرضت فريزيا وفلاندرز للمصير نفسه ، اذ هيأت أنهار الراين والميز والشلد وغيرها طرقا صالحة لتوغل الفايكنغ حتى

وصلوا أخن وهددوا كولونيا ، وصحيح أن لويس الثالث ملك فرنسا استطاع ان يحرز نصرا على الفايكنغ في موقعة سوكورت سنة ٨٨١ م حتى انه ذبح منهم ثمانية الاف وطردهم خارج حدود مملكته ، لكن هذا النصر لم يكن كافيا للقضاء على خطرهم وهكذا لجأ في سنة ٨٨٢ شارل السمين الى مصالحة غودفري أحد زعماء الفايكنغ فعقد معه معاهدة السلو حيث وافق شارل على منح الفايكنغ مبلغا من العملة الفضية فضلا عن اقليم فريزيا ليكون دوقية لغودفري الذي تزوج ابنة اخ الملك شارل ، وفي مقابل كل ذلك انسحب غودفري من مملكة شارل السمين وتعهد باعتناق المسيحية وبان يظل تابعا للملك شارل .

ولكن هؤلاء الفايكنغ الذين غادروا المانيا وفقا لمعاهدة السلو إتجهوا نحو نستريا وهو أمر لم يهتم له شارل السمين في قليل أو كثير ما داموا سيجلون عن مملكته لذلك كان شتاء ٨٨٢ ـ ٨٨٣ قاسيا بالنسبة للجهات الشمالية من فرنسا ، اذ دهمت المنطقة جموع ضخمة من الفايكنغ . وهنا لم يحاول الملك كارلومان (٨٧٩ ـ ٨٨٤) أن يحذو حذو سلفه لويس الثالث ، وانما فضل ان يقتفي سياسة شارل السمين فدفع مبلغا طائلا من المال للغزاة مقابل أن يتركوا بلاده وينقلوا ميدان نشاطهم الى بلدان اخرى ، وقد اتيحت لشارل السمين بعد موت كارلومان ملك فرنسا فرصة توحيد معظم اجزاء امبراطورية شارلمان تحت سيادته ، ولكن الفارق كان عظيما بين شخصيتي شارل السمين وشارل العظيم ، وهكذا امتازت السنوات الثلاث التي وجد فيهما شارل السمين الامبراطورية (٨٨٤ ـ ٨٨٧) بضعف السلطة المركزية ، وتحلل الرعايا من اخر الروابط التي كانت تربطهم بالملكية الكارولنجية .

وسرعان ما اثبتت الحوادث أن الاتفاقات التي عقدها ملوك الغرب مع الفايكنغ لاقيمة لها ما دام هؤلاء الملوك لايملكون القوة التي يجبرون بها أعداءهم على احترام كلمتهم ، لذلك لم يلبث أن عاد الفايكنغ إلى تهديد المانيا وفرنسا ، حتى اشتدت غاراتهم بصفة خاصة في السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع ، فدمروا

فلاندرز كما تعرض وادي الجارون والركن الجنوبي الغربي من فرنسا لغارات اخرى خطيرة ، فاستولى الفايكنغ على بوردو مرتين ، ونهبوا بواتيه وتولوز ، بل ان اساطيلهم دارت حول شبه جزيرة ايبيريا واغارت على الموانيء الاسلامية في الاندلس وهددت قواتهم بعض مدن الداخل ، وحرضت هذه الغارات المدمرة السلطة الاموية على تحصين المدن وتقوية دفاعاتها وايلاء الاسطول المزيد من الاهتمام ، وفي فترة تاليه تبادل السفارات مع الفايكنغ .

كما وهدد الفايكنغ الجزء الغربي من حوض المتوسط وتسللوا في الرون حتى نهبوا افينون ، واذا كانت بعض المدن المسورة والحصون قد استطاعت الثبات والدفاع عن نفسها ضد هجمات الفايكنغ ، فان الاديرة والكنائس لم تكن لها درع يحميها سوى حرمتها الدينية ، وهذا سلاح لم يعترف به اولئك المغيرون الوثنيون ، لذلك شدد الفايكنغ هجماتهم على الاديرة والكنائس بعد ان خبروها فوجدوها مخبأ للثروات والكنوز الامر الذي نشا عنه اندثار كثير من هذه المؤسسات الدينية في ذلك العصر ، ولما كانت الاديرة حينذاك هي المراكز الاساسية للنشاط التعليمي والحضاري في اوربا للعصور الوسطى فان الخسارة التي لحقت الحضارة الاوربية بتدمير الاديرة وفرار اهلها او قتلهم كانت اعظم من ان تقدر .

على أن حوض السين ظل الهدف الاساسي لهجوم الفايكنغ في أواخر القرن التاسع ، وقد تعرضت باريس في أواخر سنة ٨٨٥ م لهجوم كبير قام به اربعون الفا منهم جاؤوا في سبعمائة سفينة ، وتولى قيادتهم عدد كبير من زعمائهم المدربين على شؤون الغزو ، واستطاعت باريس الصمود عدة اشهر ومقاومة الهجوم والحصار ، بفضل مهارة كونت أود حاكمها ، حتى وصل أخيرا (تشرين ثاني ٨٨٦) الامبراطور شارل السمين ليكرر تمثيلية السلو مرة اخرى وبعقد صلحا مشينا مع الفايكنغ تعهد لهم فيه بدفع مبلغ ضخم من المال ثمنا لانصرافهم عن باريس كما سمح لهم بالاقامة في برغنديا .

على أن الاهمية التاريخية لهذا الحصار لاترجع الى ظهور شخصية كونت أود على مسرح الحوادث فحسب ، بل ترجع ايضا إلى ظهور اهميته باريس نفسها وانتشار شهرتها لتصبح عاصمة فرنسا فيما بعد .

وكان أن تم اختيار اود ملكا على فرنسا في شباط سنة ٨٨٨ بعد عزل شارل السمين في العام السالف . ولم يلبث أن احرز اود انتصارا جديدا على الفايكنغ بعد تتويجه بعدة اشهر ليثبت مرة اخرى صلاحيته للحكم ، ولكن الفايكنغ لم يتركوه يهنأ بالاستقرار ، إذ عادوا بعد قليل إلى محاصرة باريس للمرة الرابعة ، إلا أنه يبدو أن أودو الملك كان أقل مقدرة على الدفاع عن باريس من اود الكونت ، اذ اقتفى هو الآخر سنة شارل السمين واشترى مسالمة الفايكنغ بالمال وعندئذ انسحبوا الى بريتاني ، انما لم يلبث أن عاد الفايكنغ ـ كما هي عادتهم ـ الى تهديد أواسط فرنسا ، وعندئذ أنزل أود بهم هزيمة ساحقة عند مونتبليه واسر زعيمهم واعدمه سنة ٨٩٢ م .

واثر هذا اخذ نبلاء فرنسا يشعرون بضعف خطر الفايكنغ ، مما دفعهم الى التآمر ضد ملكهم اود ، فنظروا اليه على أنه احدهم وارسلوا يستدعون شارل البسيط ـ وريث البيت الكارولنجي ـ من انكلترا ، ومن ثم بدأت فترة من الحروب الاهلية استمرت ست سنوات بين اود وشارل البسيط ، ولم تنته الا سنة ٨٩٨ م ، بوفاة اود ، وقد استمر شارل البسيط يحكم الجزء الغربي من دولة الفرنجة منذ سنة ٨٩٩ حتى مقتله سنة ٩٢٩ واظهر في هذه المدة براعة في محاربة الفايكنغ على الرغم من صغر سنه . ولم تكن اغارات الفايكنغ قد انقطعت حينئذ بل على العكس انتهزوا فرصة الحروب الاهلية بين اود وشارل البسيط وعادوا الى نستريا ليجتاحوها من جديد ، وهنا نلاحظ أن اغارات الفايكنغ امتازت ـ في هذه المرحلة ـ بمقاومة الاهالي لها من جهة ، وبقلة الغنائم التي اصبح الفايكنغ يحصلون عليها من جهة اخرى ، بعد أن احاطت المدن والاديرة انفسها باسوار منيعة .

وعندما أخفق الفايكنغ في تثبيت اقدامهم في برغنديا نتيجة لمقاومة البرغنديين أخذوا يوجهون جهودهم نحو الجزء الذي نسب اليهم فيما بعد ـ نورماندي ـ وتشير الوثائق المعاصرة الى ان الفايكنغ اتخذوا روان عند مصب السين مر كزالهم ومنها أخذوا ينتشرون على امتداد شاطيء هذا الجزء الغربي من فرنسا بين السوم وبريتاني ، وعلى الرغم من انهم أخفقوا في الاستيلاء على شارتر الا أن شارل البسيط اختار ان يسلك معهم الاسلوب نفسه الذي اتبعه الفرد ملك وسكس قبل ذلك بثلاثين سنة ، فعرض على زعيمهم رولو إقليما واسعا يستقر فيه مع اتباعه . وكان أن تمت مقابلة بين شارل البسيط ورولو عند سانت كلير سنة ٩١١ م حيث عقدت اتفاقية شهيرة بين الطرفين تسلم بمقتضاها الفايكنغ الاقليم الساحلي الممتد من السوم حتى بريتاني ، وهي المنطقة التي نسبت الى الشماليين (أوالنورمان)فعرفت منذ ذلك الوقت باسم نورماندي .

والواقع ان اتفاقية سانت كلير لم تكن اكثر من اعتراف بالامر الواقع ، لان هذه المنطقة كان معظمها بأيدي الفايكنغ فعلا ، فهم الذين بدأوا يغيرون عليها منذ سنة ٨٤١ م ولم تنقطع اغاراتهم عنها الا حوالي سنة ٩٦٦ م اي بعد اتفاقية سانت كلير باكثر من نصف قرن ، ومهما كان الامر فان الفايكنغ اصبحوا بحكم هذه الاتفاقية يحكمون نوماندي حكما مستقلا معترفا به من الملكية الفرنسية ، مع اقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا ، ومن الواضح أن الدافع الاساسي الذي شجع شارل البسيط على اتخاذ هذه الخطوة والقاء نورماندي للفايكنغ لقمة سائغة هو رغبته في ايجاد خصم قوي يقف في وجه كونت باريس ، ومهما كان الامر فان رولو دوق نورماندي سرعان ما اعتنق المسيحية وتبعه معظم رجاله ، واثبتت الحوادث نجاح هذه التجربة التي أجراها شارل البسيط ، اذ نزحت معظم جماعات الفايكنغ المتناثرة في فرنسا لتعيش تحت حكم رولو في نورماندي ، وبذلك يكون شارل قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ بقية البلاد . والمعروف عن الفايكنغ انهم كانوا ـ اينما حلوا ـ يظهرون

مرونة سريعة في تقبل حضـارة وعادات واوضـاع اهـالي البـلاد الاصليين ، لذلك لم يكد يمر قرن من الزمن على غزو الفايكنغ لاقاليم نورماندي حتى تأقلم النورمان واصبحوا فرنسيين في لغتهم ونظمهم وثقافتهم وان ظلوا محتفظين بكثير من مظاهر الحيوية والحمـاسة والعنف التي اتصف بها اسلافهم الاوائل ، مما جعلهم يقومون بدور مهم في حكومات فرنسا وانكلترا وايطاليا وصقلية ، وهـي الجهـات التي غزاها النورمان فيما بعد .

غارات الفايكنغ على انكلترا:

كانت انكلتـرا بين اول بلدان اوربـا التـي تعـرضت لاغارات الفايكنغ اذ شهدت هذه البلاد غارات قـامت بهـا بعض سـفنهم في سنوات ٧٨٧ م و ٧٩٣ و ٧٩٤ م وبعد هـذا التـاريخ لم نسـمع اغارات اخرى على انكلترا حتى سنة ٨٣٥ ، ويبدو انهم في الفتـرة الواقعة بين سنتي ٧٩٤ و ٨٣٥ وجهوا الجزء الاكبر من نشـاطهم نحو ايرلندا .

وقد اطلق اهل انكلتـرا مـن السـكسون اس[illegible] الدانيين » على جماعات الفايكنغ التي كانت تهـاجم بـلادهم م[illegible] خـر القـرن الثامن ، وعندئذ بدأ هؤلاء السكسون يشربون الجر[illegible]ة نفسها التـي سبق ان سقوها لاهـالي بـريطانيا ـ في القـرن الخـامس والسادس ، ومهما يكن من امر فانه على الرغم من قسـوة اغارات الفايكنغ على انكلترا وما لقيته البلاد على ايديهم من تخريب وفوضى إلا انه من الثابت أن الفائدة التي حصلت عليها انكلترا من وراء هذه الاغارات فاقت الخسارة التي منيت بها ، ويكفي انها أدت الى تكتل انكلترا السكسونية على هيئة مملكة واحدة .

اما اغارات الفايكنغ على انكلترا منذ سـنة ٨٣٥ فقـد بـدأت في الجنوب والغرب ثم لم تلبث أن اخذت تمتد شرقا ، ويبدو أن وسكس تلقت الجزء الاكبر من ضربات الفايكنغ في هذا الدور .

وليس معنى ذلك أن بقية اجزاء البلاد نجت من خطرهم ، فقد اجتاحوا عدة مناطق حتى انه في سنة ٨٤٤ لقي ادوولف ملك نورثمبريا مصرعه على ايديهم .

ودخلت نهر التيمز سنة ٨٥١ ثلاثمائة وخمسون سفينة من سفن الدانيين فاستولوا على بورى ولندن ، ثم عبروا التيمز حيث انزل بهم اثلووف ملك السكسون الغربيين هزيمة ساحقة عند أوكلي وذبح منهم عددا كبيرا . ومهما تكن قيمة هذا النصر ، فقد قلل من أثره أن الدانيين قضوا الشتاء لأول مرة سنة ٨٥١ م في انكلترا ، وبذلك اخذوا ينتقلون من دور الهجوم الخاطف والعودة السريعة إلى دور الاستقرار .

وبعدما لجا شارل الاصلع الى تخليص اراضي نهر السين من جموع الدانيين عن طريق شراء جلائهم بالمال سنة ٨٦٦ لجأت هذه الجموع الى انكلترا حيث اغارت في العام التالي (٨٦٧)على يورك ، واستولوا عليها دون ان يلقوا مقاومة كبيرة بسبب ما كان هناك من نزاع حول عرش نورثمبريا ، ولم يؤد انتهاء هذا النزاع الى اضعاف الدانيين او طردهم ، بل إن مرسيا دانت لهم بالطاعة سنة ٨٦٩ كما عبروا مرسيا الى انجيليا الشرقية سنة ٨٧٠ حيث انزلوا هزيمة بملكها ادموند وقتلوه ، ومن ثم عد هذا الملك قديسا وشهيدا في نظر العصور التالية .

والواقع انه لم ينقذ بقية انكلترا من خطر الدانيين وتوسعهم سوى جهود الفرد العظيم ملك وسكس (٨٧١ ـ ٨٩٩) ، حتى انه سنة ارتقائه العرش صارت ذات أهمية بالغة في تاريخ انكلترا . ذلك لان ألفرد العظيم ابلى بلاء حسنا في الدفاع عن بلاده ضد الدانيين حتى انه اشتبك معهم في تسعة مواقع حربية اثناء السنة الاولى من حكمه ، الامر الذي جعل الدانيين يفلحون بعقد الهدنة ويولون ابصارهم شطر مرسيا ، على أن الصراع سرعان ما تجدد بين ألفرد والدانيين سنة ٨٧٥ م . وعندئذ واجه ألفرد كثيرا من الصعاب في

هذا الدور ، ولكنه استطاع ان يتغلب عليها جميعا وانزل بـالدانيين هزيمة ساحقة عند ادنجتـون سـنة ٨٧٨ م وكان أن طلب الدانيون الصلح فتم عقد صلح ودمور سـنة ٨٧٨ على اسـاس جـلائهم عن وسكس وتقديم الضمانات والرهائن ، فضلا عما وعد به ملكهم مـن اعتناق المسيحية ، ولكن ملك الدانيين في انكلترا لم يلبـث أن خـرق شروط الصلح سنة ٨٨٤ ،الامر الذي جعل ألفـرد يحـاربهم مـرة اخرى حتى انتهى الامر بعقد صـلح جـديد سـنة ٨٨٥ ، حــددت بمقتضاه الحدود الفاصلة بين المملكتين بالخط الممتدمن مصب نهـر التميز حتى شير ، بمعنى أن لندن والجزء الأكبر من مـرسيا كانت من نصيب الفرد ، في حين التزم الدانيون الأراضي الواقعـة شـمالي هذا الخط.

وقد تمتعت انكلترا بعد ذلك بالسلام عدة سنوات ، قضاها الفـرد في اعادة تنظيم جيشه وتقـوية مملكتـه بـوجه عام ، في حين وجـه الفايكنغ جهودهم الى القارة . وفي ذلك الوقت استاء الفرنجة شرقي الراين من مسلك شارل السمين تجـاه الفـايكنغ ، وهـو المسـلك المتصف بالضعف وشراء مسالمتهم بالمال ، فـاختاروا ارنولف ملكا عليهم سـنة ٨٨٧ م ولم يلبـث أرنولف هـذا أن احـرز نصرا على الفايكنغ قرب مدينة لوفان الحديثة سنة ٨٩١ ، الامر الذي جعلهـم ينقلون ميدان نشاطهم مرة أخرى الى انكلتـرا . وهـكذا تعـرضت انكلترا في خريف سنة ٨٩٢ م لهجوم اسطولين من اساطيل الدانيين رسا احدهما جنوبي دوفر ورسا الاسـطول الثـاني عند ملتـون في الجزء الشمالي من كنت . وسرعان ما ابدى الدانيون نشـاطا كبيرا في مهاجمة الجهات القريبة ، ولكن الفـرد واجههـم وأجبـرهم على الانسحاب وبعد ذلك لم نعد نسمع عن اغارات اخرى خـارجية قـام بها الدانيون على انكلترا طيلة بقية عهد ألفـرد ، وإن ظـل الدانيون المقيمون في انجليا الشرقية ونور ثمبريا يقومون بكثير مـن اعمـال القرصنة ، الامر الذي دفع الفرد الى توجيه نشاطه نحو بناء اسطول قوي استغله في دفع خطر الدانيين وانزال عدة ضربات بهم .

وعندما توفي ألفرد سنة ٨٩٩ م اخذ خلفاؤه يغزون اراضي الدانيين تدريجيا حتى انتهى الامر سنة ٩٥٤ بتوحيد انكلترا كلها تحت حكم ملك وسكس الذي اصبح يستحق لقب ملك انكلترا في التاريخ ، على أن ملوك انكلترا في الخمسين سنة التالية لم يكونوا على شيء من المقدرة والكفاية ، مما عرض البلاد مرة اخرى لخطر موجة جديدة من موجات الفايكنغ ، وفي هذه المرة لم يأت الدانيون الى انكلترا على هيئة جماعات متفرقة ، وانما جاؤوا في صورة امة مترابطة ، حتى اصبح كانوت ابن ملك الدانمرك والنروج ملكا على انكلترا (١٠١٦ ـ ١٠٣٠) ولم يستطع اصحاب الحق الشرعي في عرش انكلترا من البيت السكسوني استرداد عرشهم الا سنة ١٠٤٢ عندما تولى الحكم ادوارد الثالث (١٠٤٢ ـ ١٠٦٦) الذي عرف بنزعته الدينية القوية حتى اكتسب لقب « المعترف » في التاريخ ، وقد قضى ادوارد المعترف هذا شبابه منفيا في بلاط قريبه دوق نورماندي مما جعله يتاثر الى حد كبير بالاراء والاتجاهات النورماندية ، ومهما يكن من امر فان وليم دوق نورماندي ادعى انه صاحب الحق الشرعي في بلاط انكلترا ، وكان ذلك بعد وفاة ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ م

وهنا نلاحظ ان البابوية ساندت وليم النورماندي في اطماعه، بسبب غضب البابا من السكسون الذين طردوا رئيس اساقفة كانتبري النورماندي على الرغم من انه كان يحمل تفويضا من البابوية ، وبذلك استطاع وليم النورماندي ان ينزل قواته على الشاطيء الجنوبي الشرقي لانكلترا وهزم السكسون في موقعة هيذك سنة ١٠٦٦ م وبذلك نجح وليم في فتح انكلترا مما اكسبه لقب الفاتح في التاريخ الاوربي كما استطاع توحيد نورماندي وانكلترا تحت حكمه .

غزوات الفايكنغ لايرلندا :

أما ايرلندا فقد تاثرت اكثر من غيرها في المرحلة الاولى من

مراحل اغارات الفايكنغ ، اذ عجز ملوكها عن حماية رعاياهـم ، في وقت كانت فيه مدن الجزيرة واديرتها مكشوفة دون اسوار حجـرية تحميها وتدفع عنها شر المغيرين ، وهكذا أخذ الفـايكنغ يواصـلون اغارتهم على ايرلندا في أواخر القرن الثامن ، حتـى تحـولت هـذه الاغارات الى نوع من الاستقرار في الجزيرة في اوائل القرن التاسع.

واذا كانت ايرلندا قد تعرضت لاغارات الفايكنغ في الوقت نفسـه الذي واجهت فيه انكلترا غزواتهم ، الا أن مصـير كل مـن البلدين اختلف عن الآخر ، ذلك ان الفايكنغ داروا حول الشـاطيء الغـربي لاسكتلندا وغزوا جزيرة سكاي قرب الشاطيء سـنة ٧٩٥ م كمـا هاجموا جزيرة مان ـ بين ايرلندا وانكلترا ـ سـنة ٧٩٣ م أمـا جزيرة ايونا قرب شاطيء اسـكتلندا الغـربي فقـد نهبـوها سنة ٨٠٢ ثم سنة ٨٠٦ ظهـر الفـايكنغ قـرب شـاطيء ايرلندا الشمالية الغربية عند سيليجو ثم شقوا طريقهم داخل البـلاد حتـى وصلوا وسكنوا في أواسط البلاد . وفي سنة ٨١١ هاجموا منستر في جنوب غرب الجزيرة ، كما نهبوا شبه جزيرة هوث ـ بجـوار دبلن ـ وغيرها من الجزر الصغيرة القريبة سنة ٨٢١.

وهكذا يبدو لنا من هذا العـرض السريع أن اسـاطيل الفـايكنغ احاطت بايرلندا احاطة تامة في الربع الاول من القرن التاسع ، بل لم تكد تحل سنة ٨٣٤ إلا وكان الفايكنغ قـد اوغلوا داخـل الجـزيرة بحيث لم تنج ناحية من هجماتهم . وعندئذ لم يعد الفايكنغ يقـومون بالغارات الفردية وانما اخذوا يهاجمون الجزيرة باساطيل كبـرى ، متخذين من خلجانها وموانيها العـديدة مـراكز ينفـذون منهـا الى الداخل .

ويبدو أن المقاومة العنيفة التي ابدتها القبـائل الايرلندية حـالت دون استلاء الفايكنغ على الجزيرة كلها ، فقنعوا باقامة مراكز لهـم حول خلجان الجزيرة ومصبات أنهارها . وقد حصن الفايكنغ هـذه المراكز واقاموا فيها القلاع ، وعن هذا الطريق ظهرت اهمية دبلن ، اما المناطق الداخلية فقد اكتفى الفايكنغ بنهبها ولاسيما الاديرة التي

تعرضت لكثير من مظاهر التدمير ، مما جعل كثيرا من رهبانها يؤثرون الفرار الى أديرة فرنسا وفلاندرز والمانيا ، ويلاحظ أن الغارات الاولى التي تعرضت لها انكلترا وايرلندا ، حتى منتصف القرن التاسع ، قامت بها عناصر من الشماليين النرويجيين ، لامن الدانيين . الذين منذ ذلك الوقت اخذت غاراتهم تتخذ طابعا عنيفا حتى دخلوا في صراع عنيف مع الشماليين النرويجيين الذين سبقوهم الى الجزيرة ، واشتد النزاع في ايرلندا بين الدانيين والنرويجيين الشماليين ، وحاول انذاك الايرلنديون حماية انفسهم من خطر الفريقيين ، مما أوقع الجزيرة في حالة شاملة من الفوضى ، ومع هذا ظل الايرلنديون يقاومون حتى حافظوا على شخصيتهم ، ثم تمكنوا من اذابة عناصر الفايكنغ التي استقرت في جزيرتهم .

الفايكنغ في الجزر الشمالية:

على أن توسع الفايكنغ في الاتجاه الغربي لم يقتصر على انكلترا وايرلندا وشواطيء اسكوتلندا والامبراطورية الفرنجية ، وانما شمل أيضا الجزر الصغيرة القريبة من تلك البلاد .

فضلا عن أن النروجيين اتجهوا ـ بحكم موقعهم الجغرافي ـ اتجاها شماليا غربيا ، اي نحو إيسلاند ، ومع الايام هاجر العديد من النرويجيين ومعهم أتباعهم الى ايسلاند ليعيشوا فيها ، ثم لم يلبثوا أن اتجهوا غربا حتى وصلوا غرينلاند ثم إلى الشواطيء الشمالية الغربية لامريكا وهكذا اصبحت غرينلاند مستعمرة غنية تعج بالشماليين الذين نزحوا اليها من النرويج وايسلاندا فعمروها وشيدوا بها الكنائس .

توسع السويديين شرقا:

إذا كان هناك جدل جول نصيب كل من النرويجيين والدانيين في نشاط الفايكنغ ، فاننا لانصادف خلافا في الراي عند دراسة حركة

توسع السويديين الذين اتجه معظمهم شرقا ، حقيقة انه يفهم من بعض المصادر أن السويديين ترددوا ـ هم بدورهم ـ على انكلترا وغيرها من بلاد الغرب ولكن هذه الاغارات كانت من النوع الفردي ، ولاتعبر بأي حال عن النشاط الاجتماعي للسويديين ، وثمة مظهر أخر امتازت به حركة توسع السويديين شرقا ، وهو أن هذه الحركة قامت على اساس التغلغل السلمي الذي اعتمد على النشاط التجاري ، لاعلى اساس الغزو الحربي والنهب والتدمير ، وهي الصفات التي امتازت بها غزوات النرويجيين والدانيين في الغرب .

وكان الميدان الرئيسي لتوسع السويديين ونشاطهم في سهول اوربا الجنوبية الشرقية . وفي هذه السهول عرف السويديون باسم « الروس » وهو لفظ يعني « النوتية أو البحارة » أطلقه الافار والسلاف على هذه العناصر الشمالية التي تغلغلت في بلادهم .

وكان الافار والسلاف يحتكرون الطرق التجارية في شرق أوربا ، لجلب الرقيق والفراء وبيعها الى تجار المسلمين في القوقاز أو التجار المسيحيين في القسطنطينية ، ولكن قوة الافار كانت قد انهارت في القرن التاسع ، الامر الذي مهد الطريق أمام العناصر الشمالية من السويديين ليحلوا محلهم ويثبتوا اقدامهم في حوض نهر الدنيبر حتى وصلوا الى البحر الأسود ، وهكذا سيطر هؤلاء السويديون أو الروس على طرق التجارة بين البحرين البلطيكي والأسود مما ساعدهم على تأسيس دولة لأنفسهم في هذا الجزء الشرقي من أوربا ، ذلك ان الروس اسسوا عدة مدن ، لتحكم كل مدينة منها في المنطقة القريبة التي احاطت بها والتي سكنتها قبائل مختلفة من السلاف ، وكان لكل مدينة حكومتها الذاتية ومجالسها وموظفوها . وقد فكرت كل منها في حماية نفسها وحماية تجارتها ، فلجأت الى تأليف جيوش صغيرة ، على رأس كل جيش أمير يقوم ايضا بجمع الضرائب فضلا عن تمتعه ببعض الاختصاصات الادارية والقضائية ، وكان أن حدث أن استولى احد الزعماء الروس ـ ويدعى روريك ـ على مدينة كييف ، وبذلك نشأت دوقية

كييف العظيمة لتكون مركزا كبيرا للفايكنغ في شرق اوربا ، كما كانت نورماندي مركزا لهم في غربها ، على أنه اذا كانت دوقية نورماندي قد صادفت مقاومة عنيفة حالت دون توسعها في فرنسا ، فان دوقية كييف استطاعت على العكس من ذلك أن تتسع بسرعة فائقة ، وأن تفرض سيطرتها المباشرة ـ وغير المباشرة ـ على كثير من القبائل والشعوب القاطنة في سهول شرق أوربا . ويقال أنه بلغ من سرعة توسع كييف أن اصبح بها في الربع الاول من القرن الحادي عشر ثمانية اسواق ، كما كانت لها علاقات تجارية مع البولنديين والهنغاريين والالمان ، فضلا عن علاقتها مع القسطنطينية وبغداد ومازالت لدينا بعض نصوص المعاهدات التجارية التي ترجع الى النصف الأول من القرن العاشر بين الروس من جهة والدولة البيزنطية من جهة أخرى ، وهي تثبت أن هؤلاء الروس كانوا يحضرون الفراء والعبيد الى القسطنطينية ليستبدلوا بها الحرير والمصنوعات وغيرها من لوازم الترف. وربما كان اوضح ما في هذه المعاهدات ان الموقعين عليها من الروس حملوا اسماء سويدية . على أن علاقة الروس بالدولة البيزنطية لم تظل علاقة تجارية سلمية على طول الخط ، فقد كانت تغلب عليهم بين حين واخر نزعتهم نحو الحرب والقتال مما دفعهم الى الاغارة على الدولة البيزنطية وعاصمتها اكثر من مرة .

مما دفع الامبراطورية الى السعي للتفاهم مع الروس واقامة العلاقة بين الطرفين على اسس سليمة ، وكان ان تم التفاهم فعلا حوالي منتصف القرن العاشر ومن ثم اخذت الدولة البيزنطية تستخدم هؤلاء الروس السويديين في البحر لحسابها حيث عرفوا بخبرتهم ومهارتهم . وهكذا أدرك الروس مرة أخرى أن التجارة اربح لهم من الحرب ، فأخذوا يرسلون سفنهم كل ربيع محملة بالفراء والقنب والشمع والقار والعنبر والرقيق لتعود هذه السفن من القسطنطينية محملة بحاصلات الشرق كالحرير والتوابل والبخور والمجوهرات . أما عن علاقة الروس مع بغداد والمسلمين فتشهد على نشاطها كثرة المسكوكات العربية التي عثر عليها في

السويد وفي روسيا ، ومهما يكن من أمر فان هؤلاء الروس السويديين لم يلبثوا ان ذابوا وسط المحيط السلافي الكبير الذي عاشوا وسطه ، بحيث لم يكد ينتصف القرن الحادي عشر إلا كان الروس قد انطبعوا بالطابع السلافي العام .

ولم يقتصر نشاط الفايكنغ على دائرة البلاد السالف ذكرها ، إنما امتد هذا النشاط الى كثير من البلاد المجاورة فأغاروا كما سلفت الاشارة على شواطيء الاندلس الاسلامية وتعرضت لشبونة وقادس واشبيلية بوجه خاص لعيثهم فضلا عن بعض بلاد المغرب الساحلية . وعلى الرغم من المقاومة الحازمة التي اظهرها الاهالي في صد الغزاة ـ الذين اسماهم المسلمون باسم المجوس ـ الا أنه يبدو أن اغاراتهم استمرت بشكل خطير مما دفع عبد الرحمن الثاني الى ارسال سفارة الى ملك الفايكنغ ، ومع هذا لم يتوقف هؤلاء عن غاراتهم حيث عبروا مضيق جبل طارق واغاروا على بعض بلاد المغرب وقراها ، كما أغاروا على شواطيء الاندلس الشرقية حتى وصلوا جزر البليار ،ثم اغاروا على مدن اقليم بروفانس ، وبعد هذا على شواطيء الجزر الواقعة عند مصب نهر الرون ،وايطاليا ، وهكذا استطاع الفايكنغ في النصف الثاني من القرن التاسع الاحاطة بأوربا احاطة شبه تامة بعد أن وصل السويديون الروس الى القسطنطينية شرقا ووصل الفايكنغ الغربيون الى شواطيء ايطاليا من الجهة المقابلة .

حضارة الفايكنغ:

لم يكن الفايكنغ برارة بكل معاني الكلمة ، لأنهم اظهروا مزيجا عجيبا من البدائية والنزعة الحضارية فهم وإن ظلوا محتفظين ببعض تقاليدهم البدائية تفوقوا على كثير من شعوب أوربا المجاورة في بعض نواحي النشاط البشري ، وبخاصة الحرب والتجارة والتنظيم الاجتماعي . على أن الخشونة البدائية التي عرف بها الفايكنغ في اول الأمر لم تلبث أن اخذت تتعدل نتيجة لانتشار

المسيحية تدريجيا بينهم ، مما ترتب على ذلك تهذيب طباعهم بعض الشيء .

ويرجح ان أول معرفة الفايكنغ بالمسيحية جاءت عن طريق علاقتهم التجارية مع الفريزيين حتى اخذت البعثات التبشيرية تتردد على سكندنافية .والدانمرك منذ اوائل القرن الثامن وبعد ذلك بقليل عمل لويس التقي على نشر المسيحية بين الفايكنغ بالطرق السلمية وذهبت بعض البعثات التبشيرية الى البلاد الشمالية . واخذت المسيحية تنتشر تدريجيا على حساب الوثنية وليس هناك من شك في ان انتشار المسيحية بين هذه الشعوب ترك اثرا واضحا على مستقبل اوربا وتاريخها ، اذ يمكن الوقوف على اهمية هذا الاثر لو تصورنا ان السويديين الروس الذين استقروا في شرق اوربا فضلوا ديانة جيرانهم المسلمين في القوقاز على ديانة جيرانهم المسيحين في الدولة البيزنطية ، وفي الحقيقة كانت اوربا بأكملها مهيأة لتلقي الاسلام ، ولاشك ان ذلك لو حدث لتغير وجه التاريخ الانساني من كل جانب نحو الافضل .

وقد امتازت حضارة الفايكنغ في الجانب المادي بالثروة والفخامة ، فقد جمعوا الحلي وأدوات الزينة والسيوف ذات المقابض الثمينة ، وغيرها من الاشياء التي فاضت بها مقابرهم ، وليس هناك من شك في ان مصدر هذه الثروة كان النهب والسلب في اغاراتهم من جهة ، كما كان النشاط التجاري من جهة اخرى ، ومن الواضح ان الفايكنغ تركوا اثرا واضحا في كل بلد استقروا فيه وبخاصة في ايرلندا وانكلترا وملحقاتها الطبيعية ، واذا كانت العناصر الاولية لحضارة الفايكنغ قد أخذت تتلاشى تدريجيا من البلاد التي نزحوا اليها واستقروا فيها ، فان هذه العناصر قدر لها البقاء في اقصى الغرب ـ اي في ايرلاندا وغرينلاند ـ حيث ازدهرت حضارة الفايكنغ واصبح تراثهم مصدرا لتطور مبتكر يختلف عن اي تطور حضاري اخر في القارة الاوربية ، حقيقة ان حضارة الفايكنغ في تلك الجهات لم تكن خالصة ، اذ امتزجت بحضارة ايرلندا الكلتية

نتيجة لهجرة كثيرة مــن الكلت الايرلنديين اليهــا ، ولكننا مــع ذلك يمكننا تمييز عناصر الحضارة الشمالية جلية واضحة وقد بلغ التقدم الحضاري في غرينلاند ، بعد استقرار الشماليين فيها ان اديرتها في القرن الثاني عشر كانت تستخدم انابيب المياه الدافئة في تدفئة داخل الاديرة، وقد استمدت هذه الانابيب مياهها من ينبوع دافىء طبيعي . هذا فضلا عن النشاط التجاري الواسع الذي قام به اهالي غرينلاند في الميدان الاقتصادي اذ اخذوا يصدرون الاسماك والفــراء والزيت الى البلاد القريبة .

اما ميدان الادب فان المجموعة الضخمة مــن اساطير الساغات واشعار « الادات » تعد خير مايدل على التقدم الادبــي وبخــاصة في ايرلاندا .

والساغات هي اساطير نثرية تمتاز بطابعها الواقعــي واتــزانها واستقامة نظرتها الى الحياة والطبيعة الانسانية ، واما الادات فهي مقطوعات منظومة تمثل نوعا بدائيا من الشعر ، ولكنها تمتاز ايضا ببروز الجانب الخلقي والنظرة الواقعية الى الحياة ، واذا كانت هذه الاشعار تنطوي على شيء من الخشونة والبربرية ، الا انهــا تعبــر تعبيرا ساميا عن روح البطولة ، كما تحــرص على ابــراز الغــرض الاسمى الذي يسعى اليه البطل ، وهكذا يرجع الفضل الى الفايكنغ عندما انتجت جزر اوربا الشمالية المقفرة حضارة وادبا عد من اعظم ماانتجته اوربا في العصور الوسطى .

اسرة كابية في فرنسا

من الواضح ان الغزوات التي تعــرضت لهــا اوربــا في القــرنين التاسع والعاشر وماترتب عليها من انهيار السلطة الملكية ، وماجرى من المنازعات بين الامراء والحكام ، تمخضت كلهــا في النهــاية عن فوضى شديدة عمت بلاد غرب اوربا .

وقد دفعت هذه الفوضى صغار الملاك الى البحث عن قوة تحميهم وتذود عنهم ، فلم يجدوا اثرا لقوة الملك او لنفوذ السلطة المركزية ، مما اضطرهم الى الارتباط بالكونت او الامير المحلي لحمايتهم ، وهكذا اخذ عامة الناس وصغار الملاك يرتبطون بمن هم اقوى من الامراء وكبار الملاك في ظل نظام من الحقوق والواجبات المتبادلة كوسيلة وحيدة لحماية ارواحهم من الاخطار والقلاقل التي عذبت المجتمع الغربي ، وبعبارة اخرى فان هؤلاء الضعفاء او المستضعفين قبلوا ان يعيشوا في حال من الهوان والمغارم مقابل قيام الاقطاعيين بحمايتهم والذود عنهم ، في حين لم تتعد سلطة الملوك الفعلية دائرة املاكهم وضياعهم الخاصة ، شأنهم شأن اي امير آخر من الامراء الاقطاعيين .

وهذا الوضع من التنظيم السياسي والاجتماعي هو الذي ظلت عليه فرنسا في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، ففرنسا ذاتها هي الدولة التي بلغت فيها الفوضى ذروتها منذ القرن التاسع ، حتى اصبح من الضروري الاستعانة بنظام جديد يضمن للناس ارواحهم ، وهكذا لم يكد ينتهي القرن العاشر ، الا وكان النظام الاقطاعي قد وطد اقدامه فيها وتناقصت سلطة الدولة المركزية تناقصا واضحا ، ومن الثابت ان فرنسا - وهي الجزء الغربي من الامبراطورية الكارولنجية - اختلفت عن المانيا - الجزء الشرقي من هذه الامبراطورية - لأن الاولى كانت في سالف الزمن جزءاً من العالم الروماني حتى دخلت تحت حكم الجرمان وقد ظلت فرنسا تحت حكم الفرنجة مقسمة الى اقسام ادارية - اوكونتيات - تتبع حدود الاسقفيات ويحكم كلا منها نائبا عن الملك الميروفنجي او الكارولنجي ، وهكذا ظل الوضع حتى تحطمت السلطة الملكية في فرنسا ، وعندئذ لم يبق قوة تحل محلها سوى قوى الحكام المحليين من الكونتات وكبار الملاك .

ولاشك في ان الحقيقة التاريخية الكبرى التي امتاز بها تاريخ فرنسا في القرن العاشر هي سقوط البيت الكارولنجي وقيام اسرة

كابية وتسلمها للحكم ، ذلك انه حدث - كما سلفت الاشارة - عندما عزل شارل سنة ٨٨٧ م ان اختاروا اودو كونت باريس ، بعدما ابداه من شجاعة في الدفاع عن باريس اثناء حصار الفايكنغ لها . على انه يبدو ان ذكرى شارلمان وعظمته كانت تدفع المعاصرين الى الاخلاص للبيت الكارولنجي والتمسك بحكمه ، الامر الذي اثار نزاعا طويلا - استمر قرنا من الزمان - بين البيت الكارولنجي والبيت الباريسي حول الاستئثار بحكم فرنسا ، وهنا نشير الى عدم صحة مايردده كثير من المؤرخين من ان الكارولنجيين الاواخر امتازوا بالضعف وعدم الكفاية ، الامر الذي ادى الى ضياع الملك من ايديهم فالواقع انهم كانوا على قدر كاف من القدرة ، وبذلوا قصارى جهدهم للاحتفاظ بملكهم ، ولكن كان ينقصهم المال اللازم . ذلك ان مصدر قوة شارلمان وثروته الشخصية كان بلاد حوض الراين ، ولم تكن له ضياع في الجزء الغربي من امبراطوريته سوى القليل ، وهو الذي اصبح من نصيب سلالة ملوك فرنسا ، وهذا هو السبب في ان ملوك الجزء الغربي من الامبراطورية - اي فرنسا - ظلوا دائما في فقر وحاجة الى المال حتى زوال البيت الكارولنجي .

وقد حدث اثناء حوادث التنافس والنزاع بين البيت الكارولنجي والبيت الباريسي ان اختير احد ابناء البيت الكارولنجي ملكا - وهو شارل البسيط ٨٩٣ - ٩٢٣ ولم يرض بذلك روبرت اخو اود ووريثه ، فثار ضد شارل ثورة لم تنجح وكان شارل البسيط اكتسب حليفا قويا عندما منح الفايكنغ اقليم نورماندي، ومع ذلك ، فان السنوات الاخيرة من حكم شارل كانت مليئة بالمتاعب الشديدة التي سببها له روبرت كونت باريس ، وقد توج روبرت ملكا سنة ٩٢٢ م ولكنه قتل في العام التالي تاركا ابنه الصغير هيو العظيم ليحل محله ، اما شارل البسيط فقد خلفه ابنه لويس الرابع (٩٣٦ - ٩٥٤) الذي كان محاربا قويا وسياسيا بارعا ، فتزوج من اخت اوتو العظيم ليضمن مساعدة المانيا انما سرعان ماكتشف لويس الرابع انه اضعف من ان يقف امام هيو العظيم ، فاضطر الى

مسالمته ، وهكذا نجح هيو العظيم ، ومن بعده هيو الملقب كابيه في السيطرة على معظم انحاء فرنسا قبل مجيء سنة ٩٨٦ م وهي السنة التي توفي فيها لوثر بن لويس الرابع ، ولم تلبث ان جاءت وفاة لويس الخامس (٩٨٦ ــ ٩٨٧) ابن لوثر ــ دون ان يترك ابنايخلفه ، وبذلك طويت صفحة تاريخ البيت الكارلونجي ، وتم تتويج هيوكابية ملكا على فرنسا في عام ٩٨٧ وهو العام الذي شهد وفاة لويس الخامس ، ولم يعن قيام حكم اسرة كابيه اكثر من حلول اسرة حاكمة محل اسرة اخرى ، وحين ورث ال كابية الكارولونجيين ورثوا حقوقهم ايضا ،انما ظلوا بالوقت نفسه السادة الاول بين بيوت السادات من الاقطاعيين ، وفي الحقيقة يعد انتصار ال كابية انتصارا للامراء الاقطاعيين على الكارولونجيين ، وهكذا كانت مملكة فرنسا عبارة عن تجمع لعدد كبير من الاقطاعيات لكل منها نظامها وقواها ومطامحها .

لقد نالت اسرة كابية اسمها من هيو الكبير (٩٨٧ ــ ٩٩٦) وقام هذا الاقطاعي الاول بتتويج ابنه روبرت الثاني قبل وفاته ، وسهل هذا انتقال الملك الى روبرت (٩٩٦ ــ ١٠٣١) ثم من بعده الى ابنه هنري الاول (١٠٣١ ــ ١٠٦٠) ثم الى حفيده فيليب الاول (١٠٦٠ ــ ١١٠٨) ، وكان هؤلاء الاربعة ملوكا اسميين لفرنسا ، وجاء بعد فيليب الاول ابنه لويس السادس (١١٠٨ ــ ١١٣٧) ، وكانت الحروب الصليبية قد قامت بحيث باتت مسؤولية فرنسا الاولى ، واستطاع لويس ان يقوي سلطانه على الاقطاعيين ، وبعد لويس السادس جاء لويس السابع (١١٣٧ ــ ١١٨٠) ، وشارك هذا الملك فيما يعرف باسم الحملة الصليبية الثانية ومعه زوجته اليانور ، وستمر بنا انباء هذه الحملة بتفاصيل مفيدة .

وبعد لويس السابع جاء فيليب اوغسطس ، وهذا الملك ايضا شارك في الحملة الصليبية الثالثة التي قامت اثر معركة حطين وتحرير صلاح الدين للقدس سنة ١١٨٧ م ، وسنقرا اخبار هذه الحملة مفصلة في نصوص كتابنا .

وخلف لويس السابع ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ ـ ١٢٢٦ م) ، وهذا الملك لم يعمر بالحكم طويلا كما انه لم يترك اثـارا واسـعة ، وابعد منه شهرة ابنه لويس التاسع (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠ م)٠

لانه خاض اخرالحملات الصليبية واسر اولا في مصر ، ثـم عاصر قيام دولة المماليك وعاش بعض الوقت في فلسطين ، وبعد عودته الى بلاده بفترة قاد حملة جديدة رست على شواطىء تونس وهناك صدت قواته ولاقى حتفه .

الفصل الثالث

بيزنطة منذ قيام الامبراطورية الكارولنجية

بيزنطة وشارلمان:

كان لضياع مركز بيزنطة في القسم الغربي من الامبراطورية اثارا سيئة تفوق الاثار التي ترتبت على اخفاقها العسكري في منطقتي البلقان واسية الصغرى ، وصادف في الفترة نفسها التي كان يتحكم فيها بمقدرات بيزنطة ومصيرها امرأة وخصيان وعبيد قصر ، انه كان على راس المملكة الفرنجية حاكم من اكبر الحكام وشخصية من اقوى الشخصيات انه شارلمان ملك المملكة الفرنجية الغربي الذي كان في هذه الفترة يقوم بأعمال بارزة ويعد مملكته لتشغل دورا اساسيا في تقرير مصير اوربا الغربية فهو الذي ضم الى مملكته منطقة بافاريا ، واخضع السكسون ونشر بينهم النصرانية ، وهو ايضا الذي وسع حدود مملكته على حساب السلاف وقضى على مملكة الافار، انه هو الذي قضى على مملكة اللومبارد وضمها الى مملكته وضمها اليه وهذا امر له اهمية خاصة وذلك لان نجاح شارلمان في هذا المشروع جاء في اعقاب اخفاق البيزنطيين في تحقيق الامر نفسه وبالتالي تناقص سلطتهم وانحطاط مكانتهم في روما ، وفي الوقت نفسه قوت الكنيسة الكاثوليكية في روما تحالفها مع المملكة الفرنجية وادارت ظهرها لبيزنطة ، ومع ان بيزنطة عادت الى جادة الاورثوذكسية واعادت تقديس الايقونات وعبادتها وبهذا ازالت الخلافات الدينية بينها وبين روما ، فان الجفاء بين القسطنطينية وروما لم يزل وظل الخلاف بين البلدين واستمر الصراع لان روما رفضت الاعتراف بمساواة القسطنطينية وتابع البابوات جهودهم لاثبات اولوية روما كمركز ديني والقديس بطرس كزعيم اكبر

للنصرانية وهكذا زال نفوذ الامبراطورية البيزنطة من روما وطبعا لم يكن للبابا نفوذه على القسطنطينية ، ويبدو ان عدم اهتمام البابوات بالقسطنطينية يعود الى شعورهم بعدم جدوى ذلك ، لهـذا ركزوا اهتمامهم على تحسين علاقاتهم وتمتين صلاتهم مع الملك الفـرنجي الذي قهر اللومبـارد على الرغم مـن ان شـارلمان لم يكن على رأي البابا تماما في قضية الايقونات ، ولم يوافق على ماورد مـن آراء في المجمع المقـدس الذي اعاد الاعتبـار للايقـونات ايام قسـطنطين السادس وايرين ، ويبدو ان السبب في هـذا الموقـف مـن القضـية الدينية ارادة الملك الفـرنجي أن يظهر اسـتقلاله الديني عن بيزنطـه حتى يؤكد بالتالي عدم تبعيته السياسية لها ، ولم تنجـح محـاولات البابا هارديان لجعله ينضم الى رأيه الديني مما جعل البابا مضطرا للتنازل عن محاولاته مع الامبراطورية ، وهكذا فان الايقونات التـي اعاد لها مجمع نيقية المقدس اعتبـارها واحتـرامها سـنة ٧٨٧ م عادت لتصبح موضع الهجوم وعدم الاعتبار بنتيجـة المؤتمـر الديني الذي عقد سنة ٧٩٤ م في مدينة فرانكفورت تحت اشراف شارلمان ، والجـدير بـالذكر ان كلا المجمعين الدينيين :الذي رد فيه اعتبـار الايقونات والذي هوجمت فيه الايقونات ولم تعط فيه اي قيمة دينية حضره ممثلون عن البابا هادريان،ويفسر مـوقف البـابا الضـعيف تجاه شارلمان وقبوله بايفاد ممثلين عنه لحضور مؤتمر ديني تشـتم الايقونات فيه بأن البابا كان يريد التحالف مع الملك الفرنجي مهمـا كان الثمن ، واصبحت سياسة التحالف مـع ملوك الفـرنجة حجـر الزاوية في سياسة من خلف هادريان من بـابوات ، وكان الذي بـدأ هذه السياسة البابا ستيفن الثـاني وتبعـه فيهـا هـادريان الاول واستمرت في زمن خلفـه ليون الثـالث الذي تـوج الملك شـارلمان امبراطورا في كنيسة القدس بـطرس في رومـا يوم عيد الميلاد سـنة ٨٠٠ م .

وكان لتأسيس امبراطورية شـارلمان اثـارا هـامة في المحيطين السياسي والديني ، وكان العرف إذ ذاك ان تكون هناك امبـراطورية واحدة كما هناك كنسية واحدة ، لذا عد تتويج شارلمان امبـراطورا

خرقا لكل التقاليد وضربة للنفوذ البيزنطي ، وذلك لان بيزنطة كانت ترى نفسها الامبراطورية الوحيدة التي ورثت الامبراطورية الرومانية القديمة لذلك عدت تتويج شارلمان امبراطورا خرقا للتقاليد واغتصابا لحق من حقوقها ، اما روما فكانت هي الاخرى تعترف بفكرة الامبراطورية الواحدة ولكنها استهدفت استبدال الامبراطورية البيزنطية بامبراطورية فرنجية ، وهكذا رأت روما ان عرش القسطنطينية بعد خلع قسطنطين السادس قد اصبح خاليا ولم تعترف بحكم ايرين ، وكانت روما تؤمن ان حكم العالم المسيحي يجب ان يكون لشخص واحد وان يكون للعالم المسيحي امبراطورية واحدة بيد ان هذا كان رأيا نظريا ، وعمليا اصبح منذ العام ٨٠٠ في العالم المسيحي امبراطوريتان : امبراطورية شرقية (بيزنطية) اغريقية وامبراطورية غربية فرنجية لاتينية تقفان وجها لوجه ، وهكذا تم انقسام العالم المسيحي الى دولتين متباعدتين لارابط بينهما وان دان كلاهما بدين بالنصرانية فكل كان له كنيسته وايمانه وطقوسه ، يضاف الى ذلك الفروق الهائلة في الحضارة واللغة والثقافة .

ومع ان تتويج شارلمان امبراطورا في كنيسة القديس بطرس كان عملية بابوية قصد منها من بعض الوجوه انتقام البابا من اباطرة القسطنطينية وان شارلمان نفسه لم يشترك كما قيل في اعدادها ، فإنه كان مضطرا لان يواجه ماترتب عليها من نتائج ، فقد كان عليه اولا ان يحصل من بيزنطة على اعتراف بلقبه الامبراطوري ، لانه بدون هذا الاعتراف يصبح لقبه كامبراطور لقبا غير ذي شرعية ، ولم يكن يكفي ان يحتج هو ومن معه بشغور عرش القسطنطينية لوجود امراة عليه(ايرين) حتى يصبح هو الامبراطور الشرعي ، كما انه لم يكن بامكانه ان يسم بيزنطة وامبراطورتها بالهرطقة حتى يجعل من ذلك مسوغا من اجل نيله الامبراطورية ، لذا ارسل في سنة ٨٠٢ م وفدا يمثله ويمثل البابا ليو الثالث الى القسطنطينية ويروى ان هؤلاء حملوا عرضا من شارلمان بالزواج من ايرين وذلك في سبيل توحيد شقي الامبراطورية الشرقي والغربي ولكن ماكاد هذا

الوفد يقر قراره في القسطنطينية حتى نشبت ثورة فيها وذلك في ٣١ تشرين الاول سنة ٨٠٢ ، مما عطل المفاوضات ، وكان الذين قادوا الثورة كبار رجالات الدولة وكبار الضباط ، وخلع الثوار ايرين ونفوها الى احدى الجزر حيث توفيت بعد قليل ، واختاروا نقفور وكان احد كبار الموظفين الماليين امبراطورا جديدا .

فترة حكم نقفور والمشاكل السياسية في عهده

حكم نقفور الاول بين سنتي ٨٠٢ ـ ٨١١ وكان حاكما قويا ساس الامبراطورية بحزم وقوة ، ومع انه لم يكن من المتعصبين دينيا فانه كان اورثوذكسيا مخلصا ومن المؤيدين لعبادة الايقونات ومع هذا لم يظهر اي خضوع لرجال الكنيسة بل على العكس كان يطلب منهم الخضوع للسلطة الامبراطورية . واظهر تقديسه للأيقونات وتبجيله لها بتزويج ابنه وولي عهده ستوراكيوس من فتاة اثينية اسمها ثيوفانو وكانت احدى قريبات الامبراطورة المخلوعة ايرين ، وفي عهده تأزمت العلاقات مجددا بين الدولة والسلطات الكنسية ولاسيما حين عين الامبراطور مؤرخا جليلا وعالما دينيا مرموقا اسمه نقفور ايضا بطريركا على القسطنطينية بعد وفاة البطريرق تارازيوس في ٢٥ شباط سنة ٨٠٦ ، وكان البطريرك نقفور مثله مثل سلفه الراحل واسع المعرفة في الشؤون الدينية ، كتب بحوثا في الدفاع عن عبادة الايقونات ، وكان ايضا قبل توليه منصبه الديني من كبار موظفي الدولة وعرف باعتداله وعدم تعنته وفي الحقيقة كان لتعيين رجل دنيوي في منصب ديني اثاره الخطيرة ، فقد خلق هذا التعيين نوعا من شعور العداء للامبراطور في صفوف رجال الدين الذين كانوا ياملون ان يكون منصب البطريركية من نصيب زعيمهم ثيودور الستودي ، وزاد ايضا في النقمة على الامبراطور نقفور الذي اراد ان يظهر تفوق سلطانه على سلطان الكنيسة انه امر بعقد مجمع ديني يحضره بعض رجال الكنسية والدولة ، واتخذ هذا المجمع عدة قرارات جاءت تحديا لرجال اللاهوت والكنيسة ،

ولاسيما الرهبان الستوديين المتعصبين ، وهكذا اصبح العداء سافرا بين الامبراطور نقفور وبين هؤلاء الرهبان الذين اصبحوا من الآن فصاعدا عرضة لانواع مختلفة من إرهاب الدولة وضغطها .
وكان اول ماهتم به الامبراطور بعد تسلمه العرش هو تحسين الوضع الاقتصادي للبلاد وتدارك الخزينة من الافلاس بسبب مارهقها به الاباطرة السالفون من مصروفات . وقد كان لخبرته المالية اثرها في جعله يهتم بهذة الناحية بوجه خاص ، وبدأ اعماله في هذا المجال بالغاء الاعفاءات والتخفيضات الضرائبية التي كانت الامبراطورة ايرين قد منحتها للشعب ، وامر بعد ذلك باجراء تقدير عام للاوضاع المالية لشعبه ، وعلى اساس هذا التقدير الجديد رفع الضرائب بعض الشيء ، كما فرض ضرائب على اراضي الكنائس والاديرة واملاك المؤسسات الدينية الخيرية ، بالاضافة الى هذا فرض جزية على الرؤوس تجبى من كل اسرة كمجموع بحسب عدد افرادها ، واصبحت جزية الرؤوس هذه مع ضريبة الارض اهم موارد الدولة البيزنطية المالية ، وجزية الرؤوس هذه كانت موجودة قبل نقفور وكل مافعله نقفور انه فرضها على الفلاحين الذين كانوا يعملون في اراضي الكنيسة والاديرة ، وكانت هذه الفئة معفية من هذه الضريبة زمن ايرين ، وحتى يضمن جباية جميع الضرائب وعدم نقصانها ، جعل نقفور امر جمع هذه الضرائب مسؤولية جماعية ، بمعنى ان ضرائب منطقة من المناطق كانت مسؤولية الجماعة الساكنة في هذه المنطقة لا مسؤولية الفرد فقط ، فإذا تخلف الفرد عن دفع حصته من الضريبة لسبب من الاسباب فان جيرانه هم المسؤولون عن دفعها عنه .

وقد وضع نقفور بعض ممتلكات الكنيسة تحت اشراف الدولة وذلك كي يسترجع بعض اراضي الدولة التي كانت الامبراطورة ايرين قد وهبتها للكنيسة ، كما اعاد العمل بضريبة التركات والضريبة على الكنوز المكتشفة ، وفرض ضريبة على الذين يصبحون اغنياء فجأة وتكون ظروف حصولهم على الثروة ظروفا مريبة ، وجعل تجار العبيد يدفعون ضرائب على سلعهم ، واصدر قرارا بمنع الاشخاص

العاديين من تقاضي الربا على مايقرضونه لغيرهم من اموال وارباح وللدولة ان تقرض رعاياها بفائدة معينة،واجبر الامبراطور بقراره هذا اصحاب احواض بناء السفن في القسطنطينية وهم عادة فئة غنية على الاقتراض من الدولة حين يحتاجون للاموال بفائدة قدرها ١٥ر٦ بالمئة وهكذا امن موردا جديدا لخزانة الدولة المنهكة .

واهتم نقفور ايضا بتقوية النظام الدفاعي للامبراطورية وتطويره بأن فرض الخدمة العسكرية على الفلاحين وامن للفقراء منهم التجهيزات العسكرية عن طريق فرض ضريبة على القرية الواحدة يدفعها سكان القرية وتحفظ لتجهيز من تقع عليهم الخدمة العسكرية من ابنائها الذين لايملكون ثمن تجهيزاتهم ، وقد كان من نتائج هذا القانون الجديد ان اصبح لدى بيزنطة معين لاينضب من الجنود تستعمله متى دعت الحاجة ، كما انه امر ان يسري مفعول قانون الاقطاعات العسكرية على البحارة ، اي انه خلق طبقة من البحارة الذين هم في الاساس اشخاص منحوا اراضي زراعية على الشواطيء يستغلونها في وقت السلم زراعيا وفي وقت الحرب يكونون مسؤولين عن تجهيز انفسهم عسكريا ويعملون في الاساطيل البحرية المحاربة .

واهتم نقفور ايضا بانشاء مستعمرات سكنية جديدة في المناطق التي تشكل خطرا يهدد مستقبل الدولة ، فقد اجبر مثلا بعض سكان منطقة اسيا الصغرى على بيع ممتلكاتهم هناك وامرهم بالذهاب للسكن في المنطقة السلافية من شبه جزيرة البلقان حيث اقطعوا اراضي زراعية جديدة واصبحوا من طبقة الفلاحين الجنود الذين ينضمون للجيش في وقت الحرب ويزرعون الارض في وقت السلم ، ونظام الاقطاعات الزراعية العسكرية هذا نظام قديم يعود الى قرنين مضيا ، وهكذا فان نقفور لم يبتدع شيئا جديدا بل كان ماعمله اعادة فرض قوانين واعراف قديمة كان من تقدمه من الاباطرة قد اهملوا العمل بها .

وكان لسياسة نقفور في انشاء مستعمرات سكنية جديدة ولاسيما

في البلقان اثارها وبصورة خاصة في مناطق تراقية والقسم الشرقي من مكدونية المجاور لبلغارية وحتى في اليونان التي كان العنصر السلافي قد بدأ يتسرب اليها ، منذ تاريخ الغزوات السلافية لاراضي الامبراطورية البيزنطية في القرنين السادس والسابع فانذاك اضطرت الامبراطورية الى الانسحاب من معظم اراضي شبه جزيرة البلقان،ورافق هذا الانسحاب ازدياد التدفق السلافي،وقد ظلت الأراضي البلقانية مستعمرة سلافية وبربرية بشكل عام حتى منتصف القرن الثامن ،ولكن منذ أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع عاد البيزنطيون ليقووا مركزهم مجددا هناك، ففي خلال حكم الامبراطورة ايرين بدأت بيزنطة تقوم بهجمات ضد العناصر السلافية الموجودة في اليونان . وفي سنة ٧٨٣ قاد القائد ستوراكيوس جيشا كبيرا وهاجم منطقة سالونيك ومن هناك توجه الى منطقة اليونان الوسطى والبيلوبونيز واجبر القبائل السلافية الساكنة هناك على الاعتراف بسيادة بيزنطة عليها ودفع الجزية السنوية للخزينة البيزنطية .

وقد عد نصر ستوراكيوس على القبائل السلافية عملا هاما جدا لدرجة انه لما عاد من حملته المظفرة اقيمت له احتفالات ضخمة،وفي السنوات الاخيرة من القرن الثامن تآمرت القبائل السلافية النازلة في اليونان ضد الامبراطورة ايرين لاعادة الحكم لواحد من اولاد الامبراطور قسطنطين الخامس الذين كانوا منفيين في اليونان ، ولكن لم يكتب لهذه المؤامرة النجاح ، وفي مطلع القرن التاسع اعلن سلاف منطقة البيلوبونيز الثورة على الامبراطورية فهاجموا ممتلكات جيرانهم اليونانيين ونهبوها وتوجهوا لمهاجمة مدينة باتراس في سنة ٨٠٥ ، ولكن لم يكتب لهجومهم هذا النجاح فكسروا امام جيوش الدولة البيزنطية وفقدوا ممتلكاتهم وحريتهم الشخصية .

ولكن هذا الانكسار لم يثن عزم القبائل السلافية في البيلوبونيز وعادت الى الثورات على البيزنطيين بين الحين والآخر على ان

ثوراتهم جميعا اخفقت وتمكنت بيزنطة من تثبيت اقدامها في منطقة البيلوبونيز بعدما كان السلاف قد سيطروا لمدة قرنين .

وتجلت أثار عودة السيطرة البيزنطية على بعض مناطق البلقان في تنظيم مناطق هذه المقاطعة تنظيما جديا يتفق واساليب الادارة البيزنطية ، وقد اعقب هذه التنظيمات قيام النزاع بين بيزنطة وبلغاريا ، ومع ان نقفور لم يكن جنديا محترفا فقد كان له من الصفات ماجعله قائدا ناجحا لايتورع عن قيادة الجيوش بنفسه ، وقد ظهر اعتداده بنفسه كجندي منذ اليوم الاول الذي اعقب جلوسه على العرش اذ انه قطع الجزية التي كانت تدفعها ايرين للدولة العباسية ، فكان رد الخليفة هارون الرشيد على هذا ان قاد جيوشه باتجاه الاراضي البيزنطية وذلك سنة ٨٠٦ واستولى الجيش الاسلامي على بعض القلاع والحصون في بلاد الثغور وتقدم ليفتح الطوانة ، ومنها سارت فرقة لفتح انقرة فذهل الامبراطور ووجد نفسه مضطرا لأن يعود لدفع الجزية ، وزاد الخليفة العباسي في تحقير نقفور ، ففرض عليه شخصيا ان يدفع سنويا مقدار ثلاثة دنانير ذهبية وذلك مقابل مايستحق عليه وعلى ابنه من جزية سنوية . ولكن موت هارون الرشيد سنة ٨٠٩ ، وفترة الاضطراب التي اعقبت وفاته بسبب ماقام من حرب اهلية بين الامين والمأمون جعلت نقفور يستريح مؤقتا من الخطر العربي ، ويوجه اهتمامه نحو مشاكل البلقان .

ولقد كان لتحطيم قوة الافار على يد شارلمان اثره في تخفيف الضغط الافارى على العناصر البلغارية التي كانت تسكن منطقة بانونيا ونتيجة لهذا استطاع البلغار ان يمدوا مملكتهم حتى وصلت حدودها الى حدود مملكة شارلمان،واعتلى عرش المملكة البلغارية في هذه الفترة زعيم من زعماء بلغار منطقة بانونيا اسمه كروم ، وكان معروفا ببأسه وقوته وتحديه ، وكانت بيزنطة قد أقامت على طول حدودها مع المملكة البلغارية سلسلة من القلاع والحصون لتوقف اي هجوم او تسرب بلغاري الى بلادها ، وكان من اشهر هذه الحصون

حصن ديفيلتوس وحصن ادرنه وحصن فيلبه وحصن سارديكان وفي ربيع سنة ٨٠٩ هاجم كروم حصن ساردیكا فهدمه وابــاد حــاميته عن بكرة ابيها مما دعا الامبراطور الى التوجه فورا ليسترد الحصن من البلغار وينتقم منهم ، ولكنه قبل ان يخوض معركة حــاسمة مــع كروم امضى مدة عامين في التهيؤ وتقوية جيشه ، ونقــل عناصر مــن اسيا الصغرى للسكن في المناطق السلافية من البلقان .

وفي ربيع سنة ٨١١ عبر نقفور الحــدود على راس جيش قــوي فهاجم عاصمة البلغار وخربها واحرق قصر كروم ورفض كل عروض الصلح التي عرضها البلغار وقرر ان ينتهي من البلغار نهائيا فتبــع كروم الذي فر الى الجبال ، ولكن الحــظ لم يحــالف نقفــور حتــى النهاية اذ ان كروم باغت جيش الامبراطور واحاط به وقتل الكثيرين منه وذلك في ٢٦ تموز في سنة ٨١١ ولقي نقفور مصير الكثيرين من جنده ، فقتل وقطع راسه وعمل كروم من جمجمتــه وعاء احتسى فيه الخمر وتناول منه الانخاب مع قــواده في حفــل اقــامه احتفــاء بانتصاره .

وترتب على هذه الكارثة التي لحقت بيزنطية نتائج كثيرة لم تــكن في الحسبان ، ولاسيما من حيث فقــدانها مــكانتها واعتبــارها بين الامم ، اذ انه لم يسبق حتى الان ان ذبح امبراطور بيزنطي من قبل البرابرة اللهم الا الامبــراطور فــالانس الذي ذبــح على يد القــوط الغربيين سنة ٣٧٨ في موقعة قرب ادرنة . وهكذا انقلب هرب كروم وتوسله من اجل الصــلح الى نصر ســاحق جعله يحلم بــانتصارات جديدة على بيزنطة مما سيسبب الكثير من المتاعب لها .

وكلفت هذه الموقعة الامبراطور نقفور حياته ، وجــرح ابنه وولي عهده ستوراكيوس ولكن هذا الابن تمكن من الفــرار مــع عدد مــن اتباعه الى ادرنة حيث اعلن من قبل اتباعه امبراطورا وخلفا لابيه ، غير ان هــذا الاعلان لم يكن الا مــن قبيل الاحتياط لان جــــراح ستوراكيوس كانت مميتة وكان الامل بشفائه ضــعيفا ، ولذلك نقــل ســتوراكيوس الى القســطنطينية حيث كان مقــررا ان يشــترك في

انتخاب خليفته قبل وفاته ، وكان اقرب المرشحين للفوز بالعرش اخو زوجة الامبراطور المحتضر لانه لم يكن له ولد ، وكان اسمه ميخائيل انغاب وقد ايد ترشيح ميخائيل الجيش والبطريرك نقفور وعارض هذا الترشيح زوجة ستوراكيوس ثيوفانو الاثينية التي كانت تأمل ان يكون العرش من نصيبها كما حدث بالنسبة للامبراطورة ايرين.وعندما بدا ان الصراع حول العرش سيطول قام الجيش في ٢ تشرين اول لعام ٨١١ بحركة اعلن اثرها عن اختيار ميخائيل امبراطورا ووافق على هذا الاعلان مجلس الشيوخ والبطريرك نقفور ، اما ستوراكيوس فقد انسحب الى احد الاديرة حيث بقي مدة ثلاثة اشهر مات بعدها .

كان ميخائيل الاول الذي حكم بين سنتي ٨١١ ـ ٨١٣ حاكما ضعيفا يسهل التاثير عليه وتنقصه الشجاعة ، وقد تميز عهده بالتبذير والاسراف ، وقد الغى هذا الامبراطور التدابير التي اتخذها سلفه نقفور والتي كانت تهدف الى تقوية الوضع الاقتصادي للامبراطورية ، وبدأ منذ مطلع عهده يتقرب بالهبات المالية الى رجال الجيش والبلاط والكنيسة ، وكان من اشد المؤمنين حماسا بعبادة الايقونات كما كان متعلقا بالكنيسة بشكل عام ومستعدا للوقوع تحت سلطانها ، وفي زمنه ازدهر المذهب الاورثوذكسي واعيد الرهبان الستوديين من المنفى بعدما قبلت كل طلباتهم ولقد عادوا اقوياء ، وكان من مظاهر ازدياد نفوذهم أن اصبح زعيمهم ـ الأب تيودور ـ صاحب الكلمة الاولى في البلاد لافي المسائل الدينية فحسب بل في مسائل السياسة الداخلية والخارجية ايضا .

وفي زمن ميخائيل الاول أعيد النظر في امر علاقة الامبراطورية البيزنطية بامبراطورية شارلمان وكان الامبراطور نقفور يتبع سياسة تجاهل تجاه شارلمان ومطالبه باللقب الامبراطوري لانه كان يعرف ماقد ينطوي عليه التعامل مع شارلمان من مضاعفات ، حتى أنه منع البطريرك نقفور من ان يرسل لبابا روما الرسائل الدينية المعتادة لان هذا البابا هو الذي توج شارلمان امبراطورا وكان نقفور

يظهر نحو خصمه الكارولنجي والبابوية التي أيدته كل عداء وتشـدد.

وفي الوقت نفسه كانت قوة شـارلمان في ازدياد ، ومنطقة نفـوذه تتوسع باستمرار ، وأخذ يضـم الى اراضي مملكتـه بـلادا هـي في الاساس من ممتلكات بيزنطة ، ولما تسلم ميخـائيل الأول العـرش اراد أن يستعيد هذه الاراضي التي فقدتها بيزنطـة ، ولكنه مـا كان ليستطيع أن يستردها حربا ، لذلك اختار أن يعترف بلقب شـارلمان كامبراطور مقابل أن تعاد له الاراضي التي سلخت مـن بـلاده وبناء عليه أعلن الممثل البيزنطي في آخـر سـنة ٨١٢ م اعتـراف دولتـه بشارلمان كامبراطور .

وهكذا اصبح كما سلف بنا القول : امبراطوريتان مسـيحيتان في أوروبا واحـدة غربية وأخـرى شرقية ، ويرى بعض البـاحثين أن اعتراف ميخائيل الاول بشـارلمان امبـراطورا لم يكن الا مـن قبيل ماكان يحدث في القرنين الرابع والخـامس الميلاديين حين كان هناك امبراطوران واحد في الشرق وواحد في الغرب يحكمان حكما مشتركا في امبراطورية واحدة ، وهكذا لم يكن اعتراف سنة ٨١٢ اعتـرافا بامبراطور جديد ولكن اعتـرافا مـن ميخـائيل الاول بـزميل له (شارلمان) يشاركه في الحكم وذلك حفـاظا منه على فـكرة وحـدة الامبراطورية ، وهـذا الراي ـ بـلاشك ـ خـاطىء لان اعتـراف ميخائيل الاول بشارلمان لم يكن يتضمن في الواقع اكثر من اعتـرافه به امبراطورا لا امبرطورا على الرومان،وشـارلمان نفسـه كان انذاك يتجنب أن يذكر إلى جانب اسمه كلمة امبراطور الرومـان . ولهـذا ظل البيزنطيون يرون أنهم وحدهم اصحاب الحق في لقب امبـراطور الرومان .

وجاء اعتراف ميخائيل الاول بشارلمان نتيجة لضعف شـخصيته وللظروف الدولية السيئة التي كانت تمر بهـا بيزنطـة بعـد كارثـة سنة ٨١١ .

اما التهديد والخطر اللذان كانا يتـربصان ببيزنطـة مـن جهـة

البلقان فقد جعلاها تشعر بالعجز عن القيام بأي عمل عسكري ضـد دولة الفرنجة في الغرب ، وفي ربيع سـنة ٨١٢ احتـل كروم خـان البلغار مدينة ديفلتوس على البحر الاسود وخرب حصـونها ونقـل سكانها الى داخل مملكته ، وقد أدى احتلال ديفلتوس الى انتشـار الذعر بين سكان المنطقة والتجأ الكثيرون منهم الى الهـرب ، وبعـد هذه المعركة وجه كروم الى بيزنطة انذارا يعرض عليها فيه الصلح ، ولما تمهلت بيزنطة في الرد على هذا العـرض هـاجم ميناء ميزميريا على البحر الاسود واحتله في تشرين ثاني مـن سـنة ٨١٢ م وقـد استولى بـاحتلاله لهـذا الميناء على كميات كبيرة مـن الذهـب والفضة ، كما استولى على كمية وافرة من المتفجـرات التـي كانت تعرف باسم النار اليونانية وقد نصـح ميخـائيل بعض مسـتشاريه ومنهم البطريرك نقفور ، بقبول شروط الصلح التي عرضـها كروم ولكن كان هناك أخرون على رأسهم الاب الستـودي تيودور رأوا أن تستمر الحرب ضد البلغار بشـدة،وقـد رجـح رأى جمـاعة الاب تيودور ، وفي حزيران ٨١٣ سار جيش بيزنطي كبير للقاء القبـائل البلغارية المهاجمة والتقى بهم في معركة قرب مدينة أدرنه ، وبـدأت المعركة في الثاني والعشرين من الشهر نفسه واشتركت فيها القوات البيزنطية لمقاطعتي تراقية ومكدونيا ، أما القوات التي جـاءت مـن اسيه الصغرى وكان على رأسها القائد ليون الأرمني حاكم مقاطعة الاناضول فقد رفضت الاشتراك في القتال ، وتركت ساحة المعـركة وولت الادبار هاربة ، وقد كان لهرب هذه القوات أثـره في اضـعاف الروح المعنوية في الجيش البيزنطي مما أدى الى نصر ساحق لكروم وجيشه .

كان لهذا النصر البلغـاري الجـديد أثـره في زعزعة سـلطة الامبراطور ميخائيل الاول ، وفي احياء سياسة العداء للايقـونات ، وفي الشهر التالي تموز بعد انكسار الجيش البيزنطي أمام البلغـار بقليل خلع الامبراطور ميخائيل الأول وتوج عوضا عنه ليون الارمني الذي رفض ان يشترك في القتـال ضـد البلغـار وكان ليون الارمني الذي عرف بالخامس(٨١٣ ـ ٨٢١)عسكريا من أصل شرقـي ،

يكره بالوراثة عبادة الأيقونات وقد حاول أن يحيي مجد دولته العسكري وأن يعيد سياسة العداء للايقونات وذلك لانه أمن واتباعه بأن مالحق الامبراطورية من اخفاق عسكري كان نتيجة لاستلام حزب اصدقاء الايقونات الحكم •

وما كاد ليون الخامس يستلم العرش حتى واجهته مشاكل عسكرية ملحة فقد استفاد كروم من انتصاره على ميخائيل الأول ليقوم بهجوم جديد فحاصر مدينة أدرنة ، وسار بجيوشه ليحاصر القسطنطينية ولم تكن قد مضت الا أيام قلائل على اعتلاء الامبراطور الجديد العرش ووجد كروم نفسه بعد حصار طويل عاجزا عن أن يقتحم اسوار القسطنطينية ، هذه الاسوار التي كانت دوما سدا منيعا في وجه كل اعداء بيزنطة ، فاضطر لان يطلب من الامبراطور عقد اجتماع بينهما للتفاوض من اجل الصلح ، وجاء كروم الى مكان الاجتماع ، كما نص الاتفاق بدون سلاح ، ولكن الامبراطور البيزنطي حاول الغدر به وقتله ولم ينقذه الا ذكاؤه وسرعة خاطرة فهرب قبل ان تنفذ المؤامرة ضده ووصل الى حيث كا ن يعسكر جنده، فعاد بهم الى أدرنه مصمما على الانتقام من محاولة غدر البيزنطيين به فكان يحرق ويدمر كل ما يمر به من مدن وقرى ، ولما وصل الى أدرنه هدمها تهديما كاملا ونقل سكانها وسكان القرى المجاورة لها الى ماوراء الدانوب ، وفي الربيع زحف كروم على رأس جيش جديد لحصار القسطنطينية ، ولكن الأقدار انقذت بيزنطة هذه المرة أن كروم توفي فجأة في ١٣ نيسان ٨١٤ م نتيجة انفجار دماغي .

وخلف كروم في زعامة البلغار زعيم قوي أخر اسمه اومورتاغ ، وكانت أهداف هذا الزعيم الجديد تتلخص في أمرين أولهما تقوية مواقفه في المنطقة الشمالية الغربية وثانيهما تقوية الوضع الداخلي وتثبيت حكمه في الداخل .

لذا عقد هدنة مع بيزنطة مدتها ثلاثين عاما ونصت هذه الهدنة على أن تقسم مقاطعة تراقيا بين بيزنطة وبلغاريا ، وهكذا وبعد فترة طويلة من الاحداث العاصفة في منطقة البلقان ساد السلام في هذه

المنطقة ، واخذت الآمال بالاستقرار تداعب مخيلة سكانها ، كذلك في الشرق كانت بيزنطة تنعم بفترة هدوء نسبية سببها وفاة الخليفة هارون الرشيد وقيام الصراع بين ولديه الامين والمأمون مما شغلهما عن كل عمل خارجي ، وهكذا نعمت بيزنطة في هذه الفترة بشيء من الهدوء على طول حدودها .

وحاول ليون الخامس خلال فترة السلم هذه أن ينفذ خططه المعادية للايقونات ، فلم تكد الأوضاع تهدأ قليلا بعد وفاة كروم الفاجيء حتى أمر العالم الديني يوحنا فراما تيكوس بأن يعد العدة لعقد مجمع ديني تبحث فيه قضية الايقونات وتصدر عنه قرارات معادية لها ، وكان يوحنا فراماتيكوس من الشخصيات الدينية المعروفة بعدائها للايقونات ، وقد حاول الامبراطور ان يستغل سياسته الدينية ليجمع حوله جميع العناصر الناقمة على الاوضاع السالفة ولاسيما ضمن المحيط الديني ، وكان ليون الخامس قبل أن يعتلي العرش قد اعطى البطريرك نقفور تعهدا مكتوبا بانه لن يقوم بأي تغيير في المناصب الدينية غير ان هذا البطريرك وجد نفسه بعد اعتلاء الامبراطور الجديد العرش وسط دوامه من المشاكل الدينية اثارتها سياسة الامبراطور المعادية للايقونات ، وقد قربت هذه المشاكل بينه وبين عدوه القديم تيودور الستودي لانهما عارضا سياسة الامبراطور الدينية ، وقد تزعم البطريرك نقفور والراهب تيودور الستودي حملة المعارضة ضد الامبراطور وكتبا البحوث والمقالات في الرد على فكرة تدخل الدولة في الشؤون الكنسية غير أن هذه الكتابات لم تجد نفعا بل على العكس أدت الى أن امر ليون الخامس بنفي تيودور وعزل نقفور من كرسي البطريركية .

وفي اليوم الاول من نيسان ٨١٥ انتخب تيوديوس ميليسينوس وهو أحد رجال البلاط النبلاء وقريب احدى زوجات الامبراطور السالف قسطنطين الخامس بطريركا للقسطنطينية ٠

وبعد تعيين هذا البطريرك بقليل دعا إلى عقد مجمع ديني تحت رئاسته في كنيسة ايا صوفيا ، وكان من جملة قرارات هذا المجمع

رفض ماجاء في قــرارات مجمـــع نيقيه المســـكوني الذي عقـــد سنة ٧٨٧ وتثبيت مقررات المجمع الديني المقدس المعادي للايقونات والذي عقد سنة٧٥٤ م ومع أن اعضاء المؤتمر الديني هذا اعتــرفوا بأنهم لايعدون الايقونات اصناما تعبد ولكنهــم مــع هــذا رفضــوا تقديسها وراوا ضرورة تهديمها ، والواقع أن قرارات هــذا المؤتمــر كانت ترديدا واضحا لما جــاء في مقــررات المجمــع الديني المعــادي للايقونات الذي عقد سنة ٧٥٤ م وصيغ في جمل غامضــة ليس لهــا معنى واضحا ، واذا صح هذا عن قرارات المجمع الديني الذي نحن بصدده فهو يصح على جميع ماتم من اعمال الاحياء للحركة المعادية للايقونات في هذا القرن وذلك لأن الحركة المعادية للايقــونات زمــن الاباطرة ليون الثالث وقسطنطين الخامس كانت حركة تتصف بالقوة والتصميم في حين ان الحركة الحالية كانت حركة ضعيفة تعتمد على تقليد الاراء الســالفة ، ولكن رغم كل شيء ســار الامبــراطور ليون الخامس قدما في سياسة اضطهاد العناصر المعــادية لآرائه الدينية ، ويلاحظ المؤرخون أن اعمال ليون الخامس كانت تتصف دوما بخوفه من فقدان عرشه ، وهــذا الخــوف هــو الذي أملى عليه الكثير مــن التصرفات القاسية ولاسيما في السنين الاخيرة من حكمه ، وبالرغم من كل ماالتخذه من احتياطات لحماية شــخصه فــان مخــاوفه قــد تحققــت اذ أنه في يوم عيد الميلاد لعــام ٨٢٠ وبينمــا كان يحضر قداس هذا العيد في كنيسة أيا صوفيا اغتيل وهو واقف أمام المذبــح من قبل اتباع زميله القديم في السلاح ميخائيل العمــوري الذي حــل محله على عرش بيزنطة تحت اسم ميخائيل الثاني .

الاسرة العمورية (٨٢١ ـ ٨٦٧)

كان ميخائيل الثاني الذي حكم بين سنتي ٨٢٠ ـ ٨٢٩ وهــو مؤسس حكم الأسرة العمورية جنديا خشن الطباع تنقصــه اللياقــة والثقافة ، ولكنه الى جانب ذلك كان حســن الفهــم قــوي العــزيمة يتصف بالاعتدال عامة ، وقد خمدت خلال حــكمه الخــلافات الدينية

وتوقفت سياسة اضطهاد العناصر الموالية لعبادة الايقونات ، واعيد من المنفى البطريرك نقفور وتيودور الستودي ـ وغيرهما من الذين نفوا ايام الامبراطور ليون الخامس ، ولكن الامبراطور ميخائيل الثاني لم يسر في سياسته الدينية شوطا يرضي الاورثوذكس المتعصبين رضاءا تاما اذ انه لم يعد للايقونات ما كان يريده لها اتباعها من اجلال ،واتبع هذا الامبراطور سياسة دينية وسط ، فهو لم يمنح تأييده لا لمقررات مجمع نيقية المقدس الثاني ولا لمقررات المجمع الديني الذي عقده سلفه الامبراطور ليون الخامس ،وكان ميخائيل الثاني في الاصل من فريجيا ، المنطقة المشهورة بعدائها للايقونات ، وهو نفسه كان يضمر العداء لها ، ولكنه لم يصرح بهذا العداء ، ويظهر عداء الامبراطور للايقونات من رسالة كتبها الى لويس التقي يشكو له فيها ، ويعلن سخطه على عبادة الايقونات ، كما يظهر سخط الامبراطور عليها من حقيقة كونه عهد بتربية ابنه وولي عهده تيوفيلوس إلى يوحنا غراما تيكوس احد اعداء الايقونات اللدودين ، والى جانب هذا فانه حين شغر كرسي البطريركية لم يعين لهذا الكرسي شخصا من انصار الايقونات بل عين انتوني الذي كان على وفاق مع يوحنا غراما تيكوس ، ومع هذا كان ميخائيل يدرك أن حركة العداء للايقونات لم تعد حركة يؤمل لها النجاح ، فتعامل معها بحذر كبير .

وكانت اهم الحوادث الداخلية التي وقعت زمن ميخائيل الثاني هي الحرب الاهلية الضارية التي أثارها شخص سلافي من اسيا الصغرى اسمه توماس ، كان في وقت من الاوقات زميلا في السلاح للامبراطور ويرجح أن ثورة توماس كانت بتحريض الخليفة المأمون الذي كان يريد اثارة الاضطراب داخل الامبراطورية لصالحه ، وقد تجمع لتوماس هذا جيش كبير من المقاطعات الشرقية منذ أيام الامبراطور ليون الخامس • وكان قوام جيش توماس اعداد كبيرة من الارمن وسكان أسيا الصغرى وبعض العرب والفرس • ذلك أن هذه المنطقة بأخلاط السكان التي كانت تقطنها وبالعنصر السلافي الذي شكل نسبة كبيرة من سكانها كانت أرضا صالحة لمثل هذه

الثورة ، وقد قويت شوكة توماس كثيرا لادعائه بأنه هو الامبـراطور قسطنطين السادس الذي انتزع منه عرشه بشكل غير شرعي وأنه نصير الايقونات الذي يريد أن يعيد لها قداستها •

واهم ما يجلب الانتباه في هذه الثورة هو الجانب الاجتماعي فيها اذ أن توماس أعلن أنه الانسان الذي سيحقق للفقراء المساواة مع الاغنياء وأنه سيعمل على تخفيف اعبائهم ، وقد ساعده هذا على جلب اعداد ضخمة من جماهير الشعب إلى جانبه ، هذه الجماهير التي كانت تنوء باعباء العوز الاقتصادي ، وهكذا رفع أنذاك العبيد أيديهم في وجوه سادتهم كما رفع الجند أيديهم في وجوه قوادهم ، اذن قامت هذه الثورة على اسس عرقية ودينية واجتماعية وعمت معظم اراضي آسيا الصغرى ، وقد توج بطريرك انطاكية الثائر توماس امبراطورا وتتويج بطريرك انطاكية لتوماس امبراطورا يؤخذ كدليل على تأييد الخليفة الاسلامي لتوماس لان انطاكية كانت تابعة للخلافة الاسلامية ولا يستطيع بطريركها أن يقوم بالتتويج دون موافقة الخليفة ، وقد أعلنت قبرص ولاءها لتوماس مما ساعده على السيطرة على بعض القوى البحرية وبالتالي سهل له مهمة العبور الى الجزء الاوروبي من الامبراطورية حيث امكنه أن يجمع تحت لوائه العناصر المحبة للايقونات هناك ، وسار توماس بقواه لحصار القسطنيطينية في كانون الاول من عام ٨٢١ ودام حصاره لها اكثر من عام . ولكن لم يؤت هذا الحصار الثمار التي كان يرجوها توماس بل على العكس أدى إلى اضعاف قوةالجيش الثائر ، وساعد ميخائيل الثاني كثيرا كون جيشه منظما وجيش خصمه تعمه الفوضى ، الى جانب هذا فقد جاء خان البلغار لنجدة الامبراطور ميخائيل الثاني ، وكما حدث من قبل زمن ليون الثالث حين حاصره العرب وجاء البلغار لنجدته ، فان اومورتاغ خان البلغار الحالي وابن كروم عدو بيزنطة اللدود جاء الآن لنجدة ميخائيل الثاني و ساعده على التغلب على خصومه وهكذا تمكن الامبراطور في ربيع سنة ٨٢٣ أن يجبر توماس على رفع الحصار

عن القسطنطينية ومطاردته حتى تمكن ميخائيل من القبض عليه وقتله بعد أن عذبه عذابا فظيعا .

امن هذا النصر لميخائيل الثاني السيادة على البلاد ، ولكن الحرب الداخلية الطويلة أضعفت بيزنطة الى حد بعيد واظهرت أن الناس لايشكون فقط من المشاكل الدينية بل من الظلم الاجتماعي ايضا ، يضاف الى هذا أنه بالرغم من ان الخلافة الاسلامية التي ساعدت توماس في ثورته لم تتمكن من استغلال هذه الثورة لتوجه ضربة من جانبها ضد بيزنطة لاسباب عديدة فان حملات عربية اخرى تمكنت كما راينا من أن تستخلص جزيرة كريت من بيزنطة وتخضعها لسيادتها وهكذا فقدت بيزنطة أهم قاعدة بحرية لها في الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، ولم تنجح محاولات ميخائيل الثاني ومن خلفه من الاباطرة لاسترداد كريت وظلت هذه الجزيرة لمدة قرن ونصف القرن بأيدي المسلمين يقومون منها بغاراتهم البحرية على ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في المنطقة المجاورة .

ولم يكتف العرب في هذه الفترة باحتلال كريت بل وجهوا – كما اوضحنا – جيوشهم ضد صقلية بقصد فتحها ، وهكذا أخذت سيادة بيزنطة في البحر المتوسط والبحر الادرياتيكي تتناقص وتزول بالتدريج ، ويرجع أن سبب هذه الانكسارات هو أن بيزنطة منذ زوال سلطان الخلفاء الامويين الذين اولوا أمر الاسطول والمعارك البحرية قسطا هاما من عنايتهم لم تعد تهتم بتقوية اسطولها مما أدى الى هذه الخسائر التي الت بها .

وبعد وفاة ميخائيل الثاني خلفه ابنه ثيوفيلوس على عرش القسطنطينية ليحكم فترة من الزمن امتدت بين سنتي ٨٢٩ – ٨٤٢ ، وعلى عكس ابيه الذي كان لايعرف من الكتابة والقراءة الا النذر اليسير ، كان ثيوفيلوس ذا ثقافة عالية وحب شديد للعلم والفن ، ولم تكن ثقافة الامبراطور الجديد محدودة الجوانب ومقصورة على معطيات الفكر البيزنطي بل تعدتها الى

الافاق الفكرية العالمية اذ اننا نرى أن الامبـراطور كان متـأثرا الى أبعد الحدود بالنهضة الفكرية والفلسفية التي كانت مزدهرة في بلاط بغداد تحت ظل الخلفاء العباسيين ، وكان تيوفيلوس معجبـا اشـد الاعجاب بالفن الاسلامي كما كان من الد اعداء الايقونات ، ويعـزو المؤرخون هذا الاعجاب وهذا العداء الى تأثير مـؤدبه يوحنا غرامـا تيكوس ، وقد شهد حكمه اخر موجة من موجات العداء للايقونات ، كما يعرف عصره بأنه العصر الذي كان فيه للثقافة الاسلامية اقـوى الاثر في العالم البيزنطي.

لم يكن تيوفيلوس حاكما فـذا ولكنه ذا شـخصية ممتعـة، وكان الجانب العاطفي يطغى على شخصيته ، وكمثال على هذه العـاطفة يمكننا أن نذكر تعلقه بالافكار المعادية للايقونات مع أن هذه الافـكار كانت تحتضر ولا أمل في نجـاحها ، كمـا يمـكننا ان نذكر تعلقـه وحماسه للثقافة والفن العربيين مـع انهمـا مـن نتـا ج اعدائه ، وصـحيح أنه كان قـاسيا في معـاملته لبعض الذين خـالفوا اراءه الدينية ، ولكن هـذه القسـوة لم تثـــر عداء الناس له لأنه كان ذا شخصية محببة أحيطت في اذهان الناس بـالاساطير والخـرافات ، لقد أراد ثيوفيلوس أن يكون حاكما مثاليا وكان يحـركه حس عميق ورغبة صادقة في نشر العدالة بين أوسـاط شـعبه ، وكان هـارون الرشيد مثله الاعلى من بين الحكام المعاصرين ، فكان يسعى جاهدا لأن يقلده في اعماله ، فكان يجوب أحياء العاصمة ويتصل بـالفقراء والضعفاء ويستمع الى مطالبهم ويقتص لهم من خصومهم مهما علت مرتبتهم أو وظيفتهم ·

وفي زمن تيوفيلوس جرت اصلاحات ادارية هامة ولاسيما تقسيم الامبراطورية الى مقاطعات جديدة وسارت الحركة الاصلاحية شوطا ابعد من الشوط الذي سارته في عهد أسلافه ففـي حين ان اسـلافه اهتموا بالتقسيمات الجديدة في منطقة البلقان ،فقد اهتم هـو بـأمر المقاطعات الشرقية والشمالية وأعاد النظـر في تقسـيماتها الادارية فأوجد مقاطعتين جديدتين هما بـاغلاغونيا وكالديا ليقـوى مـركز

بيزنطة على البحر الاسود كما أوجد ثلاث وحدات ادارية وعسكرية جديدة في المنطقة الجبلية المتاخمة للحدود العربية

واهتم ثيوفيلوس كما قلنا بتنظيم الممتلكات البيزنطية الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الأسود فأوجد في هذه المنطقة مقاطعة مركزها مدينة مرسون يحكمها حاكم عسكري برتبة ستراتيغوس .

وعلى الرغم مما أبداه الامبراطور ثيوفيلوس من حب واحترام للثقافة والفن العربيين كما ذكرنا فان عهده بكامله كان عهد كفاح وحرب ضد العرب المسلمين فقد كان الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) مشغولا أول الامر ـ كما نعلم ـ بالفتن والثورات والمشاكل الداخلية التي شغلت الفترة الاولى من حكمه بكاملها ،ولكن منذ عام ٨٣٠ فما بعد شعر هذا الخليفة بعد أن سيطر على الاوضاع في بلاده انه لابد ان يعود لمقارعة البيزنطيين بعد ان توقف الجهاد ضدهم لفترة طويلة عقب وفاة أبيه الرشيد ، وقد استغل المامون المتاعب التي كانت تتخبط فيها الامبراطورية البيزنطية وعدم استطاعتها توجيه كافة قواتها الى اسية الصغرى بسبب هجمات عرب تونس على صقلية وفتحهم لعاصمتها بلرم ، واستغل المامون هذا فوجه قواته الى اسية الصغرى ليناوش ثيوفيلوس ويشتبك معه في قتال ، وكان النصر في هذه المعارك بين ثيوفيلوس والعباسيين سجالا يلوح مرة لثيوفيلوس فيقيم الاحتفالات الضخمة في القسطنطينية ابتهاجا بذلك ، ويلوح مرات كثيرة أخرى لخصومه المسلمين فيتراجع عن الحرب ويرسل الوفود الى بغداد مثقلة بالهدايا طالبة الصلح من الخليفة ، وقد ازداد شعور ثيوفيلوس بالخطر العربي زمن الخليفة المعتصم الذي بعد أن سوى المشاكل الداخلية في مطلع حكمه قاد حملة ضخمة ضد بيزنطة وذلك سنة ٨٣٨ م وكانت حملة المعتصم هذه بخلاف ما تقدمها موجهة الى الممتلكات البيزنطية في قلب أسية الصغرى لا إلى الحصون التي كانت على الحدود بين الدولتين فقط ، فقد توجه قسم من جيش المعتصم الجرار باتجاه الشمال الغربي وكسر الجيش البيزنطي الذي كان يقوده الامبراطور ثيوفيلوس نفسه في موقعه رهيبة عند

موقع دزيمول او دزمانا • وذلك في . ٢٢ تموز سنة ٨٣٨ م في حين هاجم بقية الجيش العربي وعلى راسه المعتصم نفسه عمورية في ١٢ ــ اب من السنة نفسها وخربها تخريبا تاما ، وكان لاحتلال عمورية وتهديمها وقع الصاعقة على بيزنطة وذلك لان هذه المدينة كانت اكبر القلاع واهمها في منطقة الاناضول ، ولأنها كانت مسقط راس البيت الحاكم انذاك في بيزنطة والذي انحدر منه تيوفيلوس نفسه • وحين شدد عرب تونس في الوقت نفسه قبضتهم عليه في الجزء الغربي من امبراطوريته ، وجد ثيوفيلوس نفسه مضطرا للاستنجاد بالفرنجة والبندقية •

وفي زمن هذا الامبراطور حاول اعداء الايقونات محاولتهم الأخيرة للقضاء عليها ولكن دونما نجاح يذكر، ففي سنة ٧٣٧ عين تيوفيلوس العالم الديني المعادي للايقونات يوحنا غراما تيكوس بطريركا على القسطنطينية ، فبدأ هذا حملة جديدة ضد مؤيدي الايقونات ، وكما حدث من قبل كان الهجوم موجها ضد جماعة الرهبان الذين كانوا من اشد انصار الايقونات حماسا ، وقد اتخذ هذا الهجوم اشكالا مختلفة من الوان التعذيب والجور ، ومع أن الامبراطور وصديقه البطريرك استعملا ماكان في وسعهما من أساليب لانهاء عبادة الايقونات فانه كان واضحا أن جهدهما لن يكتب له النجاح في آسيا الصغرى التي كانت في يوم من الايام من أشد اعداء الايقونات حماسا •

واقتصر تأييد الامبراطور في سياسته الدينية هذه على العاصمة وحدها أما المقاطعات فقد كانت كلها من انصار الايقونات .

وفي العشرين من الشهر الاول سنة ٨٤٢ توفي الامبراطور ثيوفيلوس وبموته ماتت الحركة المعادية للايقونات ، مما انقذ بيزنطة من ازمة دينية كانت تعصف بها ، وهيأ لها انتهاء هذه الأزمة عهدا جديدا من الازدهار .

وكانت فترة الصراع من أجل الايقونات فترة حاسمة بالنسبة للتطور الروحي للامبراطورية تعادل في اهميتها ونتائجها الصراع مع

العرب الذي قرر مستقبل بيزنطة من الناحية السياسية ، وكما رأينا فان الامبراطورية لم تكد تنعم بشيء من الهدوء والسلم في ميادين القتال مع العرب حتى قامت في داخلها معركة دينية ضارية تمركزت حول عبادة الصور ، وكان معنى انهزام الدولة أيام ثيوفيلوس في المعركة الدينية ضد الايقونات أن آثار هذا الانهزام ستظهر واضحة جلية في الميدان الثقافي أكثر من أي ميدان آخر • اذ أن انتصار عبادة الصور كان يعني انتصار المفاهيم الدينية والثقافية الاغريقية وانخزال المفاهيم الاسيوية الشرقية التي تبنت العداء للصور ، لقد اصبحت بيزنطة بنتيجة انتصار مؤيدي الصور والايقونات امبراطورية اغريقية تحتل مكانه ثقافية فريدة هي وسط بين الشرق والغرب .

وشرعت بيزنطة بعد أزمة الايقونات تستقبل عصرا جديدا تميز بالعظمة في الميدانين الثقافي والسياسي • وكانت بداية هذا العصر الجديد لافي زمن الاسرة المكدونية بل في أواخر أيام حكم الاسرة العمورية ، أيام الاباطرة ميخائيل الثالث،وبارداس،وفوقاس ، وقسطنطين الذين كانوا من أعظم الحكام الذين شهدتهم القسطنطينية .

وكان من نتيجة ازمة الايقونات قلة اهتمام الدولة بأمور السياسة الخارجية وانصرافها عن التفكير في انشاء امبراطورية عالمية تكون عاصمتها القسطنطينية كما كان الحال فيما مضى وانهيار مركزها الذي كانت تحتله في الجزء الغربي من العالم الاوروبي ،وقد زاد التباعد بين بيزنطة والغرب السياسة الدينية للاباطرة الذين عادوا الايقونات وقلة اهتمام هؤلاء الاباطرة بالغرب بشكل عام الأمر الذي ادى في النهاية إلى تتويج شارلمان امبراطورا من قبل البابا • والملاحظة الهامة في هذا المجال هي انه اذا كان صحيحا أن الامبراطورية البيزنطية في هذه الفترة قد اضاعت الكثير من هيبتها في الغرب فانه صحيح ايضا أن الكنيسة الرومانية (البابوية) قد تعرضت للكثير من المتاعب في الشرق لاسيما زمن الامبراطور ليون

الثالث الذي الحق ببطريرك القسطنطينية الجزء الأكبر من البلقان وجذوبي ايطالية وجعل سكان هذه المناطق يتبعونه دينيا بعد أن كانوا من رعايا البابوية في روما . ولكن مركز القسطنطينية الديني ومكانتها كمنافسة حقيقية لروما لم يثبت الا بعد أن انتهت ازمة الايقونات، وكما كان قيام الامبراطورية الفرنجية في الغرب نكسه لآمال بيزنطة في أن تكون لها السيادة السياسة على أوروبا فان اتساع النفوذ الديني لبطريركية القسطنطينية كان ايضا نكسة لآمال البابوية التي كانت لاتؤمن بوجود منافس لها في ميدان الزعامة الدينية ، وكان المجال الهام لاضطهاد نفوذ بيزنطة الديني بعد أزمة الايقونات أن بطريركية القسطنطينية أخذت على عاتقها امر تنصير العناصر السلافية الجنوبية والشرقية .

وهكذا نرى أن التوسع السياسي والعسكري قد تبعا التقدم والاستقرار في مجال الثقافة والعقيدة ، فالامبراطورية التي كانت زمن أزمة الايقونات تقف موقفا دفاعيا ضعيفا أمام العرب المسلمين والبلغار استطاعت بعد انتهاء هذه الازمة أن تمد حدودها في الشرق بعد قتال عنيف ، وأن تعيد سلطانها من جديد على عموم شبه الجزيرة البلقانية ، كما استطاعت أن تستعيد هيبتها في منطقة البحر المتوسط بعد أن نقصت هذه الهيبة كثيرا ابان الأزمة الدينية . وساعدها على هذا ماحل بالدولة العباسية بعد المتوكل ، واهمال هذه الدولة القارية العاصمة شؤون البحر والأساطيل .

لقد تم اعادة الاعتبار للايقونات بعد موت ثيوفيلوس على يد امرأة كما حدث تماما في نهاية القرن الثامن زمن الامبراطوره ايرين ، فقد صادف حين وافت المنية الامبراطور ثيوفيلوس أن كان ابنه ووريثه ميخائيل الثالث (حكم بين سنتي ٨٤٢ ـ ٨٦٤)لايتجاوز السادسة من عمره فاصبحت أمه ثيودورا وصية عليه ونائبة عنه في حكم الامبراطورية وقد شاركت أخته تقلا أمها في حكم الامبراطورية نيابة عن أخيها الامبراطور الصغير فظهرت صورة الأخت مع أمها.

واخيها على العملة ، وحملت القرارات التي صدرت اسمها جنبا الى جنب كل من اسم الامبراطور وامه ، وقد شكل مجلس ليساعد ثيودورا في حكم الامبراطورية نيابة عن الامبراطور الصغير كان أهم اعضائه اخوتها (اي أخوة ثيودورا) بارداس وبيتروناس وعمها القاضي سرجيوس نيستباتس وغيرهم ، وكان أول القضايا التي أوكلت الى هذا المجلس لحلها بالتعاون مع بطريرك القسطنطينية هي قضية اعادة الاعتبار لعبادة الايقونات . والطريف في الأمر أن أعضاء هذا المجلس الذين كانت أولى واجباتهم وأهمها اعادة تقديس الصور كانوا جميعا من المقاطعات الشرقية التي رفعت راية الحرب ضد الايقونات في الماضي ، فثيودورا كما هو معلوم من مقاطعة بافلاغونيا ومن أصل أرمني شرقي . وحتى يعيد مجلس الوصاية على العرش الاعتبار للايقونات كان لابد له أول الأمر من عزل يوحنا غراماتيكوس من منصب بطريرك القسطنطينية وتنصيب مينوديوس بطريركا ، وبعد هذا أصدر المجلس قرارا في شهر أذار سنة ٨٤٣ أعاد بموجبه العمل بعبادة الايقونات كما كان الحال في الماضي .

وفي ذكرى هذا القرار تحتفل كنيسة الارثوذكس كل عام وفي أول احد من أحاد فترة الصوم بعيد تسميه (عيد الاورثوذكسية) وهو في الحقيقة تخليد لذكرى الانتصار على الحركة المعادية للايقونات وغيرها من الهرطقات القديمة ، وقد انهى قرار اعادة الاعتبار للايقونات فترة طويلة من الصراع الديني دفعت بيزنطة ثمنها الشئ الكثير من امنها واستقرارها وقوتها ، ويرى بعض المؤرخين ان الهزيمة التي لحقت بأعداء الصور والايقونات كانت ذات اثر بالغ على العلاقة بين الدولة والكنيسة اذ انها كانت في نظرهم اخفاقا تاما لمحاولة الدولة اخضاع الكنيسة لسيطرتها وجعلها تبدو انها تابعة لها كغيرها من المؤسسات ، ونخلص من كل ماحدث أن ازمة الايقونات والنتيجة التي الت اليها كانت لصالح الكنيسة اذ أنها ثبتت شخصيتها وابرزت نفسها كمؤسسة قوية ذات سيطرة وسلطان ، وسواء وافقنا على هذا الراي أم لم نوافق ان الشئ الأكيد

هو أن الكنيسة البيزنطية لم تستطع في اي وقت من الاوقات أن تحصل على حرية التصرف بعيدا عن ارادة الدولة وظلت علاقتها خلال تاريخها علاقة تعاون لايخلو من الخضوع لان الكنيسة كانت دوما بحاجة للحماية التي يوفرها لها الدولة.

وبعد ان حلت مشكلة الايقونات واستقرت الأمور في الداخل بدا ثيوكتستوس – وهو احد اعضاء مجلس الوصاية على العرش وكانت تيودورا تمنحه ثقتها وتفضله على اخوتها الاعضاء في المجلس نفسه – يقوي نفوذه ضمن المجلس ويبعد خصمه بارداس (اخا الامبراطورة ثيودورا) ولم تمض الا برهة وجيزة حتى أصبح المستشار الوحيد للامبراطورة . وكان ثيوكتيستوس هذا من الم رجال عصره واوسعهم ثقافة ، فاهتم بأمر الاحياء الثقافي في الامبراطورية واعتنى بالتعليم عناية لم تشهد لها بيزنطة من قبل مثيلا ، وكان لخبرته الواسعة في الشؤون المالية (كان ثيوكتيستوس في الأساس من كبار الموظفين الماليين) الفضل في توفير احتياطي كبير من الذهب لبيزنطة ، ولابد من التنويه هنا الى أن اعادة الاعتبار للايقونات في هذه الفترة لم يكن له من النتائج مايشابه ماحدث زمن الامبراطورة ايرين ، وذلك لأنه ، على عكس ماكان عليه الحال انذاك ، لم يكن في بيزنطة في هذه الفترة حزب او فئة تناصر الايقونات او تتحمس لها كما مضى ، يضاف الى هذا أن ثيودورا وثيوكتيستوس ومعهم البطريرك ميثوديوس كانوا حذرين في الخطوات التي اتخذوها للقضاء على أعداء الايقونات ولم يستعملوا العنف معهم ، وعلى الرغم من كل الحذر والاعتدال اللذين استعملتهما الامبراطورة ومساعدوها في معاملة أعداء الايقونات فان بعض الغلاة ، ولاسيما الرهبان الستوديين ظلوا مصدر فتنة بالنسبة للدولة مما اضطر الكنيسة لطردهم من الجماعة المسيحية . وفي الرابع عشر من شهر حزيران من سنة ٨٤٧ م توفي البطريرك ميثوديوس فخلفه بطريرك جديد اسمه اغناطوس ، وهو

ابن للامبراطور الراحل ميخائيل رانغاب ، وكان قد خصي بعد عزل

ابيه عن العرش ودخـل في سـلك الرهبنة ، وكان اغناطيوس هـذا راهبا شديد التمسك برهبنته ، وقـد أدى هـذا الى وقـوفه مـوقفا متخاذلا امام الرهبان الستوديين وبـالتالي الى اشـتداد أمـر معارضتهم للدولة وانتهى الأمر بان أصبح اغناطيوس طرفا في نزاع ديني جديد ، في حين أن مهمتـه كانت تقضي بـانهاء كل الخـلافات والخصومات الدينية .

وعقب انتهاء ازمة الايقونات التفتت بيزنطة الى متابعة حـروبها مع العرب المسلمين فقد قاد ثيوكتيستوس حملة كبيرة ضـد كريت في عام ٨٤٤ م ، ولكن لم يكتب لهـذه الحملة اي انتصـار ويبـدو أن السبب في ذلك يعود الى حـد بعيد لجهـل ثيوكتيسـتوس كقـائد عسكري ، وتبع انكساره في كريت انكسار أخر امام العرب عند نهر موروبوتاموس الذي يصب في البوسفور ، وحدوث هذه المعركة قرب هذا النهر دليل واضح على مدى توغل العرب ضمن الحدود البيزنطية زمن الخليفة المعتصم ، ولكن اضطراب الأحوال زمن الخليفة الواثق بالله (ابن المعتصم حكم بين سنتي ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) اضطر هـذا الخليفة لأن يعقد صلحا مع البيزنطيين ، وأن يتبادل معهـم الأسرى في موقع قرب نهـر لامـوس على الحـدود بين الأراضي العـربية والبيزنطية وذلك في سنة ٣٤٦ هـ ـ ٨٤٥ م وسـاعد اضـطراب الاحوال الداخلية في بلاد الخلافة الاسلامية في هذه الفترة وانفصـال عدد من الدويلات عن جسد الدولة الأم في بغداد على إتـاحة الفـرصة لبيزنطة للاهتمام بحل مشاكلها الأخرى التـي كان أهمهـا مشـكلة طائفة دينية عرفت بطائفة البوليصيين ، وكانت فيمـا مضى تحـظى بعطف الأباطرة المعادين للايقونات لاتفاقها في الرأي معهم .

ومن ثم تمتعت بحماية الامبراطور نقفـور الأول . وقـد انتشرت أراء هذه الطائفة في أسيا الصغرى وكثر اتباعها لدرجة ان الأباطرة منذ ميخائيل الأول (٨١١ ـ ٨١٣ م) وجدوا ضرورة لايقـافهم عند حدهم لانهم اخذوا يشكلون خطرا على الدولة ، وقد اشترك في النقمة

عليهم والبطش بهم الأباطرة الأورثوذكس واعداء الايقونات على حد سواء وبنتيجة الضغط عليهم والتنكيل بهم هرب قسم كبير منهم من الأراضي البيزنطية والتجأوا الى امير ملطية العربي ، وانضموا تحت لواء جيشه وحاربوا في صفوف العرب ضد بيزنطة• وقد عانى البوليصيون اقسى أنواع الاضطهاد زمن الامبراطورة ثيودورا أم الامبراطور ميخائيل الثالث والوصية عليه ـ وتعرض الكثيرون منهم للقتل أو الافناء بطرق وحشية مختلفة •

هذا ولم تقف في هذه الأثناء العمليات العسكرية بين العرب وبيزنطة ، وكان ابرز عملية قامت بينهم بعد عملية تبادل الأسرى عند نهر لاموس التي اسلفنا ذكرها الحملة البحرية التي قام بها اسطول بيزنطي ضد الشاطئ المصري في عام ٨٥٣ م ففي هذا العام ظهر اسطول بيزنطي امام شاطئ دمياط فجأة والقى على هذه المدينة الحصار وكانت هذه هي المرة الأولى منذ القرن السابع التي يجرؤ فيها اسطول بيزنطي على التوغل في المياه العربية الى هذا الحد، وكان الخليفة الواثق قد توفي في هذه الاثناء بعد اصابته بمرض الاستسقاء وخلفه على العرش أخوه الخليفة المتوكل على الله . وكانت الحملة البحرية لبيزنطة على دمياط ردا على الصوائف الثلاث التي قادها والى الثغور على بن يحيى في السنوات ٨٥١ ـ ٨٥٣ فلما كانت سنة ٨٥٣ نزل الاسطول البيزنطي في دمياط وحاصرها واحرقها بعد ان هجرها سكانها وهربوا مخلفين ورائهم اموالهم وامتعتهم التي نهبها الجنود البيزنطيون.وقد نبهت هذه الحملة المفاجئة حكام مصر المسلمين الى ضرورة الاهتمام بانشاء اسطول قوي لحماية الشواطيء المصرية من هجمات مفاجئة كهذه ، ويذكر المقريزي ان امر البحر اصبح منذ هذه الحملة من اكبر الامور اهمية ، وقد بنيت السفن وجعل لرجال البحر عطاء الجند ، وكان هذا الاسطول الجديد النواة التي اعتمد عليها الفاطميون فيما بعد .

على ان فترة النشاط السياسي والفكري بالمعنى الواسع للكلمة لم

تبدأ في بيزنطة الا بعد انقلاب عام ٨٥٦ ،وهو الانقلاب الذي جاء بالامبراطور الشاب ميخائيل الثالث الى سدة الحكم ومعه خاله بارداس الذي اصبح المشرف الحقيقي على تسيير شؤون الدولة .

وبحكم ان كلا من ميخائيل وبارداس كانا من ضحايا حكم ثيودورا وثيوكتيستوس فقد اصبحا حليفين طبيعيين يجمع بينهما ضغط ثيودورا ومحاولتها الاستئثار بالسلطة مع شريكها ثيوتيستوس . وقد بلغ تسلط ثيودورا على ابنها حدا جعلها تتدخل في ادق خصوصياته حتى انها فرضت عليه البعد عن خليلته والزواج من سيدة اختارتها هي له كانت لا تربطه بها اية رابطة من ود او تفاهم ، وفي غفلة من الامبراطورة استطاع بارداس باتفاق سري بينه وبين الامبراطور الشاب ان يتسلل الى البلاط وان يقوم بتدبير مؤامرة انتهت بمقتل ثيوكتيستوس بحضور ميخائيل الثالث ، وتبع هذه المؤامرة اعلان مجلس الوصاية ميخائيل حاكما مستقلا لايحتاج لأية وصاية،واجبرت ثيودورا بنتيجة كل هذا على التخلي عن سلطانها واشرافها على شؤون الدولة وارسلت بناتها الى دير للراهبات ، وهكذا لم تمض سنتان على هجوم ثيودورا الفتاك على اخيها بارداس حتى كانت هي تقاسي من المصير نفسه .

ولم يكن ميخائيل مثلا اخلاقيا اعلى في كل تصرفاته ، بيد انه لم يكن ايضا احمقا لا يصلح للادارة او تنقصه الشجاعة بل كان انسانا عاديا فيه من الصفات ما يحمد وما يذم ، دافع عن الامبراطورية بحماس واخلاص وقاد الجيوش بنفسه ، زيادة في الحرص على النصر ومع هذا كانت تعوزه الارادة القوية والشخصية الفذة التي تستطيع ان تبت بالامور او تقطع بها دون معونة الاخرين ، لذلك كثيرا ما كانت تتغير مواقفه من القضية الواحدة حسب تغير مستشاريه وتبدل الاتجاهات في بلاطه ، ولذا لم تكن المنجزات التي تمت اثناء حكمه من ابداعه او وحيه ، مما جعل الناس يقولون عنه انه لم يكن عظيما بذاته ولكنه عاش في فترة تمت فيها منجزات عظيمة الفضل فيها لبارداس وفوتيوس .

اصبح بارداس زمن ميخائيل الثالث الحاكم الحقيقي لبيزنطة ، كما كان حال ثيوكتيستوس زمن ثيودورا ، وحتى تعطى هذه السلطات الواسعة التي كان يتمتع بها بارداس صفة رسمية اضفى عليه الامبراطور القاب شرف عديدة كما سماه بالنهاية قيصرا ، والحق ان بارداس كان رجلا من طراز فريد تمتع بذكاء ودهاء عظيمين فاق بهما جميع الذين تقدموه . ولم يكن عهده عهد منجزات هامة في حقول السياسة فحسب ، بل كان كذلك في حقل الثقافة ايضا ،ولعل خير شاهد على هذه المكانة الرفيعة التي وصلت اليها الجامعة التي نظمها في مانيورا والتي اصبحت من اهم مراكز العلم والتربية في بيزنطة بما افتتح فيها من فروع واختصاصات تتناول العلوم المختلفة التي كانت معروفة في ذلك العصر،ولم يكتف بارداس بتنظيم هذه الجامعة ، بل استدعى للعمل فيها جيشا من علماء العصر على راسهم العالم الرياضي ليون الذي كان موسوعي الفكر والثقافة بالرغم من كونه ابن اخ الايقوني الشهير يوحنا غراماتيكوس ، كما كان من بين اعضاء هيئة التدريس في هذه الجامعة فوتيوس الذي كان يعد اشهر اساتذة القرن التاسع .

وكما حدث تغيير في الجهاز الحاكم عقب تسلم ميخائيل الثالث سلطاته الدستورية فقد حدث تغيير ايضا في الجهاز الذي كان يدير الكنيسة آنذاك وذلك لانه لم يكن من الممكن ان يقوم اي نوع من انواع التعاون بين بارداس صاحب الكلمة العليا الان وبين اغناطيوس بطريرك القسطنطينية الذي كان من اتباع الحكام الماضين الذين خلعهم بارداس واستولى على السلطة منهم .

وهكذا اجبر اغناطيوس على الاستقالة من منصب البطريركية. وفي كانون الاول لعام ٨٥٨ م.رفع العالم فوتيوس الى السدة البطريركية وقد كان هذا التبديل بالنسبة للكنيسة بداية عهد من الازمات والمشاكل الدينية لم تعرف لها الكنيسة مثيلا في تاريخها المتقدم .لقد كان فوتيوس ابرز مفكر واقدر دبلوماسي واشهر سياسي يتولى منصب البطريركية في القسطنطينية .

وكما قام المتزمتون وحملوا الوية المعارضة ضد هؤلاء البطاركة كذلك قامت ضد فوتيوس عناصر الرهبان الستوديين وعلى راسهم الاب نيقولا وادعو ان تعيينه لم يكن شرعيا وان البطريركية الشرعية ما تزال من حق اغناطيوس ، وهكذا نشأ في بيزنطة حزبان دينيان حزب يدين بالولاء لفوتيوس ، وحزب يعتقد ان البطريرك الشرعي هو اغناطيوس .

والى جانب هذا الصراع الداخلي كان على البطريرك الجديد ان يواجه صراعا اكثر خطورة مع روما ، ففي اعقاب ازمة الايقونات وبشكل ادق نتيجة قيام امبراطورية مسيحية غربية ، دخلت العلاقات بين الكنيستين اللاتينية والاغريقية مرحلة جديدة مشحونة بالاضطرابات فقد استمر المتزمتون من رجال الدين يتطلعون نحو روما ويعتبرونها المركز الديني الاول برغم ما جد في مجال الكنيسة البيزنطية من اشياء جعلتها تحتل مركزا رفيعا في عالم الاهمية الدينية ، ومع ان العرف جرى منذ زمن الامبراطور نقفور الذي جددت في زمنه القطيعة بين كنيسة روما والقسطنطينية اثر التقارب بين روما والمملكة الفرنجية بالا يرسل بطريرك القسطنطينية اعلاما بتعيينه لهذا المنصب الى بابا روما ، فان فوتيوس رغبة منه بتجنب المشاكل قام حين تسلم كرسي البطريركية بارسال هذا الاعلام الى البابا املا منه ان يساعده اعتراف البابا به على مواجهة خصومه داخل بيزنطة ، وصادف انه كان يجلس على العرش البابوي في هذه الاثناء البابا الطموح نيقولا الاول الذي كان قد صمم منذ اللحظة الاولى لتسلمه هذا المنصب على تعميم سيادة كنيسة روما على جميع كنائس العالم المسيحي ، لذلك استفاد من الصراع فتخلى عن صفة الحياد وانضم الى انصار اغناطيوس في عدم الاعتراف بشرعية فوتيوس ، وتجدر الملاحظة هنا انه صحيح ان رسم فوتيوس بطريركيا لم يتم حسب القواعد الدينية السليمة ولكن مثل هذا كان قد حدث بالنسبة للبطريرك تارازيوس الذي اعترفت به روما اعترافا كاملا ومحضته التأييد والثقة ، ولعل السبب في موقف البابا نيقولا الاول الان هو رغبته في ان يثبت دعائم السيادة البابوية واظهار

الذي يشغل هذا المنصب بمظهر السيد الاعلى الذي لاتنازع كلمته في القضايا الدينية في الشرق وفي الغرب ولهذا الغرض عقد مجمعا دينيا في اللاتيران واعلن خلع فــوتيوس مــن البــــطريركية وذلك سنة ٨٦٣ م وكان رد فوتيوس عنيفا وقاسيا واثبت بتحديه لقرارات البابا والمجمع الذي عقــده عدم اهتمــام بــطريركية القسـطنطينية بقرارات روما ،واعلن ان شؤون الكنيسة البيزنطية من اختصــاص بطريرك القسطنطينية فقط وليس لأحد اي سلطان عليها .

وتابع ميخائيل الثالث الحروب ضد العرب بعزيمة وقوة وسـاعده في هذه الحروب عدد مــن القــادة الاقــوياء الذين كانوا في خـــدمة الامبراطورية في زمنه .

ولكن النجاح لم يكن حليف بيزنطة في هذه الحــروب ولاســيما في جبهة صقلية حيث اضاعت الامبراطورية مراكز دفــاعها واحــدا تلو الاخر . ولم تمض مدة طويلة حتى خضعت جزيرة صــقلية بــكاملها للعرب واخذ العرب يشقون طريقهم في جنوب ايطاليا ولم يكد حــكم ميخائيل الثالث يشارف على الانتهــاء حتــى كانت كل صــقلية بيد العرب اما في جبهة اسيا الصغرى فقد كان مــوقف بيزنطــة مــوقف الهجوم لا الدفاع .

وقامت جيوش الامبراطورية بعدة عمليات عسكرية حصلت فيهــا على بعض الانتصارات واخذت عددا من الاسرى ففي ســنة ٨٥٦ م أغار البيزنطيون على عين زربه في الثغور الشامية واسروا مــن كان بها من الزط مع نسائهم وذراريهم وجواميسهم وبقــرهم ، وفيهــا ايضا كان الفداء بين المسلمين والروم ، وقد قامت حــروب اخـرى مثيرة بين العرب وبيزنطة زمن ميخــائيل الثــالث في منطقــة اســيا الصغرى كان الفــوز في بعضــها حليف بيزنطــة وحليف العــرب في بعضها الاخر ، كما قامت بين الطرفين معارك ولاسيما في سميساط على ان هذه الحروب لم تكن حاسمة بالنسبة لاي من الطرفين وكان يتخللها فترات سلم ومهادنة وعمليات تبادل اسرى ، وظــل الحــال كذلك حتى سنة ٨٦٣ م حين غزا عمر بن عبد الله الاقطع امير ملطية

منطقة ارمينيا واحتل ميناء اماسية(اميسوس) على شواطيء البحر الاسود وقابله من الجانب البيزنطي القائد الشهير بتروناس وجرت بين الطرفين معركة حامية انتهت بفوز بيزنطة ومقتل عمر نفسه والقضاء على الجيش الاسلامي ، وعد المؤرخون البيزنطيون فور بتروناس هذا على عمر ثأرا لموقعة عمورية التي جرت قبل خمس وعشرين سنة.ومنذ هذا الحين انتقلت بيزنطة من جانب الدفاع الى جانب الهجوم في آسية الصغرى . ولم يقتصر سجل العلاقات بين العرب والروم في هذه الفترة على الحرب ، بل قامت بين الطرفين عمليات تبادل للسفارات والوفود ، وينقل لنا الطبري حديثا على لسان نصرين الازهر رسول المتوكل الى الامبراطور ميخائيل الثالث سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م ـ ٨٦١ م يقول فيه :«لما صرت الى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي ، فجرت بيني وبين خال الملك بطروكاس(لعله يقصد برداس) المناظرة وهو القيم بشأن الملك ، وابو ان يدخلوني بسيفي وسوادي فقلت : انصرف فانصرفت ، فرددت من الطريق ومعي الهدايا نحو الف نافجة مسك وثياب وحرير وزعفران كثير وطرائف .... وحملت الهدايا التي معي ، فدخلت عليه فاذا هو على سرير فوق سرير واذا البطارقة حوله قيام ، فسلمت عليه ثم جلست على طرف السرير الكبير وقد هيء لي مجلس ووضعت الهدايا بين يديه ، وبين يديه ثلاثة تراجمة فاقبلوا يترجمون ما اقول ، فقبل الهدايا ولم يأمر لاحد منها بشيء وقربني واكرمني وهيأ لي منزلا بقربه » ... وتباحث نصر فيما يهمه من قضايا مع برداس خال ميخائيل واخذ منه الوعود فيما جاء من اجله ... الى ان يقول :« فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل ،فقلت : ايها الملك قد حلف لي خالك فهذه اليمين لازمة لك ؟ فقال برأسه : نعم ولم أسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم الى ان خرجت منها انما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه : نعم او لا ،» وليس يتكلم وخاله المدبر امره » وحاول بعضهم ان يتخذ من هذه الرواية دليلا على شخصية ميخائيل الضعيفة وخضوعه المطلق لسلطان خاله ، ناسين مكانة الامبراطور وسمو مكانته وتقديسه .

ولابد هنا من التنويه بان النصر الذي احرزه البيزنطيون سنة ٨٦٣ على العرب كان له اثر في تقوية موقفهم وتوجيه الاحداث وجهة جديدة في العالم السلافي الذي كان يحيط بهم وينتشر على اراضي روسيا ومورافيا وبلاد السلاف الجنوبيين ، ففي سنة ٨٦٠ هاجم الروس لاول مرة القسطنطينية واحاطوا بالمدينة وخربوا المناطق المحيطة بها ، وكان الامبراطور أنذاك قد خرج في حملة ضد العرب ووصلته الاخبار فعاد مسرعا ليتولى بنفسه امر الدفاع عن عاصمته ، وليتساعد مع البطريرك في رفع معنويات سكان المدينة الذين ذعروا لهذا الحصار المفاجىء ويبدو ان الذعر الذي ساد بين الناس كان قويا لدرجة انهم عزوا نجاتهم من هذه المصيبة للعذاراء التي انقذتهم من دمار محقق ، وبهذا الحادث يربط المؤرخون تاريخ العلاقات بين بيزنطة وبين المملكة الروسية الناشئة كما ان العمل للتبشير بالمسيحية بين الروس يعود لهذه الفترة ، وقد اعتقد بطريرك القسطنطينية ان التبشير سياسة هامة لان شعبا يدين بالنصرانية على المذهب البيزنطي سيكون حليفا لبيزنطة لاعدوا لها .

ونتج عن الهجوم الروسي على القسطنطينية ان اضطرت بيزنطة لتجديد تحالفها مع الخزر وارسلت سفارة اليهم لتقوم بالاتصالات اللازمة ، ومن الجدير بالذكر ان العمل السياسي في هذه المنطقة اقترن بالعمل التبشيري وكانت السفارة برئاسة رجال الدين الاذكياء الذين يستطيعون ان يرفعوا من شأن النصرانية في وجه التيار الاسلامي الكاسح الذي كان يمتد على المنطقة ، واتسع عمل هذه السفارة السياسية الدينية بعد ذلك وامتد الى مورافيا التي كان يحكمهاالامير راستيسلاف والتي كانت تقصدها بعثات تبشيرية فرنجية لايرضى عنها الامير ، وهكذا اتسع نطاق العمل التبشيري البيزنطي وانضم المورافيون والبلغار من بعدهم الى التبعية الدينية المسيحية ، على ان ما جمعه الدين فرقته السياسية اذ اصبح المورافيون حلفاء لبيزنطة في حين اصبح البلغار من انصار الفرنجة ، وقد ازعج الحلف البلغاري الفرنجي بيزنطة ، فارسلت

جيوشها واساطيلها الى الحدود والمياه البلغارية المجاورة لها واستطاعت الامبراطورية بهذا الشكل ان تجبر الملك بوريس على اعلان ولائه للامبراطورية دينيا وسياسيا معا ، وبهذا ابعدت نفوذ الامبراطورية الفرنجية السياسي عن حدودها ، كما ابعدت نفوذ روما الديني عن رعاياها .

وهنا نستطيع القول ان النزاع بين روما والقسطنطينية قد وصل الى ذروته وذلك على يد فوتيوس الذي لم يكن بطلا من ابطال الاستقلال الديني للكنيسة البيزنطية فحسب بل كان ايضا دماغا سياسيا جبارا محضته الدولة ممثلة بشخص الامبراطور وكبار رجالات الحكم خالص الثقة والدعم وسارت وراءه في كل رأي فيه خير الامبراطورية ، وفي سبيل اظهار هذا الدعم ارسل الامبراطور خطابا الى بابا روما يشرح فيه وجهة النظر الامبراطورية في قضية استقلال الكنيسة البيزنطية وسيادتها على غيرها من الكنائس القائمة وطلب الكتاب من البابا ان يسحب قراره ضد فوتيوس ، وقد صيغ الكتاب على شكل انذار شديد اللهجة فيه رفض لكل سيادة لروما على القسطنطينية .

ولم يكتف فوتيوس بهذا بل سار خطوة اوسع واخذ يكيل هو الاتهامات للكنيسة البابوية ويظهرها بمظهر المخطيء الذي ينقصه الانضباط ووصل به الامر الى حد اتهام روما بالهرقطة الدينية . وفعلا عقد في عام ٨٦٧ م مجمعا دينيا في القسطنطينيةترأسه الامبراطور ، وقرر هذا المجمع طرد البابا نيقولا من الجماعة المسيحية ورأى في تدخل كنيسة روما في شؤون الكنيسة البيزنطية عملا غير مشروع .

وتشاء الصدف في هذه الفترة الحرجة من تاريخ بيزنطة ان تحدث ثورة في القصر سيكون من نتائجها ان يتغير خط سير الاحداث بالنسبة للامبراطورية والامبراطور على حد سواء ، فقد اتخذ ميخائيل الثالث صديقا له وقربه منه وادخله القصر ، وكان هذا الصديق هو باسيل الذي سيتسلل الى حياة القصر بشكل سريع مكنه

في النهاية من قتل بارداس وذبح الامبراطور نفسه وهو سكران في غرفة نومه وهكذا نصل الى فترة جديدة من فترات التاريخ البيزنطي وهي فترة حكم الاسرة المكدونية التي سنتناول بعض تاريخها فيما يلي :

فترة حكم الاسرة المكدونية (٨٦٧ ـ ١٠٨١)

يمكن تقسيم فترة حكم الاسرة المكدونية الى مرحلتين غير متكافئتين من حيث الاهمية والمدة : اذ تمتد الفترة الاولى من سنة ٨٦٧ حتى سنة ١٠٢٥ م وهي السنة التي توفي فيها الامبراطور باسيل الثاني في حين ان الفترة الثانية لاتمتد اكثر من احدى وثلاثين سنة (١٠٢٥ ـ ١٠٥٦ م)وتنتهي بموت الامبراطورة ثيودورا ، وهي أخر افراد هذه الاسرة الذين تولوا سدة الامبراطورية .

وتعد المرحلة الاولى من ازهى عصور الامبراطورية واكثرها اهمية من حيث الوجود السياسيفالصراع في الشرق والشمال ، مع العرب والبلغار والروس توج بنصر كبير لبيزنطة وذلك شروعا من النصف الثاني للقرن العاشر ثم مطلع القرن الحادي عشر الميلاديين ، وكان الصراع مع هذه الاقوام قد لاقى بعض المصاعب اول الامر ولاسيما في الفترة الواقعة بين نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العاشر ولكن ما كادت فترة حكم نقفور فوكاس ويوحنا تزيكمس تطل على العالم البيزنطي حتى ابتسم الحظ مجددا للامبراطورية فاخذت تحقق الانتصارات التي بلغت ذروتها في عهد الامبراطور باسيل الثاني ، ففي اثناء حكم هذا الاخير سحقت الحركات الانفصالية في آسيا الصغرى وقوي النفوذ البيزنطي في سورية والحق جزء من ارمينية بالامبراطورية مباشرة ، كما اصبح جزء منها ملحقا بالتبعية اما بلغاريا فقد غدت مقاطعة بيزنطية وأدى دخول الروس في النصرانية الى قيام علاقات دينية وثقافية واقتصادية وسياسية وثيقة بينهم وبين الامبراطورية .

وشكلت هذه المرحلة من حياة الامبراطورية ذروة المجد والعظمة التي وصلتها بيزنطة في اية مرحلة من مراحل حياتها السياسية ولم يقتصر الامر على ميدان السياسة فحسب بل حققت الامبراطورية امجادا كبيرة في ميادين اخرى من بينها ميدان التشريع الذي تحقق فيه نشر المدونة الباسيليكية وعدد من الاعمال الثانويةالصغرى ولا سيما ما يتعلق بقضية ملكية الارض واتساع الاقطاع وغير ذلك من القضايا الزراعية ، هذا فضلا عن الانجازات الرائعة في الحقل الثقافي وما تم على ايدي مثقفين كبار كان من بينهم البطريرك فوتيوس وقسطنطين بورفير وغيرهما من المشاهير .

ولكن ما كادت شخصية باسيل الثاني القوية تغيب من مسرح الاحداث وذلك سنة ١٠٢٥ م حتى دخلت الامبراطورية في فترة من الفوضى حيث كثرت فيها المشاحنات والمنازعات والثورات من داخل القصر وخارجه ، وقد ادت هذه المشاكل الى مرور فترة من الازمات الحادة هي الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٥٦ ـ ١٠٨١ ففي هذه السنة ١٠٨١ م صعد العرش البيزنطي امبراطور من اسرة كومنين فوضع بذلك حدا لعصر من الفوضى طال وثقل على الناس واخذت الامبراطورية تستعيد انفاسها في الداخل ، كما انتعشت العلوم والفنون وعادت الحياة الثقافية الى الازدهار ، بعد ركود وتوقف طويلين ،وفي مطلع عصر ال كومنين وصلت جحافل الفرنجة الى الاراضي البيزنطية ومن هناك زحفت نحو بلاد الشام حيث تفجرت وقائع صراع استمر قرابة قرنين عرف باسم الحروب الصليبية .

وهناك اكثر من راي بشأن اصل مؤسس السلالة المقدونية بعضها ذهب الى القول انه كان من اصل مقدوني واصر بعضها الاخر على القول انه كان من اصل ارمني وتذهب المصادر العربية الى القول انه كان من اصل سلافي .

وتعد حياة باسيل قبل استيلائه علی العرش الامبراطوري حياة غير عادية فقد كان شابا مغمورا قدم في صباه الى القسطنطينية ليبحث عن فرصة في الحياة فجلب انتباه رجال القصر بطوله الفارع

وقوته المتناهية ، واستطاعته لمنازلة وغلبة اشد الحيوانات ضراوة ، وقد وصلت اخبار هذا الشاب الى مسامع الامبراطور ميخائيل الثالث فاعجب به وضمه الى حاشيته ولم تمض مدة حتى استطاع التابع الشاب ان يوقع سيده الامبراطور تحت سيطرته التامة لدرجة انه عينه امبراطورا مساعدا وتوجه في كنيسة أيا صوفيا ولكنه لم يكن وفيا لليد التي رفعته ، وعوضا عن ان يقبلها بترها الى غير ما رجعة اذ يحدثنا المؤرخون انه حينما شعر بان الامبراطور ميخائيل يشك بنواياه اتجاهه امر رجاله بتدبير مؤامرة لقتله ، وتسلم العرش عوضا عنه وحكم بين ٨٦٧ ـ ٨٨٧ وقد خلفه في حكم بيزنطة ابناه : ليون السادس الذي لقب بالفيلسوف او الحكيم وحكم بين سنتي ٨٨٧ ـ ٩١٢ والكسندر الذي حكم بين سنتي ٨٨٧ ـ ٩١٣ اما ابن ليون السادس قسطنطين السابع بورفيروجينيوس(٩١٣ ـ ٩٥٩) فقد كان غير مهتم بامور الدولة ومنصرفا الى التأليف والكتابة والدرس والتعايش مع علماء عصره وادبائه ، وقد سيطر على شؤون الدولة في زمنه حموه رومانوس ليكابينوس الذي كان في الاساس من قادة البحرية العظام المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة ، وظل ليكابينوس يصرف شؤون البلاد بوجود الامبراطور قسطنطين السابع مدة خمس وعشرين سنة(٩١٩ ـ ٩٤٤) اجبره بعدها اولاده (اولاد رومانوس ليكابينوس) على التخلي عن السلطة والانسحاب من الحياة العامة والانقطاع في احد الاديرة ، وتسلموا السلطة في البلاد عوضا من ابيهم المعزول ولم تستمر سلطة اولاد ليكابينوس الا بضعة شهور استطاع بعدها الامبراطور قسطنطين السابع ان يستعيد سيطرته الفعلية وان يبعدهم وان يحكم منفردا من سنة ٩٤٥ حتى ٩٥٩ .

اما رومانوس الثاني ابن قسطنطين السابع فقد حكم مدة اربع سنوات فقط (٩٥٩ ـ ٩٦٣ م) وتوفي تاركا زوجته ثيوفانو مع ولديهما الصغيرين باسيل وقسطنطين .

وقد تزوجت ثيوفانو بعد وفاة زوجها من القائد الشهير نقفور

فوكاس الذي عين امبراطورا باسم نقفور الثاني فوكاس وحكم بين سنتي ٩٦٣ _ ٩٦٩ م ، وقد انتهت حياة فوكاس بـالقتل وانتقـل العرش الى يوحنا تـزيكمس الذي اضـفى الشرعية على اغتصـابه السلطة بزواجه من ثيودورا اخت رومانوس الثاني وابنه قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس . وقـد اسـتمر حـكم تـزيمكس من ٩٦٩ حتى سنة ٩٧٦ م حين توفي .

وانتقل العرش بعد هذا الى ابني رومـا نوس الثـاني : بـاسيل الثاني المقلب بذابح البلغار(٩٧٦ _ ١٠٢٥) وقسطنطين الثـاني ٩٧٦ _ ١٠٢٨ م) وخلال هذه الفترة من حياة الامبراطورية التي كان الحكم فيها مزدوجا كان باسيل الثاني يتمتع بالنفوذ الاوسع في شؤون الادارة الامبراطورية وقد اسـتطاع ان يصـل ببيزنطـة الى مرتبة رفيعة من المجد والقوة ، وقد ابتدأت بوفاته مـرحلة الضـعف والانحطاط بالنسبة للاسرة المقدونية التي لن يطول الزمن بها والتي ستواجه نهايتها سنة ١٠٨١ م ولم يمهل الموت قسـطنطين الثـامن اخو باسيل الثاني طويلا ، ففي سنة ١٠٢٨ م توفي هذا الامبراطور ايضا ودخلت مجددا قضية العرش البيزنطي في محنة جديدة لم تحل الا حين تزوج رومانوس ارغيروس عضو مجلس الشيوخ البيزنطـي « زويه » ابنه قسـطنطين الثـامن واعتلي سـدة العـرش من ١٠٢٨ حتى ١٠٣٤ م .

وبعد ان توفي ارغيروس تـزوجت زوية للمـرة الثـانية عشـيقها ميخائيل البـافلاغوني على الرغم مـن انهـا كانت في السـادسة والخمسين من عمرها ، وقد توج ميخائيل البافلاغوني امبـراطورا باسم ميخائيل الرابع واستمر حكمه من سنة ١٠٣٤ _ ١٠٤١ وفي خلال حكمه وحـكم ابـن اخيه ميخـائيل الخـامس الذي لم يدم طويلا ١٠٤١ _ ١٠٤٢ حدثت اضطرابات كثيرة في الداخل والخارج انتهت بخلع ميخائيل الخامس وسمل عينيه ودخل الحكم في بيزنطـة بعد هذا في مرحلة من الفوضى تقلب على الحكم فيها عدة اشخاص : فقد ال العرش اول الامر ولمدة شهرين الى زوية الارملة للمرة الثانية

واختها الصغرى ثيودورا وفي السنة نفسـها ١٠٤٤ تـزوجت زوية للمرة الثالثة واعلن زوجها الثـالث امبـراطورا بـاسم قسـطنطين التاسع مونوماكوس وحكم بين سنتي ١٠٤٢ ـ ١٠٥٥ م ولم يتـح لزوية ان تتزوج زواجا رابعا لانها توفيت قبل زوجهـا الثـالث امـا اختها ثيود ورا فقد عاشت بعد قسطنطين مونوما كوس واصـبحت بعـد وفـاته الحـاكمة الوحيدة للامبـراطورية بين سنتي ١٠٥٥ ـ ١٠٥٦ م.ويعد حكم زوية واختها ثيودورا المناسبة الثانية والاخيرة التي مرت على بيزنطة وكان الحكم فيها لا مراة،فقد كانت المناسبة الاولى التي حكمت فيها امـراة زمـن الامبـراطورة ايرين بطلة الحركة المؤيدة للصور والتي توسدت العرش في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع كما راينا من قبل.وقد حـكمت كل من زوية وثيودورا باسم : امبراطورة الرومان .

وقبل أن تتـوفى بقليل ، اذعنت ثيودورا لضـغط جمـاعة القصر وانتخبت احد الأشراف المسمى ميخـائيل سـتراتيكوتيكوس كخلف لها . وقد اعتلى ستراتيكو تيكوس هذا العرش بعـد ثيودورا التـي كانت أخر من حكم من الأسرة المكدونية هذه الأسرة التي تربع افراد منها على العرش البيزنطي طيلة ١٨٩ سنة متوالية .

علاقات بيزنطة أيام حكم الأسرة المكدونية

١ـ العلاقات البيزنطية العربية :

كانت اهم مسائل السياسة الخارجية زمن الامبـراطور بـاسيل الأول ، مؤسس حكم الأسرة المقدونية مسالة الصراع مـع العـرب المسلمين ، وقد كانت الظروف مواتية زمن هذا الامبـراطور لتحقيق نصر في هـذا الميدان لأن علاقـات الامبـراطور كانت حسـنة مع : أرمينيا في الشرق ، ومع الروس والبلغار في الشـمال ، ومـع البندقية والامبراطورية الفرنجية في الغرب ، واذا أضـفنا الى هـذا الجو من الصداقة والود مع هذه الأقوام ، ظروف الخلافة العباسية

الداخلية وماكانت تعيشه من أزمـات ابـان تسـلط ضـباط القصر الأتراك على الخلفاء وانفصـال مصر عن جسـد الخـلافة زمـن الطولونيين ، واضطراب الأوضاع في الغرب الاسلامي ،لوجـدنا ان بـاسيل كان يتمتـع بفـرصة ذهبية لتحقيق نصر على المشرق والمغرب ، ولكن على الرغم من كل هذه الظروف المواتية ، وبرغم ان الحرب بين الطرفين العـربي والبيزنطـي لم تتـوقف لم تسـتطع الامبراطورية تحقيق نصر في هذه الجبهة .

ومع هذا قاد هذا الامبراطور حملة ناجحة ضـد اتبـاع المذهـب البوليصي في الجزء الشرقي من اسيا الصغرى حوالي سـنة ٨٧٠ م واستطاع ان يتغلب عليهم ، ولم يكن من نتائج هذا النصر توسيع رقعة الامبراطورية فحسب ، بل وضع باسيل وجها لوجه مـع عرب المشرق ، وفتح باب الصراع مـع العـرب بشـكل مبـاشر ، وغدت المعارك بين الطرفين سنوية ، ولكن دونما نتيجة حاسمة ، فقد كان النصر تارة الى جانب العرب وتارة الى جانب الروم .

أما حروبه مع عرب المغرب ـ كما رأينا من قبـل ـ فقـد كانت اكثر جدية لأن المغاربة في ذلك الوقت كانوا يحكمون الجزء الأكبر من صقلية ويحتلون بعض المراكز الهامة في جنوب ايطـاليا ، وقـد أدت الأوضاع السيئة في ايطاليا الى تدخل الامبـراطور الفـرنجي لويس الثاني واحتلاله مدينة باري الهامة ، وقد عقد بـاسيل الأول اتفـاقا مع لويس الثاني ينص على أن يتعاون الاثنان على طرد عرب المغرب من ايطاليا وصقلية ، ولكن لم يكتب لهذا الاتفاق النجاح ومالبث ان انحل الحلف البيزنطي الفرنجي ، وحين تـوفي لويس الثـاني قـام سكان بارى وسلموا مدينتهم الى ممثلين للامبراطور البيزنطي .

وفي الوقت نفسه استطاع العرب ان يفتحوا جـزيرة مـالطة ذات الموقع الستراتيجي الهام ، كما اكملوا فتح جزيرة صقلية ، كما بينا من قبل ، ولم يكتف باسيل الأول بالتعاون مع الامبراطور الفـرنجي ضد العرب بل حـاول أن يقيم تحـالفا مـع الملك الارمني بـاغراتيد موجها ضد عرب المشرق ، ولكن لم يتح لهذا التحالف ان يظهر لحيز

الوجود لان باسيل توفي في هذه الفترة ، ويمكن القول انه على الرغم من الانكاسات التي الحقت بالبيزنطيين في صقلية فان الامبراطور باسيل الأول استطاع ان يوسع حدود امبراطوريته بعض الشيء في آسية الصغرى .

لقد اقام باسيل علاقات ود مع جيرانه المختلفين ماعدا العرب ، ولكن لم يتح لهذه العلاقات ان تستمر زمن خليفته ليون السادس الملقب بالحكيم ، فقد قامت زمن حكم هذا الامبراطور (٨٨٦ ـ ٩١٢) حروب بين بيزنطة والبلغار انتهت باخفاق بيزنطة ، واثناء هذه الحروب ظهر المجر (الهنغاريون) لأول مرة في التاريخ البيزنطي ، وقبيل انتهاء حكم ليون الحكيم ظهر الروس قرب القسطنطينية ، أما أرمينيا حليفة بيزنطة ، فقد كانت تتلقى الضربات المتوالية من العرب دون ان تحصل على المعونة المتوقعة من بيزنطة ، يضاف الى هذا أن قضية الزواج الرابع للامبراطور وما سببته من مشاكل داخلية ، زادت في ضعف الامبراطورية واضعفت بالتالي المقاومة البيزنطية للهجمات العربية المتكررة ، وايا كان ، فقد كانت الحملات ضد العرب بلا جدوى زمن ليون السادس ، ولم يحقق أي من الطرفين نصرا حاسما ، ففي الغرب استطاع المسلمون ان يكملوا فتحهم لمنطقة مضيق مسينا ، وفي سنة ٩٠٢ م سقطت آخر معاقل البيزنطيين في صقلية في يدهم ، واصبحت صقلية بكاملها تحت الحكم العربي وقد أدى هذا الى جعل ليون السادس يسقط من حسابه اي امل في استرداد هذه الجزيرة .

هذا وقد تميزت بداية القرن العاشر بقيام الأسطول الاسلامي بعمليات حربية ناشطة ، ومنذ نهاية القرن التاسع كانت السفن العربية تقوم بهجمات موفقة على شواطئ البيلوبونيز وجزر بحر ايجة ، وقد ازدادت حدة هذه العمليات البحرية حين توحدت الاساطيل العربية في سورية وكريت وأخذت تقوم بهجمات مشتركة ، وقد كان الهجوم على سالونيك من قبل سفن مسلمة

يقودها ليون الطرابلسي سنة ٩٠٤ م أشهر ماحقق العرب من نصر بحري خلال هذه الفترة ، فقد سقطت هذه المدينة بعد حصار طويل وشاق ، ولكن القوات المهاجمة لم تبق فيها بعد استسلامها طويلا اذ انها عادت الى قواعدها في سورية بعد ان اخذت غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى ، وقد تنبهت بيزنطة بعد هذه الهزيمة والخسائر الى ضرورة تحصين هذه المدينة فأخذت تشيد الحصون والقلاع حولها لحمايتها وتجنيبها كارثة حلت بها .

وقد شعر البيزنطيون اثر الهزيمة التي لحقت بهم في صقلية أن الواجب يدعوهم الى الاهتمام بأسطولهم ، فأخذوا ببناء سفن جديدة وضم جنود جدد الى سلاحهم البحري مما ساعدهم على كسب النصر في الموقعة البحرية التي جرت بينهم وبين العرب في بحر ايجة سنة ٩٠٦م على أن هذا النصر لم يكن سوى مناسبة وحيدة في سلسلة من الانكسارات ، اذا أن الأسطول البيزنطي مابرح أن لاقى هزيمة نكراء سنة ٩١١ على يد اسطول اسلامي مشترك مؤلف من سفن خرجت من كريت وأخرى من سورية وتلاقت مع الأسطول البيزنطي في معركة بحرية كبيرة .

وهكذا يمكننا ان نقول إن الصراع مع العرب برا وبحرا كان مخفقا زمن ليون السادس ، فقد خرجت صقلية في الغرب نهائيا من يد البيزنطيين ، وفي جنوب ايطاليا كانت الخسائر تتوالى ، كما كان العرب يحققون انتصارات متوالية في جهة الحدود الشرقية ، هذا فضلا عما ذكرناه من خسائر بيزنطة في البحر .

وحين انتقل العرش الى الامبراطور قسطنطين السابع بورفير وجينيتوس (٩١٣ - ٩١٩) ثم رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩ - ٩٤٤) الذي حكم لفترة طويلة لم تستطع بيزنطة ان تقوم بعمل عسكري فعال ضد العرب لأن جيوشها كانت مشغولة في الحروب مع البلغار ، ولم يستطيع العرب المسلمون بالمقابل ان يستغلوا فرصة انشغال الجيوش البيزنطية في الجبهة البلغارية ليقوموا بعمل عسكري يحقق لهم نصرا على بيزنطة لأن الدولة

العباسية كانت في هذه الفترة من تاريخها تمر بفترة ضعف شديد وتنفصل عنها اقاليم تقوم فيها دويلات مستقلة . وكل مااستطاع البيزنطيون تحقيقه في أول حكم قسطنطين السابع هو التغلب على اسطول عربي كان يقوده ليون الطرابلسي في معركة بحرية جرت بين الطرفين قرب ليمنوس سنة ٩١٧ م .

وبدات في هذه الفترة من تاريخ الصراع بين بيزنطة والعرب اسماء قواد جدد بالظهور والشهرة في كلا الجانبين ، ففي الجانب البيزنطي لمع اسم يوحنا كوركواس كقائد عسكري وكان أهل عصره يقارنونه بتراجان او بليزاريوس أو غيرهما من عظماء القواد ويقولون ان وجوده : أحل روحا جديدة من الثقة والمقدرة في الحدود الشرقية ، أما في الجانب العربي فقد طار صيت سيف الدولة الحمداني أمير حلب حتى طرق الآفاق ، واصبح اسمه على كل شفة ولسان كقائد وامير وراع للعلم والأدب والفكر ، وكان بلاطه في حلب منارة قصدها مشاهير عصره في كل الميادين ، وفي حوالي منتصف القرن العاشر استطاع القائد كوركواس ان يحقق عدة انتصارات في الأجزاء الخاضعة للحكم العربي من ارمينيا وان يحتل بعض المدن في اعالي بلاد مابين النهرين وقد احتل كوركواس سنة ٨٣٣ ملطية ، كما احتل سنة ٩٢٤ مدينة الرها واخذ منها بعض الآثار المقدسة (منها صورة للسيد المسيح) ونقلها الى العاصمة باحتفال مهيب ، وكان هذا اكبر نصر له ، مما دعا الناس الى تسميته بطل الساعة ولكن الامبراطور الذي خاف من تزايد شعبية كوركواس وما قد يراوده من أحلام أمر بعزله وأبعده عن قيادة الجيش.

وفي هذه الفترة سقط رومانوس ليكابينوس وعزل أبناؤه من مناصبهم الامبراطورية فخلا الجو لقسطنطين السابع واصبح الحاكم الوحيد للامبراطورية ويمكننا القول ان فترة حكم رومانوس ليكابينوس كانت من أهم الفترات في تاريخ العلاقات بين الامبراطورية والشرق . اذ أنه بعد ثلاثة قرون من الصراع بين

الامبراطورية والعرب كانت بيزنطة خلالها دوما تقف موقف المدافع لاالمهاجم انتقلت بيزنطة ولأول مرة زمن ليكابينوس وكور كواس الى جانب الهجوم واستطاعت تحقيق بعض الانتصارات في عمليات عسكرية جرت على الحدود المشتركة بين الدولتين .

وفي هذه الفترة التي كان فيها قسطنطين السابع حاكما وحيدا للامبراطورية كان الصراع في الجبهة الشرقية هو سلسلة من معارك ضارية تخوضها بيزنطة مع سيف الدولة امير حلب ، وقد طال امد الصراع واستطاع الجانب العربي اثناءه ان يحقق انتصارات كبيرة ، ولكن النهاية كانت رجحان الكفة البيزنطية وانكسار الجيوش العربية في المعارك التي جرت في شمال بلاد مابين النهرين مما أدى الى عبور بعض فرق الجيش البيزنطي لنهر الفرات وفي خلال هذه المعارك استطاع القائد يوحنا تزيكمس ، الذي سيصبح امبراطورا فيما بعد ان يبرز نفسه كقائد محنك طويل الباع في ميدان قيادة الجيوش ،على ان هذه الانتصارات البرية قد فقدت كل اهميتها اذ انه رافقها انكسار شنيع في الميدان البحري ، فقد جهزت بيزنطة اسطولا ضخما سنة ٩٤٩ وارسلته الى شواطىء كريت لضرب الحكم العربي هناك ، ولكن هذه الحملة منيت بالاخفاق وخسرت بيزنطة عددا كبيرا من سفن اسطولها كما خسرت عددا اكبر من امهر بحارتها ، ومع ان العمليات العسكرية البرية لم تتوقف مع عرب ايطاليا وصقلية وغيرها من المناطق الغربية التي كانت تحتلها جيوش عربية ، فان هذه العمليات لم تكن ذات أهمية كبيرة ولم تؤد الى نتيجة حاسمة .

وفي خلال حكم رومانوس الثاني الذي لم يدم طويلا (٩٥٩ ـ ٩٦٣ م) استطاع القائد نقفور فوكاس (الذي سيتولى العرش فيما بعد) ان يستولي على جزيرة كريت ، مقر الاساطيل العربية ومنطلقها في عملياتها العسكرية ضد الشواطىء البيزنطية ، فأزاح بذلك كابوسا ثقيلا جثم طويلا على صدر الامبراطورية ، كما مكنها ايضا من استعادة موقع استراتيجي هام ومحطة تجارية

شغلت دورا فعالا في تجارة البحر المتوسط . كذلك استطاع نقفـور فوكاس في معاركه البرية مع سيف الدولة ان يحقق انتصارا ضـخما اذ انه حاصر حلب وتمكن بعد صعوبات ومعارك طاحنة ان يسـتولي عليها ، مع انها كانت معقل الحمدانيين وحاضرتهم ، ومـرد ذلك أنه لم يكن بامكان حلب بامكاناتها المحدودة أن تتحمل طويلا دفقات المواجهة مع الامبراطورية ذات الموارد الهائلة ، فضلا عما عاني منه سيف الدولة من مشاكل داخلية مع القبائل ومع بعض غلمـانه الذين تمردوا عليه ،ولموقف بعض رجالات الثغور منه .

وفي المرحلة التالية التي تغطي حكم أباطرة ثـلاثة هـم : نقفـور فوكاس ويوحنا تزيكمس وباسيل الثاني الملقب بذابح البلغار حققت الامبراطورية أكبر انتصاراتها العسكرية ضد العـرب المسـلمين في المشرق فقد أوقف نقفـور فـوكاس سـنوات حـكمه الست(٩٦٣ ـ ٩٦٩ م) لتصفية العمليات العسـكرية في الجبهـة العربية ولتحقيق نصر حاسم عليهم ، على الرغم ممـا كان يقـوم في وجهه من ازمات في جبهـات أخـرى (كالجبهـة البلغـارية والجرمانية)تضطره لصرف بعض طاقاته في اخمادها ، وقد بـدأت حروبه في الجبهة العربية باحتلال طرسوس ، ثـم سـار منهـا الى كيليكيا واحتلها ، وارسل اسطولا الى قبرص وتمكن من استردادها من العرب وقد مهد فتح كيليكيا وقبرص لنقفور طريق سورية فـأخذ يعمل في سـبيل الاسـتيلاء على أنطـاكية المدينة السـورية الشهيرة ، وموطن الكثير من المقدسات النصرانية الشرقية ، وفعلا شق طريقه باتجاهها والقى عليهـا الحصـار ، وعندمـا شـعر أن حصارها سيطول ترك جيشه بعهـدة أحـد قـواده وعاد هـو الى القسطنطينية ، وفي أخر سنة من سنوات حكمه (٩٦٩) اسـتطاع الجيش البيزنطي أن يدخل انطاكية ويغنم مغـانم وافـرة ، وعقـب سقوط انطاكية سار الجيش البيزنطي باتجاه حلب وحاصرها ثانية فسقطت بعد حصار طويل ، وقد عقد قرعوية الذي تمـرد على سـعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني مع القائد البيزنطي معاهدة صـلح حفظ لنا نصها ابن العديم في كتابه زبدة الحلب تعهد فيها بالاعتراف

بالسيادة البيزنطية وبان يدفع سكان المدينة المسلمين الجزية لبيزنطية وأن يعفى من دفع هذه الجزية سكان المنطقة من النصارى .كما تعهد قرعوية بأن يقوم بمساعدة بيزنطة في حالة قيامها بحرب ضد دولة غير مسلمة تقع في جهاته وبأنه سيقوم بحماية القوافل التجارية البيزنطية التي تمر عبر اماراته ، والمهم أن هذه المعاهدة قد وقعت بعد موت نقفور فوكاس مقتولا وعدت شروطها أقسى شروط اضطر أمير حلب أن يقبل بها ، وهكذا أصبحت كيليكيا والجزء الشامي من الثغور الذي يضم انطاكية مع شريط طويل من الساحل امتد حتى اللاذقية تابعين لبيزنطة ، كما أصبحت المناطق السورية الأخرى حتى دمشق وطرابلس مضطرة لدفع الجزية وللخضوع لبعض الشروط المهينة التي فرضت عليها.

وإذا صح أن نقفور كان بطلا بالنسبة لبيزنطة في منجزاته بالشرق فإنه لم يكن كذلك في الغرب ففي زمنه استطاع العرب أن يستخلصوا من الامبراوطورية أخر مواقعهم في صقلية ، بحيث أصبحت هذه الجزيرة بكاملها في يد العرب ، وكانت أعقد مشاكل يوحنا تزيكمس الذي خلف فوكاس (٩٦٩ ـ ٩٧٦ م) هي مشكلة الحفاظ على الممتلكات البيزنطية الجديدة في كيليكيا والثغور الشامية ، ففي مطلع حكمه لم يستطع أن يساهم بنفسه في الحروب في الجبهة الشرقية لأنه كان مشغولا بالحروب في الجبهات الروسية والبلغارية وبثورة بارداس فوكاس التي استهلكت كل جهوده ، وبعد أن حقق انتصارات في هاتين الجبهتين وقضى على ثورة بارداس فوكاس ورتب بعض الشؤون والقضايا الداخلية الأخرى ، التفت الى الجبهة الشرقية وأولاها عنايته .

ويحفظ لنا مصدر أرمني نص رسالة جديرة بالدراسة تبادلها يوحنا تزيكمس مع الملك أشوت الثالث ملك أرمينيا وحكت هذه الرسالة أن هذا الامبراطور هدف الى انتزاع القدس من أيدي العرب المسلمين وأنه في سبيل الوصول الى ذلك قام بقيادة أول حملة صليبية توجه على رأسها ملك مسيحي الى المشرق ، وادعى يوحنا في هذه الرسالة انه غادر انطاكية برفقة جيشه واتجه جنوبا عبر

دمشق حتى دخل الأرض الفلسطينية واحتل الناصرة وقيساريه واصبحت القدس تحت رحمته ، وقال :لو لم يختبيء الوثنيون الذين كانوايعيشون هنالك في القلاع التي على الساحل خوفا منا ، لكنا استطعنا أن ندخل بمعونة الرب مدينة القدس المقدسة وأن نصلي للرب في الاماكن المقدسة ، والحقيقة غير هذا ، فهو وصل الى أطراف دمشق حيث جبى منها بعض المال ، ثم قصدت قواته بعض مناطق الساحل حتى طرابلس ، ثم عاد فهذا ما حكاه ابن القلانسي وغيره ، ومع هذا قال يوحنا في الرسالة نفسها : اليوم تحررت كل فينيقية وفلسطين وسورية من النير المحمدي وأصبحت تعترف بالسلطة البيزنطية . ومع أن هذه الرسالة حوت الكثير من المبالغات والمغالطات التي لا تمت الى الحقيقة بصلة ، إنها خطيرة جدا ، فيها مؤشر على مدى الضعف الذي الم بعرب المشرق ، مع ما عانته بلاد الشام من اهمال في العصر العباسي ، ثم فيها الدليل على طابع الصراع الذي خاضه العرب مع اوربا ، وأن الحروب الصليبية بدأت في القرن العاشر للميلاد ، وحين أقول الحروب الصليبية لا أنفي الطابع الديني عن الصراعات التي قامت قبل القرن العاشر ، لكن الآن استخدمت كلمة « الصليبية » لأن الحروب الصليبية استهدفت إزالة الاسلام وتحويل الوطن العربي الى دار للصليبيين فيما وراء البحار ، ولنتذكر هنا أن أوربا غدت مسيحية صليبية تعبد الايقونات وتمتلك كل كنيسة طقوسها ومفاهيمها المتفق عليها منذ القرن العاشر وليس تماما قبل ذلك ، وكان العرب قد امتلكوا فرصهم لهداية أوربا الى الاسلام ، لكنهم أضاعوها بسبب صراعاتهم الداخلية ، فهذه الأمة يتسلط عليها الاعداء بعدما تفقد وحدتها وتسلط قواها على بعضها بعضا ، فهذا التسليط انتحار والمنتحر ليس له من الله غير السخط .

المهم أنه بعدما عاد الجيش البيزنطي الى انطاكية ، غادرها الأمبراطور الى القسطنطينية حيث توفي في أوائل عام ٩٧٦ لكن غدت انطاكية قاعدة للجيوش البيزنطية في المنطقة لأن ما عداها من مناطق مرت بها جيوش تزيكمس ولم تخضع للنفوذ البيزنطي .

وحين اعتلى العرش باسيل الثاني (٩٧٦ ـ ١٠٢٥) الذي خلف تزيكمس لم تكن ظروف الامبراطورية مواتية لاتباع سياسة الهجوم في الجبهة الشرقية حيث قامت في أول عهد هذا الامبراطور ثورات في اسيا الصغرى نظمها بارداس سكليووس ، وبارداس فوكاس ، كما استمرت المعارك في الجبهة البلغارية ، مما جعل الامبراطور الجديد يتفرغ لحل هذه المشكلة أولا ، ولما قضى على الثورات التفت الى الجبهة العربية في المشرق على الرغم من أن الحروب ضد البلغار لم تكن قد انتهت .

لقد ترك باسيل القتال على الجبهة مع البلغار وخف مسرعا نحو الشام ليحول دون سقوط حلب للفاطميين ، وفي أيام باسيل ثارت القبائل العربية في الشام ضد الفاطميين ، وأسس ـ كما رأينا ـ صالح بن مرداس دولته في حلب ، وتمنت الخلافة الفاطمية دوما السلم مع بيزنطة ، وهكذا عقدت مع بيزنطة معاهدات تهادن جددت مرارا .

إنما على الرغم من علاقات السلم الرسمية التي سادت بين بيزنطة ودولة الفاطميين في مصر فان سياسة الخليفة الحاكم بامر الله المتشددة مع النصارى أزعجت باسيل كمسيحي إلى حد بعيد ، وكان أن أمر الحاكم سنة ١٠٠٩ م بتخريب كنيسة القبر المقدس وكنائس اخرى في القدس ، كما صادر بعض كنوز الكنيستين ولاحق الرهبان واشاع الذعر في صفوف المسيحيين عامة حتى أن بعضهم أعلن اسلامه ، ومع هذا لم يقم الامبراطور البيزنطي بأي عمل لنصرة ابناء دينه مما يستدل منه على أنه لم يكن يملك من القوة ما يساعده على اتمام هذا الواجب الديني ، وتوجب على النصارى أن ينتظروا وفاة الحاكم سنة ١٠٢١ م حتى يعود جو التسامح الذي كان سائدا بينهم وبين المسلمين من قبل ، ففي سنة ١٠٢٣ م سافر بطريرك القدس نقفور الى القسطنطينية واعلن للسلطات الكنسية هناك أن الكنائس المصادرة اعيدت الى المسيحيين مع ما كان فيها من كنوز واشياء دينية •

كما أعلن أن كنيسة القبر المقدس وغيرها من الكنائس المخربة في مصر وسورية قد اعيد بناؤها وأن الرعايا المسيحيين في دار الخلافة يتمتعون بحريتهم الدينية كما كانت حالهم من قبل .

وفي الغرب أستمر عرب صقلية يغيرون على جنوب ايطاليا ، ولم تستطع الامبراطورية عمل شيء لانقاذ هذه البقعة من الأرض البيزنطية لانشغالها في جبهات أخرى ، وقد حاول باسيل الثاني في اخريات أيامه أن يقوم بعمل ما من أجل استعادة صقلية من العرب ، ولكنه توفي قبل أن يتمكن من تحقيق مشروعه .

وقد شجعت الفوضى التي سادت الامبراطورية عقب وفاة باسيل العرب على البدء بسلسلة من الهجمات لاسترداد أراضي الثغور التي احتلها البيزنطيون من قبل ، واستطاعت هذه الهجمات أن تحرر جزءا من هذه المنطقة من النير البيزنطي ، كما وهزم المرداسيون حملة كبيرة قادها الأمبراطور رومانوس نفسه ، ومع هذا لاقي العرب بعض الانتكاسات في الثغور الجزرية ، ففقدوا الرها سنة ١٠٣٠ م وقد عرض الامبراطور رومانوس الثالث ، بعد سقوط الرها ، على العرب عقد معاهدة ، بين شروطها شرطان يستحقان الاهتمام ويتعلقان بمدينة القدس : إذ نص الشرط الأول على أن تتولى الخزينة البيزنطية نفقات ترميم كنيسة القبر المقدس ، ونص الشرط الثاني على أن يكون للامبراطور البيزنطي حق تعيين بطريرك القدس ، وقد طال أمد المفاوضات بين الامبراطور رومانوس الثالث ، والخليفة العباسي القائم لأن الخليفة عارض أولا هذين الشرطين ، وأخيرا قبل بهما وسمح بترميم كنيسة القبر المقدس على حساب البيزنطيين ، وكان البيزنطيون قد حصلوا على مثل هذه الموافقة من الخلافة الفاطمية التي كانت تحكم فلسطين مع جنوب بلاد الشام ، وقد زار هذه الكنيسة الرحالة الفارسي المشهور ناصري خسرو ١٠٤٦ ووصفها بأنها ذات بناء ضخم فسيح يتسع لثمانية الاف شخص وأنها تحتوى على زخارف غاية في الروعة والأبهة والغنى .

وحاولت بيزنطة من جهة اخرى في هذه الفترة أن تستعيد صقلية ، ولكن محاولاتها لم تصل الى اية نتيجة كما رأينا من قبل ، وفي الحقيقة إن الانتصارات والأمجاد التي حققتها بيزنطة في أيام حكم الأسرة المقدونية - باستثناء كريت - كانت عابرة ، سببها لا تفوق بيزنطة إنما تمزق العرب ، والخلافة العباسية عاشت أسوأ أيامها في ظل بني بويه ، وبعدما انتقل الفاطميون الى مصر ، أخفقوا في الاستقرار في بلاد الشام ، لأسباب ووقائع بيناها في الجزء الأول من كتابنا هذا ، وبحثتها بشكل مفصل في كتابي « إمارة حلب » ثم في كتابي الجامع في أخبار القرامطة.

العلاقات مع البلغار والمجر

كانت العلاقات بين الامبراطورية والبلغار زمن السلالة المقدونية علاقات على جانب كبير من الأهمية ، فبالرغم من أن بلغاريا زمن ملكها سيمون كانت من ألد أعداء بيزنطة وتهدد عاصمتها وسلطة امبراطورها ، فان بيزنطة في ظل الأسرة المقدونية استطاعت أن تقلب ميزان القوى وأن تخضع بلغاريا اخضاعا تاما لسلطتها ، وأن تجعل منها مقاطعة بيزنطية ففي خلال حكم باسيل الأول كانت حالة من السلم تسود بين الامبراطورية وبلغاريا ، وبعد وفاة الامبراطور ميخائيل الثالث مباشرة تكللت المفاوضات بين الكنيستين البلغارية واليونانية من أجل اعادة الوحدة بينهما بالنجاح ، واستمرت هذه العلاقات الطيبة زمن الملك البلغاري بوريس الذي أرسل ابنه سيمون ليتثقف في بلاط القسطنطينية ، وكان لهذه الصلات الودية آثار حسنة انعكست على كلا الجانبين . فقد استطاع الامبراطور باسيل في هذا الجو الودي بينه وبين البلغار أن يوجه جميع قواه لحرب العرب المشارقة في آسيا الصغرى وعرب المغرب في ايطاليا ، كما أن هذا السلم ساعد الملك البلغاري بوريس على التفرغ لشؤون مملكته الداخلية التي كانت قد تبنت النصرانية دينا منذ أمد قصير .

وبعد أن اعتلى الامبراطور ليون السادس العرش سنة ٨٨٦ فسدت هذه العلاقات السلمية بين الطرفين بسبب قضايا الجمارك التي فرضت على التجارة مع بلغاريا ، فقد كان يحكم بلغاريا في هذه الفترة الملك البلغارى الشهير سيمون بن الملك بوريس وكان مشهورا بشغفه بالعلم والثقافة وتمت في زمنه منجزات عظيمة في حقل الثقافة والتربية ، وكانت له مطامع سياسية واسعة اراد أن يحققها على حساب الامبراطورية البيزنطية ، وقد شعر ليون السادس أنه لن يستطيع الوقوف في وجه مطامع سيمون لأن قواته كانت مشغولة في حروبها مع العرب فطلب النجدة من القبائل المجرية التي كانت ما تزال على الهمجية ، ووافقت هذه القبائل أن تقوم بهجوم مفاجىء على بلغاريا من جهة الشمال حتى تصرف انظار سيمون عن الحدود البيزنطية .

ويعد هذا الحادث من اهم الحوادث في تاريخ أوربا في هذه الفترة ، اذ انه للمرة الأولى ظهر على مسرح الأحداث في أوربا شعب جديد هو الشعب المجري ، الذي حالف بيزنطة في أول ظهوره .وقد هزم سيمون امام المجر في عدة معارك أول الأمر ،ولكنه استطاع من ناحية ثانية اثناء المفاوضات ان يضمن تحالفا مع أقوام اخرى وأن يقلب هزيمته الى نصر ، وأن يطرد المجر الى الشمال حيث سيستقرون ويقيمون في المستقبل دولتهم في أواسط الدانوب ، وبعد هذا النصر على المجر ، وجه سيمون اهتمامه نحو بيزنطة وسار على راس قواته مخترقا أراضيها حتى وصل الى اسوار القسطنطينية ، فاضطر الأمبراطور البيزنطي المغلوب أن يعقد معه معاهدة صلح تعهد بموجبها الا يقوم بالمستقبل بأى عمل عدائي ضد البلغار وأن يقدم للملك سيمون هدايا سنوية قيمة .

وفي زمن ليون السادس حاول الملك البلغاري سيمون أن يضم سالونيك الى ملكه وذلك لأن العرب سنة ٩٠٤ م كانوا قد حاصروها ونهبوها وتركوها بحالة من الضعف شجعت الملك على محاولة تنفيذ هذا الحلم ، ولكن ليون السادس وقف في وجه هذا المشروع

واستطاع أن يقنع البلغـار أن يقبلوا عوضـا عن سـالونيك أرضـا أخرى فقبلوا بذلك ولم تقم في زمنه حروب مع البلغار ، غير أن هـذه الحروب ما لبثت أن تجددت بعد وفاته ، وحـاول الملك سـيمون أن يستولي على القسطنطينية ممـا أثـار الذعر في نفـوس سـكان العاصمة ، وأرسل بطريركها رسالة الى الملك البلغـاري (مـكتوبة بالدموع لا بالدم) ولكن البلغار لم يردوا على التوسلات وغيرها من التهـديدات البيزنطية ، وتقـدمت جيوشـهم في الاراضي البيزنطية وخاضوا معارك عدة كان النصر فيها حليفهم ، وكان اشدها المعارك التي جرت سنة ٩١٧ م على أرض تراقية والتي أبيد فيهـا الجيش البيزنطي المحارب عن بكرة ابيه ، وقد فتحت هـذه المعـارك أمـام سيمون طريق القسطنطينية ولكنه لم يستطع السـير اليهـا لأنه كان عليه أن يوجه جيوشه الى جبهة جـديدة في منطقـة الصرب ، وحين تـولى القـائد رومـانوس ليكابينوس عرش الأمبـراطورية سنة ٩١٩ كانت القوات البلغـارية قـد وصـلت الى حـدود الدردنيل ، كما أن جيوشهم الأخـرى كانت تختـرق بـلاد اليونان الوسطى . وفي الوقت نفسه حاول سيمون أن يعقد اتفاقا مـع عرب إفريقية على أساس توجيه جيوش مشتركة لحصـار القسـطنطينية وكانت كل مقاطعات تراقية ومقـدونيا مـا عدا القسـطنطينية في يد البلغار ، وكان الملك البلغـاري واثقـا مـن نصره القـريب على الأمبراطور البيزنطي لكن الذي حدث قيام مفاوضات بين الطـرفين تتوجت بعقد اجتماع سنة ٩٢٤ م بين سيمون ورومـانوس ، فحين التقى العاهلان تبادلا التحيات الودية والاحاديث ، وقـد أدى هـذا اللقاء وهذه الاحاديث الى عقد معاهدة بين الطرفين نصـت على أن يتوقف القتال بينهما ، وأن يتعهد الامبراطور البيزنطي بدفع جـزية سنوية للبلغار ، وقد سر سيمون لهذه النتيجة ولعدم قيام معركة بينه وبين الامبـراطورية لأنه كان يتـوقع بعض المصـاعب مـع المملكة الصربية الجديدة التي كانت تتفاوض مع بيزنطة ، ولأن مفـاوضاته مع عرب إفريقية لم تصل الى نتيجة حاسمة ، وحاول بعـد هـذا أن يعيد إحياء مشروعه ضـد القسـطنطينية ولكن المنية عاجلتـه سنة ٩٢٧ قبل أن يستطيع تحقيقه .

وفي عهد خليفة سيمون المسمى بطرس والذي كان مشهورا بحبه للسلام عقدت معاهدة صلح مع بيزنطة دامت أربعين عاما ، واعترفت فيها الامبراطورية باللقب الملكي لبطرس وبالكنيسة البلغارية التي انشئت زمن سلفه سيمون ، وأخذت المملكة البلغارية التي أوصلها سيمون الى الأوج تنحدر زمن بطرس وتتمزقها الخلافات الداخلية ، ولم يؤد خلو الساحة من البلغار الى دوام السلم الذي كانت تنعم به القسطنطينية فقد قام المجريون سنة ٩٣٤ بمهاجمة مقاطعة تراقية ، وتقدموا حتى وصلوا الى القسطنطينية ثم اعادوا ما احتلوا من أراضي ليعاودوا الكرة سنة ٩٤٣ وهاجموا تراقية من جديد ، وقد اضطر الامبراطور رومانوس ليكابينوس ازاء هذه الاعتداءات أن يعقد معهم معاهدة صلح مدتها خمس سنوات .

وقد جددت هذه المعاهدة زمن الامبراطور قسطنطين بوفيرو جينتوس ، ومع ذلك ظهرت قوات مجرية في النصف الثاني من القرن العاشر في الاراضي البلقانية أكثر من مرة وقامت بعمليات عسكرية ، وفي زمن الاباطرة نقفور فوكاس ويوحنا تزيكمس تجددت المعارك بين الامبراطورية والبلغار ، وتدخل الروس في هذه المعارك ووقفوا الى جانب الامبراطورية بناء على طلب المساعدة الذي قدمه اليهم الامبراطور نقفور فوكاس ،وقد أدى تدخل الروس في هذه المعارك الى ظهور خطر جديد على الأرض البيزنطية ، وهو الخطر الروسي إذ أظهر الروسي سفياتوسلاف مطامع أقلقت الامبراطور البيزنطي ، ولم يكن قلق الامبراطور دونما مسوغ اذ أخذت القوات الروسية تزحف على بيزنطة حتى وصلت طلائعها الى القسطنطينية ، واستطاع يوحنا تزيكمس أن يرد الزحف الروسي عن عاصمته وأن يقهر سفياتوسلاف وأن يحتل كل المقاطعات الواقعة في شرقي بلغاريا وأن يخضع المملكة البلغارية لحكمه ، واستفاد البلغار من الاضطرابات الداخلية التي حدثت بعد وفاة تزيكمس فأعلنوا الثورة على بيزنطة بزعامة صموئيل حاكم الجزء الغربي من بلغاريا الذي كان مستقلا وكان الصراع في هذه الفترة بقيادة

الامبراطور الجديد باسيل الثاني الذي عاني من بعض الهزائم أمام صموئيل الذي اغتنم الفرصة واعلن نفسه ملكا على البلغار ، ولكن ما لبث أن ابتسم الحظ من جديد لباسيل وذلك في بداية القرن الحادي عشر فاستطاع أن يقلب هزيمته الى نصر ساحق وأن يعمل يد القتل والذبح في البلغار حتى أصبح لقبه الرسمي (ذابح البلغار) وقد وصلت فظائعه الى حد نقرأ معه مثلا انه في احدى المعارك بعد أن قتل ما قتل سمل عيون اربعة عشر الف جندي بلغاري دفعة واحدة وأعادهم عمي الى بلادهم ، ويقال ان صمويل حين رأى هذه الأعداد من الجنود العميان أصيب بصدمة أدت الى موته فورا وذلك سنة ١٠١٤ م ، وكانت بلغاريا بعدوفاته في حال من الضعف جعلت من السهل على الامبراطورية البيزنطية ضمها اليها وهكذا اصبحت بلغاريا سنة ١٠١٨ م مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية البيزنطية يتولى الحكم فيها حاكم من قبل الامبراطور ، مع أنها احتفظت ببعض مظاهر الاستقلال الداخلي.

وقامت ثورة في بلغاريا ضد الامبراطورية في حوالي منتصف القرن الحادي عشر ولكنها اخمدت بقسوة وحرمت بلغاريا من الاستقلال الداخلي الذي كانت تنعم به من قبل ، وظل الحال هكذا حتى قيام المملكة البلغارية الثانية وذلك في القرن الثاني عشر .

العلاقات بين بيزنطة والروس

كانت العلاقات بين بيزنطة والروس زمن الاسرة المقدونية دائبة ونشيطة على عكس ماكانت عليه في عهد الأسرة السالفة ، وقد بدأت زمن الأمبراطورليون السادس الملقب بالحكيم ، وذلك حين اقتحم الأمير الروسي أوليغ المياه البيزنطية وظهرت سفنه امام أسوار القسطنطينية وذلك في سنة ٩٠٧ م . وقد استطاع أوليغ أن يحاصر بعض المواقع القريبة من العاصمة وأن يقتل عددا من الاشخاص مما اضطر الامبراطور أن يفاوضه وأن يعقد معه اتفاقا ، وقد جدد هذا

الاتفـاق سـنة ٩١١ م ونصت بـنوده على تسـهيلات وامتيازات تجارية للروس في البلاد البيزنطية .

وفي زمن الامبراطور رومانوس ليكابينوس هوجمت القسطنطينية مرتين من قبل الامير الروسي ايغور ، وقد قام ايغور بـأول حمـلاته على العاصمة البيزنطية سنة ٩٤١ م وذلك حين ابحرت سـفنه الى شـاطيء بيثينيا على البحـر الاسـود ، ومنه الى البـوسفور حيث حاصرت الشواطيء البيزنطية في هـذه المنطقـة وتقدمت على طـول الشاطيء الاسيوي قبالة القسـطنطينية . على أنه لم يكتـب لهـذه الحملة النجـاح ، اذ اسـتطاع البيزنطيون القضـاء على السـفن الروسية بواسطة النار الاغريقية ، وهرب ما تبقـى منهـا بـاتجاه الشمال أما من وقع من الروس في الاسر فقد قتله البيزنطيون ، وقد استعد ايغور استعدادا اقوى لحملته الثانية على العاصمة البيزنطية التي بداها سنة ٩٤٤ م فقد جند الامير الروسي جنودا كثيرين مـن قوميات مختلفة وحشدهم اسـتعدادا لما نواه مـن غزو وحين سـمع الامبراطور بانباء هذه الاستعدادات ذعر ذعرا شديدا وسير وفدا من اشراف الامبراطورية محملين بـالهدايا الى روسـيا والى زعمـاء قوام الأخرى المتحالفين معها .

وعرض الوفد على الروس أن يعقـدوا معهـم معـاهدة ممـاثلة للمعاهدة التي عقدت من قبل مع اوليغ وأن تدفع بيزنطة لهـم جـزية سنوية كبيرة ، ولكن الامير الروسي رفض أول الامر هـذا العـرض وسار بجيشه حتى وصل شواطيء نهر الدانوب . وهناك تشاور مع رجالاته وقر رايهم على قبول العرض البيزنطي والعودة الى كييف ، وفي العام الذي تلاه عقدت معاهدة بين الطرفين كانت شروطها أقـل امتهانا للسيادة البيزنطية من المعاهدة المتقـدمة التـي عقـدت مـع اوليغ ، وقرر المفاوضون أن تكون هذه المعاهدة أبدية .

وفعلا ساد عهـد مـن السـلم بين الروس والبيزنطـيين وتمتنت اواصر الصداقة بينهم.وفي سنة ٩٠٧ م زارت الاميرة الروسية اولغا القسطنطينية فاستقبلها الامبـراطور قسـطنطين السـابع بـورفير

جينيتوس وزوجته استقبالا رائعا ، أما العلاقات مع الروس زمن الاباطرة نقفور ويوحنا تزيكمس فقد لمحنا اليها من قبل ولا حاجة هنا للتكرار .

وفي فترة حكم باسيل الثاني كانت علاقات الامبراطورية مع الامير الروسي فلاديمير الذي يرتبط اسمه ارتباطا وثيقا بانتشار المسيحية في روسيا ، علاقات وطيدة ، ففي العقد التاسع من القرن العاشر كان الامبراطور في وضع حرج وذلك بسبب زحف فوكاس بجيوشه نحو العاصمة في الوقت الذي كانت فيه مقاطعات الامبراطورية الشمالية تواجه خطر الاجتياح البلغاري ، وكانت فرصة باسيل الوحيدة هي طلب المساعدة من الأمير الروسي فلاديمير الذي وافق على نجدة الامبراطور بجيش بلغ تعداده الستة آلاف مقابل أن يتعهد الامبراطور بتزويجه أخته أنا ، وقد نص الاتفاق أيضا على أن فلاديمير سيدخل في النصرانية وسيجبر شعبه على اعتناقها ، وفعلا أرسل فلاديمير الجيش المتفق عليه لمساعدة باسيل في حروبه ضد فوكاس واستطاع بفضله أن يقهر هذا الثائر وأن يرديه قتيلا في ساحة المعركة ، ويبدو أن باسيل لم يكن جادا في تحقيق وعده لفلاديمير بتزويجه من أخته ، ولذلك ماكان من هذا الأخير حين تلكأ باسيل في إتمام مراسيم الزواج إلا أن سار بجيشه واحتل إحدى المدن البيزنطية الهامة في شبه جزيرة القرم وأجبر باسيل على تحقيق وعده .

وهكذا عمد فلاديمير نصرانيا وتزوج من انا ، ودخلت روسيا في النصرانية اعتبارا من نهاية القرن العاشر وساد السلم نتيجة هذا بين الطرفين الروسي والبيزنطي لأمد طويل ونشطت العلاقات التجارية بينهما .

لقد استمر السلم حتى اعتلى العرش البيزنطي الأمبراطور قسطنطين مونوماكوس سنة ١٠٤٣ إذ يقال أنه حدث في هذه السنة خصام بين بعض التجار الروس والبيزنطيين في القسطنطينية قتل في اثنائه أحد الأشراف الروس ، فاستغل الروس هذا الحادث لتوجيه

حملة ضد بيزنطة ، فجهزوا أسطولا يتألف من عدد كبير من السفن وأبحروا به نحو الشواطىء البيزنطية ، ولكن البيزنطيون استطاعوا تدمير هذا الأسطول بواسطة النار الاغريقية ، وكانت هذه أخر حملة توجهها روسيا ضد بيزنطة في العصور الوسطى .

العلاقات مع ايطاليا وأوربا الغربية

إلى جانب الهجمات العربية على إيطاليا فإن أهم الأحداث التي شهدتها هذه البلاد في منتصف القرن التاسع كانت انفصال جمهورية سان مارك (البندقية) عن الامبراطورية البيزنطية وصيرورتها جمهوزية مستقلة ، وقد تعاملت بيزنطة مع هذه الجمهورية الجديدة على أساس من المساواة وبالأسلوب نفسه الذي تتعامل به دولتان مستقلتان ، ولاشك أن السبب في ذلك توفر مصلحة مشتركة بينهما نشأت عن الهجمات العربية على أراضي الطرفين وبسبب اعتداءات سلاف منطقة الأدرياتيك على حدود كل منهما . وقد زاد في النفوذ البيزنطي في إيطاليا انتزاع جيوش الامبراطورية لباري وتارنتوم من العرب وأعمال نقفور فوكاس الناجحة ضد العرب في كريت وجنوب إيطاليا .

وكان الخطر العربي على روما حافزا للبابا يوحنا الثامن لأن يقوم بمفاوضات مع الأمبراطور باسيل الأول ، وأن يقبل ببعض التنازلات للكنيسة الشرقية مقابل ضمان حماية بيزنطة لروما في حال هجوم عربي عليها، وبناء عليه استمر النفوذ البيزنطي في إيطاليا بتزايد خلال القرن العاشر وأدى ذلك إلى ازدياد نفوذها الثقافي والديني في جنوب إيطاليا .

. وقد شهدت بيزنطة وإيطاليا في هذا القرن العاشر قيام منافس قوي في شخص أوتو الأول الحاكم الجرماني الذي وضع البابا يوحنا الثاني عشر التاج الأمبراطوري على رأسه في روما سنة ٩٦٢ ، ويعرف أوتو الأول تاريخيا بأنه مؤسس الامبراطورية الرومانية

المقدسة للأمة الجرمانية ، وقد كان هم أوتو بعد أن تسلم التاج أن يصبح سيدا على جميع إيطاليا ، وهذا لاشك جعله يبدو كعدو بالنسبة لبيزنطة التي كان لها ايضا مصالح موروثة في إيطاليا ، والتي كان امبراطورها نقفور فوكاس يحلم بأن يقيم تحالفا مع الجرمان ضد المسلمين ، ولكن هذا الحلم لم يتحقق ، بل قام أوتو بهجمات على الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا ، وتجددت هذه الهجمات زمن الامبراطور يوحنا تزيكمس مما اجبر بيزنطة على تغيير سياستها الايطالية ، ولهذا عقد هذا الامبراطور معاهدة سلم مع أوتو الجرماني وزوج الأميرة البيزنطية تيوفانو من أوتو الثاني ابن أوتو الأول ، وبذلك تمتنت عرى الصداقة بين الأمبراطوريتين ، وقام بينهما تحالف ، وتسلم أوتو الثاني (٩٧٣ ـ ٩٨٣) مهمة الوقوف في وجه الهجمات العربية على إيطاليا نيابة عن الأمبراطور البيزنطي .

وقد كسر أوتو الثاني في إحدى المعارك مع العرب ولم يلبث بعد هذا الانكسار أن توفي وبموته توقف التوغل الجرماني في الممتلكات البيزنطية في إيطاليا لفترة طويلة من الزمن ، وجاء من الزواج الذي تم بين تيوفانو وأوتو الثاني أمير تولى العرش في الأمبراطورية الرومانية المقدسة في الفترة بين سنتي (٩٨٣ ـ ١٠٠٢) وعرف باسم أوتو الثالث ، وكان أوتو الثالث هذا معاصرا للامبراطور البيزنطي باسيل الثاني وقريبا له ويكن حبا شديداًلبيزنطة ومؤسساتها الثقافية حيث عاشت أمه واشبعت خياله بذكريات نشأتها فيها ، وكانت أحلام كثيرة تراود خيال هذا الأمير بسبب ثقافته الكلاسيكية وإعجابه بروما من جهة وببلاط القسطنطينية من جهة اخرى ، فقد كان من جملة احلامه مثلا أن يعيد مجد روما القديمة وان يعيد إلى الوجود الامبراطورية الرومانية القديمة وعاصمتها روما ، ولكن لم يتح لهذه الأحلام أن تتحقق لأنه توفي فجأة وهو في الثانية والعشرين من عمره وذلك في مطلع القرن الحادي عشر (١٠٠٢) .

وعلى الرغم من أن الخطر العربي على إيطاليا قد خفت حدته في

مطالع القرن الحادي عشر بسبب نشاط أسطول البندقية ومساهمته في حراسة الشواطىء الايطالية من الهجمات العربية فإن خطرا جديدا أشد وأدهى بدأ يتهدد الأرض الايطالية ، ألا وهو خطر النورمان الذين تسربوا إلى إيطاليا في مطالع القرن الحادي عشر ، وما لبثوا أن هاجموا بيزنطة نفسها فيما بعد ، وقد استطاعت بيزنطة في أولى معاركها مع النورمان على الأرض الايطالية أن تدحرهم وذلك زمن الأمبراطور باسيل الثاني ، وخلال فترة الصراع الديني بين روما والقسطنطينية التي انتهت بالانشقاق بين الكنيستين ١٠٥٤ م انحاز النورمان إلى جانب روما واخذوا يتقدمون داخل الممتلكات البيزنطية في إيطاليا ، وستزداد قوة النورمان حتى تصل أوجها في منتصف القرن الحادي عشر ، وذلك بعد انتهاء فترة حكم الأسرة المقدونية ، وسلف بنا أن تحدثنا عن احتلالهم لجنوب إيطاليا وانتزاعهم صقلية من العرب .

شؤون الكنيسة

وكانت أهم الأحداث الكنسية التي تمت خلال فترة حكم الأسرة المقدونية هو الانفصال التام بين الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية الذي تم في منتصف القرن الحادي عشر بعد خصومات طويلة مدة قرنين تقريبا .

والى جانب هذا الحدث الهام تمت احداث اخرى أقل أهمية في الحقل الكنسي ،منها ان الأمبراطور باسيل عزل البطريرك فوتيوس من منصبه وأعاد إلى الكرسي البطريركي اغناطيوس الذي كان قد عزل زمن سلفه الأمبراطور ميخائيل الثالث ، وقد قصد باسيل من هذا العمل دعم مركزه السياسي عن طريق تنصيب بطريرك يؤيده ، وله أيضا شعبية عند عامة الشعب البيزنطي ، واراد باسيل أن يذهب إلى مدى أبعد في دعم مركزه السياسي عن طريق كسب التأييد الديني ، فأرسل هو والبطريرك الجديد اغناطيوس رسائل إلى البابا في روما يعلنان له فيهما اعترافهما بسلطته العليا على الكنيسة

الشرقية ويشرحان له رغبتهما في كنيسة موحدة لاانقسام فيها ويرعاها راع واحد هو البابا ، وكان هذا ولاشك نصرا للبابوية وللبابا نيقولا الأول خاصة ، ولكن القدر لم يمهل هذا البابا ليشهد نتائج نصره العظيم إذ انه قبيل وصول هذه الرسائل إلى روما توفي وتسلمها خلفه البابا هادريان الثاني .

وهكذا دخلت الشؤون الدينية لبيزنطة في عهد جديد أصبح للبابوية فيه القول الفصل في جميع الأمور الكنسية . وكان البطريرك المعزول قد نفي أول الأمر وتعرض لأشد أنواع الحرمان والضنك ، ولكن باسيل شعر أن البطريرك المعزول مازال يتمتع بشعبية كبيرة وله عدد كبير من الأتباع ذوي النفوذ ، لذلك أعلن عفوه عنه واستدعاه إلى القصر الأمبراطوري وأوكل إليه أمر تثقيف أولاده ، وحين توفي أغناطيوس أعيد فوتيوس للكرسي البطريركي ، وكانت عودته لهذا المنصب بداية عهد جديد من العلاقات مع البابوية ، حيث انه عقد في القسطنطينية مجمعا دينيا حضره جمع غفير من رجال الدين وممثلون عن البابا ، وكان المجمع من العظمة والأهمية بحيث شبه بالمجامع المسكونية وكان نصرا كبيرا لفوتيوس إذ انه افتتح بحمد فوتيوس وانتهى بتمجيده . وقد ناقش هذا المجمع قضية رئاسة البابا للكنيسة وقرر أن البابا بطريرك كبقية البطاركة وانه لاسلطة له على الكنيسة عموما ولذلك فلا لزوم لموافقته على تعيين بطريرك القسطنطينية ، وقد اغضب هذا القرار البابا كثيرا ، فأرسل وفدا إلى القسطنطينية وطلب إلغاء جميع القرارات الماسة بالمنصب البابوي من بين مقررات المجمع ورفض فوتيوس وباسيل الانصياع لطلب الوفد وذهبا إلى حد إصدار الأوامر باعتقال أعضائه ، وقد أدى هذا الموقف إلى سوء العلاقات بين البابوية والقسطنطينية وإلى قيام نوع من القطيعة بين روما والأمبراطورية ، ولم يطل الزمن بفوتيوس إذ انه بعد وفاة باسيل الثاني ومجيء ليون السادس للعرش البيزنطي عزل من منصبه ، ومالبث بعد عزله بخمس سنوات أن توفي وتكاد الكلمة تجمع على أن فوتيوس كان من اشخاص

عصره الذين شغلوا دورا بارزا لافي المجال الديني فحسب بل في المجال الثقافي وحتى السياسي ايضا .

ورأينا انه إلى جهود باسيل الأول يعود الفضل في إدخال الروس في النصرانية ، كما أن أعدادا كبيرة من القبائل السلافية الساكنة في منطقة البيلوبونيز اعتنقت النصرانية في عهده ، وإليه ينسب أمر ينص على وجوب إجبار اليهود القاطنين في الامبراطورية على التخلي عن يهوديتهم والدخول في النصرانية .

وكان الامبراطور نقفور فوكاس قد أصدر سنة ٩٦٤ م قرارا عد من اخطر القرارات أثرا على الأديرة والكنيسة ، وذلك على الرغم من شدة تعلقه بالمسيحية ، ونص قراره :

على منع اقامة اديرة جديدة ومنع تقديم الهدايا والاعطيات ووقف الاوقاف للاديرة والمستشفيات الخيرية وتحريم تقديم الهبات والاموال لصالح رجال الدين وجميع الهيئات المرتبطة بالكنيسة ، ويبدو لأول وهلة وكأن هذا القرار موجه من امبراطور وثني ضد الكنيسة وجميع الهيئات التابعة لها ، ولكن الواقع أنه كان لهذا القرار مايسوغه ، إذ أن الكنيسة منذ عصر الايقونات قد أصبحت على درجة من الغنى الفاحش لاتوصف ، وغناها كان في الاراضي والعقارات والنقد والتحف والنفائس وغير ذلك من أشكال الثروة مما حولها الى مؤسسة اقطاعية كبيرة تستولي على املاك واموال الرغايا المؤمنين وتسخر كل ذلك لاقامة طبقة من رجال الكهنوت والرهبان المترفين على حساب شعب يعاني اكثره من الفاقة والحرمان ، وقد أورد فوكاس ضمن الأسباب المسوغة لاصدار هذا القرار قوله : إنا نقصد أن نقتلع جذور الطمع الذي يكرهه الرب ولايرضاه .

وكان رد فعل الناس المتدينين في غالبيتهم العظمى عنيفا ضد الامبراطور وقراره الجائر ، وبدا أن الناس لن يعملوا به طويلا . وفعلا قام باسيل الثاني بالغاء هذا القرار وعده قرارا جائرا ومعاديا

للكنائس والمستشفيات والرب ايضـا ، وبسـبب غضـب الرب على الامبراطورية قادها الى حافة الانهيار والدمار .

وبعد وفاة الامبـراطور بـاسيل الثـاني سـنة ١٠٢٥ دخلت الامبراطورية البيزنطية مرحلة جديدة من مـراحل حياتهـا حـافلة بالاضطرابات تميزت بسرعة تبدل الاباطرة وسـير الامبـراطورية سيرا حثيثا في طريق التدهور ، وقد استطاعت الامبراطورة زوية أن ترفع ازواجها الثـلاثة الى السـدة الامبـراطورية كل بـدوره ، وفي سنة ١٠٥٦ حين توفيت الامبراطورة ثيودورا أخـت الامبـراطورة زوية انتهى حكم الاسرة المقدونية وابتدأت فترة مـن الاضـطرابات التي دامت خمسا وعشرين سنة (١٠٥٦ ـ ١٠٨١) وانتهت هـذه الفترة الجديدة بـاعتلاء الامبـراطور الكسـيوس كومنين العـرش الامبراطوري وبذلك ابتدأ عصر حكم أل كومنين ، وتعد الفترة ما بين وفاة زوية واستلام الكسيوس كومنين لعرش الامبراطورية من اهم فترات التاريخ البيزنطي لانه تهيا خلالها الجو الذي أدى في النهـاية الى قيام الحركة الصليبية في الغرب ، كمـا مـارس خـلالها أعداء الامبراطورية في الخارج شـتى انواع الضـغوط عليهـا مـن جميع الجهات : فالنورمان نشطوا في الغرب ، والاقـوام السـلافية كانت تلقي بثقلها على المناطق الشمالية ، وقام السلاجقة التركمان باثارة المتاعب في وجه الامبراطورية في المناطق الشرقية ، وأدى كل هذا الى تناقص رقعة الامبراطورية وخروج بعض المناطق من يدها ، ثـم إلى اذلالها وتدمير جيوشها واسر أمبراطورها في معركة مناز كرد .

وكان من جملة الخصائص المميزة لفترة الاضطرابات هذه ثـورة العناصر العسكرية وطبقة النبـلاء ضـد الحـكومة المركزية ، وقيام صراع شديد بين الطرفين انتهى بنصر الاقاليم على العاصمة ،وقد توج هذا النصر بـاعتلاء الكسـيوس كومنين عرش الامبـراطورية وبداية مرحلة جديدة من مراحل الحكم في الامبراطورية البيزنطية.

كان جميع اباطرة فترة الاضـطرابات مـن اصـل يوناني ففـي سنة ١٠٥٦ اجبر رجال البلاط الامبـراطورة العجـوز ثيودورا أن

تسمي ميخائيل ستراتيوتيكوس ، وهو احد رجالات البلاط خلفا لها ، وقد توفيت ثيودورا عقب تسمية خلفها مباشرة واعتلى العرش بعدها ستراتيوتيكوس باسم ميخائيل السادس ، وقد حكم ميخائيل السادس هذا لمدة عام تقريبا(١٠٥٦ ـ ١٠٥٧) ، وقامت في وجهه حركة معارضة تزعمها جيش مقاطعة اسيا الصغرى الذي سمى قائده اسحاق كومنين امبراطورا ، واسحاق هذا سليل اسرة من ملاكي الارض الكبار ، وقد اشتهر بشجاعته وبسالته في المعارك ضد التركمان ، وكان تعيين اسحاق كومنين أول نصر للحزب العسكري على الحكومة المركزية في فترة الاضطرابات هذه ، واستقال ميخائيل السادس اثر هذه الحركة من منصبه وأمضى بقية حياته كفرد عادي .

ولم يتح لهذا النصر الذي حققه الحزب العسكري أن يعمر طويلا .اذ أن اسحاق كومنين مالبث بعد حكم لم يدم سنتين (١٠٥٧ ـ ١٠٥٩) أن استقال من منصبه وانصرف الى العبادة والتدين ، وقد خلفه قسطنطين العاشر دوكاس فحكم بين سنتي (١.٥٩ ـ ١.٦٧) وكان ماليا من الطراز الأول وتمتع بحس سليم وعدالة واضحة ، وصرف همه بشكل خاص لقضايا الدولة ، ولم يعر قضايا الجيش والشؤون العسكرية بشكل عام اهتماما كبيرا ، ويمكننا ان نعد فترة حكمه بمثابة ردة فعل مدنية على التدخل العسكري الذي استشرى فيما مضى وأوصل اسحاق كومنين الى العرش ، أو كمحاولة لاظهار انتصار العاصمة على المقاطعات ، على أنه كانت هناك ظروفا لاتسوغ الموقف المتعنت الذي وقفه قسطنطين العاشر من الجيش ، وأهم هذه الظروف وجود أخطار خارجية استدعت وجود جيش قوي يستطيع رد الاعتداءات التي هددت حدود الدولة ، وبدا واضحا أن الامبراطورية بحاجة لشخص يستطيع أن ينظم مقاومة عسكرية مسلحة تستطيع الوقوف في وجه خصوم بيزنطة ، وهكذا قام حزب معارض للامبراطور . استطاع أن يفرض ارادته على أرملة قسطنطين بعد وفاته وأن يجبرها على الزواج من القائد الشهير رومانوس ديوجانس واعتلى العرش باسم رومانوس الرابع وحكم بين

سنتي(١٠٦٧ ـ ١٠٧١ م) ويعد وصول رومانوس الى العرش النصر الثاني الذي استطاع الحزب العسكري تحقيقه ، وقد دام حكم هذا القائد الذي وصل الى السدة الامبراطورية مدة أربع سنوات ، وانتهى كما راينا بكارثة كبيرة ، اذ انه وقع في أسر السلطان السلجوقي الب ارسلان ، وقد أدى أسر الامبراطور الى حدوث بلبلة داخلية كبيرة ، وانتهى الراي برجال الدولة الى ضرورة تنصيب امبراطور جديد ، وهكذا انتخب ميخائيل السابع واعتلى العرش الامبراطوري سنة ١٠٧١ م واستمر حكمه حتى سنة ١٠٧٨ م.أما رومانوس الرابع ، فقد عاد من الأسر ليجد أن العرش قد شغل من قبل امبراطور جديد ، وحاول استرداد عرشه واخفق وتعرض لسمل العيون والعذاب الشديد ومالبث ان توفي .

كان ميخائيل السابع مشغوفا بالعلم والمناظرات الفكرية وكتابة الشعر ، ولم يكن له اي ميل للقضايا العسكرية او الحروب ، وباعتباره ابن قسطنطين العاشر دوكاس ، فإنه ورث عن أبيه ميلا واضحا نحو الادارة وكرها شديدا للعسكريين والأمور العسكرية ، مما جعل عرشة مهددا بأخطار خارجية لايستطيع لها ردا ، وبدا واضحا للمرة الثانية أن الامبراطورية بحاجة لامبراطور عسكري يساعده جيش قوي يمنعان عنها المخاطر التي تتهددها ، وتزايد شعور الناس بهذه الحاجة وقامت ثورة في آسيا الصغرى تزعمها نقفور بوتنياتس ، أحد القادة العسكريين في تلك المنطقة ، وقد أعلن بوتنياتس امبراطورا في أسيا الصغرى وزحف على العاصمة حيث خلع الامبراطور واضطره للالتجاء الى أحد الأديرة ولبس التاج الامبراطوري بعد أن سلمه اياه بطريرك القسطنطينية ، وقد استمر حكم الامبراطور الجديد من ١٠٧٨ حتى ١٠٨١ ولكنه كان مسنا ومصابا بعدة امراض مما جعله غير قادر على تحقيق الآمال التي عقدت عليه في دفع الأخطار الداخلية والخارجية ، يضاف الى هذا ان الارستقراطيين وملاكي الأرض في المقاطعات لم يعترفوا به كامبراطور ، وظهر عدة طامعين بالعرش في مقاطعات الامبراطورية المختلفة .

- ١١٨٠ -

وكان من هؤلاء الطامعين في العرش الكسيوس كومنين ، وهو ابن اخ الامبراطور المستقيل اسحاق كومنين ، وقد أظهر الكسيوس مهارة فائقة في الوصول الى هدفه وهو العرش الامبراطوري ، واستطاع ان يستغل الظروف المختلفة ليبرز نفسه كأفضل المرشحين لهذا المنصب ، واخيرا وفي سنة ١٠٨١ تنازل بوتنياتس عن العرش والتجأ الى احد الأديرة ودخل سلك الرهبنة ، فتوج ألكسيوس كومنين وتسلم العرش واضعا بذلك حدا لفترة الاضطراب هذه ، ويعد ارتقاء الامبراطور الجديد نصرا للفئة العسكرية وللمقاطعات على السياسيين والعاصمة معا .

وليس هناك شك في أن الأعوام الطوال من الصراع على العرش قد جعلت بيزنطة في حال من الضعف الشديد وقللت من مكانتها في ميدان السياسة العالمية في عالم العصور الوسطى ، وقد زاد في تدهور الامبراطورية وتدني مركزها الأوضاع الخارجية التي كانت تجابهها ولاسيما في الجبهة الشرقية حيث كان السلاجقة التركمان يصوبون سهامهم الى قلبها .

الباب الثاني

طورا وقائع الحروب الصليبية

الفصل الأول

الطور الأول من تاريخ الحروب الصليبية
(الاحتلال)

اهتمت غالبية الأبحاث الحديثة حول وقائع الحروب الصليبية بأسباب هذه الحروب خاصة من الجانب الأوربي ، وتأثر كل بحث بأحوال البلد الذي صدر فيه وبالتيارات الفكرية لأيامه وبمدرسة التفسير التاريخي التي إليها انتمى صاحب البحث ، وكذلك بالانتماء السياسي والكنسي ، حيث هناك أبحاث كثيرة مثلت وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية ، وهناك ما مثل وجهة نظر الكنيسة الاورثوذكسية البيزنطية ، وطبعا لايمكن الحديث عن ابحاث واسعة الانتشار تمثل وجهة نظر العرب والمسلمين ، وكتابنا هذا احدى المحاولات لعرض ما أسميه وجهة نظر عربية اسلامية .

لقد حاولت جل الدراسات الأوربية التقليل من العامل الديني وفعاليته والحث على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ووقفت مطولا عند نظام الاقطاع وتأثيراته ، وفي الحقيقة تشكل محاولات التقليل من العامل الديني نوعا من أنواع خداع الذات ، وسنرى في الجزء المقبل من موسوعتنا هذه مدى عمق وفعالية العامل الديني ، فمن غير المعقول أن تتخلى جموع من سكان أوربا تزيد على المليون مابين رجل وامرأة وشيخ وطفل عن حياتها ومواطنها وتأخذ الطريق الطويل الشاق نحو بلاد الشام لولا عمق المشاعر الدينية لدى هؤلاء الناس ، فالذي حرض هؤلاء وقادهم رجال الدين .

هذا ومواريث أوربا بشطريها الشرقي والغربي في شن حروب صليبية راسخة وواسعة ، فلقد عرضنا من قبل للحروب الصليبية التي شنها شارلمان ضد السكسون فضلا عن حروبه ضد مسلمي

الاندلس ، كما اتينا على الاشارة إلى صليبية القرن العاشر التي شنتها الامبراطورية البيزنطية ضد المسلمين في بلاد الشام وكريت ، يضاف إلى هذا إن الصراعات التي شهدتها ساحات اوربا الغربية مع الحروب بين البابوية والامبراطورية اخذت صبغة صليبية واضحة ، فلقد تسلحت البابوية بسلاح الدين واستخدمته ضد الاباطرة ليس لاثارة الأنصار فحسب بل بفرض عقوبات الحرمان والطرد من الكنيسة ضد الأباطرة ، فالبابوية كان بامكانها منح صكوك الغفران واصدار قرارات الحرمان ، والكنيسة هي التي فرضت هدنة الرب على امراء الاقطاع في أوربا ، ومن ثم وجهت طاقات هؤلاء الحربية لأعمال خارجية ، والكنيسة الكاثوليكية هي التي تبنت مابشر به اثناسيوس ثم عبادة الايقونات ومن تم اوجدت عقيدة الحج في المسيحية وروجت لها وابدعت طقوسها.

ونشطت حركة الحج نحو فلسطين في القرن الحادي عشر كثيرا ، كل ذلك برغم المعوقات الشديدة على الطريق الاوربية وفي بيزنطة ، واحيانا في ديار المسلمين ، وقبل هذا القرن نادرا ما اتت المصادر الإسلامية على ذكر قدوم حجاج غربيين ، لكنها فعلت ذلك في اخبار هذا القرن ، فقد جاء عند العظيمي في حوادث سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م :« ومنع أهل السواحل حجاج الفرنج الروم العبور إلى بيت المقدس ، وانتشر الخبر ممن سلم منهم إلى بلادهم بذلك ، فتأهبوا للغزاة ، واتصلت الاخبار الى السواحل وبلاد المسلمين كلها (١)»

ولا شك أن هذا الخبر يقدم اساسا جيدا لحكاية بطرس الناسك ، وقدومه حاجا الى فلسطين ثم نشاطه الدعوي في أوربا للحروب الصليبية ، وكان الحج يخضع لطقوس اوجبت على من رغب بالتوجه الى فلسطين أن يحصل على اذن من أسقف منطقته ، فيتناول منه عصا الحج ومزودا ، وكانت العصا طويلة ، في وسطها عقدة وكذلك في اعلاها ليربط عليها شارة الصليب ، اما المزود فكان يعلق برباط ، وكان الحاج يزود بكتب توصية إلى الأديرة المسيحية التي

سيمر بها ، وكان أهل القرية يخرجون وهم يرتلون الأناشيد الدينية لتوديع الحجاج ، وفي كثير من الأحيان ، كان الحاج يبدأ رحلته حافي القدمين ، يستوي في ذلك الغني والفقير ، وكان بعض الحجاج ينحدر إلى روما لياخذ عصاه مع التبريكات من البابا نفسه ، ثم يركب البحر حتى القسطنطينية وبعدها يسافر برا عبر أسية الصغرى ، وفيما بعد اعتاد الحجاج على ركوب الطرق البرية حتى القسطنطينية ومن ثم نحو القدس (٢)، وهذا ما فعله الذين شاركوا في الحملات الصليبية ، لتوفر المعرفة بالطرق وطبيعتها ولقلة النفقات .

جميع القرائن تؤكد أن نفوس شعوب أوربا الغربية خاصة في فرنسا وايطاليا كانت مشبعة بالتمسك بالمسيحية والخضوع للبابوية ، وعلى الرغم من طبيعة المسيحية المسالمة بالأصل ، استطاعت البابوية تسويغ استخدام العنف ، وحين ألقى البابا أوربان الثاني خطابه في مجمع كليرمونت يوم ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ م فجر كوامن النفوس فصرخ الجميع « إنها ارادة الرب » وحملوا شارات الصليب وأخذوا يعدون العدة للانطلاق نحو المشرق .

ولقد رويت كلمة البابا أوربان الثاني في اكثر من مصدر وفيما يلي فقرات رئيسة مما قاله حسب أحدى الروايات :

أيها الأخوة الأحباء :

إنه في ظل الظروف الملحة ، قدمت أنا أوربان ، المتوج بمشيئة الرب بتاج التثليث ، الحبر الأعظم للعالم أجمع ، إليكم ياعباد الرب ، بمثابة رسول لأنبئكم بالأوامر الربانية ....عليكم وبكل سرعة أن تأخذوا المساعدات إلى اخوانكم في المشرق ، التي طالما وعدتموهم بها ، إنهم بحاجة ملحة إليها ، إن العرب والتركمان قد حاربوهم ، وتوغلوا في الأراضي الرومانية (البيزنطية) عميقا حتى البوسفور ، وهم يتوغلون الآن أعمق من ذي قبل في أراضي هؤلاء المسيحيين ، لقد أبادوهم سبع مرات في المعركة ، فقتلوا منهم من

قتلوا ، واخـذوا عددا كبيرا مـن الاسرى ، ودمـروا الكنائس ، واجتـاحوا أراضي المملكة ، وإذا لم تتصدوا لهـم الآن ، فإنهـم سيمدون سلطانهم أعمق وسينشرونه فوق العبيد المخلصين للرب .

لهذا السبب اتوجه إليكم بـالرجاء والتحـريض ـ وإنه ليس انا الذي اتـوجه إليكم ويحـرضكم ، بـل الرب على لسـاني انا نائب المسيح ـ أتوجه إلى الفقير منكم والغني وأسـألكم أن تتسـارعوا نحو طرد أبناء الشر هؤلاء من المناطق المقطونة من قبـل اخـواننا ، وأن تقدموا المساعدة في وقتها المناسـب إلى عبـاد المسـيح ، إنني اخـاطب جميع هؤلاء الحضـور ، واعلن الشيء نفسـه إلى جميع الغياب ، لكن اعلموا أن المسيح هو الذي يخاطبكم ويصدر الأوامـر.

إن جميع الذين يذهبون ويفقدون حياتهم في البر أو البحـر اثناء الرحلة أو خلال المعركة ضد الكفار ، سيتم غفران ذنوبهم بـالحال ، وإنني امنح هذا من خلال السلطة المضفاة علي من قبل الرب .

إنه يتـوجب على هؤلاء الذين اعتـادوا ـ حتـى الان ـ على الاقتتال ، مقترفين للاثـم ، منغمسـين في صراع ضـد المؤمنين أن يتوجهوا للكفاح ضد الكفار ، وأن يحققوا النصر عليهم في حرب كان من المتوجب مباشرتها منذ أمد طويل ....

إنهضوا وأديروا أسلحتكم التـي تسـتعملونها ضـد اخـوانكم ووجهوها ضد أعدائكم ، أعداء المسـيحية ، إنكم تـظلمون الأيتـام والأرامل ، وأنتم تتورطون في القتل والاغتصاب ، وتنهبون الشـعب في الطرق العامة ، وتقبلون الرشـاوى لقتـل اخـوانكم المسـيحيين وتريقون دماءهم ، دونما خوف أو وجل أو خجـل ، فـأنتم كالطيور الجوارح ، اكلة الجيف التـي تنجـذب لرائحـة الجيف الانسـانية النتنة ، ضحايا جشـعكم ، انهضـوا اذن ولاتقـاتلوا اخـوانكم المسيحيين بل قاتلوا اعداءكم الذين استولوا على مـدينة القـدس ، حاربوا تحت راية المسيح قائدكم الوحيد ، افتـدوا انفسـكم أنتـم المذنبين المقترفين احط أنواع الآثام .....

يجب على هؤلاء الذين كانوا مرتزقة ، يقـاتلون في سـبيل الاثـم

والعدوان ، أن يجندوا انفسهم الان لغيل ثواب وأجر فيه تعويض مضاعف ، وبعد ماذا يمكن أن اقول أكثر من هذا ؟

اقول : سيقف الفقراء والتعساء اولا على طرف ، وسيقف الاغنياء حقا على أخر ، هناك وقف أعداء الرب ، وهنا وقف أعوانه

أوقفوا انفسكم وانتدبوها إلى الحرب المقدسة دونما تأخير ، وليقم المقاتلون منكم بتنظيم أعمالهم ، وجمع كل ما يحتاجونه للحملة ، وعندما ينقشع الشتاء ويحل الربيع عليهم أن ينطلقوا بقلوب عامرة بالايمان ، وليأخذوا الطريق تحت اشراف الرب وقيادته ».

ولم يبدع البابا اوربان الثاني هذه الدعوة بل ورثها عمن سبقه من بابوات خاصة رجال القرن الحادي عشر للميلاد ، ففي هذا القرن كثر الطامحون للوصول إلى عرش البابوية في اللاتيران ، وكان ممن نجح في ذلك افراد أسرة يهودية رومانية اسمها « البيرليوني » ، وقدمت هذه الأسرة أكثر من بابا كان اخرهم البابا أوربان الثاني ، واوربان الثاني وإن لم يكن « بيرليوني » النسب ، الا أنه كان خريج مدرسة هذه الاسرة ، وأشهر بابوات هذه الاسرة البابا غريغوري السابع ، فهو بالواقع من خطط لحملة صليبية تتجه نحو المشرق ، فهو قد عاصر معركة الزلاقة ، وتراسل مع ابن علناس صاحب قلعة بني حماد، وحرضه ضد يوسف بن تاشفين ، كما رأينا في الجزء المتقدم ، وكان البابا غريغوري قد دخل في صراع شديد مع الامبراطور الجرماني هنري الرابع ، فأصدر هذا الامبراطور في ٢٤ كانون الثاني لعام ١٠٧٦ م قرارا بعزل البابا من منصبه وعين بدلا عنه بابا مكنه بقوة السلاح من دخول اللاتيران ، وعلى الرغم من جميع ما بذله البابا غريغوري السابع من جهود فإنه مات منفيا سنة ١٠٨٥ ، فاختار الكرادلة فكتور الثالث بابا خليفة له وكان عجوزا توفي سنة ١٠٨٧ م فجرى اختيار أوربان الثاني ، ولم يستطع أوربان الثاني دخول روما لوجود بابا امبراطوري فيها محتل لها اسمه كليمنت الثالث (٣)، لذلك عاش

هذا البابا متنقلا مابين ايطاليا وفرنسا ، ومن فـرنسا أطلق الدعوة الى الحروب الصليبية ، ومن هذا الباب راى بعضهم في دعوة أوربان الثاني في مجمع كليرمونت محاولة ذات عدة غايات :

أ- امتلاك قوة جماهيرية واقطاعية في فرنسا خاصة واستخدامها في الصراع ضد الامبراطورية ولتمكنه من العودة الى روما بابا معتـرفا به من قبل الجميع ومنتصرا بالوقت نفسه.

ب ـ في اندفاع أعداد هائلة من الاوربيين الغـربيين نحـو الأراضي البيزنطية فرصة لفرض هيمنة رومـا على جميع الكنائس ، او كمـا قيل إعادة توحيد الكنيسـتين الشرقية والغـربية ، وطبعـا هـذا لم يتحقق حتى بعد سيطرة الصليبين على القسطنطينية فيمـا يسـمى بالحملة الرابعة كما سنرى .

ج ـ تنفيذ غايات اعلان الحرب ضد المسلمين والقضاء على الاسلام وسكان الشام وتحويل هذه البلاد إلى وطن لاتيني فيما وراء البحار

وسلف التعرف إلى أوضاع بلاد الشام والوطن العربي في القـرن الحادي عشر ولاحاجة للاعادة هنا ، كما انني لا أجد ضرورة لعرض تفاصيل وقائع ما حدث بعد عقد مجمع كليرمونت ، فهذه التفـاصيل وافية جدا في نصوصنا المنشورة على اختلاف أصولها ومشـاربها ، والغاية مما نكتبه الان تقديم بعض المفاتيح التي تسـاعد على فهـم النصوص ، ويكفي أن نتذكر الان ، أنه بعد وفاة السلطان ملكشـاه تمزقت الدولة السلجوقية ، ولم تعد دولة مركزية لسلطانها سـيطرة على جميع المعترفين بشرعيته ، واسوا من هذا كان وضـع خلفـاء بغداد ، ولما كانت شعوب الغز عبارة عن عشائر وقبائل بدوية ، كره افراها الوحدة ومجوها والفوا الفرقة واحبوها ، وارتضـوا بعـدم الاستقرار ، لذلك استمرت الصراعات الداخلية والحروب .

وهكذا بعدما انساح التركمان في بلاد الشـام اسـتطاعوا خـلال اكثر من ثلث قرن من الزمان تدمير بلاد الشام تدميرا مـريعا قلمـا

عرفت له مثيلا في تاريخها المديد ، وعندما اشرف القرن الحادي عشر على النهاية كانت بلاد الشام في حالة من الانهاك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لانظير له ، وكانت البلاد ممزقة سياسيا :

الحكام جلهم من التركمان الغرباء بالمولد والنشاة لاارتباط لهم بحضارة بلاد الشام ولغتها وتقاليدها ومعتقدات أهلها ، هم هؤلاء الحكام السلطة والمزيد من الارباح الخاصة والمال فقط دونما رادع أو اعتبار ، وكان من محصلات أعمالهم بالاضافة لما ذكر ، تحطيم قوة القبائل العربية في البلاد مع قوة أهل المدن والمنظمات الشعبية .

وفي ذروة حالة الدمار هذه والعنف والعذاب وصلت انطاكية في مشارف الشام حشود فرنجة أوربا ، قدرت أعدادها بما يفوق المليون مابين رجل وشيخ وطفل وامراة ، وقيل بأن القوة المقاتلة لهذه الحشود كانت لاتقل عن مئة الف ما بين فارس وراجل وتابع .

وكان الهدف المعلن لهذه الحشود ـ كما راينا ـ الوصول الى القدس لقضاء واجب الحج ، وتخليص الاراضي المقدسة من المسلمين والعرب ، وتحويلها الى جزء من أوربا الكاثوليكية فيما وراء البحار.

ووصلت جموع الفرنجة الى انطاكية واخذت في حصارها ، وكان الحصار شديدا امتد فترة طويلة ، اخفق خلالها حكام الشام والجزيرة من التركمان في توحيد جهودهم ، وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم ، وكانت الفرص مناسبة ومساعدة ، واخيرا سقطت انطاكية بسبب خيانة أحد كبار ضباط عساكر يغي سغان ، حيث مكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان امر الدفاع موكل إليه ، وعندما دخل الصليبيون أنطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨ م ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين ،وفر يغي سغان حاكمها وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعا من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به ،ولم يكن سقوط مدينة انطاكية يعني ضياع كل الفرص ، فقد بقيت قلعة المدينة في ايدي المسلمين ،وأخيرا تجمعت قوة تركمانية من الشام والجزيرة

ووصلت الى انطاكية ، واخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة، وقاد كربوقا صاحب الموصل الحصار ،وكان من الممكن ايقاع البلاء بالصليبيين لوقوعهم بين نارين، نار حامية القلعة ونار التركمان من خارج الاسوار ، لكن أنانية قادة التركمان وطغيان كربوقا واستبداده برأيه جلب الاخفاق والهزيمة ووصف صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، الحالة أثناء الحصار بقوله :« أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملوا هذه المتاعب نظرا لأنه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز ، ولابشرب الماء لمن معه الماء ، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطا من الجير والكلس ، وشيدوا حصنا جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمأنينتنا ، كما أقام فريق من الأتراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد عسكر في واد قريب من القلعة ... أما حامية القلعة فقد دابت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهارا ، تاركة اياهم ما بين جريح وقتيل بسهامها ، اما بقية الترك فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها او الدخول اليها الا ليلا او خفاءا ، وبذلك كنا نعاني من الحصار ونكابد الضيق على أيدي أولئك الأعداء الذين كانوا في العدد الكثيف» .

وفي ذروة المحنة هذه ادعى أحد الفرنجة واسمه بطرس أن القديس اندراوس قد تراءى له ، وقال له :« إنني الحواري اندراوس اسمع يابني : عرج ... على كنيسة القديس بطرس ــ القسيان ــ وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح التي طعن بها حين رفع على خشبة الصليب »، وبعد تردد باح بطرس بأمر رؤياه هذه لزعماء الفرنجة واتباعهم ، وكان بطرس كما يقول ابن الأثير « داهية من الرجال ، فقال لهم : إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان في انطاكية ، وهو بناء عظيم ، فان وجدتموها فإنكم تظفرون ، وان لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن من قبل ذلك حربة في مكان فيه ، وعفا اثرها ، وأمرهم

بالصوم والتوبة ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الى الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم ، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم : أبشروا بالظفر ، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك ، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج ، فان أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال: لاتفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، ولم يمكن من معا جلتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء اليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية أحد منهم ضربوا مصافا عظيما فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والاعراض عنهم ، وثانيا من منعهم قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة بهم ولم يضرب أحد منهم بسيف ، ولاطعن برمح ، ولارمي بسهم».

في رواية ابن الأثير أن الهزيمة قد تمت على المسلمين «ولم يضرب أحد منهم بسيف ، ولاطعن برمح ، ولارمي بسهم» مبالغة وتجاوز للحقيقة ذلك ان صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، يذكر خلاف ذلك ، فهو يقول :« بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام ، ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في شتى الكنائس ، أخذوا في الاعتراف بخطاياهم ، فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات ، وأقاموا القداسات .

ثم شكلت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة ، أما الفرقة الأولى التي تقدمت سواها فكان بها هيج العظيم وبصحبته الفرنسيون وكونت فلاندرز .

وفي الثانية دوق غودفري ورجاله وفي الثالثة روبرت النرمندي مع فرسانه وكانت الفرقة الرابعة بقيادة أسقف بوي الذي حمل معه حربة المخلص ، وكان معه رجاله وأتباع ريموند الصنجيلي الذي تخلف لحراسة الحصن خوفا من هجوم الترك عليه ، ومنعا لهم من

- ١١٩٠ -

النزول الى المدينة ، وكان في الفريق الخامس تنكريد ـ ابن المركيز ـ بصحبة رجاله ، وفي الكتيبة السادسة بوهيموند الفطن مع فرسانه

ولما تدثر اساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان ، ممجدين السيد ومبتهلين اليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر ، بينما اعتلى اخرون الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسموا علينا علامة الصليب وباركونا ، ولما تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوقا ما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي خارجة واحدة إثر أخرى قال : دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في أيدينا الا انه ما كاد يرى جيوش الفرنجة اللجبة تغادر الأبواب حتى استبد به الذعر ، وسرعان ماأمر قائده الموكل بالحراسة العامة ان يعلن الارتداد اذاشاهد النار تتأجج في مقدمة الجيش ، اذا تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفي الحال شرع كربوقا في الارتداد على مهل شطر الجبل ، ورجالنا في إثره بالخطى نفسها ، ثم انشطر الترك شطرين : اتجه احدهما ناحية البحر ، بينما اقام رجال الفريق الاخر في مكانهم مؤملين أن يحصرونا ، فلما شعر رجالنا بما يبيته العدو لهم فعلوا مثله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق غودفري وكونت نرمندي ، والقوا قيادتها الى رينالد ، وبعثوها لصد الأتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا ، وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغله مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب في التقدم من الناحيتين واحدقت برجالنا تنضحهم برماحها وترميهم بأقواسها ، ولما رأى الترك المقيمون على

جانب البحر أنه لم تعد لهم قدرة على المقاومة أضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون في خيمهم فيلوذوا بالفرار ، فلما تبين لهؤلاء الاشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم وكان تقدمهم شطر معسكره ، وذرع الدوق غودفري وهيج العظيم وكونت فلاندرز الى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتدرعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رات البقية ذلك طاردتهم هي الأخرى فتعالى صياح الترك والفرس ، أما نحن فقد مجدنا الاله الحي الصادق ، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا واياهم في القتال ، وتغلبنا عليهم بمعونة الرب .

استولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين ، ومضى رجالنا في اثارهم حتى خيامهم ، واثر فرسان المسيح أن يقصوهم ، ورأوا أن اقصاءهم اجدى من الاستيلاء على الغنيمة ، وظلوا في أعقابهم حتى جسر العاصي ... فخلى العدو ورائه خيمه وذهبه وفضته وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والحمير والحنطة والنبيذ والطحين ، وغير ذلك مما كان يلزمنا» .

وسقطت عقب هذه الهزيمة قلعة انطاكية في ٢٨ تموز ١٠٩٨ م ، وأخذ الصليبيون يعدون انفسهم لمتابعة الزحف جنوبا ، وكان قبل أن تسقط انطاكية ، وحتى قبل ان يصل الصليبيون اليها ان انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين اخو غودفري ـ الذي سيكون أول ملك لملكة القدس اللاتينية ـ وتوجهت من مرعش شرقا ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية ، واخيرا وصلت الى الرها فاحتلتها ، واتخذت منها قاعدة لاحدى امارات الصليبيين في المشرق ، وكان من اسباب نجاح هذه الفئة ومن أسباب النجاح عند انطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا أما سريانا يشعرون بالغربة أو من أصل أرمني (٤) ، يضاف الى هذا ان

سيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية ، مكروهة وليس لها قواعد متينة ، ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد الفرنجة كان على طريقة البدو وفق قاعدة الكر والفر ، ثم ان الأرض لم تكن « بعد » أرضا تركمانية ، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم ، وربما وجد شئ يسير من الشعور الديني ، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان .

وزحفت معظم جموع الفرنجة جنوبا ، وذلك بعد أن جعلوا انطاكية مركزا لامارة صليبية ثانية في المشرق ، واستطاعوا أثناء زحفهم هذا أن ينتزعوا من دولة حلب الكثير من اراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية ، فلقد استولوا على البارة، وأخذوا يجردون حلب من اراضيها واملاكها حتى وصلوا الى اسوار المدينة ، ثم اتوا على معرة النعمان ، ويحدثنا صاحب أعمال الفرنجة وهو شاهد عيان عن حصار المعرة فيذكر أن جيوش الصليبين:« تجمعت أمام أسوارها في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٠٩٨ ، وحاصرتها وحملت عليها حملة عنيفة من جميع نواحيها واستبسلوا استبسالا عظيما شديدا مكنهم من تثبيت السلالم على الاسوار غير أن قوة « الكفار » كانت أشد فلم يستطع رجالنا أن يصيبوهم بأدنى أذى.

لما رأى سادتنا الا جدوى من ذلك العمل وأنهم لايجنون ثمرة ما ، قام ريموند كونت صنجيل وشيد حصنا خشبيا باسقا منيعا ، يدور على دوليب أربعة ، وجهزه بما يحتاج اليه ، فكان يوجد في الطابق الأعلى كثير من الفرسان مع افرار الصياد الذي كان أشد من يقرع الطبول ، ومن تحتهم الفرسان المدرعون الذين يدفعون الحصن الى قرب الأسوار ليلاصق أحد الأبراج ، فلما شاهد الكفار هذا العمل بادروا الى الة أخذت تقذف الحصن بالحجارة الضخمة ، وكادوا ان يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يرمون الحصن بالنار الاغريقية عساه أن يحترق ويتهدم ، الا أن الرب

القوي لم يشأ أن يحترق الحصن هذه المرة ، لأنه كان أعلى من كل أسوار المدينة .

أما فرساننا الموجودون بالطابق الأعلى - وفيهم وليم مونت بليه وكثيرون غيره - فقد مضوا يقذفون المدافعين عن السور بالأحجار الضخمة ، كما شرعوا يضربون بشدة على مجانيقهم ، فكان الرجل وفرسه يسقطان في داخل المدينة ويصاب بضربة قاتلة ، وبينما كان هؤلاء يتحاربون كان هناك أخرون يستعملون رماحا عقدوا بها الرايات ، واستطاعوا بواسطة رماحهم وشصوصهم الحديدية تصيد الأعداء ، وظل القتال مستمرا حتى المساء .

كان يوجد خلف الحصن جماعة القسس والشمامسة في مسوحهم المقدسة ، وهم يصلون للرب ويبتهلون اليه ان يرفع المعرة عن شعبة ، وان يعلي كلمة المسيحية ويلاشي الوثنية ، وكان هناك في ناحية أخرى فرساننا ، وهم في حرب دائمة مع العدو ، ينصبون السلالم على سور المدينة ، غير أن مقاومة (الوثنيين) كانت من الشدة بالدرجة التي أعاقت رجالنا عن اي تقدم ، ومع ذلك فقد كان جوتييه دي لاستور أول من اعتلى السور بواسطة السلم الذي سرعان ماتحطم تحت ثقل رفاقه الكثيرين ، الا انه كان قد تمكن من اعتلاء السور مع جماعة منهم ، كما وجد فريق غيرهم سلما أخر ، وسرعان ماثبتوه على السور ، وبادر فارتقاه كثير من الفرسان والمشاة وتسلقوا الحائط ، غير أن المسلمين هاجموهم هجوما عنيفا على السور وعلى الأرض ، واشرعوا نحوهم الأسنة ، واخذوا يضربونهم عن قرب برماحهم ، فاستولى الذعر على كثير من رجالنا ، فالقوا بأنفسهم من فوق السور.

وفي الوقت الذي كان فيه أولئك الرجال الشجعان واقفين على حافة السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الآخرون الذين عند سفح الحصن يعملون على نقب سور البلد ، فلما رأى المسلمون ان رجالنا قد نقبوا حائطهم استولى عليهم الرعب وفروا هاربين الى داخل المدينة ، وقد تم ذلك كله يوم السبت ١١ كانون اول وقت صلاة

الستار عند غروب الشمس ، وإذ ذاك أمر بوهيموند على لسان مترجمه ـ زعماء المسلمين بالالتجاء ـ هم ونساؤهم وأطفالهم ومتاعهم ـ الى قصر واقع جنوب الحصن ، وأخذ على نفسه عهدا أمنهم به على حياتهم .

بعدئذ دخل رجالنا جميعا الى المدينة ، واستحوذ كل منهم لنفسه على كل قيم ثمين مما وجدوه في المنازل والمخابىء ، فلما طلع الصباح اخذوا يقتلون كل من يعثرون عليه من اعدائهم رجلا كان أم امرأة ، حتى لم تعد ثم ناحية ما من المدينة خالية من جثث المسلمين ، وندر أن يجوب المرء شوارع البلده دون أن يطأ تلك الجثث ، وقبض بوهيموند على من أمرهم بالدخول الى القصر الذي عينه لهم وسلبهم كل ما كانوا يملكونه من الذهب والفضة وسواهما من الحلي ، وقتل بعضهم وساق الباقين الى انطاكية ليباعوا بها .
بقي الفرنجة في هذه المدينة مدة شهر وأربعة أيام ، وفي أثناء ذلك مات(وليم)أسقف أورنج .

وكان بين رجالنا فريق لم يجد هناك ما يحتاجه ، وذلك لطول مكثه ولصعوبة التموين ، ولأنه لم يستطع أن يجد خارج المدينة شيئا يستولي عليه ، وإذ ذاك أخذ رجاله يبقرون بطون القتلى لما علموه من أن بعضهم كان قد ابتلع النقود ، ومضى غيرهم يقطعون لحومهم قطعا قطعا ويطهونها ليقتاتوا بها ».

وبعد احتلال المعرة نشب خلاف بين أمراء الصليبيين ، فقد أراد بعضهم الاستقرار في المعرة لاقامة امارة جديدة ، وعارض أصحاب انطاكية الجدد ذلك ، حتى كانت الحرب تنشب بين صفوف الغزاة ، وهنا ثارت جماهير الفقراء (الطفور)(٥) من الصليبيين ، واندفعت تقتل كل من بقي من المسلمين في المعرة ، ثم توجهت نحو أسوار المعرة وتحصيناتها فدمرتها كليا ، وهكذا اضطر الصليبيون الى مغادرة المعرة والزحف جنوبا ، يقتلون ويحرقون ويدمرون حتى وصلوا الى القدس، وكانت تابعة للحكم الفاطمي في مصر ، فحاصروها حصارا شديدا ، وقاومت

المدينة ، وانتظرت ورود النجدات اليها من القاهرة ، لكن عبثاً كان هذا الأمل ، وأثناء الحصار وصل الى يافا عدد من السفن الايطالية حاملة العتاد والأخشاب والأغذية للفرنجة ، وقام الصليبيون ببناء عدة ابراج حصار تمكنوا بوساطتها من الاستيلاء على القدس في ١٦ تموز ١٠٩٩ ، ونترك هنا وصف ما حل بالقدس لصاحب كتاب أعمال الفرنجة ، وقد شارك بالأحداث فها هو ذا يقول :

« تقدم واحد من فرساننا واسمه « ليتو » واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار الى داخلها ، فتعقبهم رجالنا واخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى ...ولما ولج حجاجنا جدوا في قتل المسلمين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين اعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى فاض المعبد كله بدمائهم ... وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال ، كما اخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات .

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه ، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على المسلمين رجالا ونساء ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل ... وصدر الأمر ... بطرح كافة موتى المسلمين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ولأن المدينة كانت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم ، فقام المسلمون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس ، وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالت اكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا ، وما تأتى لأحد قط أن سمع او راى مذبحة كهذه المذبحة التي الت بالشعب ، المسلم ».

وصفت القدس للغزاة الجدد فأقاموا فيها ثالث دولهم في الشرق وأعظمها مكانة ، ثم اخذوا يوسعون رقعة أملاكهم في

فلسطين ، وبعد عدة سنوات احتلوا مدينة طرابلس واقاموا فيها دويلتهم الرابعة في الشام .

لقد نزلت الآن بالشام ضربة مروعة ، وأصاب العرب خزي لم يعرفوا مثله منذ قيام الاسلام ، لكن هذا كله لم يعد الرشد الى حكام دويلات الشام التركمان فاستمروا في صراعاتهم الداخلية ، واحتدم الصراع من جديد بين دمشق وحلب ، واضطر الطرفان لمهادنة الصليبيين ليتفرغا لصراعاتهم الداخلية ، وأخذ الناس في الشام يتململون مما حصل وبدأ التململ يتحول الى أعمال ناقدة ومعارضة لتصرفات الحكام ، وأول ما انفجر الوضع في مدينة حلب .

وسلفت الاشارة الى الوضع السياسي في بلاد الشام في القرن الحادي عشر ، ونذكر هنا ثانية أنه عندما دخل الفرنجة هذه البلاد كانت أبرز دولها دولتان : واحدة في حلب والأخرى في دمشق ، وكان حاكما هاتين الدولتين أخوين ، هما :دقاق بن تتش ورضوان بن تتش ، وقد مثلا جيلا خاصا من أجيال السلاجقة ، فقد أوقفا نفسيهما مع قواتهما للصراع الداخلي والحروب الأهلية ، واهتبل الفرنجة هذه الفرصة ، فوسعوا أملاكهم ، وجردوا حلبا من جميع اراضيها الشمالية والغربية ، ولم يبق لها بعد هذا الا بعض اراضيها الجنوبية والشرقية ، وقد استهدف الفرنجة التضييق على حلب واحتلالها لملىء الثغرة ما بين انطاكية والرها ، ثم الاطباق على الشام كله .

وضاق الأمر بأهل حلب ، فتحركوا ، وارادوا أول ما أرادوا التخلص من حكامهم الأجانب عنهم مصلحة وشعورا ومسؤولية ، وابتغوا إقامة حكم « وطني شعبي » يستطيع التصدي للفرنجة ، والقيام بأعمال التحرير ، واندلعت الشرارة الأولى من مدينة حلب حين قام مقدم أحداث حلب ـ الميليشيا المحلية ـ ورئيس المدينة بالثورة على رضوان بن تتش ، حاكم المدينة التركماني ، وكان هذا الثائر يعرف بالمجن الفوعي بركات بن فارس ، وكان في الأصل فلاحا من قرية الفوعة القريبة من

حلب ، وكان شهما ذا كفاءات عالية ، وقد تمكن بسبب ذلك من تولي رئاسة مدينة حلب ، ومقدمية الأحداث فيها .

وبعدما أعلن ثورته أيده أهل حلب وساعدوه ، فسيطر على مدينة حلب وحصر رضوان بن تتش في القلعـــة ، وكاد أن يســقطه لولا أن استطاع رضوان شراء ضمائر بعض أثرياء المدينة ، فخذلوا الناس عن المجن ، وثبطوهم عن نصرته ، وحدث انشقاق بين افراد منظمة الأحداث ، وكان أساس هذا الانشقاق مذهبيا طائفيا ، وادى هـذا الى اخفاق الثـورة والقـاء القبض على المجـن الفـوعي ، وأودع رضوان المجن السجن ، وهناك كما روى شاهد عيان :« عذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله ، فمما عذبه به انه أحمى الطست حتى صار كالنار ، ووضعه على رأسه ، ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقب كعابه ولما ضرب النجار المثقب على كعبـه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقـب ، فلطمـه المجـن وقـال: ويلك لا تعرف ، احضر خشبة وضعها على الكعب ، فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب.
فلما فرغ قيل له :كيف تجد طعم الحديد ؟ قال : قولوا للحديد : كيف يجد طعمي ، ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحـد ، ولم يحصـل للملك ـ رضوان ـ من ماله إلا ما اقر به غلام أو جارية ، وذلك شيء يسير ، ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله ، فـأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ، ومعه ابنان له شـابان ، مقتبـلا الشباب ، فقتلا قبله وهو ينظر إليهما ولا يتكلم ، ثم قتل بعد ذلك ».

وأدت هذه الانتكاسة إلى رضوخ الشعب في حلب ، وسـكوته على مضض حتى عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م ، فـاندلعت الثـورة ثـانية في المدينة ، وأدرك الحلبيون انهم لن يستطيعوا اسقاط رضوان ، لذلك شكلوا وفدا من بينهم غادر المدينة سرا وذهب إلى بغداد ، وفي بغداد لم تول سلطات الخلافة والسلطنة الوفـد عنايتهـا ، ولم تصـغ إلى مطاليبه ، وامام هذا التجاهل حرك رجـال الوفـد اهـالي بغـداد ، واستغاثوا بهم أيام الجمع ، كما منعوا الخطباء من القـاء خـطبهم

يوم الجمع وكسروا بعض المنابر، وهاج الناس في بغـداد ، فـاخاف ذلك السلطات فيها ، فقام السلطان محمد بن ملكشاة بتجهيز جيش كبير عهد بقيادته لمودود حاكم الموصل انئذ ، وتحركت هذه القـوات نحو بلاد الشام ، وعندما وصلت إلى حلب ، اغلق رضوان بـن تتش أبواب حلب في وجهها ، واعتقل زعماء شعب المدينة وأودعهم رهائن عنده في القلعة ، لئلا يفتح الشعب الابـواب ، ويسـلموها للقـوات القادمة من المشرق ، « وبقيت أبواب حلب مغلقة سـبع عشرة ليلة ، واقام الناس ثلاث ليال لايجدون ما يقتـاتونه ، وكثـر اللصـوص ، وخاف الأعيان على انفسهم ، وساء تدبير الملك رضـوان ، فـأطلق العوام السنتهم بسبه وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فـاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد وترك الركوب بينهم وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر ـ أي عساكر مودود ـ وامام هـذا الحال المؤلم ، اضطر مودود إلى الرحيل نحو دمشق ، واثناء زحفـه اصطدم بقوة صليبية قرب شيزر فهزمها ، فرفع ذلك مـن معنوياتـه وشد من عزيمته ، وتابع سيره إلى دمشق حيث دخلها وتحالف مـع طغتكين اتابكها ، والذي اصبح سيدها الفعلي بعد وفاة دقـاق بـن تتش (٦) . لكن عندما بدأ هذا التحـالف يؤتـي بعض ثمـاره اغتيل مودود في مسجد دمشق في سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م ، وكان مغتاله من فئة الحشيشية الاسماعليلة ، ويبدو أنه كان لرضـوان يد طـولى في الاعداد لهذا الاغتيال وكذلك لطغتكين ، ومع ذلك فقد تـوفي رضـوان بعد مودود بفترة وجيزة ، وأخذت الأحداث تتحرك في الشام الشمالي بسرعة جديدة .

فقد حل بساح حلب اضطراب سياسي شديد تحرك خـلاله شـعب المدينة بأكثر مـن ثـورة أثمـرت اخيرا ، وادّت إلى تجميد الحـكام التركمان وقيام حكم « شعبي » يسير أمور الدفاع عن المدينة ، وبدأ يظهر إلى الوجود جيل عربي مؤمن جديد مع روح جـديدة ،وفي هـذا الوقت بالذات وبعد مضي حوالي ربع قرن على الغزو الصليبي ، كان تيار التوسع الصليبي في الشام قد وصل إلى أقصى مداه ، ومـن ثـم بدأ يتحول مده إلى جزر .

ومعلوم أن الصليبيين كانوا قد وصلوا إلى مشارف الشام جمعا واحدا لكن ما أن توغلوا فيه وفتحوا بعض أراضيه حتى حل بهم داؤه العضال ، فدب بين صفوفهم التمزق ، وانقسموا إلى عدة دويلات ،(الرها ، أنطاكية ـ القدس ـ طرابلس) وبما أن عددا كبيرا من رجالات الحملة الاولى كانوا قد استقروا في الشام ، فقد انجبوا هناك جيلا جديدا تمتع بصفات بلدية خاصة ، وحيث أن تدفق الفرنجة من اوربا على الشام لم ينقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفا من مجموعتين متمايزتين هما : مجموعة البلديين ، ومجموعة الوافدين ، وبالاضافة إلى هذا قامت بين صفوف الصليبيين تنظيمات كهنوتية غالبا ما كانت ذات صبغة عسكرية وذات مطامح سياسية ، ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن ، وازدادت الفرقة عمقا ، والخلافات حدة ، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الأولى وبخاصة بين صفوف الفقراء منهم .

لقد كانت الحادثة التي وصل المد الصليبي فيها الى مداه ثم أخذ يتحول الى جزر أمام أسوار مدينة حلب ، وكان ذلك سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤م ، ففي هذه السنة حضر الصليبيون كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ، وكانت مدينة حلب في هذه الآونة تتبع رسميا لتمرتاش بن ايلغازي احد افراد الأسرة الأرتقية التركمانية ، وقام الصليبيون بالاتصال مع دبيس بن صدقة صاحب الحلة في العراق وامير قبيلة أسد ، فاتفقوا معه على أن يساعدهم في احتلال مدينة حلب مقابل تعيينه اميرا عليها شرط أن يسمح لبعض من قواتهم بالمرابطة فيها ، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران العقيلي صاحب قلعة جعبر ، ومع ابراهيم بن رضوان بن تتش الذي كان أبوه اميرا لحلب عندما بدأ الغزو الصليبي ، فجمع الصليبيون قواتهم مع قوات حلفائهم ، وزحفوا على مدينة حلب ، واخذوا في حصارها ، واثناء الحصار عدل الاتفاق بين المحاصرين فاتفقوا من جديد على ان تكون حلب لابراهيم بن رضوان بن تتش « لانها كانت لأبيه ».

ولم يكن الحاكم الرسمي لمدينة حلب مقيما بها ، بل كانت الأمور في المدينة بأيدي شعبها ، الذي شكل انئذ نوعا من أنواع الجمهوريات للدفاع عن المدينة برئاسة قاضيها ابو الفضل بن الخشاب ، يعاونه مجلس يمثل زعماء المدينة وكبار العلماء .

وشدد المحاصرون تطويقهم لحلب ، وطال الحصار وامتد ، وأخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على أسوار المدينة « وقطعوا الشجر ، وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين وأخذوا توابيتهم الى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا الى ما كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في ارجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، واخر يقول : هذا عليكم ، وأخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر حلب ، وقالوا :يامسلم ابصر كتابكم ، وثقبه الفرنجي ، وشده بخيطين وعمله ثفرا (الثفر : السير الذي يجعل في مؤخر السرج) لبرنونه ، وأقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين ».

ولم يؤثر هذا ــ على شدته ــ على معنويات الحلبيين، فداوموا على الدفاع ، وازدادوا اصرارا على المقاومة ، « وبلغ بهم الضر الى حالة عظيمة حتى اكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض » ، ويحدثنا مؤرخ حلب الصاحب كمال الدين عمر بن العديم عن جده وكان من شهود العيان بأن الحلبيين « كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في أزقة البلد ، فإذا زحف الفرنج ، وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى الى فراشه ».

و « لما اشتد الحصار على حلب ، وقلت الأقوات بها وضاق الأمر » ، بالحلبيين اتفق رأيهم على تسيير وفد الى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي ، وكان انذاك مقيما في مدينة ماردين مشغولا بمسائل خاصة ، وخرج الوفد ليلا من البلد ، وعلم الفرنج

بخبره ، وحاولوا اعتقاله فأخفقوا ، وبرغم هذا حاولوا أن يوهموا أهل المدينة أنهم اعتقلوا رجالات الوفد ، لكن ذلك لم ينطل على الحلبيين ، وعرفوا بعد وقت نبأ وصول وفدهم سالما الى ماردين .

وفي ماردين واجه الوفد مفاجأة كبرى غير متوقعة ، ويتحدث جد ابن العديم ـ وكان أحد رجالات الوفد ـ واصفا ما حدث في ماردين فيقول :« لما وصلنا الى ماردين ، ودخلنا على حسام الدين تمرتاش ، وذكرنا له ما حل بأهل حلب ، وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر ، وعدنا بالنصر ، وأنه يتوجه اليها ، ويرحل الفرنج عنها ، وانزلنا بمكان في ماردين ، وجعلنا نطالبه بما وعد وهو يدافعنا من يوم إلى يوم ، وكان أخر كلامه أن قال : خلوهم إذا أخذوا حلب ، عدت وأخذتها ، فقلنا في أنفسنا : ما هذه إلا فرصة ، وقلنا له : لاتفعل ، ولاتسلم المسلمين إلى عدو الدين ، فقال : وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له القاضي أبو غانم (جد ابن العديم) :« وايش هم حتى لاتقدر عليهم ونحن أهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم ».

قال القاضي أبو الفضل ـ عم ابن العديم وراوي الخبر له: فكتبت كتابا من حلب إلى والدي أبو غانم أخبره بما حل بأهل حلب من الضر ، وأنه قد آل الأمر بهم إلى أكل القطاط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في يد تمرتاش ، وشق عليه ، وغضب وقال : انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة ، قد بلغ بهم الامر إلى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ، ويغررونني ويقولون : إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم .

قال القاضي أبو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا ، فوكل علينا من يحفظنا خوف الانفصال عنه إلى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي إلى البرسقي ـ صاحب الموصل ـ فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي إلى البرسقي ـ صاحب الموصل ـ ونستصرخ به ، ونستنجده ، فتحدثنا مع من يهربنا ، وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريرا

عظيما إذا فتح أو أغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتا ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ، ولايعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال :وكأن الزمان شتاء والثلج كثير على الارض ، قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم إلا غلامي ياقوت ، وأخبر رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لأصحابي : قوموا أنتم وانتهزوا الفرصة ولا تنتظروني ، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكرا لايأخذني نوم حتى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت غلامي بالدابة ، وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت وركبت لاأعرف الطريق ، ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا وأنا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من أول الليل ، وسرت من أخره ، وكان قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصبح ، وركبنا وحثثنا دوابنا ، وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل ».

وفي الموصل قابل هذا الوفد أق سنقر البرسقي حاكم المدينة ، واستطاع اثارته واقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاد حلب ، وعندما أشرفت عساكره على البلدة الباسلة ، رحلت قوات الصليبيين منسحبة ، وهكذا نجت حلب وبنجاتها نجت بلاد الشام مع المشرق العربي والاسلامي ، وقد علق في عصرنا هذا المؤرخ البريطاني الكبير توينبي على هذا الحادث بقوله :« لو سقطت حلب للصليبيين لصار الشرق لاتينيا ».

بوصول مد الاحتلال الصليبي سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م الى نهايته انتهى طور الاحتلال الصليبي ، وبدأت حرب التحرير والاسترداد ، وانتقل المسلمون من حالة الدفاع الى حال الهجوم

وبذؤوا يخططون لأعمال التحرير ، وغالبا ما توقف الصليبيون عن أعمال الهجوم ، وبات شاغلهم الرئيسي الاحتفاظ بما احتلوه.

لقد مر طور حرب الاسترداد بأربع مراحل ، ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن العرب تحملت عبء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها ، وتعلقت الأمور كلها بشكل اساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة وشخصيات القادة ، وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ، مرحلة حلب ، مرحلة دمشق ، مرحلة القاهرة.

كانت مدينة الموصل ـ كما سلف بنا القول ـ أعظم مدن منطقة الجزيرة mesopotamia، وفي التاريخ الاسلامي نجدها في المراحل المبكرة منه دائما متورطة في مشاكل العراق السياسية وغير السياسية ، وقلما كان لها دورها الفعال في أحداث بلاد الشام ، إنما يلاحظ منذ القرن العاشر بداية تحول للاشتراك في أحداث الشام ، إلا أن هذه المشاركة ظلت هامشية حتى أواخر القرن الحادي عشر ، وبالتحديد عندما ازداد تدفق الغز على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغز من اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب ، وقبل قدوم الغز وإقامة السلطنة السلجوقية رست مقاليد التغيير السياسي في بلاد الشام في أيدي رجال القبائل العرب ، وقد انتزع الغز هذه المقاليد منهم كما سبق الحديث عن هذا .

وكانت الموصل أول محطة للمهاجرين الغز نحو الشام ، وسبب هذا تحولا جذريا في تاريخ الموصل مع اقليم الجزيرة والشام ، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف ، وغدت هذه المدينة بالتدريج جزءا من الشام ، وتورطت في مشاكله، واصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والاساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد الشام ، وربما على الشام بأسره ، ويمكن أن نرى في تاريخ الدولة العقيلية ، ثم الدولة الأتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا .

لقد أراد الصليبيون احتلال مدينة حلب لسد الثغرة بين الرها وانطاكية ، ولعزل الشام عن المشرق ، بعد ما تم عزله الى حد بعيد عن مصر ، ليسهل بعد ذلك الاطباق عليه واحتلاله بشكل كامل ، لكن مدينة حلب نجت ودخلت في وحدة « طوعية شعبية » مع الموصل ، وهكذا توحد شمال بلاد الشام مع أعالي بلاد الرافدين تحت قيادة البرسقي ، ووجهت الآن طاقات المسلمين في الدولة الجديدة ضد الصليبيين ، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي الى مرحلة الهجوم الايجابي ، لكن لسوء حظ المسلمين أن البرسقي اغتيل من قبل الحشيشية الاسماعيلية بعد عامين من انقاذ حلب ، وبدء حرب التحرير •

ولقد ادى اغتياله الى انتكاسة مروعة ،لكن مؤقتة ، ذلك أن الأمة كانت تعيش بداية عصر لليقظة لذلك اجتازت المحنة ، وتغلبت عليها ، لقد تآمرت قوى سياسية محترفة على سيادة الموصل ، وانجرفت السلطنة في تيار هذه المؤامرات مع دار الخلافة ، لكن شعب الموصل كان يعرف ما يريد عن ايمان وعزيمة، وبعد عام من مصرع البرسقي توجه وفد يمثل أهل الموصل الى بغداد، وقام هذا الوفد باختيار الضابط زنكي بن آق سنقر قسيم الدولة ، وتعاقدوا معه على تولي مقاليد الأمور في دولة الموصل ضمن شروط معينة ، ولتأدية واجبات محددة، وبعدما تم التعاقد معه أقنع الوفد سلطان بغداد بالموافقة على تعيين زنكي حاكما جديدا على الموصل واستبعاد سواه •

في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسلم عماد الدين الزنكي زمام الامور بالموصل ، وفي هذا يمكن القول بدات بالفعل المرحلة الأولى من طور التحرير ، الأمر الذي سنبحثه في الفصل المقبل ، وكنا قبل قليل قد أشرنا إلى ما نجم عن قدوم الغز من تبديل للجغرافيا السياسية والاستراتيجية لبلاد الجزيرة والشام ، وكذلك أعقب قدوم الفرنجة ونجاحهم في تأسيس دولهم تبديلات جغرافية سياسية واستراتيجية جديدة ، فقد عادت الأوضاع إلى ما يشبه ما كانت عليه قبل الفتح العربي في القرن السابع ميلادي بحيث جاءت الان

المؤثرات الكبرى عبر آسية الصغرى وشدت البلاد نحو هذه المنطقة ولهذا عادت إلى مكان الصدارة من جديد مدن : انطاكية والرها والقدس وطرابلس ، لكن هذا لم يؤثر كثيرا على مكانة كل من دمشق وحلب ، وتدنت مكانة مدينة حمص وارتفع شأن مدينة حماه لا لانها فصلت بين دمشق وحلب فقط ، ولكن لأنها تصدت لامارة طرابلس ولقوى الحشيشية التي استولت على عدد من القلاع الحصينة في جبال بهراء (العلويين) ولأنها أيضا بقيت على صلات وثيقة مع قبائل بادية الشام وأهل المشرق ٠

ورسخ تاسيس الفرنجة لدولة لهم في الرها مكانة الموصل وأهلها لتقود المرحلة الاولى من طور التحرير ، كما أن أهل الشام انجذبوا نحو العراق وليس نحو مصر ، كما هو موروث وطبيعي لضعف الخلافة الفاطمية في مصر ، ولقدوم التركمان من الشرق ، ولانشغال حكام الموصل في دفع الخطر الذي تهددهم من الرها ، وسنجد أنه بعدما تمكنت الموصل من الانتصار على الرها ، وبعدما حررتها من حكم الفرنجة ، تراجع تأثير الموصل في الأحداث الشامية ، وعادت الأنظار الشامية مجددا تتطلع نحو مصر .

وجاء التطلع إلى مصر عبر دمشق ، وتوحدت دمشق مع حلب في مرحلة التحرير الثانية التي تلت مرحلة الموصل ، وهذا ما سنبحثه في الفصل المقبل ، وحتى يسهل فهم الأمور مفيد أن نختم هذا الفصل بتقديم عرض موجز لتاريخ الدولة البورية وحكمها لبلاد الشام الجنوبية ، أو بالحري لحكمها لدمشق .

البوريون أتابكة دمشق

سلفت الاشارة إلى التحاق دقاق بن تتش بدمشق ، وبعد هذا قدوم أتابكه طغتكين إلى دمشق حيث استقبل استقبالا حافلا في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وعلى الفور سلم دقاق إليه قيادة الجيش « واعتمد عليه في تدبير المملكة وسياسية البيضة (٧) » ، ووطد طغتكين سلطانه وتخلص من خصومه وكانت علاقاته بزوجته صفوة

الملك أم دقاق جيدة الى أبعد الحدود وهكذا « استقامت له الحال بدمشق ، وأحسن السيرة فيها ، وأجمل في تدبير اهليها ، وبالغ في الذب عنها ، والمراماة دونها ، وسكنت نفس الملك شمس الملوك ــ دقاق ــ اليه ، واعتمد في التدبير عليه (٨) ».

وكان طغتكين طموحا واسع الحيلة لذلك عمد إلى التخلص من دقاق بدس السم له ، وهكذا توفي هذا الملك الفتى في رمضان ٤٩٧ هـ/ حزيران ١١٠٤ م ، وكانت دولته حين مات تضم مع الشام الجنوبي حمص وحماه والرحبة(٩) .

وبعد وفاة دقاق استدعى طغتكين أرتاش بن تتش من بعلبك وكان في الثانية عشرة من عمره وعينه ملكا جديدا لدمشق « وتقدم الى الأمراء المقدمين والأجناد بالطاعة لأمره والمناصحة في خدمته ، وأجلسه في دست المملكة (١٠) »وذلك بعد قرابة شهرين مضيا على وفاة دقاق .

ولم يطمئن أرتاش لسلامة نفسه في دمشق وخاف « من ظهير الدين أتابك ومن الخاتون صفوة الملك . وأوقعت أمه في نفسه الخوف منهما ، واوهمته أنهما ربما عملا عليه فقتلاه(١١) » فهرب بعد أقل من شهرين مضيا على تمليكه واجتمع معه صاحب بصرى ،وقد عاشا فترة من الزمن في منطقة حوران ثم مضيا الى المملكة اللاتينية في القدس على أمل الحصول منها على جيش يستوليان به على دمشق ، لكنهما أخفقا ، « فحين يئسا من المعونة ، وخاب أملهما في الاجابة توجها إلى ناحية الرحبة في البرية ، واستقام الأمر بعدهما لظهير الدين أتابك وتفرد بالأمر ، واستبد بالرأي (١٢) »وتخلص من بقايا أسرة تتش ورجالاتها ، فبعد وقت قصير من فرار ارتاش توفي أخر أفراد أسرة دقاق ، وهو تتش بن دقاق وكان طفلا صغيرا ، وبهذا يمكن اعتبار سنة ٤٩٨ هـ/ ١١٠٥ م سنة البداية الفعلية لتأسيس الدولة البورية في دمشق من قبل طغتكين ، وحكمت هذه الدولة الجزء الأكبر من بلاد الشام لمدة تقارب النصف قرن، وكان طغتكين في تاريخها هو

الشخصية الابرز والأطول حكما والأكثر استقرارا ، كما أنه كان على رأس شخصيات عصره في المشرق العربي ، وكان على طغتكين أن يحصل على رضى السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية مع الاعتراف به حتى يكسب حكمه سمة الشرعية ، كما توجب عليه مداراة الوضع في حلب والافادة من فوضى الحكم فيها ما أمكن ، وعمل بالوقت نفسه على أن تكون علاقاته بالخلافة الفاطمية حسنة لدفع خطر الصليبيين وهكذا تعاون معهم في ذي الحجة سنة ٤٩٨ هـ/ ١١٠٥ م في القتال ضد الصليبيين في المنطقة مابين يافا وعسقلان (١٣) .

وصدر الخطر الاعظم على حكم طغتكين عن الفرنجة خاصة المملكة اللاتينية في القدس ، وتصدى طغتكين لهذا الخطر وحقق بعض النجاحات ، إنما فيما بعد تهادنت السلطة البورية مع الصليبيين وظلت الهدنة قائمة ـ كما سنرى ـ طوال العصر البوري بشكل عام ، وكان الدافع الاساسي للتهادن رغبة حكام دمشق في دفع المخاطر على سلطانهم من اصحاب حلب والموصل ، فحين انعدمت هذه المخاطر اتخذ طغتكين موقف المهاجم للصليبيين .

ففي سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٦ م هاجم الصليبيين ومنعهم من بناء حصن العلعال في وادي الاردن وفي السنة التالية عسكر في سواد حوران ومنع الصليبيين من العيش في المنطقة ، وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م تعاون مع الاسطول المصري في الدفاع عن صيدا والتفريج عنها ، كما اخذ يعد العدة لمساعدة طرابلس وفي السنة التالية ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م حاول مجددا الدفاع عن طرابلس بتسلم عرقة التي شكلت خط الدفاع الاول عنها فاخفق وسقطت عرقة ثم سقطت طرابلس للصليبيين الذين اسسوا فيها دويلتهم الرابعة في المشرق (١٤) .

واثر هذا جرت مفاوضات بين طغتكين وبلد وين الاول ملك المملكة اللاتينية بالقدس وتم عقد معاهدة هدنة في سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م اتفق فيها على ان يكون السواد

- حوران - وجبل عوف اثلاثا : للاتراك الثلث ، وللافرنج والفلاحين الثلثان (١٥) .

بيد ان هذه الهدنة لم تكن اتفاقا شاملا يقضي بايقاف جميع العلميات العسكرية بين الطرفين الدمشقي والصليبي ، فهذا لم يكن بالامر الممكن لأن كل دويلة صليبية لابل كل اقطاعية كان لها مصالحها وسياساتها الخاصة ، وهكذا رأينا من قبل طغتكين يحاول تقديم المساعدة لحلب ضد انطاكية لا بل اوضح من هذا رأيناه يشترك مع مودود في القتال ضد قوات مملكة القدس ، وايضا رأينا عملية اغتيال مودود في المسجد الجامع في دمشق (١٦) .

استطاع طغتكين الحفاظ على حكمه حتى سنة وفاته في ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ولم يكن هذا بالامر الهين خاصة وانه تعرض لضغوط شديدة من المشرق ، فزار بغداد سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م وقدم هدايا ثمينة لدار الخلافة ولدار السلطنة فحصل على الرضى وكتب له منشور سلطاني بولاية الشام حربا وخراجا ، واطلاق يده في ارتفاعه على ايثارة واختياره (١٧) هذا ويلاحظ ان طغتكين سمح في السني الاخيرة لحكمه لاتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة من الحشيشية بالتمركز في دمشق وقد نالوا مساندة وزيرها ابو علي طاهر بن سعد المزدقاني وحصلوا بوساطته على قلعة بانياس التي كانت مركز الدفاع الاول عن دمشق ضد المملكة اللاتينية بالقدس .

يضاف الى هذا ان سنة وفاة طغتكين كانت السنة التي تسلم فيها عماد الدين زنكي حكم الموصل الامر الذي كان له ابعد الاثار على دمشق وحكامها البوريين (١٨) .

كان طغتكين قد اوصى بالملك من بعده لابنه بوري ، وهو الذي نالت الدولة اسمها منه ، وقد افتتح بوري عهده بمذبحة كبيرة اوقعها باتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، وعندما عرف اسماعيلية بانياس بما حدث في دمشق تخلوا عن بانياس لصالح الصليبيين

الذين تشجعوا كثيرا فحشدوا قواتهم وزحفوا ضد دمشق وحاصروها في محاولة الاستيلاء عليها ، لكن هذه المحاولة اخفقت ، غير ان دولة بوري مالبثت ان تعرضت لمخاطر جديدة حيث انتزع عماد الدين زنكي منها مدينة حماه،لكن استطاع بوري بعد وقت قصير استرداد حماة،وفيما هو في ذروة نشاطة تعرض لمحاولة اغتيال نفذها اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة وقد اصيب بوري في سنة ٥٢٥ هـ/ ١١٣١ م بجراح بليغة عاش بعدها فترة قصيرة حيث توفي في سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م(١٩) .

كان بوري قد اوصى قبل وفاته بالملك من بعده لابنه شمس الملوك اسماعيل ، وعهد ان تبقى بعلبك واعمالها لولده محمد ، وفي البداية نشب نزاع بين اسماعيل ومحمد حسم لصالح اسماعيل ، واثر تفرغه من امر بعلبك هاجم بلدة بانياس فاستردها بهجوم عاصف عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م ، كما استطاع بعد هذا اعادة سلطانه على مدينة حماه ، غير انه ما لبث ان تخبط في ادارة اموره الداخلية وعندما شعر بعجزه راسل عماد الدين زنكي في سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥ م يطلب منه الاسراع الى دمشق ليسلمها له وإلا فانه سيسلمها الى الصليبيين ، وعندما علمت امه بذلك « امرت غلمانها بقتله ، وترك الامهال ، غير راحمة له ، ولا متألمة لفقده »(٢٠) .

وعينت الخاتون صفوة الملك ابنها محمود حاكما جديدا لدمشق ،وكان على هذا الحاكم دفع زنكي عن دمشق ، ذلك أن زنكي قدم الى دمشق ليتسلمها من اسماعيل بن بوري،وعندما علم بمصرعه قام بمحاصرة المدينة ،وشدد عليها الخناق ، واثناء ذلك تلقى رسالة من الخليفة العباسي المسترشد بالله(٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ/ ١١١٨ ـ ١١٣٥ م)يأمره برفع الحصار عن دمشق والقدوم مع قواته الى بغداد ، فنفذ هذا الامر ورفع الحصار عن المدينة (٢١) .

وعاود زنكي أعماله التوسعية على حساب الدولة البورية فحاول

احتلال حمص فأخفق، غير انه نجح بالاستيلاء على بعلبك سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩ م حيث عهد بالحكم فيها الى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي، ثم استولى على بانياس (٢٢) .

وبعد هذا انتقل عماد الدين من الحرب الى الدبلوماسية ، فعقد مع البوريين زواجا سياسيا حيث تزوج هو من الخاتون صفوة الملك المعروفة باسم زمرد أم شهاب الدين محمود ، وفي الوقت نفسه تزوج محمود من ابنة زنكي ، وتنازل له عن حكم مدينة حمص ، غير أنه مـا لبث شهاب الدين محمود أن أغتيل سنة ٥٣٣ هـ ـ ١١٣٨ م فبايع الأمراء جمال الدين محمد بن بوري ، الذي فوض أمور دولته الى معين الدين أنر (٢٣) .

أصبح أنر الآن الحاكم الفعلي للدولة البورية ، وقد برهن أنه من أبرع الساسة وأكثرهم قدرة ، فقد استطاع الحفاظ على استقلال دمشق بوساطة توازن حذر بين عماد الدين زنكي والمملكة اللاتينية بالقدس ، فقد كان يستعين بالصليبيين ضد عماد الدين ، وبعماد الدين أو خلفائه ضد الصليبيين .

وكان عندما بلغ صفوة الملك زمرد خبر مصرع ابنها في دمشق حرضت زوجها عماد الدين على الثأر ، فجاء ومعه قواته وحاصر دمشق وضيق الخناق عليها سنة ٥٣٤ هـ ـ ١١٣٩ م ، واثناء الحصار مرض محمد بن بوري مرضا شديدا أودى بحياته ، وعندما عرف عماد الدين بهذا الحدث ازداد طمعه بالاستيلاء على دمشق ، لكن أنر استطاع ضبط الأمور وجلب أبق بن محمد وعينه حاكما جديدا ، انما بشكل اسمي ، وراسل معين الفرنجة وعقد معهم اتفاقا يدفع لهم بموجبه مبلغا من المال ويسلمهم بانياس إن هم ساعدوه على دفع عماد الدين زنكي ، وبالفعل تحركت قوات الفرنجة نحو دمشق ، مما أرغم عماد الدين على الانسحاب ، ووفى إثر هذا أنر بعهوده ، فحاصر بانياس حتى تسلمها ثم سلمها الى الفرنجة (٢٤) .

ولم يحرص الفرنجة على سلامة دمشق وحكامها حرص انر عليهم ، فهم أرادوا احتلال دمشق اذا أمكنتهم الفرصة ، واذا لم تمكنهم دفعوا غيرهم عنها حتى تحين الفرصة ، فقد خشي الفرنجة الى أبعد الحدود من وحدة أجزاء بلاد الشام ، وهذا واضح تمام الوضوح فيما كتبه وليم الصوري في الأجزاء الأخيرة من كتابه ، فهو كان شاهد عيان للأحداث شغل مناصب عالية جدا في المملكة اللاتينية في القدس .

وهكذا نجد انه بعدما استحوذ الفرنجة على بانياس خططوا للاستيلاء على قلعتي بصرى وصلخد وبذلك كان يتسنى لهم الاطباق على دمشق خاصة عندما نتذكر امتلاكهم للأجزاء الكبرى من الساحل الشامي وعدة قلاع قريبة من منطقة البقاع ثم ان بعلبك كانت ملكا لزنكي ، وهكذا نجد في سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م قيام ملك القدس بالزحف نحو بصرى على رأس قوة كبيرة جدا ، وكان يأمل في تسلم حصني بصرى ثم صلخد ، وذلك بناء على اتفاق عقده مع التونتاش حاكم هاتين القلعتين إثر زيارة قام بها الى القدس ، ولاقى الجيش الصليبي مقاومة عنيفة أثناء زحفه في أراضي حوران من سكان الأرياف والمدن والقبائل العربية ، وتم الزحف في الصيف ، وكان العرب قد غوروا الآبار ، وهكذا عطش الفرنجة عطشا شديدا ، زاد من قسوته الهجمات الصاعقة التي كان يقوم بها المقاومون العرب ، وعندما وصل الجيش الصليبي الى بصرى ، وكان معه الحاكم الخائن التونتاش فوجيء بقيام زوجة هذا الخائن بإغلاق أبواب القلعة والعزم على الدفاع وعدم السير في طريق الخيانة الذي سلكه ، زد على هذا علم الفرنجة أن انر معسكر مع قواته في صلخد بعد تسلمها وأن نجدات كبيرة قادمة من حلب يقودها نور الدين محمود بن زنكي .

وكان زنكي قد اغتيل قبيل قرابة السنة وتسلم الحكم في حلب ابنه نور الدين ، وعقد نور الدين معاهدات مع أنر وتزوج ابنته ، وبناء على معطيات الوضع الجديد قرر الفرنجة التراجع ، وكان طريق

الانسحاب محفوفا بالمخاطر ، وكاد الجيش الصليبي يفنى عن بكرة ابيه نتيجة لهجمات رجال المقاومة العرب ، لولا تدخل أنر فقد «جعل معين الدين يكف المسلمين عنهم ، ويصدهم عن قصدهم والتتبع لهم في انهزامهم »(٢٥) .

لقد انقذ أنر الجيش الصليبي واجل تدميره مدة أربعين سنة ، عندما دمره صلاح الدين عند قرني حطين ، ومع هذا قابل الصليبيون صنيع هذا الحاكم الذي آثر ملكه العاجل على قضية الأمة ، بأن قرروا بعد عامين الاستيلاء على دمشق .

ومن المعروف أن عماد الدين زنكي كان قد حرر مدينة الرها في سنة ٥٣٩ هـ ـ ١١٤٤ م وأزال دولتها الصليبية من الوجود الأمر الذي أثار مايعرف باسم الحملة الصليبية الثانية وشارك في هذه الحملة أعداد هائلة من الأوربيين وقادها إثنان من أكبر حكام أوربا هما فرانسوا السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا ، وبعد جهود مضنية ورحلة طويلة عبر أوربا الشرقية وآسية الصغرى وصل الناجون من عناصر الحملة الى القدس ، وفي عكا عقد مؤتمر واسع لزعماء الفرنجة تصدره ملك القدس وملك فرنسا والملك الألماني ، واتفق الثلاثة على الزحف الى دمشق لاحتلالها .

وفي دمشق قام معين الدين أنر بتنظيم الدفاع عن المدينة ، واستغاث بنور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب وبأخيه سيف الدين صاحب الموصل وبالقوى الموجودة في البقاع ومنطقة بعلبك فهب الجميع لنجدة دمشق ، وصرف الفرنجة « أعنتهم الى ناحية دمشق في حشدهم وحدهم وحديدهم في الخلق الكثير على مايقال ، تقدير الخمسين الف من الخيل والرجل ، ومعهم من السواد والجمال والأبقار ماكثروا به العدد الكثير ، ودنوا من البلد ... فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربها من الماء ، وزحفوا اليه بخيلهم ورجلهم ، ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين»(٢٦) (٢٦ تموز ١١٤٨ م) .

ونشب قتال عنيف بين الفرنجة والمدافعين عن دمشق ، واشتد قرب فرع نهر يزيد عند منطقة خانق الربوة ، وإثر هذا انتشر الصليبيون داخل البساتين الكثيفة فأكلوا ثمار المشمش قبل نضوجها وتعاظمت المقاومة داخل البساتين،وعلم الصليبيون بوصول نور الدين مع قواته الى منطقة حوران وبتدفق النجدات من منطقة بعلبك ، وخشية أن يطوقوا داخل البساتين ، قرر الصليبيون التحول بمعسكرهم نحو المنطقة الواقعة مابين باب الصغير وباب شرقي ، أملين بألا يحاصروا في تلك المنطقة وبأن يلقوا بعض المساعدة من الداخل لأن معظم السكان هناك كانوا يدينون بالمسيحية ، ومجددا خاب فأل الفرنجة ، فعرب دمشق على اختلاف دياناتهم نظروا اليهم نظرة واحدة ،واشتدت المقاومة لذلك اضطر الصليبيون الى رفع الحصار عن دمشق بعد عدة ايام والرحيل « مجفلين والهرب مخذولين مفلولين »(٢٧) .

اظهر حصار دمشق مدى ضعف الدولة البورية وأن نور الدين محمود هو القائد المؤهل للجهاد ضد الصليبيين وحافظ نور الدين على التعاون مع معين الدين أنر حتى وفاته سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م (٢٨) ، وبعد هذا عزم على دخول دمشق وازالة حكم الأسرة البورية منها ، وحاول أكثر من مرة احتلال المدينة فأخفق غير أن شعبيته ارتفعت فيها ، ولهذا اضطر حاكمها مجير الدين أبق لزيارة نور الدين في حلب سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م حيث قدم له فروض الطاعة فرده نور الدين الى دمشق ليحكمها نيابة عنه، (٢٩) ومع الأيام تصاعدت مكانه نور الدين وازدادت مكانة حكام دمشق هبوطا حتى محرم مطلع عام ٤٤٩ هـ / أذار ١٠٥٧ م ، انذاك وصل نور الدين مع قواته الى أطراف دمشق بعدما اخضعها لحصار اقتصادي ، وطالب نور الدين بتسليمه دمشق فرفض حاكمها مجير الدين وحاول مقاومته ودفعه بالقوة ، لكن قواته كانت متخاذلة ، وهكذا تمكن عدد من جند نور الدين من تسلق سور المدينة حيث نصبوا علم نور الدين « وصاحوا : نور الدين يامنصور ، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لماهم عليه من المحبة

لنور الدين ، وعدله وحسن ذكره ، وبادر بعض قطاع الخشب بفأسه الى الباب الشرقي فكسر أغلاقه ، وفتح فدخل منه العسكر على رعب ، وسعوا في الطرقات ولم يقف أحد بين أيديهم ، وفتح باب توما أيضا ودخل الناس منه ، ثم دخل نور الدين وخواصه ، وسر كافة الناس ومن الأجناد والعسكرية»(٣٠).

كان دخول نور الدين الى دمشق الحدث الأعظم في تاريخ بلاد الشام منذ قيام الحروب الصليبية فقد تم الآن توحيد بلاد الشام ، وكانت هذه الوحدة الانطلاقة لوحدة عربية أوسع وأهم ، وقال وليم الصوري معقبا على دخول نور لدين الى دمشق ومعبرا بالوقت نفسه عما خالج سادة مملكة القدس اللاتينية :« وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسلمين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت لأنه كماقيل :كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وتبعا لكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها وتظهر بقوة أكبر ضد عدو مشترك»(٣١).

وتحول نور الدين الآن من حلب الى دمشق ، وبهذا تحولت مدينة دمشق عن الموقف السلبي تجاه الصليبيين الى وضع ايجابي تقود به حرب الاسترداد بشكل حاسم وهذا ماسنتناوله بالبحث في الفصل المقبل .

الفصل الثاني

المرحلتان الأولى والثانية من حروب الاسترداد في الطور الثاني

سلف ان اشرت في الفصل المتقدم الى أنه مع تسلم عماد الدين زنكي سنة ٥٢١ هـ ـ ١١٢٧ م لزمام الأمور بالموصل بدات بالفعل المرحلة الأولى من طور التحرير ، وعماد الدين هو زنكي بن اق سنقر قسيم الدولة الذي تعرفنا اليه في الجزء الأول من كتابنا هذا ، ولد زنكي في حلب ، ثم انتقل بعد مقتل ابيه الى الموصل ، وهناك حظي برعاية كربوقا حاكم الموصل باسم السلطان بركيا روق ، ويبدو أن زنكي انتقل الى الموصل مع مماليك ابيه ، واعتنى هؤلاء به وكانوا ذوي شجاعة واقدام لذلك صارت لزنكي مكانته في أوساط السلطة ، بالموصل ، وظل الحال هكذا حتى سنة وفاة كربوقا في ٤٩٥ هـ ـ ١١٠٢ م ، وبعد وفاة كربوقا تقلب على حكم الموصل عدد من الولاة ، حافظ زنكي خلال ذلك على مكانته الرفيعة وشارك في صنع العديد من الأحداث ، وبات من أعرف العسكريين بالموصل وبأوضاع منطقتها وفي سنة ٥١٦ هـ ـ ١١٢٢ م ذهب الى العراق وتسلم شحنكية البصرة واقطع مدينة واسط ، لهذا تورط في مشاكل الصراعات في العراق ، الداء الذي لم يتخلص منه طوال حياته ، وبقي في العراق حتى اضطربت أوضاع الموصل كثيرا فوصل منها الى بغداد القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري ومعه صلاح الدين محمد الياغيسياني لعرض مشكلة الحكم بالموصل على السلطات هناك ، وفي بغداد اتفقا مع زنكي ، وسعيا حتى استصدرا أمرا سلطانيا بتوليه عماد الدين زنكي الموصل (١) .

وتسلم عماد الدين الحكم بالموصل ، وجعل صلاح الدين

الياغيسياني حاجبه والرجل الثاني بعده ، «وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد...وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة واكثرهم انبساطا معه وقربا منه ، ورتب الأمور على أحسن حال واحكم قاعدة »(٢) .

وما أن مكن زنكي نفسه في الموصل حتى نشط في سبيل مد سلطانه فاستولى على جزيرة ابن عمر وتملك دولة شامية جزرية واسعة (٣) ، وكانت هذه المملكة محاطة من مختلف الجوانب بأراضي دولة الرها ، وممتلكات الأراتقة من الجزيرة ، ومن الجانب الشامي كانت هناك إمارة أنطاكية وامارات اسيا الصغرى الاسلامية ودولة كليكية الأرمنية ، وفي الجنوب واجه عماد الدين الدولة البورية في دمشق مع فرنجة طرابلس والساحل الشامي ، ووجد الى جانب هؤلاء جميعا العراق ومشاكل الخلافة والصراعات حولها .

ولم يكن من السهل ابدا على زنكي العيش في هذا الوسط ، لذلك أمضى حياته ينتقل من معركة الى اخرى ومن صراع إلى أخر ، ومن مؤامرة إلى مؤامرة ، وساعده على النجاح صلابة عوده وصرامته واقدامه وعدم مراعاته لغير ما راه مفيدا لمصالحة وتوسيع ملكه.

حارب الفرنج في الشام الشمالي فاسترد منهم الأثارب ومعرة النعمان وكفرطاب ، وحاربهم في الوسط فاسترد بارين واستولى على حماة أكثر من مرة وحاول الاستيلاء على حمص وبعلبك ودمشق وهكذا استردت مدينة حلب بعض عافيتها واخذت تتهيأ للقيام بالدور القيادي ضد الفرنجة .

وعرف زنكي الذي تميز بالانضباط ان الخطر الأعظم على ملكه كامن في الرها ، فقد أراد الفرنجة دوما الاستيلاء على حلب لسد الثغرة فيما بين كل من انطاكية والرها ، وليسهل عليهم بعد ذلك الاستيلاء على الموصل ومن ثم الاطباق على أراضي الشام والجزيرة ، ولهذا كان رد زنكي الطبيعي تجاه هذا ، العمل في سبيل تحرير الرها ، وتحرير الرها كانت له فوائد جمة منها سد المنافذ الشمالية لبلاد الشام في وجه الفرنجة في فلسطين .

بين نصوص موسوعتنا ترجمة جيدة لزنكي جاءت في كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ، نعرف من خلالها أن زنكي قد ضرب مثلا أعلى في الجدية والالتزام بالنظام ، وروى ابن العديم أن زنكي كان « ملكا عظيما ، شجاعا جبارا ، كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي أحوال الشرع ، وينقاد إليه ، ويكرم أهل العلم ، وبلغني أنه كان إذا قيل له : أما تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه » ووصفه واحد من معاصريه بقوله :« كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر رحمه الله إذا مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئا من الزرع ، ولا يجسر أحد من هيبته يدوس عرقا من الزرع ، ولا تمشي فرسه فيه ، ولا يقدر أحد من الأجناد أن يأخذ لفلاح علاقة تبن إلا بثمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية ، وإن تعدى أحد صلبه عليها ، وكان إذا بلغه عن جندي أنه تعدى على فلاح قطع خبزه وطرده ، حتى عمر البلاد بعد خرابها ، واحسن إلى أهالي مملكته ، وكان لا يبقي على مفسد....ونهى عن الكلف والمغارم والسخر والتثقيل على الرعية ، وأقام الحدود في بلاده » ولحاجة زنكي إلى المادة البشرية فرض على شعب دولته نوعا من أنواع الجندية الاجبارية ، حتى صار معظم جند قواته متطوعة من أبناء الشعب .

وكان هم زنكي وشغله الشاغل تحرير الرها ، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيها ، وبعد عمل طويل وجهاد عاشته الأمة كلا وافرادا استطاع زنكي سنة ١١٤٤ م أن يحرر الرها والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيسا في المشرق ، ولقد عم لسقوط الرها صدى بالغ الاتساع والتأثير في الشرق والغرب ، وكانت تلك أقسى ضربة حلت بالفرنجة منذ دخلوا الشام ، وافدح خسارة الت بهم .

ولعل في القصة التالية التي رواها ابن الأثير في كامله وهي لا شك مخترعة ، صورة عاكسة للآثار العظيمة التي احدثها سقوط الرها

على الأوربيين وسواهم :« حكي أن بعض العلماء بالأنساب والتواريخ قال : كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية في البحر الى طرابلس الغرب وتلك الأعمال ، فنهبوا وقتلوا ، وكان بصقلية انسان من العلماء المسلمين ، وهو من أهل الصلاح ، وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ، ويرجع الى قوله ، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان ، وكان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب .

ففي بعض الأيام كان جالسا في منظرة له تشرف على البحر وإذ قد اقبل مركب لطيف ، واخبره من فيه أن عسكره دخلوا بلاد الاسلام ، وغنموا وقتلوا وظفروا ، وكان المسلم الى جانبه وقد اغفى ، فقال له الملك : يا فلان ' أما تسمع ما يقولون ؟ قال :لا ! قال : إنهم يخبرون بكذا وكذا ، اين كان محمد عن تلك البلاد واهلها ؟ فقال له : كان قد غاب عنهم ، وشهد فتح الرها ، وقد فتحها المسلمون الآن ، فضحك منه من هناك من الفرنج ، فقال الملك : لا تضحكوا ، فوالله ما يقول إلا الحق ، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها » (٤) .

وتابع زنكي نشاطاته لتنفيذ خططه وحدث انه بعد عامين مضيا على سقوط الرها أن قضى زنكي نحبه غيلة من قبل أحد غلمانه ، حدث ذلك وهو يحاصر قلعة جعبر ، ووقع ليلا بينما كان زنكي نائما ، وهرب الغلام الذي اقترف جريمة قتله ، وجاء إلى تحت قلعة جعبر « فنادى أهل القلعة : شيلوني فقد قتلت السلطان ، فقالوا : إذ هب إلى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله »

وكان لمصرع زنكي اثرا مفجعا على نفوس المسلمين ، فدعوه « بالشهيد » وبرغم كثرة الشهداء في التاريخ العربي ، فإن زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم ، إنما على الرغم من هذا كله لم يوقف موت زنكي مسيرة التحرير ، ولم يؤثر كثيرا على أوضاع

الأمة ، ذلك أن الأمم الحية لا تتأثر كثير بفقدان القادة ، ولا تتعطل مسيرتها بمصرعهم لأنها تنجبهم الواحد تلو الآخر .

وإثر مصرع زنكي مباشرة ، وقبل ان يوارى جثمانه الثرى انشطرت دولته الى شطرين شامي و آخر جزري عراقي ، واستقر على رأس الشطر الشامي نور الدين محمود بن زنكي .

وقديما قيل : الجغرافية توجه التاريخ ، ومن هذا المنطلق بات التوجه الطبيعي لدولة قوية في حلب هو نحو الجنوب الشامي ، وستكتفي الموصل منذ الآن ـ إلى ابعد الحدود ، وقد زال من أمامها التهديد الصليبي في الرها ـ بالاهتمام بشؤون الجزيرة ثم العراق .

وكان مما ساعد نور الدين على التفرغ الشامي ومن ثم التوجه نحو دمشق والجنوب اهتمامه بالجهاد ضد الصليبيين وتضاؤل اعتماده على البداة التركمان كطاقة عسكرية منفردة ، لأن اهتمام التركمان تمركز منذ أمد على اسية الصغرى ولأن أعداد كبيرة من الأكراد تجمعت في حلب حول أسد الدين شيركوه ، وجاء هؤلاء الأكراد الى بلاد الشام من أقصى المناطق الشمالية في أطراف جورجيا الحالية ، فهناك وجدت دويلة كردية اسمها دولة منوجهر أو دولة بني شداد ، وكان ملوك الكرج (جورجيا) المتعصبون لنصرانيتهم يخوضون هناك حربا صليبية ضد المسلمين ، وقد تمكنوا من الاستيلاء على أملاك دولة منوجهر قلعة تلو الأخرى ، الأمر الذي دفع بالأكراد الى الهجرة ، وكان من أوائل المهاجرين أسرة صلاح الدين حيث عمل جده ثم والده أيوب وعمه شيركوه في العراق ، ثم التحقا بخدمة زنكي واستقروا في بلاد الشام ، وعندما سقطت دولة منوجهر كثر عدد الأكراد ، وتجمعوا حول شيركوه الذي بات الآن أكبر القادة العسكريين لدى نو الدين ابن زنكي ، ولا شك أن هذا يساعد على فهم مقدمات انتقال السلطة من دولة الأتابكة التركمان الى الأيوبيين الأكراد .ومن الملاحظ انه بعد ما حررت الرها بات الصراع مع الصليبيين شاميا إلى ابعد

الحدود ، وتولت حلب الآن قيادة أعمال الجهاد ضد الفرنجة ، وبذلك طويت ــ بعد وفاة زنكي ــ المرحلة الأولى من طور التحرير ، لتبدأ المرحلة الثانية ، وتمركزت جهود حلب في بداية هذه المرحلة أولا ضد انطاكية لقربها منها ، لكن ما لبثت ان صرفت انظارها كليا تقريبا نحو الجنوب ، وجاء هذا تباعاعلى خطوات تمكن فيها نور الدين من دخول دمشق وتوحيد الشام المسلم ، وكان من الطبيعي وهو سيد دمشق أن تتجه أنظاره نحو تحرير القدس والتعاون مع مصر ، وهذا ما تم انجازه في المرحلة الحلبية في ظل قيادة نور الدين ، ونعود الآن الى سياق الأحداث :

لقد اثارت اخبار سقوط الرها مشاعر البابوية ، وحرضتها للدعوة الى حملة صليبية كبيرة تمضي الى المشرق لاستعادة الرها ولاكمال السيطرة على بلاد الشام .

ولقد توفر لهذه الدعوة داعية اسمه « القديس برنارد » شغل الدور نفسه الذي شغله سلفه بطرس الناسك ، وكما أن برنارد سار على خطى بطرس فإن البابا أنوسنت الثالث حاول أن يقلد البابا اوربان الثاني ، المبشر الأول بالحروب الصليبية ، فدعا الى عقد مجمع ديني ، وتم ذلك في فرنسا في فصح سنة ١١٤٤ م وقد حضره عدد كبير من رجال الكنيسة والاقطاع ، الذين خاطبهم البابا فأثار حماسهم ، وأضرم نيران تعصبهم الى حد القرار بالذهاب الى الشرق .

وهكذا تألفت الآن حملة كبيرة شملت مجموعات رئيسة :واحدة من فرنسا بقياد الملك الفرنسي لويس السابع ، وثانية من المانيا بزعامة الملك كونراد الثالث ، وثالثة من الأنكليز والفلنديين والطليان وسواهم ، وقدرت الطاقة القتالية للجموع بسبعين الف فارس ، وأعداد هائلة من المشاة والأتباع ، ذهبت المصادر البيزنطية الى جعلهم سبعمائة الف (٥) .

وكانت هذه الحملة اكثر نظاما من الحملة الأولى ، وعندما

وصلت القسطنطينية وعبرت الى البر الآسيوي انفجرت الخلافات بين الملك الفرنسي والملك الالماني بشكل حاد ، فقررا الانفصال وأن يأخذ كل واحد منهما طريقا خاصا نحو الشام .

سار الملك الالماني في سهول الاناضول ففتك به وبرجاله مقاتلو سلاجقة الروم مع الحر والعطش فعاد فلهم ليأخذ طريقا أخر ، وأما الملك الفرنسي ومن بقي من رجال الحملة فأخذ طريق أسية الصغرى وبعد مشاق ومعارك وصل إنطاليا ، ومن هناك ركب نصفهم البحر حتى انطاكية ، وتابع البقية سفرهم برا فأباد أكثرهم التركمان قبل وصولهم إلى مشارف الشام .

وبعد جهود مضنية وصل الناجون من الحملة إلى القدس ، وهناك اجتمع ملك القدس بكل من الملك الألماني والفرنسي ، واتفق الثلاثة على الزحف إلى دمشق لاحتلالها ، وفي الحقيقة شكل وصول الحملة منذ البداية تهديدا هائلا لحكم نور الدين الناشىء في الشام ، وكان نور الدين بالواقع قد واجه أول تهديد إثر تسلمه للسلطة ، في الرها ، فقد استغل الصليبيون حالة الفوضى التي تلت وفاة زنكي فاستعادوا الرها وكان ذلك سنة ٥٤١ هـ ـ ١١٤٦ م ، فقد جمع الفرنجة شتاتهم بقيادة جوسلين الثاني وقصدوا الرها « على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين بها ، فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين ، فنهض نور الدين محمود في عسكره ومن اجتمع إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة الاف فارس ... ووافوا البلد وقد حل ابن جوسلين واصحابه فيه ، فهجموا عليهم ووقع السيف فيهم ، وقتل من أرمن الرها والنصارى من قتل وانهزم ابن جوسلين بنفسه » ، وهكذا انتهت محاولة الفرنجة هذه بضربة قاصمة خرج منها نور الدين منتصرا مبشرا بمستقبل مشرق للجهاد والتحرير (٦) .

وعلى هذا لم يعد نور الدين يقنع بغير اقتلاع الفرنجة من بلاد الشام ، وشعر أن الله تعالى حين سهل له الوصول إلى السلطة القى على عاتقه أمانة رعاية مصالح المسلمين والجهاد ضد

الفرنجة ، فنشط ضد إمارة انطاكية واستطاع سنة ٥٤٢ ـ ٥٤٣ هـ ـ ١١٤٧ ـ ١١٤٨ م أن يحرر عدة قلاع مثل ارتاح والأثارب وكفرلاثا .

ولقد اثبت نور الدين أنه لايقل كفاءة وشجاعة عن أبيه ، ومقدرة عسكرية وقد تفوق على أبيه بصفاء نواياه ، وبتفرغه للجهاد فقط داخل بلاد الشام ، ولم يتورط كما فعل زنكي في صراعات العراق وسواها ، وكان نزيها عفيف النفس يحب العلم والعلماء ويؤثرهم ويشجعهم .

وبعدما نجح في تجريد امارة انطاكية من كثير من ممتلكاتها ، ولتفرغه لشؤون الشام فقط اتجه بنواياه الطيبة نحو دمشق ، وكانت هذه المدينة ـ كما رأينا ـ تحكم من قبل بقايا الدولة البورية ويتحكم بها واحد من كبار القادة العسكريين واسمه معين الدين انر ، وتبادل نور الدين السفارات مع انر حتى « استقر الحال بينهما على أجمل صفة ، وأحسن قضية ، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين ، وتأكدت الأمور على مااقترح كل منهما » .

وتوجس الفرنجة شرا من هذا التقارب ، وخاصة بعدما أخذت قوات نور الدين تنشط في حوران وتحبط مشاريعهم في السيطرة على السواد وبعض قلاع المنطقة ، لكن أهم نتائج التقارب هذا ظهرت أثناء التصدي لقوات الحملة الثانية لدى حصارها لمدينة دمشق ، فقد اخفق الحصار ، وتعرت سلطات دمشق وأفلست شعبيا لاعتمادها على حماية مملكة القدس لها ، مما سبب رفع سمعة نور الدين وقاد بالنهاية إلى تسلمه لمقاليد الأمور بدمشق ، فبعدما وصلت قوات الملك الفرنسي وغيرها من القوات إلى انطاكية عام ٥٤٣ هـ ـ ١١٤٨ م ، حاول أميرها الاستفادة منها في مهاجمة حلب فأخفق ، وقرر الملك الفرنسي الذهاب إلى القدس وهذا ماكان ، وبذلك لم تتوجه الحملة إلى الرها لاستردادها حسب الخطط التي وضعتها قبل الانطلاق من أوربا .

وكان بطريرك القدس قد ذهب للقاء الملك الفرنسي لاقناعه بالقدوم إلى القدس ، فقد رغب ملك القدس ورجال الاكليروس فيها وسواهم بالاستيلاء على دمشق قبل اتحادها مع حلب ودخول نور الدين إليها ، وبالفعل بعد وصول اعضاء الحملة إلى فلسطين عقد قادة الفرنجة الوافدين والبلديين مؤتمرا في عكا قرروا في ختامه بعد مداولات مطولة « إنه في الظروف الحالية يبقى أفضل الأعمال هو الاقدام على حصار دمشق ، ذلك انها مدينة كانت تشكل خطرا كبيرا على مملكة القدس » .

وبالفعل انطلقت قوات الفرنجة يتقدمها صليب الصلبوت ، واخذت الطريق نحو دمشق فاجتازت جسر الصنبرة بعد طبرية ، ولدى الوصول إلى بانياس عقد قادتها مؤتمرا عسكريا حضره عدد من الأشخاص الذين كانوا خبراء بأحوال دمشق المدينة والمنطقة ، وبالنتيجة تقرر فرض الحصار على دمشق من الجهة الغربية بعد الاستيلاء على البساتين هناك .

وكان تعداد الفرنجة لايقل عن خمسين الفا ، وبعدما اجتاز هؤلاء المنطقة الوعرة فيما بين بانياس واحواز دمشق نزلوا في بلدة داريا ، ومن هناك امتدت قواتهم حتى خانق الربوة عند الدكة على نهر يزيد .

وعلى هذا كان بإمكان النجدات أن تصل إلى دمشق من حوران ومن بعلبك وكذلك من المناطق الشرقية ، وكانت منطقة البساتين التي فصلت بين معسكر الفرنجة ومدينة دمشق كثيفة الأشجار ، ممراتها ضيقة ، احاط بكل بستان سور من الطوب الطيني الكبير (دك) ، وفي داخل البساتين نصب المدافعون عن المدينة الكمائن للفرنجة وفتكوا بهم ، ووقعت معارك شديدة بين المسلمين والصليبيين ، واخذت النجدات تتدفق على دمشق ، وضغط أهل دمشق على معين الدين أنر لاتاحة الفرصة لنور الدين للدفاع عن مدينتهم والجهاد ضد الغزاة ، وهكذا أمكن رد المهاجمين عن الأسوار ، مما اقنع قادة الفرنجة باستحالة الاستيلاء على دمشق

من الجهة الغربية ، فقرروا التحول وحصارها من الجانب الشرقي حيث انعدمت الغابات في الخارج وطمعا بالتعاون مع سكان أحياء الداخل الذين كان جلهم نصارى ، ومجددا أخفق الغزاة ، وشرعوا بالانسحاب ، ونجت دمشق من الحصار الصليبي الثاني في تاريخها والأخير ، وربح الجولة نور الدين ، فقد عقدت عليه الآمال ، ووضع هو بدوره الخطط لدخول دمشق وتوحيد بلاد الشام ، ورأى أن العمل المجدي ضد الوجود الفرنجي هو تدمير مملكة القدس اللاتينية ، فهي الراس في القوة والمكانة الدينية ، ومتى قطع الراس خمدت بقية أطراف الجسد (٧) .

وكان من معاني إخفاق الفرنجة في الاستيلاء على دمشق أن مشروع الحملة الصليبية الثانية قد باء بالاخفاق الكامل ، وأن التوسع الفرنجي باتجاه دمشق أو باتجاه حلب بات محالا ، وانه بعد أمد قريب لن يكون أمام الفرنجة غير البحر أو مصر .

ووضع نور الدين الخطط لدخول دمشق وأخذ في تمهيد السبيل إلى ذلك حيث استغل وقوع اضطرابات وصراعات على السلطة في القدس بين بلدوين الثالث الشاب وأمه الوصية على العرش ، واستفاد من حادثة اغتيال ريموند الثاني كونت طرابلس ، وقام في سنة ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م بمهاجمة حصون انطاكية وعندما حاولت قوات انطاكية بقيادة الأمير ريمو نددي بواتيه التصدي له أبادها ، وقتل اميرها ، ثم تمكن في العام التالي من أسر صاحب تل باشر ، وبهذا تم له تصفية الوجود الفرنجي في كونتية الرها بشكل كامل .

وحدث في سنة ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م أن توفي سيف الدين غازي ـ أخو نور الدين ـ صاحب الموصل ، وحاولت بعض الأطراف توريط نور الدين بمشاكل الجزيرة والموصل فأخفقت ، واجتمع نور الدين بأخيه قطب الدين الذي تولى شؤون الموصل « واتفقت كلمتهما واتحدت آراؤهما ، وكل واحد منهما لايصدر إلا عن أمر أخيه » ، وبذلك ظل نور الدين متفرغا للشؤون الشامية فقط .

وفي هذه السنة بالذات توفي معين الدين أنر المتحكم بدمشق ، وبذلك عادت مقاليد الأمور إلى الأمير البوري الشرعي مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، وكان ضعيف الشخصية سيء التدبير ، لهذا كثر الطامعون في الولاية وانتشرت عصابات الفرنجة ونشطت في ديار الدولة خاصة في حوران ، مما دفع نور الدين إلى قيادة قواته إلى هذه المنطقة ، وذلك أنه كان يرى من واجبه الدفاع عن أراضي المسلمين سواء أكانت تابعة له أم تحت إمرة غيره ، وكان هذا سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م ، ولدى زحفه جنوبا « كتب إلى من في دمشق يعلمهم بما عزم عليه في الجهاد ، ويستدعي منهم المعونة على ذلك بألف فارس ، تصل إليه مع مقدم يعول عليه ، وقد كانوا عاهدوا الفرنج أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين ، فاحتج عليه ، وغولط ... وقد كانوا راسلوا الأفرنج بخبره وقرروا معهم الانجاد عليه » .

ويبدو أن نور الدين كان على معرفة بمسألة التهادن والتحالف بين أبق وبلدوين الثالث ، ثم إنه لم يكن في الحقيقة بحاجة إلى قوات دمشقية تشاركه في النشاط في حوران ، لكنه اراد من جانب اول تلقين الفرنجة درسا قاسيا وإفهامهم أن التحالف مع ابق لايفيد ، ثم إنه ابتغى من جانب آخر تعرية أبق واركان سلطته واختبار موقف أهل دمشق إن لم نقل إثارتهم ، وحقق نور الدين كل ما استهدفه وزاد على ذلك أنه ظهر في أعين الناس جميعا من أصدقاء وأعداء أنه مسؤول عن الدفاع عن دمشق وأنه بطل الاسلام والمجاهد في سبيل الله ضد الفرنجة .

ومن حوران جدد نور الدين مراسلة السلطات البورية في دمشق قائلا : « إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالبا لمحاربتكم ولامنازلتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشتتت نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج ، عدم الناصر لهم ، ولايسعني مع ما أعطاني الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصرة

المسلمين ، وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال ولايحل لي ، القعود عنهم ، والانتصار لهم ، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ، والتقصير الذي دعاكم الى الاستصراخ بالأفرنج على محاربتي ، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ، ظلما لهم وتعديا عليهم ، وهذا مالايرضي الله تعالى ولا أحد من المسلمين » .

وعلى قاعدة اذا لم تستح فافعل ماشئت جاهر رجال الدولة البورية بمواقفهم فكتبوا الى نور الدين جوابا على رسالته « ليس بيننا وبينك الا السيف ، وسيوافينا من الافرنج مايعيننا على دفعك إن قصدتنا ، ونزلت علينا » وأثار نور الدين هذا الجواب وأغضبه « وعزم على الزحف الى البلد ومحاربته » ثم أنه « اشفق من سفك دماء المسلمين ان أقام على حربها والمضايقة لها » فقد كان يعرف ان أبق ورجاله مستعصمون وراء أسوار قلعة دمشق ، وراسل أبق نور الدين بعد هذا ، ثم خرج الى لقائه فخلع عليه نور الدين « خلعة كاملة بالطوق ، وأعاده مكرما محترما ، وخطب له على منبر دمشق ... ثم استدعى الرئيس(رئيس المدينة)الى المخيم وخلع عليه خلعة مكملة ايضا وأعاده الى البلد ، وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به ، فوصل من استماحه من الطلاب والفقراء والضعفاء بحيث ماخاب قاصده ، ولاأكدى من سأله » ثم رحل عائدا الى حلب وكان ذلك في مطلع سنة ٥٤٥ هـ ـ ١١٥٠ م .

ومنذ عودة نور الدين الى حلب ، أخذت تتواردعليه أخبار مقلقة من مصر ، لهذا رأى من واجبه انقاذ مصر وانقاذ شعبها ، ولم يكن ذلك ممكنا من دون القضاء على حكم الدولة البورية وتوحيد البلاد الشامية ، ولهذا قام في مطلع عام ٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م بقيادة قواته نحو دمشق وشرع بحصارها ومنع المؤن عنها » ووافت رسل نور الدين الى ولاة أمر البلاد تقول : انا ماأوثر إلا صلاح المسلمين ، وجهاد المشركين ، وخلاص من في أيديهم من

الأسارى ، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق ، وتعاضدنا على الجهاد ، وجرى الأمر على الوفاق والسداد ، فذلك غاية الايثار والمراد ، فلم يعد الجواب اليه بما يرضاه ، ويوافق مبتغاه » .

وشدد نور الدين التضييق على دمشق مع أوامر واضحة لجنده بعدم « الزحف الى البلد ، ومحاربة من فيه اشفاقا من قتل النفوس، واثخان الجراح » ولم « يأذن لأحد من عسكره في التسرع الى قتال احد من المسلمين من رجال البلد وعوامه ، تحرجا من اراقة الدم فيما لايجدي نفعا » .

وفي أثناء الحصار وصلت الأخبار الى نور الدين بوصول جيوش الفرنجة الى أرض حوران وزحفها نحو دمشق ، فاضطر نور الدين الى رفع الحصار عن المدينة والزحف نحو الفرنجة ، وخرجت من دمشق بعض قواتها حيث اتحدت مع الفرنجة للقتال ضد نور الدين وللاستيلاء على بلدة بصرى ، ولم تفلح هذه الخطط ، ومع هذا راسل الفرنجة رجال الدولة البورية « يلتمسون باقي المقاطعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق ، وقالوا : لولا نحن ندفعه مارحل عنكم » .

لكن نور الدين ترك حصار دمشق مؤقتا حتى يدفع الفرنج ، وبعدما دفعهم عاود حصار دمشق وهو مطمئن انه لن يقع بين نارين : نار الفرنجة ونار القوات البورية و « استمر رأي نور الدين على وقف الزحف الى البلد ومحاربة أهله وعسكريته تحرجا من قتل المسلمين ، وقال :لاحاجة الى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضا ، وانا ارفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين » وفي هذه الأثناء جرت اتصالات بنور الدين لشراء رضاه وتوسط في ذلك بعض الفقهاء واسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب ، وتبعا لذلك رفع نور الدين الحصار وعاد أدراجه الى حلب ، وبعد أمد قصير « توجه مجير الدين ـ أبق ـ صاحب دمشق الى حلب في خواصه ، ووصل اليها ودخل على نور الدين صاحبها ، واكرمه وبالغ في الفعل الجميل في حقه ، وقرر معه تقريرات اقترحها

عليه ، بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق ، وبذلك صارت دمشق نظريا تابعة لسلطان نور الدين ، ومع هذا جاءت خطوة أبق واعترافه بسيادة نور الدين لكسب الوقت .

وفي هذه الآونة نجح الصليبيون في الاستيلاء على مدينة عسقلان ، وبعملهم هذا باتوا يمتلكون الساحل الشامي من اسكندرونة في الشمال حتى غزة في الجنوب ، وبذلك حرموا المسلمين من امكانات الافادة من البحر ، وعقب ابن الاثير في كامله على سقوط عسقلان بقوله : « فقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق ، واستضعفوا مجير الدين» .

وقرر نور الدين حسم الأمور خاصة بعدما تصاعدت مكانته لدى اهل دمشق ، فزحف في محرم عام ٤٤٩ هـ/ أذار ١٠٥٧ م الى دمشق ولدى وصوله اليها اخضعها لحصار اقتصادي ، وطالب بتسليمه إياها ، فرفض مجير الدين أبق وحاول المقاومة ودفع نور الدين بالقوة ، لكن قواته كانت متخاذلة ، وهكذا تمكن عدد من جند نور الدين من تسلق أسوار المدينة حيث نصبوا علم نور الدين « وصاحوا : نور الدين يامنصور ، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله ، وحسن ذكره ، وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه الى الباب الشرقي ، فكسر اغلاقه ، وفتح فدخل منه العسكر على رعب ، وسعوا في الطرقات ، ولم يقف أحد بين ايديهم ، وفتح باب توما أيضا ودخل الناس منه ، ثم دخل الملك نور الدين وخواصه ، وسر كافة الناس ومن الأجناد والعسكرية لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار ، والخوف من منازلة الأفرنج الكفار » .

وكان دخول نور الدين الى دمشق هو الحدث الأعظم في تاريخ بلاد الشام منذ قيام الحروب الصليبية ، فقد تم الآن توحيد بلاد الشام ، وكانت هذه الوحدة الانطلاقة لوحدة عربية أوسع وأهم ، وقال وليم الصوري مؤرخ المملكة اللاتينية الذي عاصر هذا الحدث معقبا عليه ومعبرا بالوقت نفسه عما خالج سادة مملكة

القدس اللاتينية » وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسيحيين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت ، لأنه كما قيل : كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب وتبعا لكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها ، وتظهر بقوة اكبر ضد عدو مشترك» (٨) .

وتحول نور الدين الآن من حلب الى دمشق ، وبهذا تحولت دمشق عن الموقف السلبي تجاه الصليبيين الى وضع ايجابي تقود به حرب الاسترداد بشكل حاسم ، ونجم عن هذا قيام حركة علمية نشطة فنور الدين بنى البيمارستان النوري ، وأقام دار العدل ، ودار الحديث النورية ، وهي أول جامعة لعلوم الحديث في التاريخ الاسلامي ، وهو ايضا الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق في ثمانين مجلدة ، وهذا أمر لم يعهد له مثيل في سير الامم وتواريخها ، كل هذا ضمن انجازات اخرى تصدرها التخطيط لانقاذ مصر والتحضير لتحرير القدس الشريف .

وقال ابن الأثير معقبا على دخول نور الدين لدمشق وتوحيده لبلاد الشام : «وكان أبغض الأشياء الى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له ، فكيف اذا أخذها وقوي بها » (٩) .

وصحيح ان نور الدين نقل مقر حكومته الى دمشق ، لكنه ابقى مدينة حلب معقل أسرته ومقرها الدائم والاساسي ، وسيتضح هذا بعد وفاته ، أي أن دخول نور الدين الى دمشق لم ينه مرحلة حلب في حرب الاسترداد ، فهذه المرحلة انتهت بعيد دخول صلاح الدين الى دمشق وتأسيسه الأسرة الأيوبية .

وكانت بلدة بانياس وقلعتها الحصينة ـ الصبيبة ـ المركز الدفاعي الأول عن دمشق في وجه مملكة القدس اللاتينية ، وحين دخل نور الدين دمشق ، وجد هذه المدينة مع قلعتها بأيدي الفرنجة قد تسلموها من قبل من أمراء الدولة البورية ، لذلك خطط نور الدين

لاستردادها ، وبعد القيام بعدة أعمال عسكرية ناجحة في منطقتها حاصرها نور الدين سنة ٥٥٣ هـ - ١١٥٨ م ، واستطاع أولا تحرير المدينة ، وشرع في حصار القلعة ، وفي تلك الأثناء قدم ملك القدس للتفريج عن الصبيبة ، فانسحب نور الدين من بانياس وكمن مع قواته في الشعراء القريبة من المنطقة ، ودخل الملك الفرنجي الى بانياس وقام ببعض أعمال الترميم فيها ، ثم شحنها بالمؤن والمقاتلة ومن ثم انسحب عائدا ، وعسكر مع قواته على مقربة من بحيرة الحولة معتقدا ان نور الدين قد عاد الى دمشق ، ولكنه فوجيء بانقضاض نور الدين على معسكره ، فمزقه وقتل رجالاته ، ونجا الملك الفرنجي من الموت بكل صعوبة ، وقام نور الدين باجتياح المنطقة ، ثم عاد الى بانياس ليحاصرها ثانية لكنه اضطر مجددا لرفع الحصار ، لأن الفرنجة جمعوا من جديد جيشا زحف ثانية نحو بانياس لنجدتها ، وفي الحقيقة لم يتمكن نور الدين من تحرير بانياس وقلعتها حتى سنة ٥٥٩ هـ - ١١٦٢ م ومرد ذلك انه بعيد رفع الحصار عن بانياس توجه الى حلب ، وهناك أصيب بمرض عضال الزمه الفراش حتى أرجف به ويئس من الشفاء فأوصى لأخيه ميرمران بالملك من بعده ، وقد استغل الفرنجة هذا الوضع لصالحهم ، غير انه لحسن الحظ شفي نور الدين ومن ثم عاود نشاطاته بشكل مؤثر وفعال مما دفع الصليبيين للتحالف مع الامبراطورية البيزنطية ، لكن في سنة ٥٥٩ هـ /١١٦٢ م توفي بلدوين الثالث ملك القدس ، فخلفه أخوه عموري الأول (١٠).

وكان عموري قبل توليه الملك حاكما ليافا وعسقلان ، قريبا من مصر مطلعا على أوضاعها الداخلية المضطربة ، لذلك وضع خططه للاستيلاء على مصر ، حتى انه كلف وليم رئيس اساقفة صور أن يتولى اعداد كتاب يؤرخ به لاحتلاله مصر ، لأنه اعتقد أن القاهرة لقمة سهلة التناول لايوجد من يحول دون تناوله اياها!

وكان هذا صحيحا بالنسبة للوضع داخل القاهرة ، غير ان وجود نور الدين عطل خطط الفرنجة واحبطها ، حيث أرسل ثلاث حملات عسكرية الى مصر ، تمكنت اخيرا من انقاذ هذا القطر والحاقه

بالشام ، وقاد هذه الحملات اسد الدين شيركوه ، وقد رافقه فيها ابن أخيه يوسف بن أيوب (صلاح الدين) ، وشغل صلاح الدين في هذه الوقائع دورا رئيسا وتجلت في تلك الأثناء مواهبه ومؤهلاته ، مما رشحه للزعامة ، وذلك بالاضافة الى تعرفة على مصر وعلى مشاكلها وامكاناتها .

سنبحث مسالة هذه الحملات بعد قليل لدى التفرغ للحديث عن قيام صلاح الدين ، ولعله يكفي أن نذكر الآن انه في سنة ١١٦٧ م تمكن نور الدين من توحيد مصر مع بلاد الشام ، وفي سنة ١١٧١ م تم الغاء الخلافة الفاطمية ، وقامت في مصر حياة جديدة ويقظة متفتحة ، وبدأت مصر تستعد للاسهام في أعمال التحرير ، وطوقت الآن ممتلكات الصليبيين ، واعد نور الدين قواته من أجل معركة فاصلة ، وكان موقنا من ان النصر سيكون حليفه ، وأنه لن يكون بعد فترة للصليبيين وجود في الشام ، وبلغت استعدادات نور الدين ويقينه من النصر الى حد انه أمر بصنع منبر لتخطب عليه خطبة الجمعة الأولى في المسجد الأقصى بعد تحريره(١١).

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب واليا لنور الدين على مصر ، وقبل ان يتوجه نور الدين على رأس قواته نحو فلسطين أصدر أوامره الى صلاح الدين بقيادة قوات مصر ، والالتقاء معه على أسوار الكرك ، ولكن ـ ولكل عظيم سقطة ـ غلبت انانية صلاح الدين وشهوته للسلطة على نفسه ، وذلك بتحريض جهازه الذي أحاط به له ، وتخويفه من نور الدين ـ فتلكأ صلاح الدين ولم ينفذ أوامر نور الدين متعللا بأوهى الأسباب ، وهكذا تأجل موعد المعركة الفاصلة ، وكلفت شهوة السلطة الأمة سنينا طويلة أخرى من الدم والعذاب .

وتوفي نور الدين بشكل مفاجىء عام ١١٧٤ م ، وقام بعده صلاح الدين ، فاستطاع أن يرث دولته ، ولهذا حديث اخر ميدانه فيما يلي :

قيام صلاح الدين

هناك خلاف شديد بين المؤرخين حـول دور البـطل في التـاريخ: فبعضهم يعتقد انه وجد بين البشرمن ملك من الطاقات ماجعله يفوق سواه من الناس في وقته ، وبـذلك تسـنى له أن يتـربع على عرش الزعامة ،وأن يحدث تغييرات كبيرة، ويحقق انجازات خطيرة ،تـأثر بها معاصروه، ومن اتى بعدهم ، لكن بنسب متفـاوتة،مما سـبب له الشهرة والخلود •

وبعضهم الآخر ينكر دور البطل الفرد في صنع أحـداث التـاريخ حسب مشيئته ، ويعتقد أن الجماهير هـي البـطل الحقيقـي الذي يصنع أحداث التـاريخ ، ولكن إذا تـذكرنا أن لكل واقعـة مـن الوقائع ،العـديد مـن الأسـباب المتنوعة البعيدة والقـريبة ، وأن المسببات هي سابقة للواقعة وأصل لها ، خففنا من غلواء الاعتقـاد بأن الفرد البطل قادر وحده على صناعة التاريخ ، وأن الفرد البـطل وحده لا شيء بدون جماهير تسـتجيب لقضـيته ، التـي تعتبـرها قضيتها ، وتتعاون معه وتحت قيادتـه ، لتنفيذ مـطامح متشـابكة بشكل معقد .

على هذا يمكن رؤية دور الفرد والجماعات في صنع التـاريخ مـن خلال قضايا كبـرى ذات جـذور بعيدة في الماضي لهـا أسـباب قريبة ، وحين تتضافر الأسباب وتتوفر القدرة على الانجـاز يقـوم دور الفرد على مدى فـاعليته في الانجـاز ، وقـد يكون الانجـاز كبيرا ، له فاعلية الحسم المستمر ، وقد يحدث أن يقوم فـراغ كبير إثر غياب البطل ، وهنا نجد الفراغ والحاجة يقودان نحو تـذكر دور البطل واستغلاله بشكل جديد فيه حسرة واغناء وشروح وتفسـيرات ثم اضفاء مواد جديدة عليه ، وهكذا يتحول دور البطل مـن واقعـة تاريخية الى واقعة شبه أسطورية .

هذا ما يواجهنا عندما نود البحث في سيرة صلاح الدين وخـاصة

الفترة المبكرة من حياته أي قبل وصوله الى السلطة ، ذلك أن صلاح الدين مثل غيره من الأبطال اهتم المؤرخون بأخباره بعدما وصل الى واجهة السلطة ، فجمعوها ، وهنا شعروا بالحاجة الى التعرف الى أخباره قبل السلطة فأقبلوا على جمعها من الذكريات ، وعملية الجمع هذه بائسة بسبب قلة مصادر المعلومات ،هذا مع ما تسببه رواية بعض الأخبار من إحراج ، ولما جبل عليه البشر من مداراة وأدب ولباقة إن لم نقل رياء ونفاق ، ولهذا فإننا لن نقف طويلا عند طفولة صلاح الدين وأعماله قبل وصوله الى السلطة .

لقد سكنت المناطق الجبلية الواقعة في أعالي الجزيرة شمالي الموصل وشماليها الشرقي بعدد كبير من القبائل الكردية ، وكان الأكراد غالبا ما يهاجرون الى بلدان الجزيرة حيث يندمجون بسكانها ، وعندما ضعفت السلطة المركزية في بغداد ، واخذت أطراف الدولة تنفصل ، كان من بين القوى التي تحركت بعض قبائل الأكراد ، فمنهم من تجند في واحد من الجيوش ، ومنهم من شغل نفسه بالاغارة على أراضي الامبراطورية البيزنطية ، وهكذا وجد في القرن العاشر لدى الأكراد عدد من الغزاة تجمع حول كل واحد منهم عصابة عسكرية خاصة ، واشتهر من بين هؤلاء رجل اسمه باذ استطاع ــ كما ذكرنا من قبل ــ أن يؤسس دولة في ميافارقين وديار بكر عرفت باسم الدولة المروانية (٣٧٢ ــ ٤٧٨ هـ/ ٩٨٣ ــ ١٠٨٥ م).

وفي القرن الحادي عشر عندما هاجرت قبائل التركمان من منطقة ما وراء نهر جيحون الى خراسان فالعراق والجزيرة وآسية الصغرى والشام دفع التركمان امامهم أعداد كبيرة من الاكراد ، ومع نهاية القرن الحادي عشر صار عدد العناصر الكردية العاملة في جيوش دويلات بلاد الشام والعراق والجزيرة كبيرا ، وجذبت الحروب المزيد ، لكن كان لانسياح التركمان في آسية الصغرى وارمينية واذربيجان والحروب هناك مع الأرمن والكرج والبيزنطيين الأثر الأعظم في قدوم أعداد جديدة كبيرة من

الاكراد ، كما حدث مع بني شداد الذين اشرنا اليهم من قبل ، ومع تزايد الأكراد وتناقص التركمان قامت الفرص أمام الأكراد في بلاد الشام بشكل خاص لوراثة دول التركمان ، وأعني بهذا الدولة الأتابكية ، دولة نور الدين بن زنكي .

هذا وسلفت الاشارة الى عماد الدين زنكي وتأسيسه للدولة الاتابكية في الموصل ، كما سلفت الاشارة الى منجزات عماد الدين في حرب الاسترداد ضد الفرنجة ، لكن من المفيد أن نشير الى أن عماد الدين تورط في عدد من الصراعات السلجوقية في العراق ، ففي سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م هزم زنكي في العراق فانسحب بفلول جيشه نحو تكريت يريد جواز دجلة ، وكانت قلعة تكريت يحكمها ضابط كردي اسمه نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان ، وقام أيوب بتقديم المساعدات والمعابر لزنكي مما كان له عظيم الأثر على زنكي ، وبعد عودته الى الموصل أرسل زنكي له الهدايا وأخذ الطرفان يتبادلان المراسلات والسفارات ، وقد ضاق بتصرفات أيوب سادة بغداد أعداء زنكي ، واضطروا الى عزله عن ولاية تكريت ، فاضطر أيوب في ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م الى مغادرة تكريت ميمما شطر الموصل ، ويروى أنه في الليلة التي غادر بها أيوب تكريت ولد له مولود ذكر سماه يوسف ، وهو الذي سيشهر فيما بعد باسم صلاح الدين .

واستقبل زنكي أيوب واسرته بترحاب واقطعهم اقطاعات كبيرة ، وانخرط افراد الأسرة في خدمة زنكي ، وبرز بعد أيوب أخوه شيركوه ، وبرهن على كفاءات عسكرية عالية ، وعندما احتل زنكي بعلبك سنة ٥٣٤ هـ / ١١٤٠ م عين أيوب واليا عليها واقطعه ثلثها ،وظل أيوب في بعلبك حتى مقتل زنكي،وهنا في هذه المدينة الاستراتيجية ترعرع صلاح الدين في كنف أبيه وعمه ،وقدر أنه تلقى ما كان يتلقاه ابناء طائفته من أهل عصره من تدريبات عسكرية وثقافة عربية إسلامية(١٢) .

وبعد وفاة زنكي صارت بعلبك من أملاك دمشق ، وفي سنة

١١٥٢ م ، وكان صلاح الدين قد صار في الرابعة عشرة من عمره ، غادر بصحبة عمه شيركوه بعلبك الى حلب حيث دخلا في خدمة صاحبها نور الدين الشهيد ، وسريعا غدا شيركوه من أبرز أمراء جيش نور الدين،وقد حاز على اقطاعات خاصة ، وتجمع حوله قوة عسكرية خاصة ستعرف فيما بعد باسم الأسدية ، لأن شيركوه كان يلقب بأسد الدين ، ومن المرجح أن صلاح الدين نال من عمه رعاية خاصة ، وقد رافقه بشكل دائم حتى حل منه محل النائب ، كما أن صلاح الدين قد تأثر عظيم الأثر بخلق نور الدين ومثله كلها ، وفي سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ دخل نور الدين مدينة دمشق ، فعين شيركوه شحنة ـ حاكما عسكريا ـ لها ، وفي سنة ١١٥٦ م تسلم صلاح الدين منصب نائب شحنة دمشق لفترة قصيرة ، حيث ترك عمله هذا والتحق بجيوش نور الدين وشارك في أعمالها الحربية ضد الفرنجة ، ولازم نور الدين ملازمة شديدة حتى صار من رجاله المقربين ، وقد وصف ابن أبي طي ذلك بقوله : « واستخص نور الدين صلاح الدين ، والحقه بخواصه ، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر ، وكان تفوق في لعب الكرة ـ البولو ـ وكان نور الدين يحب لعب الكرة » (١٣) .

وفي الحقيقة نال صلاح الدين شهرته ، وبدأ يدخل الباب العريض للتاريخ عندما رافق عمه شيركوه في حملات نور الدين على مصر .

كانت مصر أنئذ مقرا للخلافة الفاطمية ، ودون الدخول بتفاصيل تاريخ هذه الخلافة تكفي الاشارة الى ان الفاطميين ضعفت قوتهم بشكل كبير وخاصة في القرن الحادي عشر ، وكان أبرز الخلفاء الذين حكموا في القاهرة في هذا القرن المستنصر بالله (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤)ففي أيام هذه الخليفة هوت الخلافة الفاطمية بسرعة كبيرة .

كانت الخلافة الفاطمية خلافة شيعية عقائدية ، قام نظامها على سيطرة الامام الخليفة على كل فروع السلطة ، وعددها ثلاثة وهي : الادارة ، الدعوة الاسماعيلية والدعاة ، والجيش ، وكان الخليفة

يعين من يقوم بأعباء الادارة غالبا باسم وزير ، أما الدعوة وإن ارتبطت بالامام مباشرة فقد كان المسؤول عنها يعرف باسم « داعي الدعاة » ، وكان داعي الدعاة هذا يرأس الحزب الاسماعيلي للخلافة الفاطمية ، ويسير جيشا هائلا من الدعاة الموزعين في كافة انحاء عالم اسية وشمال إفريقية .

وكان الجيش يراسه قائد مرتبته ثالثة في سلم الادارة الفاطمية أي بعد الوزير وداعي الدعاة ، والخلافة الفاطمية كما هو معلوم كانت قد قامت في إفريقية (تونس) على ايدي قبائل كتامة البربرية وسواها ، وعندما استولى الفاطميون على مصر وانتقلوا إليها كان قوام جيشهم من العناصر البربرية ، لكن مع الاستيلاء على مصر اصطدم هذا الجيش بجند بلاد الشام ، وقرامطة الأحساء والبحرين ، وأتراك العراق ، فهزم ، وتبين للخلفاء عجز عساكرهم أمام عساكر المشرق ، لذلك شرعوا في تجنيد بعض العناصر التركية والعربية والديلمية ، كما استوردوا أعداد هائلة من الرقيق الأسود وادخلوها في جيشهم ، وهكذا صار الجيش الفاطمي قوامه عدة عناصر بشرية مشرقية ومغربية وإفريقية ، ويقدر بعض الباحثين بأن عدد السودان صار حوالي ثلاثين الفا كونوا سلاح المشاة ، في حين أن بقية العناصر كانت من الفرسان .

ومنذ أواخر القرن العاشر بدأ جند الخلافة الفاطمية يزيدون من صلاحياتهم على حساب المؤسسات الأخرى ، وفي أيام المستنصر جرت محاولات انقلابية استهدفت الحكم على الخليفة والخلافة حسب ماكان جاريا في مركز الخلافة العباسية ، ونجحت إحدى المحاولات سنة ١٠٧٤ م بقيادة ضابط من أصل أرمني اسمه بدر الجمالي ، ومنذ ذلك الحين حكم قائد الجند على الخليفة وصار سيدا فعليا ومطلقا للخلافة الفاطمية يحمل من الألقاب : أمير الجيوش ، الوزير وداعي الدعاة ، وصار هذا المنصب وراثيا أيضا ، وعندما وصل الغزو الصليبي إلى الشام كان الأفضل بن بدر الجمالي عزيز مصر وسيدها .

وقد أدى هذا إلى ردات فعل مؤثرة داخل الدعوة الاسماعيلية وقاد بعد وفاة المستنصر مباشرة إلى انشقاق الدعوة الاسماعيلية إلى شطرين : نزارية ومستعلية ، ذلك أنه عندما توفي المستنصر واجه الأفضل أمير الجيوش أمر اختيار خليفة جديد ، وكان هناك نزار الابن الأكبر للمستنصر ، وكان معينا لولاية العهد ، والمستعلي وكان أصغر من نزار واضعف وبدون سند او جماعة ، فاختاره أمير الجيوش خليفة وصاهره ، وهنا هرب نزار إلى الاسكندرية ، وقام بثورة هناك ، فلاحقته قوات أمير الجيوش ، وقضت عليه وعلى حركته .

ورفضت أعداد عظيمة من الاسماعيلية خارج مصر الاعتراف بالمستعلي ، وبرز بينهم في المشرق داعية كبير اسمه حسن الصباح ، قام بتأسيس دعوة اسماعيلية جديدة عرفت باسم ـ الحشيشية ـ أعلنت الحرب على خصومها وقررت اغتيالهم طقوسيا بواسطة الطعن بالسكاكين ، ولقرابة ثلاثة قرون اغتال الحشيشية عددا كبيرا من قادة المسلمين والصليبيين ، واستولوا في المشرق والشام على عدد من القلاع الحصينة ، وكان دورهم أيام الحروب الصليبية متميزا (١٤) .

وفي القاهرة توفي المستعلي سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م فخلفه ابنه الآمر ، وفي سنة ٥٢٤ هـ ـ ١١٣٠ م اغتال الحشيشية هذا الخليفة فكان آخر الخلفاء الأئمة ، حيث جاء بعده أربعة تربعوا على عرش القاهرة لكن خلفاء فقط لا أئمة ، أي أن سلطتهم كانت زمانية فقط ، وضعفت مصر أيام هؤلاء الأربعة ضعفا شديدا ، وقامت صراعات داخلية بين عدد من الجند حول السلطة والحكم ، واشتدت هذه الصراعات أيام نور الدين ، وخاصة عقب دخوله إلى دمشق ، وتنبه نور الدين إلى ماكان يجري في مصر ، وبلغه أن الصليبيين يريدون الاستيلاء عليها ، وأن بعض رجالات الصراعات الداخلية قد اتصلوا بهم ودعوهم للقدوم إلى القاهرة .

ودون الدخول هنا بكبير تفاصيل الأحداث ، يكفي أن نذكر أن

نور الدين بعث بثلاث حملات متتـالية إلى مصر قـادها واحـدة تلو الأخرى أسد الدين شيركوه ، وشغل فيها صلاح الدين دورا ، لاشك انه كان كبيرا جدا ، وأن دوره هذا هو الذي رشحه للزعامة ، كمـا أن هذه الحملات عرفت صلاح الدين على مصر ومشاكلها ، وجعلتـه مع القوات الأسدية ينالون تـدريبات عسـكرية عملية ، ولاشـك أن صلاح الدين أقـام في أثناء ذلك بعض العـلاقات مـع بعض القـوى السياسية المصرية ، وخاصة المعارضة منها .

وكان من بين الذين تحكموا بمصر وزير اسمه شـاور السـعدي اصطدم بوالي الصعيد واسمه ضرغام بن ثعلبة ، فهـزم ، واضـطر إلى مغادرة القاهرة والتوجه إلى دمشق حيث التجـأ إلى نور الدين وطلب مساعدته ، ولاشك هذا اللجوء والطلب قد لاقى هـوى في نفس نور الدين ، لكنه تردد في الاجابة وأقبل على دراسة القضـية بجميع أبعادها ، ووضع خطة عسكرية تقضي بإرسال فرقة من قواته بقيادة شيركوه ، وبالوقت نفسه إشغال الفرنجة في الشام عسـكريا حتـى لاتتاح لهم الفرصة للتدخل وقطع الطريق على شيركوه ، وفي جمادى الثانية لسنة ٥٥٩ هـ/ أيار ١١٦٤ م انطلق شـيركوه يريد مصر ، وعندما سمع ضرغام بمسير جنود الشـام نحـو مصر تـوجه نحـو الصليبيين ينشد العون ، ووصل شـيركوه إلى مصر وهـزم قـوات ضرغام ودخل القاهرة ، فأعاد شاور « إلى منصبه ومرتبته ، وقرر قواعده ، واستقر أمره وشاهد البلاد وعرف أحـوالها ، وعاد منهـا وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد ، وعرف أنها بـلاد بغير رجـال ، تمشي الأمور فيها بمجرد الايهام والمحال » .

وما إن استقر شيركوه في مصر قليلا حتى عرف أساليب الحكم في القاهرة ، فتركها وتحصـن في بلدة بلبيس ، وأراد شـاور إخـراج شيركوه فأخفق ، فاتصل بعموري ملك القـدس وعرض عليه مبلغـا كبيرا من المال للقـدوم إلى مسـاعدته ، وخـف عمـوري على رأس قواته ، وبعدما وصل مصر قام يساعده شـاور بمهـاجمة بلبيس ، وتصدى شيركوه للمهاجمين واتخذ موقف الدفاع ، وقـام عمـوري

بمحاصرته واستمر الحصار ثلاثة اشهر ، قام خلالها نور الدين - وقد اخفق في إرسال النجدات إلى شيركوه - بضغط عسكري شديد على ممتلكات الصليبيين في الشام ، فاضطر عموري إلى التفاوض مع شيركوه ، فاتفقا على الانسحاب جميعا من مصر ، وهذا ماحصل(١٥) .

ولم ترض النتائج المتواضعة لحملة شيركوه نور الدين ، إنما وضعت في روعه ان احتلال مصر أمر لابد منه ، وأنه يحتاج إلى قوة أكبر من التي أرسلت ، وفي مصر كان شاور متيقنا من عودة جيوش الشام لذلك « كاتب الفرنج ، وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد .... وبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر أن يملكها الكفار » .

وبادر نور الدين إلى تجهيز جيش جديد ، عهد بقيادته إلى شيركوه ، ومرة ثانية رافق صلاح الدين عمه ، وفي ربيع الأول لسنة ٥٦٢ هـ/كانون ثاني ١١٦٧ م انطلق الجيش نحو مصر ، وبعد صعوبات شديدة وصل الى اطفيح على بعد أربعين ميلا من القاهرة الى الجنوب منها ، وهناك عبر النيل وتابع سيره حتى الجيزة حيث عسكر هناك.

ووصل في الوقت نفسه جيش مملكة القدس الصليبية يقوده الملك عموري ، وعسكر تحت أسوار الفسطاط ، بحيث تفاوض مع شاور ، فتم الاتفاق على أن يدفع شاور للفرنجة أربعمائة الف قطعة ذهبية مقابل عدم تخليهم عنه .

وراقب الجيشان الشامي والصليبي بعضهما بعضا عبر النيل ، ولم يتعجل شيركوه المعركة ، ذلك أنه كان على معرفة بأخلاق الفرسان الصليبيين وامزجتهم ، فالفارس الصليبي كان لايعرف الانضباط ، وكان عديم الصبر متهورا ، وكانت أفضل الوسائل للتعامل معه مطاولة القتال كيما يركبه الملل فيتهور بعمل انتحاري طائش أو ينسحب ، كما كان شيركوه عنده أخبار عن قيام نور الدين بالضغط العسكري الشديد على ممتلكات الصليبيين في الشام .

وكان موقف شيركوه العام حرجا فعقد مجلسا حربيا لدراسة الموقف ، وفي هذا المجلس كان راي غالبية القادة الانسحاب والعودة إلى الشام وقالوا لشيركوه : « إن نحن انهزمنا ـ وهو الذي لاشك فيه ـ فإلى أين نلتجيء وبمن نحتمي .... وحق لعساكر عدتهم الف فارس قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن ترتاع من لقاء عشرات الألوف » وعارض أحد القادة هذا الراي وقال : « من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون .... في بيته ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ، ليأخذن اقطاعاتكم ، وليعودن عليكم بجميع ماأخذتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : اتأخذون اموال المسلمين وتفرون عن عدوهم ، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار » ! فقال شيركوه هذا راي ووافقه صلاح الدين ، واتخذ القرار بذلك .

وعبر جيش الفرنجة النيل ، فتراجع أمامه شيركوه إلى منطقة الأشمونين وعبأ قواته للمعركة في بقعة عرفت باسم « البابين » وكانت قوات شيركوه لاتتجاوز الألفين ، في حين أن قوات الفرنجة وشاور كانت أضعاف ذلك .

وقامت خطة شيركوه على فصل سلاح فرسان العدو عن مشاته ، وكان فرسان الصليبيين مدرعين سلاحهم الأساسي هو الرمح الغليظ الاسطوانة ، وكان الفارس الصليبي يحزم نفسه إلى ظهر فرسه ، ويسلط رمحه إلى الأمام ويمسكه بكلتا يديه أو يضعه في مكان مخصص تحت إبطه ، واعتمد قتال هذا الفارس على قوة الخرق التي كان ينالها من اندفاع فرسه ، وبطبيعة تسليحه هذا كان بحاجة إلى حماية من جنود مشاة ، كما أنه كان لايستطيع البقاء على أرض المعركة طويلا ذلك أنه كان يصاب بالانهاك ، لأن دروعه كانت تعيق تعرق جسده .

ومع أن طاقات الفارس الصليبي كانت جبارة إلا أنه كان وحيد التسليح منعدم المرونة ، ليس لديه قدرة على الانسياب .

ورتب شيركوه قواته الترتيب الخماسي المعتاد : مقدمة ، قلب ،

مؤخرة ، ميمنة ، ميسرة ، وقام بوضع جميع العتاد مع القلب حتى يظهر حجمه كبيرا وعهد لصلاح الدين بقيادة القلب ، وتسلم هو قيادة الميمنة ، وأوصى صلاح الدين وأعوانه بقوله : « فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولاتهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم » .

وانقض فرسان الفرنجة على قلب جيش شيركوه ، « فقاتلهم من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم » وهنا قامت ثغرة بين سلاحي الفرسان والمشاة لدى الفرنجة « فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على » مشاة الفرنجة « فهزموهم ووضع السيف فيهم ، فأثخن ، وأكثر القتل والأسر ، وانهزم الباقون ، فلما عاد الفرنج من إثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليس به منهم ديارا فانهزموا » .

وإثر المعركة توجه شيركوه نحو الاسكندرية فدخلها ، وترك بها حامية صغيرة بقيادة ابن أخيه صلاح الدين وتوجه هو نحو الصعيد ليجمع الخراج ، وفي أثناء هذا أعاد عموري تشكيل قواته مع قوات شاور وزحف نحو الاسكندرية ، وأثناء ذلك راسل شيركوه شاور ، وعرض عليه التعاون معا ضد الفرنجة ، ووعده أنه بمجرد طرد الفرنجة من مصر فإنه سينسحب مع قواته عائدا إلى الشام ، ورفض شاور الاستجابة ، فقتل رسول شيركوه وأطلع الملك عموري على محتوى المراسلة .

وزحفت قوات الفرنجة وشاور على الاسكندرية والقيا عليها الحصار ، وأثناء ذلك حاول عموري الذهاب إلى الصعيد لقتال شيركوه فأقنعه شاور بعدم الذهاب ، وحوصرت الاسكندرية لمدة أربعة أشهر ، صمد خلالها صلاح الدين صمودا رائعا وأظهر براعة قتالية كبيرة ، كما نجح في كسب تأييد أهل المدينة له بحيث تفانوا في الدفاع معه ، وعندما اشتد الحصار قدم شيركوه من الصعيد ، وهنا جرت مفاوضات بين عموري وشيركوه اتفقا فيها على الانسحاب جميعا من مصر ، وهكذا رفع الحصار عن الاسكندرية ، وغادر

صلاح الدين وقواته المدينة في شوال ٥٦٣ هـ/ اب ١١٦٧ م ، وكان في الاتفاقية أن يتم نقل الجرحى من جيش الشام على سفن الفرنجة إلى عكا ومن هناك إلى دمشق (١٦) .

وفي دمشق ساء نور الدين انسحاب قواته من مصر ، لكنه لم يقم بنقد شيركوه أو لومه ، بل قدر له نصره في معركة البابين ، وأخذ من جديد يعد العدة لحملة ثالثة على مصر تكون حاسمة ، وفي المقابل زاد عموري ، وقد وصلته النجدات من أوربا ، من استعداداته لغزو مصر ، وكان قد اتفق سرا مع شاور على ابقاء حامية عسكرية في القاهرة تساعده على البقاء في منصبه ، ويقول أبو شامة في الروضتين :« وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر – الفسطاط – والقاهرة ، واسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم .... وتحكموا تحكما كبيرا فطغوا في البلاد وارسلوا إلى ملكهم مري ، ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام ، مثله شجاعة ومكرا ودهاء ، يستدعونه لتملك البلاد ، واعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه ، فلم يجبهم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج ، وذوو الراي والتقدم ، وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم الراي عندي أن لا نقصدها ، فإنها طعمة لنا ، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده ، وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ،فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من أرض الشام ، فلم يصغوا إلى قوله وقالوا إن مصر لا مانع ولا حافظ لها ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم الينا نكون قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة ، فلا يقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك».

ويذكر وليم الصوري أن اشاعة انتشرت في أوساط الصليبيين

مفادها أن شاور كان يراسل سرا نور الدين ويطلب عونه للتخلص من الصليبيين ، لذلك جمع الملك جميع قوات مملكته من فرسان ومشاة وتوجه مسرعا نحو مصر ، وفي العشرين من تشرين الثاني ١١٦٨ (ربيع الأول ٥٦٤) اجتاز بعسقلان ، وبعد عشرة أيام من الزحف عبر الصحراء وصل الصليبيون إلى بلبيس حيث حاصروها ثم اقتحموها ، وكما يقول وليم الصوري : « وضع معظم سكانها طعمة للسيف دونما اعتبار للسن والجنس ، وإذا صدف ونجا بعضهم من الموت فإنهم فقدوا حرياتهم ووضعوا على رقابهم نير العبودية التعيس ، وهو مصير بالنسبة للناس الشرفاء أسوأ من أي نوع من أنواع الموت » . وكان من بين الأسرى ابن شاور وابن أخيه .

ويصف وليم بعد هذا المجمل تفاصيل مذابح بلبيس ، ثم يحدثنا بأن عموري أمر بهدم بلبيس ، ثم زحف يريد القاهرة ، فوصلها وأقام معسكره أمامها وبدأت آلات الحصار لديه بالعمل ، وشدد عموري الحصار وضغط على شاور الذي ارتاع لكل ما حدث فأقدم على طرح النار في مدينة الفسطاط فأحرقها ، وظلت النيران تعمل بها مدة أربعة وخمسين يوما ، وراسل في الوقت نفسه نور الدين ، وقام الخليفة العاضد بإرسال أجزاء من شعر بعض نساء المسلمين إلى نور الدين ، كما قام شاور بمراسلة عموري وعرض عليه مبلغ «مليوني قطعة ذهبية مقابل اطلاق سراح ابنه وابن أخيه وانسحاب القوات إلى ديارها » وتهدده أنه إذا لم يقبل سيحرق القاهرة كما أحرق الفسطاط .

وكان عموري عندما توجه نحو مصر قد أعد أسطولا كبيرا أمره بالتوجه نحو مصر ، وبالفعل وصل هذا الأسطول إلى بحيرة المنزلة ، وأخذ تنيس ، وأبحر في النيل يريد الوصول إلى معسكر الفرنجة ، لكن « المصريين سدوا النيل بمراكبهم ومنعوه من العبور » وأحرقوا عددا من سفنه ، وعندما بلغت الأخبار الملك عموري قرر ارسال حملة للاستيلاء على طرف من أطراف النيل على

الأقل ، ولكن هذه الحملة لم تمض إلى تنفيذ ما رسم لهـا ، ذلك أن الأخبار وصلت الى عموري بأن شيركوه في طريقه إلى مصر » وقـد اجبره هذا على تغيير الخطة ، فأمر الأسـطول بـالابحار عائدا إلى البحر في الحال والعودة الى الديار » واستمرت الاتصالات مع شاور الذي عجل بمبلغ مائة ألف قطعة والابتعاد عن أسوار القـاهرة حيث استمرت المفاوضات مع شاور .

وفي الشام كان نور الدين، عندما بلغته اخبار ما حـل بمصر مـع مراسلات الخليفة العاضد وشاور ، وقد أمـر على الفـور شـيركوه بالاستعداد للسفر إلى مصر وارفقه جيشا قوامه » اكثر من خمسـة الاف من الرجالة الأبطال وأضاف إليهـم نور الدين ألفـي فـارس» وانطلق شيركوه مسرعا يريد القاهرة ،» ولما سمع الفرنج بنهـوض عسكر الاسلام اجفلوا أجفال النعام ورحل ملكهم إلى بلبيس» ، حيث أعد ما كان يحتاجه من مـؤن ، وزحـف في ٢٥ كانون الأول (١١٦٨) نحو الصحراء يريد شيركوه، لكنه ما أن توغل قليلا حتى جاءته الأخبار بأن شيركوه عبر النيل مع قواته » ودخل القـاهرة ، وهنا وجد عموري أن السبل قـد سـدت أمـامه ، وأن البقـاء في مصر – كما يقول وليم الصوري – خطر مـا بعـده خـطر » وأن الاشتباك مع شيركوه مغامرة لا تقل خـطرا » لذلك عاد إلى بلبيس ، ومنها في الثاني من كانون الثاني ١١٦٩ م اخذ طريق العودة نحـو فلسطين .

وفي القاهرة صار شيركوه سيد مصر ، وكان عليه أن يتخلص من شاور ، لتخلص له السيادة ، وقام الخليفة العاضد بمنح الاقطاعات والأموال لشيركوه وأتباعه ، وطالب شيركوه بإقطاعه ثلث البـلاد ، فماطله شاور ، وصار من عادته أن يركب كل يوم لزيارة شـيركوه ، ليغرس في قلبه الطمأنينة حتى يتسنى له الغدر به ، ويبـدو أن هـذه النوايا كانت متوقعة ، لذلك اتفق صلاح الدين مع عدد من القادة على الفتك بشاور ، وفي أحـد الأيام جـاء لزيارة شـيركوه فلم يجـده في مقره ، واخبره صلاح الدين بـأنه ذهـب لزيارة قبـر الامـام

الشافعي ،وتمنى عليه اللحاق به ، فاستجاب شاور ، وقام صلاح الدين بمرافقته ، وفي الطريق وثب عليه يعاونه بعض القادة ، فالقوه ارضا ، وسحبوه إلى إحدى الخيم ، « فعلم أسد الدين الحال ، فعاد مسرعا ، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه ، وارسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين ، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله ، وتابع الرسل بذلك ، فقتل شاور في يومه (شباط ١١٦٩ م) وحمل رأسه إلى القصر ، ودخل أسد الدين إلى القاهرة ، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قدَ أمركم بنهب دار شاور ، فقصدها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه ، وقصد أسد الدين قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ، ولقب الملك المنصور ، أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة ».

وهكذا صار شيركوه سيد مصر ، وصارت مصر فعليا من أملاك نور الدين ويعلق وليم الصوري على هذا التغيير بحسرة بقوله :« كانت جميع موارد مصر وثرواتها الهائلة وقفا على حاجاتنا ، وحدود مملكتنا من تلك الناحية كانت أمنة ، ولم يكن هناك عدو نخشاه في جهة الجنوب ، وكان البحر أمنة ممراته لا خطر فيها على السفن الراغبة بالقدوم إلينا ، وكان افراد شعبنا يدخلون أراضي مصر دونما خشية وينشطون تجاريا في ظروف مناسبة جدا ، وكان المصريون يجلبون إلى مملكتنا البضائع الجيدة والحاجات الغريبة غير المتوفرة لنا ، وفي زياراتهم لنا كنا نستفيد فوائد كبيرة وترقى مكانتنا ، زد على ذلك أن المبالغ الكبيرة التي كانوا ينفقونها بيننا أغنت موارد خزانتنا وزادت من ثروتنا الخاصة .

إنما الآن إنعكست الآية وتغير كل شيء إلى الأسوا .... فكيفما التفت أجد فقط أسبابا للخوف وعدم الراحة ، فالبحر يرفض اعطاءنا ممرات أمنة ، وجميع المناطق ، المحيطة بنا خاضعة لعدونا ، والممالك المجاورة تعد العدة لتدميرنا» . إنما مما يؤسف له أن شيركوه لم يتمتع طويلا بمنصبه فقد توفي بعد شهرين وعدة أيام

مـــــن تـــــوليه الوزارة (٢٢ جمـــــــــــادى الأخرة ٥٦٤ هـ ـ ٢٣ اذار ١١٦٩ م) ، وبعـد وفـاته بثـلاثة أيام استدعى الخليفة ابن أخيه صلاح الدين وعينه وزيرا مكانه ، ومنحه لقب «الملك الناصر»(١٧).

ولم يكن حدث وصول صلاح الدين الى السلطة أمرا عابرا ، فهو لم يتم اختياره بحكم قرابته مـن أسـد الدين شـيركوه فقـط ولكن لأسباب معقدة أخرى ، فقد كان الجيش الشامي في مصر يتألف مـن مجموعتين : واحـــدة عرفـــت بـــاسم الأســـدية ، وكان قوامها(٥٠٠)مقـاتل ، والثـانية ضـمت بقية الجيش وعرفـــت بالنورية ، وقد راس الثـانية عدد من القادة ، وإثر وفـاة شـيركوه رشحت جماعة النورية عددا من المرشحين لخلافته ، في حين اتفقـت كلمة الأسدية على ترشيح صـلاح الدين ، ونظـرا لتصـارع قـادة النورية تهيأت فرصة النجاح أمام صلاح الدين فنال منصب الوزارة ثم قيادة الجيش مكان عمه ، ورفض عدد مـن قـادة النورية اختيار صلاح الدين ، ولذلك لم تكن الأمور سـهلة أمـامه لدى وصـوله إلى السلطة .

كان عليه أولا أن ينال تأييد قادة الجند الشامي ثم ينطلق لمواجهة مشاكل مصر ، وكانت كثيرة ، يتصدرها قصر الخلافة والجيش ، ثم كان عليه أن يوجد صيغة للتعامل مع نور الدين ، فقد ظهرت مـطامح صلاح الدين الاستقلالية بشكل مبكر ، وحرضها الجهاز الذي تكون حوله .

لقد كان على صلاح الدين أن يوجد الحلول لجميع المشاكل ضمن ظروف صعبة جـدا ، ووسـط التهـديد الصـليبي الدائم ، ذلك أن الصليبيين ما كانوا ليسلموا لخسارة مصر ، بل على العـكس مـن الملاحظ أن توجهاتهم صارت مصرية بالدرجة الأولى ، وهذا ما نراه في أخبار « الحملات الصليبية » المقبلة .

وفي البداية تمكن صلاح الدين من ارضاء غالبية القوات النورية ، والذي رفض ترك مصر وعاد إلى الشام ، وبعد هذا التفت نحو قصر

الخلافة ، حيث عرف أن بعض كبار رجـاله راسـلوا ملك القـدس ودعوه إلى مصر ، وقد تمكن صلاح الدين في الوقـت المناسـب مـن ضبط أمور القصر ، لكن هذا قاده الى الصدام مع القوات السودانية في الجيش الفاطمي ، وكان تعدادها أكثر من ثلاثين ألفا .

فقد ثار هؤلاء في القاهرة واخذوا يحدثون الشـغب والتحـريق في مناطق المدينة ، وتحرك صلاح الدين ضدهم بسرعة وتمكن بـواسطة قواته المنظمة من نفيهم من القاهرة ، وبذلك صفت له الأمور .

ولكن ما لبث في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م أن وصلته أخبـار عن تجهيز حملة برية بحرية قوامها جيوش مملكته القدس مع نجدات من بقية الممالك ومـن الأمبـراطورية البيزنطية ، وقـام صـلاح الدين بإرسال النجدات الى دمياط ، واعتنى بشؤون الدفاع عنهـا ، وكان لدمياط خط دفاعي متقدم ، فقد بنوا على طرفي مجرى النيل ، بعيدا عن أسوار المدينة أبراجا دفاعية ووصلوا بين هذه الأبراج بسلاسل ضخمة ، كانت تشد وقت الحاجة فتحول بين الأساطيل الغازية وبين الوصول الى الأسوار .

ويقدم لنا وليم الصوري تفاصيل كبيرة حول حصار دمياط لا نجد مثيلا لها لدى المؤرخين العرب ، فهو يخبـرنا بـأن المقـاومة كانت شديدة جدا ، وأن المؤن والنجدات كانت تصل بشكل متـواصل مـن القاهرة ، ويعني هذا أن الحصار لم يكن محكما ، وطال الحصار ، وانعدمت المؤن لدي الصليبيين وكان المحاصرون يقلعـون بين الحين والآخر بهجمات صـاعقة على معسـكر الصـليبيين ، مـن ذلك أن أسطول الغزاة رست سفنه في مكان ظنوه مناسبا ، وفي أحـد الأيام وجد المدافعون « بأن اتجاه الريح كان من الجنوب وأن أمواج النيل تهدر بعنف ، فـاغتنموا الفـرصة ، وقـاموا بجلب مـركب عادي وشحنوه بالأخشاب اليابسة مع الاسفلت والمواد سريعة الاحتراق ، ووضعت النار في القارب ، ودفع الى النهر حيث قـاده التيار بسرعة كبيرة نحو الأسطول » وقد أدى هذا الى احراق عدد كبير من السفن الكبيرة .

ومع مرور الايام وجد عموري انه ليس فقط من العبث بل من الخطر الكبير البقاء في مصر ، لذلك اتخذ قرارا بالانسحاب وذلك بعد حصار دام حوالي الشهرين.

لا شك أن نجاح صلاح الدين في مواجهة مجمل هذه المشاكل ، أظهر معدن الرجل ، وجاء مؤشرا بالنسبة لمستقبل الأيام ، ولعل هذا زاد من النزعات الاستقلالية لديه ،وادى إلى توتر العلاقات بينه وبين نور الدين ، وكان بالتالي محرضا لصلاح الدين للقيام بتمتين مركزه في مصر بالذات ثم القيام بالاستيلاء على اراضي ليبيا ، وقد قاده هذا الى الاصطدام بسلطات الامبراطورية الموحدية في تونس ، مما كان له بعض الأثر على سياسة الموحدين في الأندلس ، ثم رفضهم التعاون مع صلاح الدين ضد الصليبيين فيما بعد .

واهتم صلاح الدين بالبحر الاحمر ، فسعى للسيطرة عليه وعلى شواطئه ، ذلك أن مصر الفاطمية كانت تمتلك اسطولا خاصا ، والاهتمام بالبحر الأحمر جر صلاح الدين إلى الاهتمام بشبه جزيرة العرب ، حيث أرسل حملة إلى اليمن فاحتلها كما أخذ يهتم بالحجاز ، ومدينتيه المقدستين - مكة والمدينة -وعندما شعر صلاح الدين بمتانة مركزه اقدم على خطوة سياسية جريئة جدا ، وهي إلغاء الخلافة الفاطمية ، فقد أمر الخطباء في أول جمعة من محرم سنة سبع وستين وخمسمائة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي واستبدالها للخليفة العباسي ، والحق عمله هذا بجرد محتويات قصر الخلافة في القاهرة وبيعها وتصفية جميع ممتلكات الأسرة الفاطمية وأسبابها (١٨).

إن مجمل الأحداث التي مرت بصلاح الدين منذ وفاة عمه وحتى تاريخ الغائه للخلافة الفاطمية فيه ما يبرهن على عبقريته وفيه في الوقت نفسه ما يشير الى انه ملك من الامكانات ، خاصة الادارية والعسكرية والاقتصادية ما ساعده على النجاح .

فعلى الصعيد الاداري ورث صلاح الدين من عمه ادارة خاصة

ناشئة ترأسها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ، وكانت قدراته الادارية والثقافية عالية ، وله خبرة مسبقة بالادارة الفاطمية لمصر ، وقد رافق القاضي الفاضل صلاح الدين منذ بداية حياته السياسية في مصر ، وظل معه رئيسا حتى النهاية .

ولا شك أن وجود الادارة الناجحة الى جانب صلاح الدين ساعد على مواجهته للمشاكل العسكرية والمالية ، فصلاح الدين ورث من عمه أفراد الحملة التي جاءت من الشام ، وكان فيها حوالي ٨٠٠٠ مقاتل ، لكن كما سلفت الاشارة انسحب جزء من افراد هذه الحملة إلى الشام بعد تسلم صلاح الدين للوزارة ، وجاء اعتماد صلاح الدين أساسا على الجماعة الأسدية التي كان عددها ٥٠٠ مقاتل ، وخلال فترة وجيزة شكل صلاح الدين فرقة جديدة باتت تعرف باسم الصلاحية لا ندري تعدادها في البداية ، حيث أن المصادر لم تأت لها على ذكر ، إنما اشارت بعض المصادر إلى أن صلاح الدين انفق سنة ١١٦٩ على قواته الجديدة مبلغا قدره(٥٠٠ ، ٤٨٧ ، ١) دينارا ، ومن خلال بعض النصوص يتبين لنا بأن النفقة الاجمالية للمقاتل الواحد كانت قرابة « ٤٢٥ » دينار للعام الواحد ، ومن خلال عملية حسابية بسيطة يمكن أن نقدر أن عدد القوات التي جندها صلاح الدين سنة ولايته للوزارة في مصر كانت حوالي ٣،٥٠٠ ومع الأيام تضاعف عدد هؤلاء ، ففي عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م كان تعداد قوات صلاح الدين النظامية من الفرسان حوالي ١٤ر٠٠٠ وكانت نفقاتهم حوالي ٤ر٥ مليون دينار ، إنما لم تقتصر قوات صلاح الدين على الفرسان النظاميين فقط ، فقد كان هناك بالاضافة لهم المتطوعة وفرسان القبائل العربية ، ففي هذه السنة عندما استعرض صلاح الدين فرسانه « عرض العربان الخدامين فكانت عدتهم سبعة الاف فارس » .

لقد انحدر جل جند صلاح الدين من أصول اسلامية مختلفة ، او كانوا من الرقيق الأبيض المستورد ، وكان الجميع قد استعربوا وذابوا في جسم المجتمع العربي ، هذا المجتمع الذي تحمل افراده

الوزر الحقيقي والنفقات الكاملة للحروب الصليبية ، فمنه جاء رجال الادارة والصناعة والعلماء والفقهاء والمخترعون والتجار ، وافـراد هذا المجتمع قدموا أعدادا كبيرة جدا مـن المتـطوعين العسـكريين وضح اثرهم في أكثر من معركة ، ويمـكن أن نرى نمـاذج منهـا في أخبار تحرير الرها وفي معركة حطين ثم ملحمة عكا أثناء التصدي لما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، وفوق هذا كله لقد مول افـراد المجتمع جميع نفقات حروب التحرير ، وأفراد هذا المجتمع هم الذين حولوا بنية « الأقتصادالعربي »إلى « اقتصاد حربي» مسـخر كليا للتصدي والتحرير.

ومن المؤكد أن صلاح الدين مع عدد كبير من جنده كانت انسـاب اسرهم غير عربية ، وقد تصـدرُوا الواجهـة العسـكرية للمجتمـع العربي ، على أساس قيامهم بالمهام الجهادية ، فلقد كانت وشائح المجتمع العـربي أيام صـلاح الدين دينية ،وكان المسـوغ الشرعي لتحكم الجند هو القيام بأعباء الجهاد في سبيل الله ، وفي ظـل هـذا المسوغ تحمل أفراد المجتمع في المدن والأرياف لقرون طـويلة الكثير من التجاوزات مع نفقات جميع الحروب ، ومن المقدرأن الجند كمـا قلنا كانوا أثناء قيامهم بمهامهم الجهادية قد استعربوا كليا ، ووجد بينهم من كانت أسرته قد استعربت منذ جيلين او اكثـر ، واذا مـا اخذنا هذا بعين الاعتبار ، وراعينا العلاقة العضـوية بين العـروبة والاسلام ، وتذكرنا دور افـراد المجتمـع العـربي ، نرى محصـلة منطقية : إن أعمال الجهاد للتحرير والتصدي للغزو الصـليبي كانت عربية صرفة ، ومع هذا لابد من تبيان أن العسكريين المسلمين أيام الحروب الصليبية ، وإن كانوا احدى محصـلات تـطور المؤسسـة العسكرية العباسية منذ أيام الخليفة المعتصـم ، فإنهـم في فتـرتنا كانوا يتصرفون ضمن نواظم مـالية خـاصة لم تـكن قـائمة أيام المعتصم ، فهذه النواظـم ظهـرت في العصر البـويهـي ، وتـطورت اركانها وتوطدت في العصر السلجوقي ، وقامت على ما عرف بـاسم الاقطاع العسكري ، وبموجب ما حدث في العصر السـلجوقي وأيام الحروب الصليبية منح مقدم كل جماعة عسكرية ، تركمانية أو كردية

او سوى ذلك ، قطعة من الأرض ، كان ينال نصيبا من مواردها ، فينفقه على نفسه وعلى عدد معين من المقاتلين كانوا يصحبونه وقت الحاجة ، وقد كانت لهذا اثاره السلبية على مواعيد الحروب وتوقيتها ، كما كانت له أثاره البعيدة على فعالية السلطة المركزية للدولة ، وسبب مشكلة دائمة في الفرق بين العدد النظري والفعلي للجيوش (١٩).

ولابد أن المؤسسة العسكرية التي أقامها صلاح الدين بحجمها الكبير المتزايد احتاجت إلى نفقات مالية عالية ، ومؤكد أن موارد مصر وامكاناتها كانت كبيرة ، إنما عندما تسلمها صلاح الدين كانت البلاد نظرا لما مر بها من ازمات ،خزائنها على حافة الافلاس، ويروى أن صلاح الدين عندما تسلم وزارة القاهرة ، ورث عن عمه مبلغا معتبرا من المال ، ثم إنه عندما قام بالغاء الخلافة الفاطمية كانت الأموال المحصلة من محتويات قصر الخلافة ضخمة ، والغاء هذه الخلافة مع تصفية جيوشها وإدارتها مكن من توفير كميات معتبرة من الأموال ، يضاف إلى هذا كله ان صلاح الدين قام ببعض الاصلاحات الادارية ، وأعاد توزيع الأراضي المقطعة ، وهكذا توفرت له احتياجات نفقاته.

وبرغم جميع ما حققه صلاح الدين في مصر ، فقد كان من الناحية الرسمية تابعا لنور الدين ، لذلك كان عليه أن يبعث بالأموال إليه مساهمة في أعمال الجهاد التي كان نور الدين قائما بها ، وارسال الأموال لنور الدين كان معناه تعطيل مشاريع صلاح الدين في مصر ، لذلك تذمر نور الدين من قلة ما أرسله له صلاح الدين ، ففي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م أرسل صلاح الدين إلى نور الدين رسولا حمله شيئا من مصادرات قصر خلافة القاهرة،فشكر نور الدين همته ، وذكر بالكرم شيمته ، ووصف فضيلته ، وفضل صفته ، وقال : ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ، ولا نسد به خلة الاقلال ، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر ، وبنا الى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر ، وتمثل بقول أبي تمام :

لم ينفق الذهب المربى بكثرته

على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة الى السداد ، ووفور الأجناد ، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد ، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بـالمعونة والأمداد ، فاستنزره وما استغزره واستقل المحمـول في جنب مـا حرره ، وتروى فيما يدبره ، وأفكر فيما يقـدمه مـن هـذا المهـم ويؤخره ».

وقرر نور الدين ارسال وزيره الخاص إلى القاهرة «وأمره بعمل حساب البلاد واسـتعلام أخبـارها وارتفـاعها ، وابن صرفـت أموالها ، فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة».

وقد أدى هـذا كله إلى تـوتر العـلاقات بين نور الدين وصـلاح الدين ، ووصل التوتر الذروة في العام نفسه(١١٧٢ م) ذلك أن نور الدين قرر القيام بحملة حاسمة ضد فـرنجة الشـام «فـأرسل الى صلاح الدين يأمره بجمع العسـاكر المصرية والمسـير بهـا إلى بلد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ، ليجمع هو أيضا عسـاكره ويسير إليه ، ويجتمعا هناك على حـرب الفـرنج والاسـتيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين مـن القـاهرة ....وكتـب الى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلمـا أتاه الخبر بذلك رحل عن دمشق قاصدا الكرك ، فوصل إليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصـول إليه لاختلال وضع البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعـد عنهـا ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه مـن الاجتمـاع بنور الدين ، فحيث لم يمتثل أمـر نور الدين شـق ذلك عليه وعظـم عنده ، وعزم على الدخول إلى مصر ، واخراج صلاح الدين عنهـا ،

فبلغ الخبر صلاح الدين ، فعقد مجلس استشارة ضم أهله وعلى راسهم والده مع كبار اعوانه ،وبعد مناقشات طويلة نصح صلاح الدين بالعمل على استرضاء نور الدين ومدافعته بالأيام ، وبالفعل ارسل صلاح الدين إلى نور الدين رسالة اعتذار مع هدية كبيرة ، فسكن غضب نور الدين ، إنما مؤقتا وظل الحال بينهما هدنة على دخن ، فقد بقي في نية نور الدين عزل صلاح الدين عندما تحين الفرصة ،ولكن هذه الفرصة لم تحن ذلك انه توفي بشكل مفاجىء في دمشق «يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة»(١٥ - أيار ١١٧٤ م) لقد واجه حادث وفاة نور الدين في دمشق صلاح الدين بقضية مماثلة من حيث الجوهر لتلك التي واجهته إثر وفاة عمه شيركوه ، إنما وإن وجد الشبه في جوهر القضيتين ، فإن الفوارق بينهما كانت شاسعة تفوق المسافة ما بين دمشق والقاهرة ، فسورية سياسيا ليست مثل مصر ، ليس بسبب وجود الاحتلال الصليبي فيها ، ولكن لبنيتها الخاصة الجغرافية والسياسية والاجتماعية وحتى الدينية.

والباحث في حياة نور الدين المتميزة يلاحظ ان الذي واجهه من الجانب الصليبي كان عموري الأول ملك القدس ، وكان عموري قائدا متميزا ايضا ، له مطامع توسعية كبيرة ، وقد احبط مشاريعه كلها نور الدين ، لذلك عندما بلغه خبر وفاة نور الدين شعر بأن الأقدار أعطته فرصة ثمينة ، فقرر الامساك بها دونما تقاعس ويقول وليم الصوري :« عندما سمع الملك بوفاته - اي نور الدين - حشد جميع قوات المملكة وبدأ بحصار مدينة بانياس » وكانت بانياس تشكل الخط الدفاعي الأول لدمشق ، بحيث يبدو أن عموري استهدف مدينة دمشق فاصطدم أولا ببانياس ، وقاومته المدينة بعنف شديد ، وأثناء حصاره لها تلقى رسالة من «أرملة نور الدين التي تحلت بشجاعة فاقت بها جميع النساء » تطلب منه رفع الحصار والانسحاب ، وبعد حوالي الاسبوعين اضطر الى الاستجابة ، وانسحب عائدا نحو القدس ، وفي طريق العودة شعر

بالمرض ومع وصوله للقدس فارق الحياة في (١١ - تموز ١١٧٤ م)(٢٠).

والسبب الذي جعل أرملة نور الدين تقدم على مراسلة عموري ، هو أن نور الدين خلف بعده صبيا صغيرا عرف باسم الصالح اسماعيل ، وبسرعة كبيرة أعلن ابن نور الدين خليفة له في دمشق ، إنما هذا التحرك السريع لا يمكن أخذه مؤشرا على الوفاق والانسجام بين أركان دولة نور الدين في دمشق بل العكس هو الصحيح ، فقد شهدت دمشق في تلك الفترة العصيبة صراعا عنيفا حول الوصاية على الصالح اسماعيل .

وكما حدث في دمشق ، حدث في القدس ، فقد خلف عموري صبيا صغيرا عرف باسم بلدوين الرابع ، اعلن عقب وفاة والده ملكا على القدس ، وشهدت القدس الآن صراعا حول الوصاية على العرش ، ودخلت قوى كثيرة محلية وخارجية حلبة الصراع ، وقد وصف لنا وليم الصوري أخبار ما حدث بكل تفصيل ، وتحدث عن الملك الصبي ،الذي عهد إليه أمر تربيته ، وكيف أنه عرف فيما بعد أنه مصاب بالجذام ، مما أعجزه وسبب موته .

وفي دمشق اشتد الصراع حول التحكم بوريث نور الدين وعطل هذا الأعمال القتالية ضد الصليبيين ، وفي القاهرة كان صلاح الدين يرقب باهتمام ما يجري في الشام ، وقد حاول التدخل بواسطة الرسل والمراسلة أكثر من مرة ، وأخيرا قرر الذهاب إلى دمشق ووراثة مملكة نور الدين خوفا من بعثرة أراضيها وهدر طاقاتها.

إن تحرك صلاح الدين نحو بلاد الشام يمكن أن يفسر من بعض الوجوه ، على أنه تطبيق لسياسة مصر المستقلة القوية تجاه بلاد الشام أكثر من أنه عمل غذته المصالح الفردية ، فمصر كلما استقلت وشعرت بالقوة تسعى للسيطرة على بلاد الشام ،ذلك أن مصر كما هو معلوم - برغم وجودها في افريقيا - ليس لها حدود طبيعية مع بلاد الشام ، وقد غزيت دائما عن طريق سورية ، لذلك عمل حكام

مصر المستقلة دائما على احتلال سورية ، ومواجهة الغزاة بعيدا عن أرض مصر ، وتاريخ مصر الاسلامية منذ قيام الدولة الطـولونية فيه برهان على صحة هذا ، ولعل في حياة صلاح الدين مثل قريب ، فهو قد قدم من سورية ، وقضى على الخلافة الفاطمية ، واحل محلها نواة دولة اسسها هو ، وبعد ما فعل ذلك شعر بأن المخاطر ضـد حـكمه سيظل مصدرها بـلاد الشـام ، وعلى هـذا الأسـاس فسر بعض المؤرخين تقاعسه عن تلبية دعوة نور الدين للاجتماع به عند أسـوار الكرك ، حيث أن الكرك كانت تشكل حاجزا كبير الفعـالية بين مصر والشام ، ذلك أن حكام مصر المستقلة عندما كانوا يواجهون حـكما قويا في الشام لا يمكنهم قهره ، ويخشون منه على وجودهم ، كانوا يعمـدون إلى المحـافظة على قـوة أو دولة حـاجزة Buffer state بينهم وبين الشام.

ويلاحظ ان مصر المستقلة كانت تنجح احيانا في احتـلال بـلاد الشام ، إنما غالبا ما كانت تخفق بالاحتفاظ بالمناطق الشمالية مـن هذه البلاد ، ولذلك كانت تتساهل مـع الشـمال ، لكن لا تتسـاهل مطلقا مع استقلال الجنوب ، لأن مثل هذا الاستقلال كان فيه تهـديد مباشر وخطير للحكم فيها ، ولعل خير ما يوضح هذا وصية مشهورة قالها يعقوب بن كلس للخليفة العـزيز الفـاطمي ، ثـاني خلفـاء الفاطميين ، في القاهرة ، قالها وهـو على فـراش الموت :« سـالم الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، و لا تبـق على دغفل بن جراح إن عرضت لك فيه فرصة» ، وقد قصد ابن كلس بالروم الدولة البيزنطية ، وبالحمدانية حكام حلب ، حيث قنع منهـم بالاعتراف الشكلي ، وبدغفل بـن جـراح ، أمير قبـائل طـيء في فلسطين الذي كان يطمع بـالاستقلال (٢١) بالرمله وتـأسيس دولة طائية فيها .

الفصل الثالث

المرحلة الثالثة من حروب الاسترداد في الطور الثاني

(مرحلة دمشق)

قبل أن يتحرك صلاح الدين باتجاه بلاد الشام غادر الصالح اسماعيل بن نور الدين دمشق وتوجه إلى حلب ليعتصم بها ، ولهذا عندما وصل صلاح الدين إلى دمشق دخلها دون أية مقاومة ، ولم يكتف صلاح الدين بها ، كما أن المتحكمين بدولة الصالح اسماعيل لم يسلموا لصلاح الدين وواجهوه بالعدوان ، ولذلك ، ولطامح صلاح الدين بملك واسع غادر دمشق وقصد الشمال ، وخاض صلاح الدين العديد من المعارك ضد سلطات حلب وبلدان الجزيرة بما في ذلك الموصل والعديد من مدن الجزيرة ، وبعد سنوات حروب طوال تحقق لصلاح الدين اعادة توحيد بلاد الشام شمالا وجنوبا مع مصر تحت حكمه ،إنما يلاحظ أنه حدث مع صلاح الدين ما حدث مع الفاطميين وغيرهم قبله ، فقد تضاءل نفوذه على شمال بلاد الشام ، وكان العامل الفعال الآن ليس قوة شمال بلاد الشام كما كان فيما سلف ، ولكن قوة الاقطاع العسكري وتكتلاته.

ومهما قيل عن حروب صلاح الدين في بلاد الشام عقب وفاة نور الدين ، فإن هذه الحروب قد حسمت مادة الفوضى في البلاد وحالت في الوقت نفسه بين الفرنجة وبين اي توسع في الشام أو سواها ، أو الاستفادة بأي شكل أو درجة من الأوضاع التي كانت سائدة قبل النصر النهائي له ، وعندما حقق صلاح الدين سيادته الكاملة على الشام صار سيدا لدولة عظمى تمتد من ليبيا إلى جنوب الموصل ، وتشمل مع بلاد الشام :الجزيرة ومصر والحجاز واليمن وطبعا ليبيا أو الشريط الساحلي منها .

ولقد ملكت هذه الدولة ما يكفي مـن طـاقات بشرية واقتصـادية للأعداد للقيام بعمل حاسم ضد الصليبيين ، وأيقن صـلاح الدين أنه قد حان الوقـت لمنازلة جميع القـوى الصـليبية في المشرق في أرض معترك واحدة ، وفي ظروف مختارة بشـكل يناسـب ويمـكن مـن النصر ، وخلال زمن موافق ، يتيح احراز نصر ساحق ضـد القـوات المعادية .

ويلاحظ أن هذه الفترة قد شـهدت يقـظة كبيرة في جميع الميادين الحضارية ، تجلت بشكل واضح في مجالات العلوم العسكرية وفنون القتال ، فقد تم تحسين عدد كبير مـن الأسـلحة ، خـاصة النارية منها - النفط - النار الاغريقية - ومـن حيث رفـع مسـتوى التدريب والمقدرة القتالية الهجومية لدى قوات صلاح الدين ، كما أن دولة صلاح الدين ملكت اقتصادا عسكريا متينا ، فرغم جميع المآخذ على الأقطاع العسكري إلا أن اعتمـاده كان مـن معـانيه تسـخير الموارد الزراعية لصالح العمل العسكري ، هـذا وملك صـلاح الدين نواة اسطول أدت سفنه بعض الخدمات ، إنمـا على العمـوم عانت دولة صلاح الدين من النقص في الأخشاب والفـولاذ ، ونتيجـة لذلك كثيرا ما اضطرت إلى الاعتماد على تجـارة التهـريب - السـوق السوداء - التـي كانت تمـارسها بعض جمهـوريات ايطـاليا التجارية - جنوا - البندقية - بيزا.

وكان الصليبيون يمتلكون أنذاك الشريط الساحلي لبلاد الشـام ابتداء من انطـاكية ، وكان عرض هـذا الشريط لا يتجـاوز أحيانا الثمانين كيلو متـرا ، وكانت أراضـيهم مـوزعة بين دول ثـلا ث مراكزها :انطاكية ، والقدس ، وطـرابلس ، وكانت هـذه الأراضي محاطة من ثلاث جهات بالأراضي العربية ، حيث وجدت مـدن بـلاد الشام الكبرى مثـل : دمشـق ، حمص ، حمـاه ، بعلبـك ، حلب ، وكانت هذه المدن واقعة على مقربة من «الحدود الصليبية» كمـا كان معظم سكان المناطق الواقعة في حـوزة الصـليبيين مـن العـرب السوريين ، علاقتهم بالصليبيين علاقة الغـرباء ، دون أية روابـط اجتماعية أو سواها.

وقامت خطط صلاح الدين في رصد الصليبيين رصدا جماعيا وافراديا ، فهو قد استقر في دمشق ، وأقام في كل من حمص وحماه نواة مملكة اقطاعية أيوبية ، وكان على هاتين المملكتين رصد امارة طرابلس الصليبية ، كما جعل من حلب مقرا لملكة أيوبية ثالثة مهمتها رصد امارة انطاكية الصليبية مع الامبراطورية البيزنطية ، وكانت مهمة صلاح الدين ذات شقين على الأقل ، رصد مملكة القدس والأشراف العام على دولته التي بلغت هذا الحجم الامبراطوري.

وكانت المساعدات البشرية والحربية والاقتصادية ترد إلى الصليبيين من أوربا بلا انقطاع عن طريق الأراضي البيزنطية وعن طريق البحر ، فقد كانت الأساطيل الأوربية تملك السيادة على شواطىء البحر المتوسط خاصة الأوربية والشرقية ، وكانت امكانات صلاح الدين البحرية أضعف من أن تخوض معركة مواجهة مع هذه الأساطيل .

لكن اذا كان اسطول صلاح الدين أضعف من اساطيل أوربا فقد ملك عرب المغرب اساطيل جبارة ، وكان بامكانها لو تعاونت مع اسطول صلاح الدين تقديم خدمات كبيرة جدا ، فلقد كان هناك اسطول امبراطورية الموحدين ، وكان الموحدون يخوضون غمار حرب ضروس ضد الصليبيين في جبهة الأندلس.

وبفطرة الشعور بوحدة المصير ، ووحدة المعركة ، وجد انذاك مواطنون عرب من مدن المغرب والمشرق كان بعضهم يغزو عاما في فلسطين واخر في الأندلس ، من هذا المنطلق راسل صلاح الدين يعقوب المنصور الموحدي بسفارة سامية المستوى ، واستقبل المنصور الموحدي السفارة في مراكش ببعض من الحفاوة ، لكنه لم يلب المطلب الذي جاءت من أجله السفارة وذلك لأسباب عقائدية ، وسياسية تتعلق بالتوسع الأيوبي في ليبيا وبالعلاقات الموحدية العباسية ، ذلك أن الموحدين اعتبروا أنفسهم خلفاء لا ملوك عاديين ، لكن صلاح الدين لم يعترف بذلك بل اعترف بخلافة بني العباس فقط .

واعتمد الصليبيون في كثير من الحالات على حماية الامبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم ، وكانت هذه الامبراطورية القوية تسعى دائما للتنسيق مع الصليبيين والاستفادة من نشاطهم ، يضاف الى هذا أن الصليبيين ركنوا في كثير من الأحيان على المساعدات التي كانت تأتيهم من ارمينية ، وأحيانا من بعض موارنة جبل لبنان .

ومفيد هنا ان نذكر أن الصليبيين حققوا نجاحاتهم المبكرة بسبب تمزق العرب ، وانصراف حكامهم الى النزاعات الداخلية ،لكن في أيام صلاح الدين انعكست الآية وانقلب السحر على الساحر ، فلقد توحد القطاع الأكبر من العرب تحت راية صلاح الدين ، وأخذت الفرقة تحل بين صفوف الصليبيين اجتماعيا وحضاريا واقتصاديا ، كما أخذ التمزق يبدد قوى قادتهم سياسيا ، وكانت الروح المتوقدة التي ظهرت بين صفوف طلائع الصليبيين قد خمدت ، كما أن الفوارق بدت جلية بين ابناء الصليبيين الذين نشأوا في الشام ، وبين هؤلاء الذين قدموا حديثا من أوربة ، وظهر بين صفوف الصليبيين عامة منظمات عسكرية دينية اصطدمت مصالحها في كثير من الأحيان وتعارضت سياستها ، كما جلب الصليبيون معهم الى الشام نظم الاقطاع التي كانت سائدة في أوربا ، لهذا تضاءلت سلطات ملوك الدول الصليبية على الفرسان الاقطاعيين الذين تمركزوا في بعض قلاع الشام ، ولم تعرف جيوش الفرنجة أنظمة الطاعة والضبط والربط ، يضاف الى هذا أن بعضا من الاقطاعيين تطلع نحو عرش احدى الدول الثلاث وحكمه حكما مباشرا أو على شكل وصاية .

وقام صلاح الدين في كثير من المناسبات ، وببراعة متناهية بتوسيع شقة الخلافات بين قادة الصليبيين ، كما كثف النشاط العسكري ضد القلاع ، مستهدفا تدمير الفرنجة اقتصاديا ، ليكون ذلك مقدمة للتدمير العسكري والسياسي ، وتركزت في البداية جهوده على حماية منطقة دمشق ، وذلك بتحرير أراضي الجولان مع منطقة جبل عامل وبعلبك ثم الاشراف على الطريق البري الواصل بين مصر

والشام ، وكان للصليبيين على هذا الطريق حصـن الكرك ، فجهـد صلاح الدين في سبيل الاستيلاء عليه (١).

لقد شهد وليم الصـوري جميع هـذه الأحـوال المتغيرة ، وتملكه رعب شديد دفعه الى التنبؤ بأن مملكة القدس أيلة الى الدمار ، وقـد قام هذا المؤرخ الكبير بوصف تحليلي للمـوقف مفيد الاطـلاع عليه برمته :«ينبغي علي هنا أن انحرف عن مسار روايتي ، ليس لأتجول هنا وهناك دونما هدف ، بل لتقديم شيء ثمين ، فالسؤال الذي اسأله دائما بحق هو : لماذا كان اجدادنا ، يتمكنون بشجاعة من التصـدي في المعركة ، وهم أقل عددا لقـوات عدوة أكبـر منهـم بـكثير ، وغالبا - بنعمة الرب - ما كانت قوة صغيرة مـن قـواتنا تحـطم حشودا كبيرة للعدو ، حتى صار نتيجة لهذا اسم الصليبيين يبعـث الرعب في قلوب الأمم التي لا تعرف الرب ، وهكذا تجلت عظمة الرب في أعمال أجدادنا ، وعلى العكس من هذا نجد رجال عصرنا غالبا ما تلحق بهم الهزيمة من قبل قوات أصغر منهم لا بـل عندمـا يكونون بأعداد اكبر ويحاولون تنفيذ بعض المهام ضـد الأعداد الأقـل قـوة منهم ، فإن جهودهم تتبدد وهم غالبا ما يجبرون على الهزيمة.

إن السبب الأول الذي يبرز أمامنا ، بعد دراستنا لهـذه الحـالة بشكل دقيق ، بمعونة الرب خالق كل شيء : هـو أن أجـدادنا كانوا أتقياء يخشـون الرب لكن نمـا الآن في مـكانهم جيل شرير انغمس بالاثم وسار في طريق الموبقات دونما رعاية أو تمييز ، إنهم مثل ، او بالحري اكثر ، ممن قال عنهم الرب : « ابتعـدوا عنا ، لأننا لا نريد أن نعرف طريقهم » ، إن هؤلاء قد حرمهم الرب بسبب ذنوبهم مـن رعايته لأنهم أثاروا غضبه ، إنهم رجال العصر الحـالي ، خـاصة أولئك الذين يقطنون في الشرق ، فإذا ما أراد المرء أن يصـف بـدقة أخلاقهم ، أو بالحري أثامهم المرعبـة ، سـيعجز أمـام ركام المواد المتوفرة أمامه ، وبكلمة موجزة هو سيبدو وكأنه يكتب عن الموبقـات وليس يصنف كتابا في التاريخ.

وسبب ثان يبرز أمامنا هو أن رجال السلف المبجلين الذين جاءوا

الى أراضي المشرق كانت تدفعهم غيرتهم الدينية وأرواحهم المتـوقدة بالحماس لمعتقدهم ، وكانوا معتـادين على الأنظمـة العسـكرية ، مدربين في المعارك ويحسنون استخدام الأسلحة ، وفي المقـابل كانت شعوب الشرق على عكس ذلك ، حيث أنها عاشت طويلا وادعة مـع السلم ، وابتعدت عن الحرب وكانت معتادة على فنون القتـال ، ولا تعرف أحكام المعركة وتنعـم بـالهدوء والراحـة ، ولهـذا لم يكن مستغربا أن تتمكن جماعة قليلة من الرجـال بسـهولة من هـزيمة جماعات اكبر منها ، ومن ثم تفخر وتعتز برايات النصر ، لأن في مثل هذه المسائل – كما يعرف خبراء الحرب أحسن مني – الربـح في السلاح مقرون بطول الممارسة ، فعندما تواجه قـوة غير مـدربة ، وليس لديها صبر فأنت في العادة الرابح.

وسبب ثالث ليس أقل اهمية وتاثيرا يفرض نفسه على مـداركي هو أنه كان لكل مدينة شرقية فيما مضى حاكمها الخاص ، ولنقل على طريقة أرسطو لم يكن هؤلاء يعتمدون على بعضهم بعضا ، ونادرا ما تحركوا بالاتجاه نفسه بل غالبا ما ساروا في الاتجاهات المتعاكسة ، ومن المقرر انك إن تكافح في المعركة ضد خصوم هم على خلاف دائم ولهم افكار متصارعة ، خصوم لا يثق بعضهم ببعض فهؤلاء لن ينجم عنهم أي خطب ، لأن كلا منهم يخشى من حلفائه اكثر من خشيته من الصليبيين ، ولذلك فإنهم لن يستطيعوا ، أو بالحري هم ليسوا على استعداد لأن يتحدوا في سبيل طـرد الخـطر العـام ، او يسـلحوا أنفسهم لتدميرنا.

لكن الآن ، – وهذه مشيئة الرب – جميع الممالك المتجـاورة لنا أصبحت تحت قيادة واحدة.

وهكذا كما أسلفنا القول ، جميع الممالك حولنا تطيع حاكما واحدا ، وينفذون ارادة واحدة ، ويلتزمون بأوامره طوعا وكرها ، وهم : جاهزون ، كقوة واحدة ، لحمل السلاح لقتالنا ، وما من واحد منهم يمكنه التورط بعمل يخدم به ذاتـه ، وفيه مخـالفة أو عدم مـراعاة لأوامر سيده ، وهذا السيد هو صلاح الدين الذي أشرنا إليه مـرارا

من قبل وفي مناسبات عدة.... فهو الذي يضع هذه الممالك تحت امرته ... والآن إنني أعتقد أن هناك حاجة ملحة لأن نبذل كل جهد ممكن لمواجهة هذا الرجل العظيم والتصدي له في تقدمه السريع وفي انتصاراته المتوالية ، التي ستوصله حتما الى اوج طموحاته ، فالشعور العام أنه كلما ازداد قوة سيبرهن على أنه عدو مرعب لنا "(٢) .

وكان صلاح الدين بعدما استقر في دمشق أنهى مرحلة التحرير الحلبية وافتتح المرحلة الثالثة وهي مرحلة دمشق ، وهذه المرحلة هي اهم مراحل طور التحرير وافضلها ثمارا ،فيها تقرر مصير مشروع الحروب الصليبية والوجود الفرنجي في المشرق ،ومرد هذا الى قيام معركة حطين خلالها ، وإثر حطين تحررت ، كما سنرى ، القدس وجل الأراضي المحتلة ، ولأهمية معركة حطين القصوى سنقف عند اخبارها بمزيد من التفاصيل والاهتمام.

حظيت معركة حطين بمكانة لم تحظ بها سواها ، ولا يمكننا فهم خلفيات هذه المعركة من الجانب العسكري فقط ، وبالأهمية نفسها ، إن لم يكن أعظم ،لا بد من دراسة الحالة السياسية داخل إمارات الصليبيين بشكل عام ، ومملكة القدس بشكل خاص ، والتركيز على الجوانب التي اثر بها الوضع السياسي والادارة السياسية على هذه المعركة الحاسمة .

فمن المقرر أن الحرب هي في البداية قرار سياسي ، وكذلك في النهاية هي استثمار سياسي ودبلوماسي وعسكري ، فعلى رأس المشكلات التي تثيرها الحرب تأتي مسائل استيعاب نتائج الموقعة الحربية من نصر أو هزيمة ، فالقيادة السياسية هي وحدها التي يقع على عاتقها مسؤولية استثمار النصر العسكري ضمن الخطط العامة لقرار الحرب ، وضمن المعطيات الجديدة ، بحيث يتحول النصر إلى انجاز له صفة الديمومة أو القدرة على الاستمرار.

نضيف الى هذا قضايا الترابط والتنسيق بين القيادة السياسية

والقيادات العسكرية ، ثم تأمين المساندة الشعبية للحروب التي تخوضها الجيوش ، ذلك أن أي جيش يدخل الحرب بلا ظهير شعبي لا بد أن يخسر ، وهذا يسهل علينا فهم ما حدث في حطين ، فالصليبيون كانوا غرباء في الشام ، عبارة عن أعضاء مؤسسة عسكرية بلا ظهير شعبي ، ورغم سمتها العسكرية البحتة فإن الترابط والتنسيق بين السياسيين والعسكريين كان منعدما.

فقبل حطين بفترة شهدت مملكة القدس صراعات على السلطة ، كان ابرز أطرافها ريموند الثالث صاحب طرابلس ، وخلال الصراع خسر ريموند قضيته ، وتأزمت العلاقات بينه وبين سلطات القدس ، وكان قد صار على رأسها ملك جديد اسمه «غي» فأقدم ريموند على التحالف مع صلاح الدين ، خاصة عندما عرف عزم الملك «غي» على مهاجمة مدينة طبرية - وكانت من أملاك زوجته - بغية الاستيلاء عليها.

وكان صلاح الدين قد اراد اختبار هدنته التحالفية مع ريموند والقيام باستطلاع داخل الأراضي المحتلة ، بغية استكمال وضع خطته لغزو شامل ضد مملكة القدس ، ولهذه الغاية بعث بسرية استطلاع قادها ابنه الأفضل سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م وتمكنت هذه السرية من الوصول الى أراضي الناصرة وهناك حاولت قوات فرنجية مختارة التصدي لها فأبيدت إبادة كاملة ، وعادت سرية صلاح الدين تحمل اليه من الأخبار ما شجعه على قرار التوجه في حملته الكبرى ، حملة حطين ، سيما وأن قواته كانت تعرف مهامها والأرض بشكل ممتاز فخلال العامين اللذين مضيا قاد صلاح الدين قواته الى حيث ستقوم معركة حطين بتدريبات عملية.

وكان للضربة المروعة في الناصرة آثارها على الصليبيين ، فقد أدت الى قيام صلح بين الحزبين المتصارعين في مملكة القدس ، لكن هذا الصلح كان صلحا شكليا ، وليس حقيقيا ، فالعداوات الشخصية ، والأحقاد لم تتم ازالتها ، ويرى الكتاب الغربيون أن استمرارها حتى عشية معركة حطين ليس إحدى مآسي مملكة القدس

فحسب ، ولكن في الحقيقة كانت ذات أبعاد استراتيجية عميقة ، ذلك ان التاريخ السياسي والعسكري يتداخلان بشكل مدهش.

فمن وجهة نظر الاستراتيجية نجد أن حماقة الصليبيين في المعركة ، تظهر بوضوح مدى تفوق صلاح الدين في الحكم والمناورة السياسية والعسكرية ، ذلك أنه ليس من الغلو بمكان القول بأن في هذا وحده يكمن مقياس النجاح في القتال بين جيشين كانا - على الأقل - متكافئين ، ثم إن ما قام به من ترتيبات فعليه اثناء القتال ، وبراعة في استخدامه لقواته ، خاصة في اليوم الأخير للمعركة ، يقابله اخفاق الفرنجة في تنفيذ خططهم ، وان هذا كله ترابط بانسجام مع الخطة العامة ، وجاء نتيجة لمناورته في الايام التي سبقت الملحمة الفاصلة ؛ وهو يدل على ان لدى صلاح الدين عبقرية عسكرية لاتقل عن عبقريته السياسية والادارية ، ثم علينا ان نضيف الى هذا كله ان التكتيك الذي ظهر في المعركة ، هو على درجة عالية من الاهمية ، ويبين بوضوح بعض اسس فن الحرب في الشرق الاسلامي :

فلقد اكتشف الصليبيون خلال قرن من الحملات ضد العرب والمسلمين ، ومن خلال تعاملهم مع البيزنطيين وتعايشهم مع جيوشهم ، عدم فعالية الفارس المدرع الثقيل غير المدعم بقوى من المشاة ومحروس من قبلها ، وبالنسبة لاعدائهم من العرب وللتركمان وسواهم من المسلمين فإنهم ظلوا دونما تبديل يعتمدون على الانقضاض الشديد للفرسان المدعمين بالمشاة ، وذلك حسب الطرائق العربية الموروثة ، فالعرب قديما ، وكذلك التركمان بزعامة السلاجقة فيما بعد ، اعتمدوا بشكل اساسي على سلاح قوامه الفرسان الخفاف ذوي الاسلحة المحدودة والحركات المرنة ، فقد حمل هؤلاء الفرسان كميات من النشاب مع سيف او دبوس ، وكان الصليبيون امام فرسان المسلمين النبالة بلا حول ولا طول ، فقد انهكت رشقات نبالهم المتواصلة والقادمة من جميع الجهات فرسان الصليبيين وخيولهم ، ونادرا ماقامت هذه القوات بالتصادم الالتحامي ، بل اعتمدت الطرائق الفرثية (نسبة الى الفرس القدماء

بالكر والفر وجذب العدو الى الخلف ثم الانقضاض عليه من جميع الجهات ، وكان هؤلاء الفرسان عندما يفرغون من رماياتهم ، يعلقون قسيهم الخفيفة على اكتافهم ، ويهجمون وسيوفهم ودبابيسهم بأيديهم ، ووجد الفرسان اللاتين الثقال في كثير من الحالات بأنه من الممكن حصر الفرسان المسلمين خاصة عندما يكون وزنهم مؤثرا وكتلتهم الكبيرة واحدة غير موزعة الى اقسام ، وهذا شرط نادرا ماتحقق بشكل مستمر ، فالفارس الفرنجي كان من هواة القتال وليس من محترفيه ، يندفع ضد خصمه لحظة امتطائه لحصانه وامساكه برمحه ، دون ان ينتظر الاوامر من قادته او يتأكد من انتظام صفوف رفاقه بالسلاح ، ومؤكد ان الاندفاع يدل على الحماقة لاعلى الشجاعة ، فالشجاعة هي الاقدام تبعا لاوامر العقل ، لالرغبات الغريزة ونزوات النفس الطائشة .

لذلك كان فرسان الفرنجة يجدون انفسهم بعد لحظات من القتال ، وقد غدوا عبارة من مجموعات مطوقة من قبل الفرسان المسلمين ، وكان هؤلاء الفرسان يجبرون الفرنجة على القتال بشكل متواصل ودونما راحة ، وكانت اعدادهم في كثير من الأحيان تسمح لهم بالقتال المتناوب ، بحيث تقاتل فئة بينما يأخذ البقية قسطا من الراحة.

وكان من الممكن استخدام القوس العربي الخفيف ليطلق بسرعة ولمسافات بعيدة ، لكن نشابه لم يكن من الممكن له خرق دروع الفرنجة الفولاذية ، ونظرا لاقدام الفرنجة على تغطية اجسادهم مع اجساد مطاياهم بالدروع الفولاذية ، اطلق المسلمون رماياتهم دونما تسديد ، اطلقوها اما في الفضاء نحو الاعلى ، او بشكل افقي منخفض على امل ان تصيب العلوية وهي ساقطة رأس الفارس او احدى فتحات الدروع المخصصة للتهوية ، او تتمكن الافقية من عقر خيول الفرسان في بطونها ، وعليه فإنه على الرغم من ان فرسان الفرنجة كانوا محميين بشكل ممتاز بدروع واقية ، فان الاسهم العربية كانت فعالة بشكل فظيع ضد مطاياهم ، وينبع هذا التأثير

حسبما جاء لدى المؤرخين من قدرة المسلمين على ارسال وابل من النشاب في اي اتجاه او وضع كان ومع انه ـ في القتال القريب ـ كان يمكن للسيف والرمح والدبوس ان تؤدي دورا فعالا ، لكن السهام برهنت دائما على تأثيرها المميت ضد الخيول اكثر منها ضد الرجال .

وعندما كانت فرس الفارس الصليبي تعقر كان الفارس يتعطل عن العمل ويصبح بلا حول ولاطول ، لايمكنه بدروعه ورمحه الطويل القتال على الارض ، على عكس فرسان المسلمين ، وفي هذا المقام ينبغي ان نذكر بعدو اخر للفرسان اللاتين وهو الحر ، فالدروع المعدنية لم تكن ثقيلة جدا حتى تنهك الفارس ومطيته ، بل الذي كان يسبب الانهاك ان اللباس المعدني يحول بين الجسم وبين التعرق ، واي جسم يصاب سريعا بالانهاك عندما يتوقف التعرق ، وهنا نعيد الى الذاكرة طبيعة المناخ القاسية في جنوب الشام وفلسطين وان المعارك كانت غالبا ماتنشب في الصيف ، وفي أشد الشهور حرارة كما حدث في حطين .

وحتى يتمكن الصليبيون من معالجة هذه المواجهات القاسية كان عليهم ان يتعلموا بدرجات متعاظمة ، الاعتماد على المشاة الذين كانوا قد نبذوهم فيما مضى ، كما ان الفرنجة ادركوا اثناء ذلك اهمية التعاون المباشر بين سلاحي المشاة والفرسان ، وقد جرت العادة على حماية الرجالة بمعطف صنع من الجلد السميك المبطن بلبد سميكة من الاقمشة او فضلات الثياب ، ويغطي رجالة المشاة في بعض الاحيان بدروع صدرية من المعدن ، ويلاحظ ان هذا كله كان غير مجد ضد الاسهم ، وقد تم تسليح بعضهم بالفؤوس ، وبعضهم بالقسي الثقيلة ـ او القسي العقارة ـ وكانت القسي العقارة صعبة الحمل والاستعمال ، كما كانت تطلق طلقات اقل من القسي العربية ، لكن قوتها الخارقة كانت اعظم بكثير ، فقد كان بامكان سهامها خرق الدروع ، كما ان قدرة العقر فيها كانت اعظم ، ونتيجة لذلك نلاحظ ان هذا السلاح غالبا ماكان اداة اعاقة للفرسان المسلمين ، وخاصة النبالة منهم .

وجاء استخدام الفرنجة لجماعات من المشاة مسلحة على هذه الشاكلة ، بغية حماية الفرسان من جميع الجوانب بشكل كثيف ، عن طريق تشكيل ستارة متحركة للاجزاء السفلية من المطايا وللفرسان الموزعين ، ومع الايام غدا هذا نظاما قائما ومعتمدا لدى الصليبيين ، فقد كان الفرسان يتجمعون في بداية المعركة تحت مكان مستور او محمي ، او في بقعة مختارة ؛ ويقدمون المشاة امامهم على شكل صفوف ، ويسعون لاستدراج المسلمين للقيام بالهجوم ، وفي اللحظة المناسبة كان الفرسان الثقال ينقضون ، وكل منهم قد شرع رمحه الطويل القوي الاسطوانة ، بعدما ركز زجه في مكان معد خصيصا ، فمن المعروف ان فرسان الفرنجة اعتمدوا على قوة الخرق المتاتية من اندفاع خيولهم القوية والسريعة جدا •

وقام مؤرخ حديث متخصص بفنون القتال في العصور الوسطى بوصف هذه العملية كما يلي :

« اذا بقي المسلمون في نطاق المدى المجدي للرمايات الصليبية ، فان الفرنجة كانوا يبقون دون الرد على رمايات نشابهم التي تحولها المسافات مع الموقف الدفاعي للصليبيين الى حالة هي اقل تاثيرا مما يخشى منه ، انما اذا اقترب المسلمون فان المشاة الصليبيين كانوا يأخذون اماكنهم على الارض ، ويفتحون قسيهم الكبيرة ، ويرمون على المسلمين برمايات مجدية ومؤثرة ، وهنا كان اذا ماغامر الفرسان المسلمون بالقيام بالانقضاض ، كانوا سيسحقون حتما ، بانقضاض الخيالة الاوربيين الاعظم تأثيرا ، شريطة ان يظل مجال عملهم في نطاق مشاتهم ، ومادام الصليبيون في هذا المحيط فإنهم كانوا لايقهرون » .

وسريعا ماادرك العرب اهمية مشاة الفرنجة كسلاح رديف ، لذلك سعوا بمختلف الطرق لفصلهم عن الفرسان ، وكانوا اذا مانجحوا في ذلك يربحون المعركة ، كما هو واضح بشكل جلي في معركة حطين ، حيث ــ كما سنرى ــ قتل للفرنجة آلاف الخيول او عقرت ، وتم

سحق خيرة فرسان اللاتين ، وبالتالي تدمير المؤسسة العسكرية الاوربية في الشرق .

هذا ولقد سبق لنا البحث بالاحوال العامة قبل حطين ، كما بحثنا في اخبار قيام صلاح الدين واستلامه زمام الامور ، وتمت الاشارة الى أنه قد واجه العديد من المشاكل ، واصطدم بأتابكة الموصل وسواهم ، لذلك رحب بالفرصة التي توفرت لديه بقيام هدنة بينه وبين الفرنجة ، وذلك حتى يتمكن من حل مشاكله هذه ، ويكمل توطيد اركان دولته ، ويروى انه اصيب اثناء مسعاه هذا في تشرين الاول لسنة ١١٨٥ م ، بمرض عضال ، حتى يئس من حياته ، وعندما وقف بين الحياة والموت ، رأى ان مصير المملكة اللاتينية معلق بالميزان ، ورأى ببصيرته كحاكم شرقي ، ان موته كان معناه ، بلا شك انعدام الوحدة بين صفوف المسلمين ، والعودة الى حياة الفوضى ، حتى تتأتى فرصة جديدة لقيام حاكم قوي جديد ، وكان هذا في ابسط معانيه حياة جديدة منحت للقوى اللاتينية في سورية ، وفرصة لاتعوض لحل مشاكل مملكة القدس ، والعودة الى الاتحاد ، لكن القدر قرر العكس ، وبعدت المنية عن صلاح الدين ، وبدأ الرجل العظيم يتعافى ، وفي اذار لسنة ١١٨٦ م ابرم معاهدة جديدة مع اتابكة الموصل ، بقي بموجب بنودها الامير الاتابكي اميرا للموصل وسيدأ لاعالي بلاد الرافدين ، انما مع الاعتراف بسيادة صلاح الدين والدعوة له ، وفي نيسان من هذا العام ـ ١١٨٦ ـ استعاد صلاح الدين عافيته تماما ، وعاد الى حلب ، ثم توجه في ايار الى دمشق ، وقد جاءت افراح الشعب واحتفالاته في هاتين المدينتين تعبيرا عن قلق الشعب العربي في الشام على قضيته ، وعلى مدى التعلق بصلاح الدين واتساع شعبيته .

اما والان ، وقد رد الله عليه عافيته ، وهو حاكم مصر واليمن وليبيا ، واجزاء من شبه الجزيرة العربية ، وسيد الشام بعاصمتيه : دمشق وحلب ، وسيد الجزيرة والموصل ، فقد بقي لهذا

السلطان المتدين مطمح واحد ، وهو مطمح كل مسلم ، في تحرير الارض في الساحل والداخل ، من الصليبيين ، وكان هذا بالنسبة له جهادا في سبيل الله ، وطبعا كانت القدس بالنسبة له ولجميع المسلمين هي الهدف ، فمنذ ايام نور الدين وضعت الخطط لتحرير المسجد الاقصى ، وتم اعداد المنبر لتخطب عليه خطبة التحرير الاولى.

والمستعرض لاخبار وقائع الحروب الصليبية يشهد ان المسلمين قد قاتلوا دائما بحماس وغيرة دينية كبيرة ، وهذه المعركة لن تكون مستثناه ، بل على العكس ، فهم نادرا ماقادهم رجل مثل صلاح الدين ، كان متميزا بتقواه وعدله واستقامته ، كتميزه في القيادة وفي فنون الحرب والادارة والسياسة ، ولهذا كان رجلا محبوبا من قبل شعبه الى درجة التقديس ، ولقد قيل بأن مرض صلاح الدين ملأه بشعور عميق ، بأن ماقام به حتى ذلك الحين من خوض للحروب الداخلية قد تجاوز الحد ، وان الله تعالى قد انذره بهذا المرض وذكره بأن واجبه هو طرد اللاتين من بلاد الشام ، ورجل مثل صلاح الدين مشهور بتقواه لابد انه قد شعر بضرورة الاسراع بالهجوم من اجل التحرير ، ومهما يكن الحال فإنه لابد وقد غضب غضبا شديدا جدا عندما علم بهجوم ارناط صاحب الكرك ، على قافلة مسلمة في اوائل سنة ١١٨٧ م كانت في طريقها الى دمشق ، فالهدنة الآن مع الفرنجة قد زالت ، ومسوغ إعلان الجهاد قد توفر تماما .

وفي ربيع سنة ١١٨٧ م دعا صلاح الدين الى الجهاد ، وبينما كانت القوات تتوافد من جميع اجزاء دولته الكبرى وتوابعها ، قامت التحضيرات من اجل غزو فلسطين ، وبينما كانت القوات تتجمع ، ارسل صلاح الدين ابنه الافضل على رأس قوة استطلاع ، وكان لنجاح هذه القوة المدهش في الناصرة عظيم الفوائد في تشجيع السلطان على المضي في خططه ، وفي خفض معنويات الصليبيين ، وبعد هذا بوقت قصير اوعز صلاح الدين الى واليه في حلب للقيام بإمضاء هدنة مع فرنجة انطاكية ، حتى تتمكن عساكر حلب من الاشتراك في الحملة ، وقد طلب صلاح الدين هذا على ارضية الخلافات الحادة التي كانت قائمة بين القدس وانطاكية .

وكان مكان تجمع الجيوش لعرضها عند تل عشترا في احواز بلدة نوى على مقربة من حدود الاراضي المقدسة ، شرقي بحيرة طبرية ، ومع حلول الاسبوع الثالث من حزيران ، وصل جميع الجند ، حتى المتأخرون من العساكر واهالي البلدان النائية ،وفي ٢٤ من الشهر نفسه عقد صلاح الدين مجلسا حربيا لتدارس الاهداف الاستراتيجية ووضع الخطط ، او لنقل الشكل التنفيذي للخطط ، وصدر الامر إثر الاجتماع بغزو المملكة اللاتينية ، وكان عدد القوات التي مرت امام عارض جيوش صلاح الدين حوالي العشرين الفا من العساكر الديوانية والمتطوعة ، ويقدر أن الذي تجمع للفرنجة العدد نفسه عند المقل والضعف عند كثير من الكتاب المنصفين.

لسوء الحظ لم يقدم لنا احد من المؤرخين وصفا مفصلا لجيش صلاح الدين وانواع القوات والاسلحة فيه ، انما يمكن القول قياسا على ماأوردته مصادر العصر ، وبناء على التكتيك الذي اعتمد اثناء المعركة ، ونجح استخدامه ،ان النبالة من مشاة وفرسان شكلوا العنصر الاساسي ، وهذه قاعدة جرت مجرى العادة في الجيوش الاسلامية في المشرق ، منذ بداية العصر السلجوقي ، هذا ونلاحظ ان الروايات العربية واللاتينية التي تحدثت عن وقائع ملحمة حطين شددت على تأثير نشاب الرماة المسلمين اثناء القتال ، ونشير هنا الى انه على الرغم من ان القوس كان السلاح الرئيسي لعسكر صلاح الدين من فرسان ورجالة ، الا ان العادة جرت ان يحمل كل منهم بالاضافة الى قوسه سيفا او دبوسا او ماشابه ذلك من الاسلحة الفردية التي كان المقاتل يلجأ الى استخدامها في القتال الالتحامي القريب وبعد نفاد نشابه ، يضاف الى ماسبق انه يتوجب علينا هنا ان نشير الى ان قوات المتطوعة كانت خفيفة التسليح ، اشبه بالميليشيات ، وقد رأى بعض الكتاب انها كانت تقابل القوات الاحتياطية لدى الفرنجة ، لكن في هذا شيء من التجاوز ، فقوات الاحتياط لدى الفرنجة وان كانت خفيفة التسليح نسبيا ، الا انها كانت محترفة ، وعلى هذا فنحن اذا ماشينا من قال بأن تعداد القوات الصليبية كان حوالي العشرين الفا من العساكر ، فان

الطاقة القتالية لهذه القوات كانت لاتقل عن ثلاثة اضعاف قوات صلاح الدين نظرا للاحتراف ونوعية التسليح ، وهنا نعيد الى الذاكرة الوصف الذي ساقه وليم الصوري الذي اثبتناه قبل قليل ، مع حقيقة انه في كثير من المعارك التاريخية كانت القوات المهاجمة ادنى عددا وتسليحا من القوات المدافعة ، وحققت النصر ، ويبدو ان بعض عساكر صلاح الدين كان تسليحهم ثقيلا ، وكانوا مدرعين مع خيولهم ، وقد رابط هؤلاء مع خيولهم قرب قاعدة العمليات ، وتألف منهم حرس صلاح الدين الخاص .

وكان صلاح الدين شديد التدين يراعي قواعد الشريعة ، ويتمسك بما جاء في السيرة النبوية ، خاصة ، أثناء مغازيه ، وعلى اساس هذه القاعدة نجده يأمر بإزالة معسكره في يوم الجمعة ٢٦ حزيران/ومعلوم ان الجمعة هو يوم جماعة المسلمين ، يتوجه فيها الخطباء بالدعاء على جميع منابر الاسلام للمجاهدين في سبيل الله بالنصر المؤزر ، ولهذا جاء امر صلاح الدين بازالة المعسكر وقت الصلاة ، في الظهيرة ، وفي اليوم التالي ـ السبت ـ عبر نهر الاردن جنوب بحيرة طبرية ، واتخذ قاعدة له قرب شاطىء النهر ، وهكذا بدأ الهجوم فعليا .

ولم تكن تحركات صلاح الدين خفية ، لهذا قابلها في القدس اجراء كافة الاستعدادات ، ففي اوايل ايار بعد نازلة الناصرة التي حلت بالصيلبيين على ايدي طلائع صلاح الدين ، جرت مصالحة بين غي ملك القدس الجديد ، وريموند الثالث خصمه وصاحب طبرية وطرابلس ، وذهب الفرقاء الى مدينة القدس حيث جرى احتفال بهيج باتحاد القوى الصليبية ، وبعد الاحتفالات طلب ريموند الاذن للعودة الى طرابلس ، فأوعز اليه الملك ان يجمع عساكره ، ويلتحق به في مكان تقرر لحشد وتجميع الجيوش الصليبية في بلدة صفورية ، وذلك لما تأكد لديهم من معلومات بان صلاح الدين يعد العدة لهجوم عام ، واشار ريموند على الملك غي بمراسلة بوهموند صاحب انطاكية ينشد منه المساعدة ، ونفذ غي ذلك ، واستجاب بوهموند

استجابة رمزية ، فقام بارسال اكبر ابنائه مع خمسين من الفرسان وعندما توجه الصليبيون نحو بلدة صفورية لم ينسوا جانب الدعم الروحي فاخرجوا خشبة صليب الصلبوت ، وطلبوا من بطريرك القدس حملها فرفض ، وذكر « الرفض المشين للبطريرك » عقول الناس بنبوءة وليم الصوري ، فقد قال صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري : « وبعد هذا ارسل الملك رسالة الى البطريرك ليخرج صليب الصلبوت ويجلبه الى الجيش ، فاستجاب ، واخذ الصليب ، وحمله الى خارج القدس ، واعطاه الى راعي القبر المقدس ، وطلب منه ان يحمله الى الملك ، لانه هو نفسه لديه عذره ، ولن يستطيع الذهاب ومن الصعب عليه الالتحاق بالجيش (ويدع السيدة باسك دي رفري) وتم تنفيذ هذا كله ، وبهذا تحققت نبوءة وليم رئيس اساقفة صور ، التي قالها عندما انتخبوه بطريركا : (هرقل استرد الصليب من الفرس ، واعاده الى القدس ، وهرقل ـ البطريرك ـ سيرمية ، وفي ايامه سيضيع) ففي ذلك الوقت بالذات قذف هرقل بالصليب الى خارج القدس ، وبهذا لم يعد اليها ثانية ، بل فقد في المعركة كما سنسمع » .

وعندما وضع صليب الصلبوت بحفظ الملك ورعايته ، اشار عليه جيرالد مقدم الفرسان الداوية ، بان يعلن النفير العام في طول الارض وعرضها ، ويدعو جميع الرجال المخلصين والقادرين على حمل السلاح للالتحاق بخدمته ، وكان مثل هذا الاجراء يجري تطبيقه والاخذ به عندما تكون الحالة شديدة ، والوضع متأزم بشكل خاص ، وهناك حاجة ماسة الى مزيد من العساكر اكثر مما كانت تقدمه الاقطاعات في العادة ، وفي هذا الوقت كان جيرالد قد تسلم هبة مالية كبيرة كان قد بعث بها هنري الثاني ملك انكلترا الى جماعة فرسان الداوية (بعد مقتل القديس توماس اوف كانتبري) وقام جيرالد بدوره بالتبرع بهذا المال للملك ، وقدمه له ، وتقبل الملك مال الهدية بسرور زائد ، واستخدمه في تجنيد المزيد من الفرسان والرجالة .

وتوجه ريموند الثالث الى مدينة طبرية ، من اجل تحصينها ، ليترك بها حامية مناسبة ومؤن كافية لحصار طويل ، وترك ريموند زوجته في طبرية ، وكانت بالاصل اقطاعا لها ، وقبل مغادرته لطبرية اوصى زوجته انها اذا ما هوجمت مدينتها بشدة متناهية من قبل صلاح الدين الى درجة عجزت فيها عن الاستمرار بالمقاومة ، عليها مغادرة المدينة ، وان تركب مع من يبقى معها في القوارب الى طرف البحيرة المقابل ، حيث تنتظر هناك قدوم المساعدات والنجدات ، ولا ندري عدد الرجال الذين تركهم معها ـ ان كان قد ترك احدا ـ وقبيل مغادرته لطبرية حمل معه ما كان بالمدينة من اموال واصطحب معه اولاد زوجته الاربعة وهم : هيوج ، وليام ، رالف ، واوتو ، والتحق بالملك في بلدة صفورية ، ومعه رجال طرابلس والذين قدموا برفقته من طبرية ، ويلاحظ ان المصادر الغربية تبدي اعجابها الشديد بشجاعة صاحبة طبرية ، لقبولها البقاء في مدينتها والمرابطة بها مصاقبة لصلاح الدين وجيوشه ، وحيدة فيما عدا حامية صغيرة ، وكيف انها سمحت لزوجها ليس في مغادرتها فقط ، بل باصحابه اولادها الاربعة ، ويرى الغربيون في عملها هذا مثلا رائعا على وقف النفس وتكريسها من اجل قضية تؤمن بها ، ومهما يكن الحال ، فان هذا يوضح مدى التعصب والحماس الشديدين اللذين ابداهما العديد من الجنود الصليبيين ورجالاتهم ـ فيما بعد ـ للذهاب فورا لانقاذها ، اثر ما قام به صلاح من مهاجمة المدينة ، ومع هذا كله ، فان ريموند الثالث ، العارف بصلاح الدين والخبير باخلاقه وتصرفات المسلمين ، كان يشعر بان زوجته في مأمن تام ، ولا خطر عليها البتة ، وان اولادها معه افضل لهم واكثر امنا من بقائهم معها ، ورغبته التي ابداها فيما بعد ، عندما ضيق صلاح الدين الخناق على طبرية ، هي دليل على انه كان مطمئنا من ناحيتها ، وانها ستكون بامان تام ، فصلاح الدين كان ـ بلا شك ـ مازال ـ طبعا ـ بحدود ما تسمح به الظروف ـ صديقا ـ ثم اخلاق صلاح الدين قالت دائما : انه حتى لو سقطت مدينة طبرية ثم قلعتها ، فان زوجة ريموند ستعامل من قبل المسلمين معاملة طيبة سامية وهذا ما حدث بالفعل بعد شهر واحد .

واجتمع الجيش الصليبي في بلدة صفورية ، وكان اكبر جيش يجتمع لفرنجة المشرق منذ سنوات عديدة ، يضاف الى هذا ، انه ـ بلا ريب ـ كان من اكبر الجيوش في تاريخ الصليبيين في بلاد الشام ، وتتباين المصادر بشدة في تقديرها تعداد الجيش ، ويبدو ـ حسب ادنى التقديرات ـ ان الرقم فاق العشرين الفا ، اي ما يقارب تعداد جيش المسلمين ، انما مع فوارق اشرنا لها من قبل ، نضيف اليها امرا أخر ، هو ان الجيش الصليبي لم ينعم بوجود ظهير شعبي له او احتياط محلي ، على عكس جيش صلاح الدين ، فالصليبيون ، برغم المدة الطويلة التي مرت على تاريخ وجودهم في المشرق ، كانوا عبارة عن افراد مؤسسة عسكرية غريبة ومرفوضة من كافة النواحي ، وبامكاننا هنا اعطاء فكرة واضحة الى حد ما عن مختلف القوات والاسلحة التي تكون منها جيش الفرنجة : لقد كان هناك اولا الفرسان ذوو التسليح الثقيل ، فيه بارونات ـ او امراء ـ الاقطاع ورجالاتهم ،واعضاء جماعتي الداوية والاستبارية ، وأولئك الذين حملوا رتبة الفروسية ، وكان بامكانهم تقديم المعدات والسلاح ، ويستفاد من المصادر اللاتينية خاصة ، انه كان لدى الفارس الصليبي في غالب الاحيان ، الى جانب دروعه الكاملة وخوذته وسلاحه ، فرس او فرسان كان يجنبهما ، وكان عدد الفرسان الثقال حوالي / ١٢٠٠ / وهو احد الارقام الدنيا التي اعطتها المصادر الغربية ، وجاء بعد الفرسان الثقال الخيالة الاخف تسليحا ، وقد رافق هؤلاء الفرسان الثقال ، وعملوا معهم بمثابة مساعدين واتباع وكانوا يعرفون باسم السيرجانتية .

وميز هؤلاء في معركة حطين كسيرجانتية فرسان ليتميزوا عن السيرجانتية الاصلاء ، الذين كانوا بالاساس رجالة يجري تسلحهم على حساب الكنيسة والمؤسسة الدينية ، وذلك غالبا ما كان بشكل ثقيل ، ولم توضح المصادر تعداد السيرجانتية الخيالة وحدهم ، انما لابد ان تعدادهم فاق تعداد الفرسان الثقال ، ويبدو ان تعدادهم مجتمعين مع الفرسان الثقال تراوح ما بين ثلاثة الى اربعة الاف .

والى هؤلاء الفرسان والخيالة نضيف جماعة ثالثة مـن الخيالة ، وهي جماعة الخيالة « الرديف » وكان تعداد هؤلاء لا يقل عن تعداد السيرجانتية الخيالة ، وقد عرفوا باسم التركبلي وكان هؤلاء كمـا هو معتقد من المرتزقة من مزيج من اناس من اصل اغريقي ومشرقي (من بين الطوائف والاقليات) وجرى تسليح هؤلاء حسب الطريقة الاسلامية ، اي كانوا فرسانا نبالة ، ولهذا كانوا ذوي فعـالية عالية في المناورات السريعة وفي عمليات الانقضاض المفاجيء ، وخاصة في منطقة ذات مرتفعات مثل مـرتفعات طبـرية ، حيث كانت جمـاعات الفرسان الثقال في وضع حرج غير مريح ، وكان هؤلاء يوضـعون في العادة تحت الامرة المباشرة لمارشال مملكة القدس ، وكانوا رواديف اي قوات احتياطية ، تابعة بشكل خاص لكل من جمـاعات فـرسان الاسبتارية والداوية ، الذين كان لديهم ضابط خاص معين لقيادتهم باسم التركبلير •

وجاء بعد القوات المحمـولة : الرجـالة ، وكان فيهـم المشـاة السيرجانتية الذين تبعوا نظـاميا للاقـطاعيين ، وتـولت الكنيسـة والمؤسسات الدينية الانفاق عليهم ، ثم المشـاة مـن الرجـال الذين التحقوا بالخدمة العسكرية بسـبب النفير العـام الذي أعلنه الملك ، وقدر المعاصرون الغربيون لمعركة حطين تعداد هؤلاء مـابين سـبعة آلاف إلى عشرين الفا ، ويرى بعض البـاحثين في أيامنا أن الرقـم الأول صغير جدا ، لكن لم يكن هناك أكثر من خمسة عشر الفا مـن المشاة على أبعد تقدير ، ومهما يكن الحال ، فـاننا نلاحـظ أنه اذا كان الفرسان الثقـال والسرجانية ـ مـن خيالة ورجـاله ـ تـابعين للمؤسسات الاقـطاعية المدنية والكنـسـية ، وكانوا يؤدون خـدمات مقابل الارتباط الاقطاعي ، فإن قسما كبيرا مـن الجيش كان مـن القوات المأجورة ، فالتركبلي ولربما معظم المشاة أيضا ، كانوا مـن المرتزقة المحليين ، فقـد رأينا الملك غي يشـتري بـأموال الهبـة الانكليزية أعداداكبيرة من الفرسان وأنواع أخرى من الخيالة ، ومن المحتمل أنه أنفق كمية من أموال الهبة الانكليزية على السيرجانتية ، بأن يقوم كل واحد من رجالاته بعرض شعار (رنك) ملك انكلترا ،

ويدعي بعض الكتاب في أيامنا ، بأن تعداد الفرنجة في المشرق ما كان ليمكن من تجنيد عساكر أكثر مما تجمع في صفورية دون تـرك مـدن المملكة ـ مملكة القدس ـ مع الأجـزاء الشـمالية دونمـا دفـاع تماما •

ومع حشد الفرنجة لهذه القوات الكبيرة جدا ، برزت أمـام الملك غي والكونتات مشكلة التكتيك والاستراتيجية : كيف يمكن استخدام هذا الجيش اللجب بشكل نافع ومؤثر ، ثم لماذا جمع كله في معسـكر واحد ، ولم يوزع على المواقع الدفاعية للمدن والقـلاع ، أو قيد إلى خارج حـدود المملكة لمنع صـلاح الدين مـن اجتياز نهـر الأردن ؟ واختلفت أراء قادة الفرنجة حول هذا الموضوع الخطير ، وكان راي ريموند الثالث منذ البداية اعتماد سياسة الانتـظار والمطـاولة حيث خاطب الملك بقوله : « اشير عليك يامولاي وانصحك كمـا واقتـرح عليك أن تشحن مدنك وقـلاعك بـالرجال والمؤن والسـلاح ، وبقية أنواع الأعتدة الدفاعية ، وعلى الرغم من أن امير أنطاكية أرسل لك ولده مع خمسين من الفرسان ، جدد مراسلتك له ، واطلب منه المزيد من الرجال ، وابعث رسـالة إلى بلدوين صـاحب ابلين (يبنى) ، واخبره بأن صلاح الدين دخل إلى أراضي المملكة مع جيش عرمرم ، واعلمه أن عليه الحضور شخصيا لتقـديم المسـاعدة للمملكة ، ذلك انني أعرف أن صلاح الدين سيمكث ، وقد يقيم طويلا ، وكمـا تعلم فنحن الآن في منتصف الصيف ، وهذا أعظم الأوقـات حـرارة على مدار السنة ، ولاشك أن وحشة المكان ، والمناخ الحار سيضايقانه ، وسيشغلانه ، واثناء ذلك يكون امير انطاكية وبلدوين صـاحب ابلين قد توفر لهما ما يكفي من الوقـت ليصـلا إلينا ، وهنا بينمـا يكون صلاح الدين شاعرا بالأمن ، مطمئنا نكون نحن قد صرنا جاهزين ، فنقوم بمهاجمة مؤخرة قـواته ، وننزل بها ضربـة قـاصمة ، بشكل ـ بمشيئة الرب ـ تمكن من إبقاء مملكتكم حية وبأمان » •

ليس بالمصادر مـا يفيد ان نصـيحة ريمـوند هـذه وأراءه كانت مسموعة واخذ بها ، ذلك انه لم يكن هناك أي قتال مباشر حتى بعـد

دخول صلاح الدين إلى اراضي المملكة ، كما أن أيا مـن القـوات لم يرسل إلى الحصون والقلاع لتقوية دفاعاتها ، وهذا ما سيظهر جليا بعد نصر حطين ، حيث كان مـن السـهل نسـبيا الاسـتيلاء على معظمها .

ووقع الاختيار على منطقة صـفورية لتـكون قـاعدة للقـوى اللاتينية ، لما تمتع به هذا الموقع من مـزايا محـددة وفـوائد كبيرة بالنسبة لهذه الحملة خصيصا ، فصفورية كانت انذاك عبارة عن بلدة صغيرة غير مسورة ، من ممتلكات صاحب طبرية ، تقع على مسافة ثلاثة أميال أو أربعة من الناصرة ، إلى الشـمال الغـربي منهـا ، وكان إلى الجنوب منها على مسافة ميل واحد نبع ماء وجدول جار ، وهو ما عرف باسم نبع الصـفورية ، وعلى هـذا كان الماء وفيرا في هذا الموقع ، وكان كافيا لجيش كبير جدا ، في فصل الحـر ، وكان هناك مع الماء كميات وافيه من المؤن ، سـهل تـأمينها مـن القـرى المجاورة ، هنا في هذا الموقع المناسب أقام الصليبيون معسـكرهم ، وأقاموا ينتظرون وصول صلاح الدين .

وعلى بعد خمسة عشر ميلا أو ستة عشر جثت مدينة طبـرية على الشـاطىء الغـربي للبحيرة ـ التـي حملت اسـمها ـ وذلك على مستوى ستمائة قدم تحـت سـطح البحـر ، وتـرتفع الأرض خلف المدينة ، وتمتد جنوبا منها ، بشكل حاد إلى مستوى الف قدم فـوق سطح البحر ، وتمتد جنوبا محاذية للبحيرة ، وتشكل شرفا صخريا له ارتفاعات متساوية تقريبا ، ويبدأ هذا الشرف ، في مقـابلة المدينة مباشرة ، بالانحراف باتجاه الشمال الغربي ثـم بـاتجاه الغـرب ، وعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب هناك تل مزدوج القمة ارتفاعه فوق ألف قدم ، ويعرف باسم « قرني حطين » وهو مكان احتفـالات طقوسية موسمية (عيد النبي شعيب) وبمتابعة التوجه غربا يصـل الشرف الى أقصى ارتفاعه وهو سبعمائة والف من الأقدام وذلك عند جبل ترعان على بعد خمسة أميال ، وتقع قرية حـطين على مسـافة قصيرة الى الشمال مباشرة من « قرني حطين» في الوادي ، ويمـكن

أن يرى ارتفاع هذه الهضاب من الشرق والشمال ، اي من طبرية وحطين ، حيث أنها لاتبدو هكذا من الجنوب والغرب ومرد هذا جزئيا أن الشرف يرتفع من شواطىء بحيرة طبرية من مستوى ستمائة وعشرين قدما تحت مستوى سطح البحر ، وجزئيا أن الأرض الى جهة الجنوب والغرب عبارة عن هضبة بخطوط ارتفاع متساوية تتراوح من ثمانمائة الى ثمانمائة وخمسين قدما ، وهي مليئة بصخور كبيرة ومقطعة بالوديان التي قد تنتهي الى الأرض المنخفضة شمال شرقي صفورية أو جنوب شرقي وادي سهل الاحما(كفر الاحما) ، (٤) وقد قام رحالة حديث بوصف الأرض الواقعة قرب قرني حطين في مطلع القرن الحالي كما يلي:

« كما رأينا على هذا الجانب ـ الجنوب ـ ان التل ، أو الجبل ، هو عبارة عن عقبة صخرية منخفضة ، يبلغ ارتفاعها حوالي ثلاثين او اربعين قدما ، وطولها أكثر من عشر دقائق من الشرق إلى الغرب ، وينبعث في نهايتها الشرقية قمة أو « قرن » إلى ارتفاع حوالي ستين قدما فوق السهل ، وهناك على النهاية الغربية قمة « قرن » أخرى ليست بنفس الارتفاع ، ويبدو منظر هاتين الكتلتين عن بعد وكأنه سرج فرس ، وقد دعيا باسم قرني حطين ، ويمتد هذا التل بمجمله ليساير أطراف السهل الكبير حيث يرتفع منها الجانب الشمالي للتل بشكل انزلاقي شديد إلى علو ليس أقل من اربعمائة قدم ، ودون ذلك في الأسفل إلى الجنوب تقوم قرية حطين ، وهناك باتجاه الشمال والشمال الشرقي كتلة صخرية ثانية مندفعة ايضا تنساب بشكل منحدر إلى مستوى البحيرة .

إن قمة القرن الشرقي مستديرة قليلا ، وسطح قمة المنخفض بين القرنيين هي ايضا منبسطة على شكل سهل...».

وتشير خرائط ما قبل الحرب العالمية الثانية إلى وجود ممرين كانا يعبران التل ، سار أحد الطريقين من الشرق مباشرة من مدطقة في أحواز صفورية ، وعبر التل الى الجنوب من طبرية مباشرة ، لكن الطريق الآخرين كان ينحرف شمالا في منتصف الطريق بين صفورية

وطبرية ، ويماشي في الغرب حوالي قرني حطين ، ويستمر باتجاه الشمال منحدرا إلى قرية حطين ، ويتابع انحداره هابطا باتجاه الشرق إلى شواطيء بحيرة طبرية ، وعلى الرغم من أن طرق العصر الحديث يمكن أن لاتتماشى مع طرق القرن الثاني عشر ، لكن الأوصاف المعاصرة للصليبيين ، والروايات التي شرحت أوصاف مسيرة جيوشهم من صفورية تبين بأنهم ساروا أولا عبر طريق مباشر ، ساروا باتجاه الشرق يريدون مدينة طبرية ، ثم انحرفوا في منتصف الطريق شمالا نحو ممر قريب من القرنين ، وواضح أن في هذا مطابقة تامة للطرق قبيل أيام الاستعمار الانكليزي لفلسطين •

ويعبر هذان الطريقان بين صفورية وتل قرني حطين مع ما يجاوره من الاراضي المرتفعة حوالي عشرة أميال من الأراضي الصخرية التي تأخذ شكل هضبة ، وهي منطقة بلا ماء ، أو على الأقل بلا نبع غزير او جدول فيه مياه كافية لجيش كبير اثناء زحفه في اشهر الصيف الحارة ، وكان هناك ماء وفير وراء هذه السلسلة من الكتل الصخرية : في الشما ل من حطين أو في الشرق حذاء البحيرة ، وقرب مدينة طبرية ، وكان هناك ماء الى الجنوب في وادي سهل « الاحما » ، لكن على الطريق المباشر مابين الكتلة الكبيرة غربي طبرية ، ومعسكر الصليبيين في صفورية لم يتوفر منه شيء أبدا .

ولذلك كان البديهي أن مصلحة الصليبيين قامت في البقاء حيث كانوا في صفورية ، وذلك بعدما أحجموا عن منع صلاح الدين من عبور الأردن ، وتركوه يزحف نحو طبرية ، ففي منطقة صفورية كان الفرنجة متأكدين من توفر المياه لديهم والمؤن الوفيرة ، ولقربهم من قلاعهم وبلدانهم المسورة ، وكان عليهم الآن المكوث في صفورية لانتظار هجوم صلاح الدين ، فهم كانوا على ثقة واطمئنان ، فقد حشدوا اكبر جيش كان ملك فرنجة للقدس يأمل بحشده ، وكان بإمكانهم دوما ـ عندما تدعو الضرورة ـ الانسحاب الى المدن والحصون الشديدة المناعة قرب الساحل ، ووضح بعد عبور صلاح

الدين للأردن أنهم اذا ماغامروا بالتقدم باتجاه اي هدف في الشرق ، فسيكون بإمكان صلاح الدين اجبارهم على خوض معركة حسب مشيئته وقبل الوصول الى الماء ، وانئذ سيكون الانسحاب صعبا ، ان لم يكن مستحيلا ، خاصة وانه لم يكن لديهم في الداخل قوات احتياطية لدعوتها لنجدتهم والتفريج عنهم ، ويصرخ كاتب امريكي معاصر اثناء حديثه عن هذه الحالة باندفاع عاطفي وتحرق شديدين قائلا :« دع المسلمين يغامرون بالزحف داخل الهضبة التي بلا ماء ، دعهم ينالهم الانهاك بعد زحفهم تحت اشعة الشمس المحرقة »! ....

ولكن الحرب لم تكن بالنسبة لصلاح الدين مغامرة او هواية ، بل ان حملته كانت قرارا استراتيجيا له أبعاده السياسية والعسكرية التكتيكية ، وقرار صلاح الدين تم بعد دراسة شاملة واستطلاع اخباري وميداني واسع ، فهو بعد عبوره للاردن كان يدرك تمام الادراك أحوال الفرنجة الداخلية ، ويعرف سلامة أوضاعهم وطاقاتهم حيث هم ، لهذا كان عليه ان يحاول بمختلف الوسائل اقتلاعهم من قاعدتهم في صفورية واستدراجهم الى شراك ينصبها لهم ، وسبق ان ذكرنا بانه عبر على راس قواته نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية في أواخر شهر حزيران ، وعسكر ليلته الأولى قرب ضفاف النهر ، وتبعا لاحدى الروايات كانت قواته معباة بشكل قاد فيه القائد تقي الدين الميمنة ، والقائد مظفر الدين الميسرة واحتفظ صلاح الدين لنفسه بإمرة القلب ، ومكث الصليبيون بعد عبوره للأردن في صفورية ، فحرك صلاح الدين قواته إثر ذلك الى منطقة « كفر سبت » على الطرف الجنوبي للسهل ، إنما الى الغرب من المنطقة الجبلية ، حيث ظل الماء لديه وفيرا ، وجهد من هناك في سبيل تجريكهم واقتلاعهم عن طريق المناوشات ، لكن عبثا حاول واخفقت هذه الطرائق في إثارتهم ، وفي هذا دليل واضح على أن غالبية الفرنجة ظلوا حتى ذلك الوقت متحلين بالصبر والحكمة ، متمسكين بقرارهم في الاستفادة من وضعهم المناسب ، وهنا قرر صلاح الدين أن يغامر بكل شئ ، إنما بشكل

مدروس وفي غاية البراعة ، على انه والحق يقال كان تحركا خطرا أيضا ، لقد قرر مهاجمة مدينة طبرية بالذات .

وليس من الواضح تماما في روايات المؤرخين انه كان على معرفة مسبقة بوجود زوجة ريموند في طبرية ، إنما والرجل كان لديه جهاز استخبارات متين ، لاشك أنه كان على بينه من هذه الحال ، ومهما يكن الأمر ، فإن صلاح الدين كما يبدو ، قدر ، وجاء تقديره صحيحا تماما ، بأن هجوما على طبرية ، يعرض أميرة طرابلس للخطر ، لابد وانه سيبعث روح الفروسية لدى الصليبيين ، وسيثير العناصر المضطربة والمتمردة بينهم ، ويجعلها تحاول الزحف عبر التلال الجرداء لتلك المنطقة ، مع أن مثل هذا الزحف كان سيجعل الجيش الصليبي في موقف غير مناسب ومدمر .

لقد كانت الأميرة البيزنطية ، انا كومينا ، من شهود الحملة الصليبية الأولى ، وكانت بارعة عميقة الأحاسيس ، لديها قدرات وصفية للسمات والأخلاق نافذة لاتحد ، وقد قامت في أكثر من مكان في كتابها « الألكسياد » بوصف أخلاق وسلوكية فرسان الفرنجة ، وهنا نجد : سهولة في الاثارة ، اندفاع شديد أحمق ، واصرار لاتراجع فيه ، ولامبالاة بالموت ، متى ما اتخذ الفرنجي قراره ، أو وقع هواه على أمر ما ، ولاشك أن صلاح الدين كان يعرف هذا وزيادة ، كما كان يعرف العلاقات الداخلية بين قادة الفرنجة ، لهذا قام بمغامرته المدروسة في الهجوم على طبرية ، فأثار الفرنجة وجعلهم يغامرون لعبور الطريق بين صفورية وطبرية ، وهو طريق كما سلفت الاشارة ، كان يقوم وسط المنطقة الجرداء الجافة ، وما أن يسلك ، فلا مخرج منه ، وعلى الصليبيين انئذ أن يغامروا بالسير فيه طويلا بلا ماء ، وكان على صلاح الدين العمل ـ وكله أمل ـ في تمزيق الجيش العرمرم قبل أن يتمكن من الوصول الى أحد المرين فوق تل حطين ، والوصول الى مياه البحيرة .

وعلى هذا الأساس قام صلاح الدين في يوم الثلاثاء الثاني من

تموز ، بوضع الجزء الأساسي من قواته فوق المرتفعات تحت الشرف الصخري الى الغرب من طبرية ، حيث تمكنت من اغلاق الطريق المباشر الى المدينة ، وظلت تتحكم بالممرات والقدرة على تأمين المياه لأنفسها ، وكان بإمكانها ـ كما ظهر فيما بعد ـ التحكم بطريق الوصول عبر الممر الآخر ، لكن لابد من الاشارة هنا بأن هذا الجيش قد تمركز في مكان بحيث إن الهزيمة بالنسبة له كانت أبسط معانيها كارثة الفناء والموت غرقا ، فوجود البحيرة ونهر الأردن في خلفه ، كان سيجعل الانسحاب في غاية الصعوبة ، ان لم يكن مستحيلا في ظروف الفرار بعد القتال ، ومع هذا كله نجد ان صلاح الدين قام بنفسه بالهبوط على رأس قطعة صغيرة من قواته على طبرية ، ونجح بسرعة في الاستيلاء على المدينة ولم يستغرق الأمر أكثر من ساعة من الزمن ، لكن حصن المدينة صمد ولم يسقط له ، وهناك اعتصم كل من الأميرة مع حاميتها الصغيرة ، وقامت هذه السيدة على الفور بتدبيج رسالة أنفذتها الى الجيش الصليبي المعسكر في صفورية تصف سقوط طبرية ومانزل بها وبمن معها من ضيق شديد وخطر مخيف .

لقد استطاعت اميرة طرابلس بطريقة ما تأمين رسول تسرب بالرسالة ، حتى اوصلها الى المعسكر الصليبي مساء يوم الخميس ، ويتساءل المرء هل تسرب الرسول ببراعته الشخصية ، أم أن عين رجالات صلاح الدين شاهدته ، لكن تركته يذهب ، فهذا كان موجودا في أصل الخطة ، المهم أن الرسول أخبر الصليبيين بأنهم مالم يهبوا بكل سرعة وحماس الى تقديم المساعدات والنجدات لطبرية ، فإن المدينة سيتم فقدانها الى الأبد ، وانه غادرها والمسلمون يقومون بأعمال النهب والاحراق في أجزاء المدينة .

لقد خلقت هذه الرسالة أزمة استراتيجية للصليبيين ، فهم يرغبون الآن رغبة شديدة ـ وقد طال بهم القعود ـ بالتحرك والاقدام على تخليص طبرية وانقاذ الأميرة المحاصرة ، وتشعبت أراء القادة

حول هذا الموضـوع ، وتـوحدت عواطـف الفـرسان ، وكان راي جيرالد مقدم الداوية وارناط صاحب الكرك مع غالبية الفرسان بـأن عليهم التحرك في الصباح البـاكر ، وقـالوا بـأن الشرف ومثـل الفروسية يتطلبان ، لابـل يفـرضان ذلك ، قـالوا ذلك تحـركهم عواطفهم وغرائزهم ، مع أن مثل هذا التحرك كان من أشد الأعمال حماقة ، وفي الطريق الى طبرية كان هناك عشرة أميال مـن الأراضي الوعرة الجافة الصعبة المجاز ، كما كان ايضا جيش صـلاح الدين المتمركز تحت الشرف والمتحكم بالممرات والمغلق لها جميعـا ، لقـد كان ـ في الحقيقة ـ شر ك منصـوب لهـم ، لكن « الطعـم » كان مغريا لأصحاب العواطف الجياشة .

وبعدما وصلت الأخبار الى مسامع الملك غي ، أقدم على الفور فـوجه الدعوة لجميع البـارونات ورجـال الاكليروس لعقـد مجلس حربي ، وفي بداية الاجتماع اخبر الملك الحضور بفحـوى الرسـالة التي تسلمها من صاحبة طبرية ، وبعد مااطلعهم على الأخبار التـي حملها الرسول ، التفت أولا نحـو ريمـوند الثـالث صـاحب طرابلس ، لالمكانته وعظيم خبرته ، وطول تجـاربه فحسـب ، لكن لأن مدينة طبرية المهـاجمة مـدينته ، وزوجتـه هـي الأميرة المحاصرة ، وهي صاحبة الرسالة ، والمهددة بـالخطر ، وخـاطب غي ريموند بقوله:« ما رأيكم ياسيدي ، وما هي النصائح التي يمكن أن تقدمها الينا»؟...

ولم يكن ريموند من الرجال الذين يفقدون السيطرة على انفسـهم في مثل هذه الأزمات ، وذلك على الرغم من الشعور الشـعبي تجـاه ماكان يجري ، فهو حسب بعض المصادر اللاتينية الصديقة له ، لم يمتلكه الخوف ولا الأسى ، ولم يخش على سلامة زوجتـه ، ذلك انه كان يعرف مدينته ، ويعرف صلاح الدين ، ويدرك الخـدعة ، ويعلم أكثر من سواه طبيعة المنطقة ، لهذا جاء جوابه كما يلي :« لابـأس أنا سأدلي برأيي ، اذا مااصغيتم إلي وصدقتموني ، فأنا أعلم علم

اليقين انه مـــامن احـــد منكم يرغب في تصـــــديقي ». ورد عليه الملك قائلا :« اخبرنا بما تراه ، واعلمنا بما علينا عمله ».

واستجاب ريموند فتحدث ثـــانية وقـــال مـــوجها كلامـــه الى الملك :« أصغ ياسيدي انت والسادة الحضور الى مـــاسأقوله ، ان ماأراه هو : دع طبرية تذهب ، حتى وإن لم أستطع تـرتيب أمـــور عودتها إلي واستردادها من المسلمين ، وحتى في حـــال عجـــزي عن تدبير امر انسحابهم ، إنني اوصيكم بكل صـــدق بـــألا تـــذهبوا الى مساعدة المدينة ونجدة المحاصرين بهـــا ، دعوهـــا تـــذهب دعوهـــا تسقط ، وهاأنذا اخبركم لماذا : إن طبرية لي ، وهي مـــن امـــلاك زوجتي ، وموضوعة تحت تصرفي ، وما مـــن احـــد سيخسر قـــدر خسارتي اذا مافقدناها .

انا لاأتمنى ان يتـــأذى اي منهـــم ، وقـــد ســـبق لي ان انذرتهم ، وأعلمتهم بـــأنهم اذا مـــاوجدوا هجـــوم صـــلاح الدين شديدا ، وكبيرا الى حد انهم لايستطيعون مقاومته ودفعـــه ، فـــان عليهم القيام بركوب بعض القوارب والبحث عن ملجأ مـــا في البحيرة واطرافها حتى نقدم ، عندما تتهيأ الفرصة لانقاذهم ».

انني اعلم علم اليقين ان المسلمين اذا مااستولوا على طبرية ، لن يحتفظوا بها ، بل سيهدمون أسوارها ثم يدعونها ، ولن يتحـــركوا نحونا لمهاجمة معسكرنا ،واذ حدث واستولوا على القـــلعـــة وأسروا زوجتي ورجالي واستولوا على ممتلكاتي وهدموا مـــدينتي ، فإنني سأقوم فيما بعد بانقاذهم ، وبإعادة بناء سور المدينة وترميم ماتهدم منها ، وذلك مع اول فرصة تواتيني ، فأنا كنت ومازلت افضـــل ان ارى طبرية تهدم ، وزوجتي تؤسر مع رجـــالها وممتلكاتـــي تســـلب وتنهب ، على أن ارى الأرض كلها تذهب ، فـــأنا مـــوقن بـــأننا اذا مامضينا لانقاذ طبرية ومن فيها ، فإننا سنخسر الأرض ، وسترى جيشك هذا كله مابين قتيل وأسير ، وهاأنذا مخبرك لماذ ؟.

لايوجد بين منطقتنا هـــذه وطبـــرية مـــــاء ، اللهـــم الا

نبع « كرسون » ؟ وهو نبع صغير لايقوم بأود الجيش ، وأنا على يقين انك حالما تتحرك من هنا ـ اذا ماقررت الذهاب ، لانقاذ المدينة ـ ستجد المسلمين أمامك بانتظارك ، وسيناوشونك بأنواع القتال طوال النهار ، وسيستدرجونك سواد الليل حتى يضعوك في منتصف الطريق مابين موقعنا هذا وطبرية ، وسيجبرونك على المعسكرة هناك لأنك لن تستطيع القتال بسبب الحرارة ولأن السيرجانتية لن يكون لديهم ماء للشرب ، انهم سيموتون عطشا ، واذا ما حاولت القيام بهجوم ، فان المسلمين سيفرون أمامك متراجعين نحو الهضاب حيث لايمكنك المرور بدون السيرجانتية ، واذ وجدت ان عليك المعسكرة هناك ، ما الذى سيشربه رجالك وتشربه خيولك؟ هل يبقون بلا ماء؟ أن مثل هذا الحال سيكون مميتا ، ففي اليوم التالي سيأخذوننا جميعا باليد ، لأن لديهم الماء والطعام والراحة ، سنقتل جميعا أو نقع في الأسر ، انني لهذا كله ارى انه من الخير لنا ان ندع المدينة تذهب ، دون أن نخسر كل الأرض ، لأنه من المؤكد انك اذا مضيت الى هناك ، فالأرض سنخسرها جميعا .

سيدي ، إنك إذا ماأردت حقا دخول الحرب ضد صلاح الدين ، دعنا نعسكر امام عكا ، حيث سنكون قرب حصوننا ، انني أعلم علم اليقين أن صلاح الدين رجل متكبر الى حد أنه لن يدع المملكة ويغادر اراضيها حتى يحاربك ، وانه اذا ماهاجمك امام عكا ، ولم يواتنا الحظ ـ لاسمح الله ـ فاننا سنتراجع الى عكا والى بقية المدن القريبة ، انما اذا نصرنا الرب عليه ، فاننا سنسحقه قبل ان يتمكن من العودة الى أراضيه ، اننا سنحطمه تحطيما شديدا الى حد انه لن يستطيع ثانية جمع قواته .

وعندما انهى الكونت كلامه ، تمتم مقدم الداوية ثانية وبشكل مسموع قائلا : إنه يتبرقع بجلد الذئب ، لكن الكونت لم يعره اهتمامه ولم يلتفت الى هذه الكلمات ، وتظاهر بعدم السماع ، مع

انه سمع كل عبارة ، ثم استأنف خطابه للملك قائلا :« سيدي ، اذا لم يقع كل شي كما اخبرتك ، اقطع راسي ».

وجاء في الكامل لابن الأثير ما يؤيد بعض محتويات هذه الوصية ، ويوضح بقية جوانب القضية حيث قال :« فسار - صلاح الدين - حتى خلف طبرية وراء ظهره ، وصعد جبلها ، وتقدم حتى قارب الفرنج ، فلم ير منهم أحدا ، وفارقوا خيامهم ، فنزل وامر العسكر بالنزول ، فلما جنه الليل ، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ، ونزل جريدة ، وقاتلها ونقب بعض ابراجها ، واخذ المدينة عنوة في ليلة ، ولجأ من بها الى القلعة التي بها ، فامتنعوا بها ، وفيها صاحبتها ومعها اولادها ، فنهب المدينة واحرقها ، فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين الى طبرية ، وملكه المدينة ، واخذ ما فيها واحراق ماتخلف مما لايحمل ، اجتمعوا للمشورة ، فأشار بعضهم بالتقدم الى المسلمين وقتالهم ، ومنعهم عن طبرية ، فقال القمص (ريموند الثالث) : إن طبرية لي ولزوجتي ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة مافعل ، وبقيت القلعة ، وفيها زوجتي ، وقد رضيت ان يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ، ويعود ، فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديما وحديثا ، ومارايت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة ، واذا أخذ طبرية لايمكنه المقام بها ، فمتى فارقها وعاد عنها اخذناها ، وان اقام بها لايقدر على المقام بها الا بجميع عساكره ، ولايقدرون على الصبر طول الزمان عن اوطانهم وأهليهم ، فيضطر الى تركها ، ونفك أسر من أسر منا ، فقال له برنس ارناط - صاحب الكرك - قد أطلت في التخويف من المسلمين ، ولاشك انك تريدهم ، والا ماكنت تقول هذا ، واما قولك انهم كثيرون ، فان النار لايضرها كثرة الحطب ، فقال : أنا واحد منكم ، إن تقدمتم تقدمت ، وإن تأخرتم تأخرت ، وسترون مايكون ، فقوي عزمهم على التقدم الى المسلمين ، وقتالهم ، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه ، وقربوا من عساكر الاسلام ، فلما سمع صلاح الدين بذلك ، عاد من طبرية

الى عسكره ، وكان قريبا منه ، وانما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ، ليتمكن من قتالهم ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر ، فوجد الفرنج العطش ، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين ».

ونعود الى الروايات اللاتينية ، ونتابع معها وصفها لمناقشات المجلس الحربي للفرنجة ، فنجدها تقول انه بعدما انهى ريموند كلامه سأل الملك البارونات ماذا يرون فيما قدمه الكونت من مشورة وآراء ، فأجابوه بأن كل ما قاله الكونت صحيح تماما ، واتفقوا على أنه بات عليهم العمل كما قال ، وهنا أبدى الاسبتارية رضاهم وموافقتهم ، وأعلن الملك عن قناعته بذلك الراي ، وكذلك فعل جميع البارونات ، فيما عدا أرناط مع مقدم الداوية ، لكن رغم هذه المعارضة اتخذ الملك مع جميع البارونات قرارا بالعمل حسب مشورة ريموند .

بعد هذا العرض ماذا يمكن لنا أن نرى في مشورة ريموند ؟ من حيث المبدأ إن كلامه كما نقله المؤرخ اللاتيني قد تنبأ بشكل صحيح وكامل تماما بجميع حوادث اليوم التالي ، كما وقعت ، وهذا لا يدع الشك لدينا بأن الجزء الأكبر والأخير مما نسب الى ريموند حسب الرواية كله مخترع ، قصه الراوي متأخرا بعد المعركة ، ومع هذا فإن قراءة هذه الرواية تترك في النفس انطباعا خاصا ، فهي بما لها وعليها ، تتحدث عن شي قد حصل ، وتروي بشكل غير مباشر أخبار وقائع حطين الحاسمة .

نحن لن نستطيع ـ بشكل مؤكد ـ أبدا معرفة ما حدث من مناقشات في خيمة الملك في ذلك المساء ، فلقد طواها الزمان ، ولن نستطيع أبدا معرفة ما قاله الكونت ريموند ، لكننا نعرف بأن مناقشاته كان لها أثرها الواضح على الفرسان ، الذين دفعتهم أرواحهم المتوقدة ، ساعة سماعهم الأخبار الى المطالبة بالزحف فورا ، فتوقفوا الآن وهدأ جيشانهم ، لهذا نفترض بأن الآراء التي عرضها كانت مصيبة تحوي مشورة جيدة ، الى حد قرار

التربص ، فهو كان بلا شك على معرفة بالمنطقة أكثر من سواه ، وكانت معارفه الحربية ، وقدراته التكتيكية مشهورة ، كما أنه ملك قدرة الاقناع ، بعد عرض الأفكار بشكل واضح ومنطقي ، وفيما يختص بطبرية فإنه كان المسؤول عنها ، ويرجح أنه لم يكن قلقا عليها ، ولوكان لترك فيها منذ البداية حامية قوية ، زد على هذا كله أن ريموند الثالث كان فاهما لاستراتيجية صلاح الدين ، ودون شك قد قدر بأنه إذا مكث الصليبيون في صفورية ، فقد كانت فرصة متوقعة ، بأن صلاح الدين سيضطر أخيرا الى الانسحاب من طبرية ومن معسكره تحت التلال والعودة نحو دمشق ، أو أنه سيقرر الهجوم والاندفاع داخل الأراضي الصليبية .

ونستخلص من مختلف الروايات بأن ريموند كان يعتبر نفسه أنه ما يزال على علاقة طيبة مع المسلمين ، وأنه كان يأمل بالحصول على انسحاب صلاح الدين ، والحيلولة دون القتال ، بعد نوع من المباحثات ، فصحيح أن صلاح الدين كان لديه الماء ، إنما كما يبدو ، كان تحصيل كميات كافية من المؤن تكفي لمدة طويلة أمرا صعبا ، ثم كان صلاح الدين يقود جيشا نصفه من المتطوعة الذين يفقدون الصبر بعد قليل من المرابطة ، والنصف الآخر من أمراء الاقطاع وحكام الأطراف الذين تتملكهم الرغبة الشديدة في العودة الى اراضيهم ، لقد كان صلاح الدين بعيدا عن قواعده ، معسكرا في أرض عدوة ، وكان لا يستطيع المرابطة طويلا ، وطبعا كان من الأفضل للفرنجة المقامرة على أن يتحرك صلاح الدين منسحبا أو يزحف نحوهم ، بدلا من قيادة جيوشهم في الأرض الجرداء الصعبة التضاريس ، لقد اراد ريموند تقليد فنون المسلمين بالقتال بالانسحاب نحو الشاطىء واغراء صلاح الدين ليس فقط بعبور الهضبة ، وإنما بالتغلغل داخل أراضي مملكة القدس ، لقد كان القتال عند طبرية شرك منصوب ، ريموند وحده ملك ــ حسبما توحيه المصادر المختلفة ــ الفهم الاستراتيجي له ، فهل يا ترى ملك ذلك فعلا أم أن المؤرخ اللاتيني سجل وقائع المعركة ونتائج

التحليلات لما حدث ؟ تبقى القضية معلقة بمثابة سر كبير من أسرار التاريخ .

وبعد هذا كله لنفترض ان كل ما قيل بأن ريموند قد أشار به كان صحيحا ، وان الملك والبارونات وافقوا في البداية على أرائه ، لكن من قال بأن القرارات ـ في العصور الوسطى ـ كانت تتخذ في الاجتماعات العامة ، وأن اعلان الحرب لدى الفرنجة وملوكهم خضع لأحكام العقل والمنطق ، وليس للشهوات والمطامح الفردية ، وعليه قد يكون ريموند أشار بالراي الصحيح ، لكن كلمته لم تكن الكلمة المسموعة لتنفذ ، وحزبه لم يكن الحزب الحاكم في القدس ، لقد كان ريموند عدوا للملك غي ولأعوانه خاصة جيرالد مقدم الداوية وارناط صاحب الكرك ، فصراعاته ضد الجماعة الحاكمة في القدس قد أجبرته على الحالف مع صلاح الدين ، وكان الحزب الحاكم لا يكتفي بعدم الثقة به ، بل كان ما يزال ـ رغم المصالحة ـ يعتبر بأعين الكثيرين خائنا «يتبرقع بجلد الذئب » لا يجوز مطلقا الوثوق بكلامه ، ولاشك أن جيرالد وارناط وغيرهما كثير امنوا بهذا ايمانا مطلقا ، وهنا لب القضية الحقيقية فيما حدث ، وأدى الى ما نزل بالفرنجة في حطين ، المشكلة أن الصراعات الشخصية ، والعداوات الفردية التي وجدت بين صفوف قادة الصليبيين الى فترة طويلة ، جعلت الامور تتداخل ، والأحكام تمتزج الى حد غدا فيه من المحال التمييز في عقولهم بين ريموند خصمهم وريموند العسكري المجرب والاستراتيجي الخبير .

وتشير المصادر الغربية الى أن في حوالي منتصف الليل انقضى الاجتماع ، وانصرف البارونات الى خيمهم ظانين بأن المسألة قد تقررت ، وهم على ثقة تامة بأن الجيش لن يتحرك الآن ، وسيبقى تلك الليلة في معسكره حتى يجد جديد فيجري بحثه ، وجلس الملك في سرادقه يروح عن نفسه الى ساعة متأخرة من الليل ، وما كاد يفرغ من ذلك حتى دخل جيرالد مقدم الداوية ، وخاطبه بقوله : « هل تصدق ما قاله هذا الخائن ، وتؤمن بما قدمه من مشورة وأراء ، إنه

عار عليك أصلا أن تستمع اليه ، وأن يقوم بتقديم النصيحة لك ، وإنه أيضا لعار عليك عظيم ، كما هو مهين بالنسبة لك ـ وأنت الذي توجت ملكا منذ زمن غير بعيد ، واستطعت رغم ذلك حشد جيش كبير لم يجتمع مثله لملك قبلك في هذه الأرض ـ أن تتراخى وتتهاون ، وتدع مدينة ، هي على بعد ستة أميال منك ، نفقدها لعدونا ، إن هذه أولى المهام التي ألقيت على عاتقك ، وأول الواجبات التي عهد بها اليك ، منذ جرى تتويجك ، واعلم جيدا ، قبل أن ترى ، بأن الداوية سيخلعون أقبيتهم البيضاء ، ويبيعونها أو يرهنونها ، مالم ينتقم من المسلمين ما حل بي وبهم من عار واذلال (يشير الى واقعة الناصرة) امض ، وأعلن في الجيش كله ، بأن على كل رجل حمل سلاحه ، والانضمام الى جماعته ، للانضواء تحت لواء الصليب المقدس .

ولم يتجرأ الملك غي على معارضته ، ونفذ كل ما أمره به ، لأنه كا ن يحبه ويخشاه ، حيث أنه هو الذي نصبه في الملك ، وأعطاه الأموال التي بعث بها ملك انكلترا »

ولم يكن تأثير ضعف الملك غي وعجزه ، على جماعته حاسما بشكل مميت مثلما كا ن تلك الساعة من بعد منتصف الليل ، فقد كان هو القائد العام ، وكان كل شيء متوقفا على قراره وعليه شخصيا كما عرف جيرالد بشكل واضح ، ولقد تمكن جيرالد ببراعة فظة من جعله يشعر أنه مدان للداوية ولمقدمهم جيرالد ولجميع الذين صنعوا منه ملكا ، ولا شك أن هذه قد كانت نقطة حساسة جدا ، ففي الماضي ، قام جيرالد ، بتنصيبه ملكا على القدس ، رغم أنف جميع البارونات فكيف يمكنه الآن مخالفته ؟ يضاف الى هذا أن مقدم الداوية دغدغ عواطفه واستثار شجاعته وحرضه ، ذلك أن الملك غي رغم كل شيء كان من فرسان الفرنجة ، يحمل الطباع نفسها ، ولم يكن جبانا ، بل مغامرا متهورا ، ومع ذلك عرف جيرالد كيف يجعله العوبة بين يديه ، ولهذا أقدم غي في تلك

الساعة المتأخرة من الليل ، أقدم دون تردد ، على اصدار الأوامــر لمن كان حوله بإزالة معسكرهم ، وحمــل الســلاح للزحــف نحــو الامام .

وقضت قوانين الفرنجة وتقاليدهم ، أن مثل هذاالقرار كان بعـد صدوره لا يمكن نقضه أو التــراجع عنه ، وفي الحــال شرع الجيش بالتحرك نحو طبرية ، وبات من المحال تغيير الخطة ، وصار الأمــر الآن طبرية أو الكارثة ، ولكم هــو مــدهش وضــع الفــرنجة ، أن يرفض ملكهم نصيحة ريموند وهو على انفراد بعد ما أعلن عن قبوله لهــا قبيل ســويعات في مشــهد عام ، أن يتخلى عن ذلك كله نتيجــة لضغط جيرالد عدو ريموند ، منذ أن حرمه الأخير من زواج مــوعود « بســيدةالبترون » وذلك قبل ست ســنوات مضــت ، وذلك حســب تصريح المؤرخ الفــرنجي الذي شــهد هــذه الأحــداث ، ولذلك دعاه بـ « الرجل الذي ضاعت الأرض على يديه ».

كانت ساعة اصدار الأوامر أسوأ ساعات الليل ، فيهــا تــرتخي الأجساد ، وتهبط المعنويات ، وتكثر الأحلام ، ولهذا يخبرنا المؤرخ الفرنجي بأن الانزعاج بين الفرسان كان كبيرا جدا ، عندما سمعوا بأوامر الزحف ، وأصر بعضهم على معرفة من دفع الى اتخاذ هــذا القرارالمفاجىء ، وما الذي بعث على تغيير الخــطط الســالفة ، لكن الملك رفض إخبارهم ، وقرر عدم تقديم أية ايضاحات ، وأصر على ما أصدره من أوامر ، لذلك عبثــا حــاولوا الضــغط عليه لثنيه عن قراره أو التراجع عنه ، فأطاعوه مكرهين والحزن يملأ قلوبهم ، أو حسب عبارة المؤرخ الفرنجي : « أطاعوه لأنهم كانوا رجــال صــدق وأصالة ، ونفذوا أوامره ، ولربما كان خيرا لهم وللمسيحية لو أنهم رفضوا إطاعة اوامره ».

ويستخلص من رواية هذا المؤرخ أن رجال الفرنجة تهيأوا للزحف في ساعات ما قبل الفجر ، وهو ـ كما قلنا ـ وقت تــكون شــجاعة الرجــال فيه في أدنى المســتويات انخفــاضا ، وانتشر الشــعور باليأس ، وتوجس الشر ووقوع الكارثة ، بين صفوفهم ، وترك هذا

الحال أثاره العميقة ليس على مؤرخنا القديم بل حتى على كتاب العصر الحديث في الغرب ، لهذا أسرف وأسرفوا في ايضاح الحالة النفسية لعساكرالفرنجة ، ولا شك أن كميات القصص المروية ، وفي كل منها نبوءة بالكارثة ككل أو شطر ، ما يعكس الأحوال النفسية المتدهورة للصليبيين ، خاصة وأن معظم هذه القصص جرت روايته فيما بعد.

ومفيد لنا أن نسرد وقائع احدى القصص ، ففيها ما يقدم صورة واضحة لحالة الهياج والاضطراب النفسي والهلع الذي ساد بين صفوف الفرنجة : قيل بأن واحدا من مشاة المؤخرة ألقى القبض على امرأة مسلمة ، فأعلن أنها كانت ساحرة ، وظفها صلاح الدين وبعث بها لتلقي بسحرها على الجيش الصليبي ، وانتشر الخبر ، وهاج الجيش وماج ، واضطرب الحال ، وفقد الجميع السيطرة على عقولهم ، وجرى ايقاد نار عظيمة لاحراقها ، وقيل بأنها ألقيت في النار فلم تؤثر بها ، وزاد الاضطراب والهياج حتى قيل بأن الرجال والخيول على السواء تأثروا بسحرها ، ولقد أقدم أخيرا أحد الرجالة فاجتث رأسها ببلطة هولندية كانت بيديه ، وتناثر دماغها في كل مكان ، وأصاب دمها الكثيرين ، حتى رفضت الخيول ملامسة الماء طوال النهار والليل قبل أن يتحرك الجيش ، ثم تخلت عن خيالتها في اليوم التالي...

لقد كان الجيش الصليبي مؤلفا من ثلاثة أقسام ، ففي المقدمة سار ريموند ، على أساس رتبته ، وبسبب أن الزحف كان في أراضيه ، ووقف الملك في القلب ومعه رجاله وفرسانه وصليب الصلبوت محمولا من قبل اساقفة عكا واللد ، وبقي في المؤخرة « بالين صاحب ابلين » ومعه فرسان الداوية .

في صباح يوم الجمعة الثالث من تموز بدأ زحف القوات الصليبية ، وكان معسكرهم مرصودا من قبل المسلمين ، لذلك نقلت الأخبار سريعا الى صلاح الدين ، الذي ما أن سمع بالأخبار حتى سر سرورا كبيرا ، ذلك أن ما خطط له بدات علامات النجاح المتأمل

له بالظهور ، وكان يشرف على فتح طبرية ، وعلى الرغم من أن رجاله كانوا قد شرعوا في فتح ثغرة في أسوار قلعة طبرية ، وأن القلعة أشرفت على السقوط ، فإنه ترك طبرية ، والتحق على الفور بالجزء الأكبر من جيشه المقيم تحت الشرف الكبير الى الغرب من طبرية ، وترك شحنة صغيرة لتتولى أمر المدينة ومتابعة حصار القلعة ، ووضح الآن أن طبرية لم تكن هدف صلاح الدين الحقيقي ، وعندما بلغه الخبر صرخ قائلا : « جاءنا ماتريد ، ونحن أولو بأس شديد ، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع ، ولا عن فتحه وازع » .

وبمجرد مغادرة الصليبيين للصفورية في طريقهم يريدون طبرية ، بدأت التوقعات المعزوة لريموند ، تظهر صحتها ، والأهم من ذلك أن التكتيك « الفرنجي » (أي نظام فصل أسلحة الجيش الصليبي عن بعضها) ظهر بوضوح لانظير له ، وطبقه صلاح الدين بشكل مثالي ، إنما بصعوبات كبيرة وأعمال معقدة جدا ، المهم أنه نجح كما سنرى في فصل سلاح الفرسان عن سلاح المشاة ، وانزل ضرباته المدمرة بكل منهما على حدة .

فمع تقدم الجيش الصليبي ببطء ، اخذت كتائب من القوات المسلمة ، خاصة من الخيالة النبالة تناوشه من جميع الأطراف ، وتتحرك بتحركه ، واستمر هذا طيلة الصباح ، ولم تلبث الشمس أن ارتفعت في قبة السماء ، وهنا ارتفع الحر ، وازداد العطش ، وعظم ، ولم يكن هناك ماء ، وواضح أن التحرك المفاجيء للجيش ، وصدور الأوامر إليه بعيد منتصف الليل ، وتخيل قادة الفرنجة أنهم سيكونون في طبرية مع إشراقة الصباح ، كل هذا جعل افراد الجيش الصليبي لايحملون معهم الماء ولاحتى المؤن ، ولعله أثناء معسكرته في صفورية لم يكن لديه أوعية لحفظ الماء ونقله ، ذلك أن معركة حطين كانت بالفعل معركة الماء .

وعلى هذا لم يكد الصليبيون يسيرون قليلا حتى أخذت نبال المسلمين تعقرهم والعطش يعضهم ، وساروا مصابرين في ظل هذه

الحالة الصـــعبة حتـــــى وصـــــلوا اخيرا إلى مــــكان عرف باسم « لوبية » وهي واقعة في حوالي منتصف المسافة إلى طبرية ، وكان الوقت انئذ منتصف النهار ، وهنا ازداد ضغط كتائب صـلاح الدين عليهم من كل ناحية ، فقد بدأ تنفيذ مرحلة جديدة حاسمة مـن الخطة ، وازداد العطش الحارق في تلك الســاعة ، واصـبح الحـر لايحتمل ، ولنتذكر مجددا هنا بعض الحقائق :

لقد غطى الحديد جسد كل فـارس ومـطيته ، كمـا أن اجسـاد الرجالة كانت اجزاء كبيرة منها مغطاة بوسائل واقية مـن اللبـد أو الجلود أو المعادن ، وسبب هذا ضيقا شديدا لكل واحد من عسـاكر الصليبيين ، ليس لأن وزن الدروع كان كبيرا ، بل لأن هذه الأثواب على مختلف أنواعها كانت تحد من حرية حركة الانسان ، وليتصور أحدنا نفسه موضوعا داخل قالب معدني أو غير معـدني ، ولوقـت طويل ، وسط حرارة شديدة جدا ، مما يزيد الضيق ضـيقا وينهـك أقوى الأجسام ، وفوق هذا كله واهم ، مشكلة التعرق ، فما ارتـداه الفرنجي حال بين جسده وبين التعرق ، وسد مسـام الجلد ، لهـذا قامت تقاليد اهالي بلاد الشام على ارتداء الثياب الرقيقة البيضـاء الفضفاضة في موسم الصيف .

وسـلف بنا أن ذكرنا أن فـرسان الداوية سـاروا في مـــؤخرة الجيش ، وفي منطقة لوبية شـدد المسـلمون الضـغط على الداوية ، وكانت ضرباتهم موجعة إلى درجة دفعـت الملك غي إلى إصـدار أوامره بنصب الخيم وإقامة المعسكر ، والمسألة الآن ليست في حقيقة أن الجيش الصليبي بـات الآن على مسـافة قصـيرة مـــن الماء ، فالنقاش هنا لايدور حول قرار الملك إقامة المعسكر ، فالضغط لاشك كان شديدا من كافة الجوانب ، لكن القادة الكبار لايتخذون قرارات الانتحار لأنفسهم ولجيوشهم بعد سويعات من الحرب ، فمن الوجهة الاستراتيجية هناك إجماع على أن إقامة المعسكر في ذلك المكان كان غلطة مميتة ، وأنه كان على الصليبيين الصبر والاندفاع بـأي ثمـن نحو الماء ، وهنا نلاحظ في الكتابات الغربية أن كل فريق من الجيش

الصليبي وجه اللوم للفريق الآخر حول اتخاذ هذا القرار ، وبصرف النظر عن ذلك ، إن إقامة المعسكر في لوبية وضع الجيش الصليبي داخل طوق للحصار فرضه المسلمون ، ولم يعد بإمكان الفرنجة العودة إلى صفورية ، وبات التقدم عملا انتحاريا ، لكنه المخرج الوحيد ، ذلك أن البقاء داخل المعسكر - وليس هناك أمل لابالنجدات ولابسواها - كان يعني الموت البطيء جوعا وعطشا أو الاستسلام الجماعي .

ويختلف المؤرخون اللاتين حول تحديد الشخص المسؤول عن إعطاء اوامر التوقف وإقامة المعسكر ، ولاشك أن مثل هذا أمر طبيعي في ظل تلك الظروف الصعبة ، فمع ازدياد صعوبة الزحف لابد أن الرجال الذين رووا أخبار الأحداث ، قد تداخلت معلوماتهم واضطربت ، بسبب سوء الأحوال ، يضاف إلى ذلك أن كل واحد من الرواة كان كما هو متوقع في طرف من أطراف الجيش ، ورأى الأمور من زاوية خاصة ، وبصرف النظر عن هذا كله ، فالذي يأتي بالدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لنا حقيقة مفادها أن قرارا بالتوقف قد صدر بصرف النظر عمن أصدره أو أشار به ، والطريف هنا هو أن بعض كتاب الغرب اتهم مجددا ريموند بأنه قدم للملك مشورة فاسدة سببت اتخاذ هذا القرار ، ولنقم بالبحث في هذه المسألة ، ففي ذلك فائدة كبيرة في اطلاعنا على أحوال الفرنجة ، وبعض الدوافع للتوقف والأهداف .

ويذكر صاحب تكملة تاريخ وليم الصوري وسواه انه عندما وصل الجيش إلى نقطة قائمة في منتصف الطريق بين صفورية وطبرية ، حسب الوصف السالف ، سأل الملك غي كونت طرابلس أن يقدم مشورته حول الوضع ، فاستجاب بأن أشار عليه بالتوقف حيث هو ، ويقيم معسكره ، وتجمع جميع المصادر الغربية على وصف هذه المشورة بالفساد والخيانة ، لكن مصدرا واحدا بينها يوحي بأن التوقف كان بقصد لم شتات القوات وجمعها بقصد القيام بهجوم عام ، وأن مثل هذا الهجوم لو تم لحقق النصر على المسلمين .

قد يكون هذا صحيحا ، إنما من الملاحظ في اخبار الكثير من المعارك التي حدثت في العصور الوسطى أن إصدار بعض الأوامر في الساعات الحرجة ، ثم تبديل أماكن بعض القطعات أو تراجع بعضها أو ما يشابه ، كان يسبب الفوضى ويقود إلى الهزيمة ، على كل حال يقدم صاحب هذه الرواية المزيد من التفاصيل ، ويذكر بأن ريموند أشار على الملك بالتحول عن الطريق التي كان يسير عليها ، واخذ طريق أخر ، فقد أصبح الوقت متأخرا للوصول إلى طبرية ، بسبب المناوشات والهجمات المستمرة لكتائب الاسلام ، ثم لم يكن هناك اي ماء في لوبية ، واخبره أنه وراء التلال إلى اليسار هناك قرية اسمها حطين فيها عدد كبير من الينابيع ، فهناك من الممكن المعسكرة لمدة ليلة ، ومن ثم يستأنف الزحف في اليوم التالي إلى طبرية براحة ودونما عناء ، ووافق الملك على هذا الاقتراح ، لكن حسب راي المؤرخ كانت تلك المشورة فاسدة ، فلقد كان لدى الصليبيين أنذاك ما يكفي من القوة لهزيمة المسلمين ، أو على الأقل شق طريقهم نحو طبرية حيث الماء .

ويتابع عرضه بأن الملك غير طريقه ، وانحرف نحو التلال القائمة الى جانبه ، انما حدث اثناء تغيير الاتجاه أن فقد الجيش نظامه وتماسكه ، مما شجع المسلمين وجعلهم يزحفون من جميع الجهات لتمزيقه قبل أن يتمكن من الوصول إلى الماء ، وقد توقف الصليبيون على هضبة في مكان عرف باسم قرن حطين ، وهنا توجه الملك غي بالسؤال ثانية الى ريموند: ماذا عليه أن يعمل ؟وأجابه ريموند هذه المرة ، بأنه لو سمع نصيحته منذ البداية ، لما خسر نهاره ، لكن الآن تأخرت الأمور ، ولم يبق أمامه إلا – كما قال – أن ينصب معسكره هناك على قمة الهضبة ، وهذا مافعله غي .

من الواضح أن المكان الموصوف في هذه الرواية هو الأرض القريبة من قرني حطين ، حيث – كما قال هذا المؤرخ نفسه – قامت المعركة في اليوم التالي وأن ريموند قد حرض الملك على اجتياز الممر الواقع إلى الغرب – كما سبق وصفه – إلى

حطين والماء ، وما يعنينا هنا هو تغيير الملك لاتجاهه وتخليه عن الطريق المباشر إلى طبرية ، وحيث أن ريموند كان على رأس مقدمة الجيش يبدو أنه أشار بتغيير الاتجاه ، ونفذ فوصل إلى قرب الممر الى الماء ، لكن الجزء الأساسي من عساكر الجيش مع قوات المؤخرة كانوا بعيدين في الخلف ، ولعل عملية الانحراف إلى اليسار أو إلى الشمال تمت في لوبية ، وأن الجيش والملك تعذر عليهما اللحاق بريموند ، فصدر الأمر بالمعسكرة هناك في لوبية ومنطقتها لأن الجيش كان كبيرا ويحتاج إلى رقعة واسعة من الارض ، ويبدو انه بعدما صدرت الأوامر بالمعسكرة تراجع ريموند مع المقدمة أو جرى استدعاءه ، وعلى هذا نجد أن ما ذكره هذا المؤرخ من أن المعسكرة جرت على قرن حطين ، ليس صحيحا ، يضاف إلى انه لاتوجد روايات أخرى تشير إلى ذلك ، ثم إن هذا الخبر لايتماشى مع مجريات اليوم التالي .

وفي رحلة لمؤلف مجهول (جرى نشرها في لندن سنة ١٨٧٥ م ، وتعرف عادة باسم ليبلوس وصف فيها صاحبها الأراضي المقدسة) رواية عن معركة حطين ، لعلها نقلت عن شاهد عيان حضر الحوادث وشارك بها ، وكان في المقدمة مع ريموند ، كما انه كان من المؤيدين له والمدافعين عنه ، وتتشابه هذه الرواية من بعض الجوانب مع رواية تكملة تاريخ وليم الصوري ، إنما مع فارق بالتفاصيل ، فهي مختصرة ، ورواية التكملة واسعة ، وقد جاء فيها : « عندما وصل الجيش لوبية ، أشار الكونت على الملك أن يسرع الخطى فوق مكان صخري ضيق طوله قرابة ميل واحد ، حتى يتمكن من الوصول إلى بحيرة طبرية والماء ، وأخبره أنه إذا لم يفعل ذلك ، سيموت وجيشه عطشا » .

ويبدو أن الممر المقصود هنا هو الموجود إلى غربي قرني حطين ، الذي رجحنا وصول ريموند على راس المقدمة إليه ، والجدير بالذكر أن صاحب هذه الرواية لايوجه اللوم إلى ريموند لتقديمه رأيا فاسدا ، بل يخالف الروايات الاخرى فيوضح بأن الملك حاول في

البداية اللحاق بالكونت ريمـوند ، لكنه عندمـا رأى حـركة الجيش البطيئة والفوضى الناجمة عن تغيير الاتجاه ، ثم ما نزل بـالداوية في المؤخرة ، الذين ضغط عليهم بشـدة متناهية ، حتـى انهـم بـاتوا عاجزين عن متابعة القتال والحركة ، عندها أمر بالتوقف ، وبنصب الخيم ، وأن ريمـوند عندمـا شـاهد ذلك صرخ : « واحسرتـاه ، واحسرتاه ، ياإلهي ، انتهت الحـرب ، لقـد خـانونا ، ودمـرت الديار » ،ومعنى هذا أن ريموند كان ضد التوقف في لوبية .

ومهما يكن اسم الرجل المسؤول ، يستخلص من جملة ما جـرى عرضه أن جيش الفرنجة زحف مـن صـفورية ، يريد طبـرية عبـر الطريق المباشر ، فاعترضه المسلمون وأحاطوا بـه ، ووجهـوا إليه الضربات المميتة ، ولم يكن مع الفرنجة ماء ولا مـؤن كافية ، وكان اليوم شديد الحرارة ، وعند الوصول إلى منتصـف الطـريق ، حيث حمل المكان عموما اسم « لوبية » تقرر تغيير الاتجاه نحـو اليسـار نحو قرية حطين حيث بعض الماء ، مع ممـر يمـكن النفـاذ منه إلى طبرية ، وأدى قرار تغيير الاتجاه إلى خلل شـديد في نظـام الجيش الزاحف ، وهنا ازدادت ضراوة هجمات المسلمين ، وبات من المحال متابعة التحرك ولم يكن هناك مجال للهزيمة ، لذلك أصدر الملك الأمر بالتوقف والعسكرة .

ومن المرجح أن تكملة تاريخ الصوري كتبت من قبل أرنول جـون سيد بالين أوف ابلين ، وهو رجل كان موجودا في المؤخـرة ، ورغم التفاصيل التي قدمها فإن معلوماته عن مقـدمة الجيش ربمـا هـي مغلوطة ، يرجح عليهـا الرواية التـي أوردهـا صـاحب ليبلوس ، ولايهمنا هنا من يوجه إليه اللوم حول قرار التوقف ، بقدر مـا يهمنا الحكم على هذا الاجراء ، ثم التنسيق بين مختلف الروايات والافادة منها جميعها إلى أبعد الحدود .

المهم الان أن قرارا بالتوقف جرى اتخاذه وتنفيذه ، وبـات الآن على اللاتين مواجهة ليلة ليلاء ، وهم تحت السلاح ، دونما أدنى أمل بتحصيل الماء لاطفاء عطشهم القاتل ، وكانوا مطوقين تماما من قبل

المسلمين ، الذين بـددوا محـاولتهم الأولى والوحيدة للوصـول إلى الأراضي المنخفضة ، وبات أن يجربوا ثانية ، أمرا لايمكن مجـرد التفكير به ، ففكا الفخ أغلقا بإحكام حولهم .

وإذا نظرنا الآن إلى الوراء ، كما فعل كتاب الروايات الغـربية ، لاهتمامنا بما جرى داخـل المعسـكر الصـليبي في تلك الليلة الليلاء وآخذين بعين الاعتبار رعبها وشدتها مع ما حدث في اليوم ، نجد من السهل الاقدام مباشرة على ادانة قرار التوقف لتمضـية الليل في تلك الهضبة الجافة ، والماء على مسـافة قصـيرة إلى الشـمال عبـر الهضبة ، لقد صدر قرار الادانة بعد التوقف وتفحص الموقـف ، ولم تكن هناك معارضة له ساعة صدوره ، بل لربما يمكن القول بأن قرار التوقف صدر لتقرير أمر واقع ، فقسم كبير جدا من الجيش كان قد توقف عن الحركة ولم يكن أمامه فعل غير ذلك ، واضطر أفراده إلى نصب الخيم للاستراحة وللوقاية من حر الشمس ، ويبحث المؤرخ في أيامنا فيما حدث ، ولايهمه كثيرا ما يتمناه بعضهم لو أنه حدث أو لم يحدث فلا مكان لعبارة « لو» في التاريخ ، وللانصاف نستخلص من مختلف الروايات بأن جهودا مضنية وجدية بذلت للوصول إلى الماء ، وأن مقاومة الصليبيين استمرت إلى النهاية ، ولم يحـدث انهيار في العزائم والقوى ، وهذا بحد ذاتـه هـام جـدا ، وفيه دلالة على أن النصر الذي ناله صلاح الدين في حطين ، كان باهظ الثمن تـم بعـد جهود غير محدودة ، وهنا تظهر عظمته ودوره الحـاسم ، كمـا أن الذي يهزم جيشا من الشجعان ليس كمن يهزم الجبناء .

لقد كانت وقـائع اليوم الاول للزحـف رهيبـة ، وبلغ الانهـاك الجسدي عند الصليبيين حدا عاليا ، وكانت النهاية محتومة ولايمكن الحيلولة دون تحطيم المؤسسـة العسـكرية اللاتينية ، هنا انتصرت العقيدة القتالية للمسلمين بعد سـلسلة مـن الهـزائم السـالفة ، انتصرت لأن تطبيقها جرى بشكل نموذجي .

لقد زحف الصليبيون من صفورية ، يشـكلون جيشـا عمـلاقا ، تخيلوا أنه لن يقهر ، وأن ما من قـوة على وجـه الارض يمـكن أن

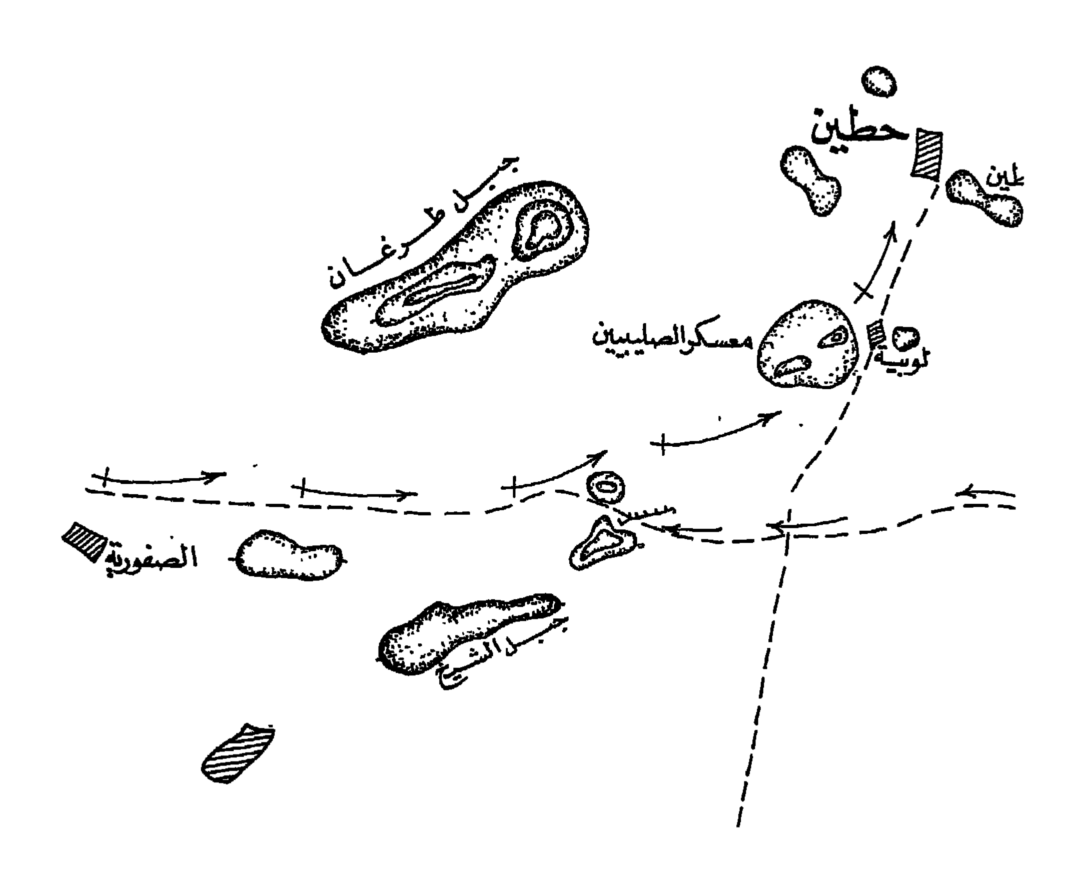
تتصدى له وتعترض سبيله ، سار قادته على الطريق المباشر نحو طبرية ، وهم يخيل إليهم الوصول إليها في سويعات ، لهذا لم يفكروا باصطحاب الماء والمؤن الكافية ، ولكن فاتهم أن الشجاعة بلا عقل حماقة ، وأن العقل قادر على قهر جميع القوى ، ساروا عبر أرض لم يقع اختيارهم عليها ، بل فرض الأمر عليهم فرضا ، ولهذا ما أن زحفوا قليلا حتى وجدوا الأمر صعبا جدا ، فالحر والعطش ، والنشاب والنار ، والسيوف ، وأعمال الانقضاض الجريئة ، بدت أعظم من قواهم ، ووضح بعد قليل من الوقت انهم لن يتمكنوا من تجاوزها ، وغرقوا في بحر من الفوضى والتعب ، صحيح أنهم صاروا على مشارف طبرية ، لكنهم وجدوا الجسم الاساسي من جيش المسلمين واقفا بانتظارهم يسد جميع الممرات ، فتبعوا هنا راي ريموند أو سواه فتخلوا عن الطريق المباشر ، وقرروا الانعطاف نحو اقرب النقاط التي فيها ماء ، أي إلى حطين ، التي جثمت هناك إلى اليسار منهم في أعلى الهضبة ، انعطفوا وكلهم أمل بالخلاص ، ولم يدر بخلدهم أن صلاح الدين ترك هذا الممر ، يبدو وكأنه مفتوح ، فذلك كان مرحلة تنفيذية جديدة في الخطة ، وشرك جديد منصوب ، انعطفوا فدبت الفوضى بين صفوفهم ، ووقف المسلمون مجددا حولهم وأمامهم في الطريق ثانية ، وصار الوضع الآن إما الاشتباك في معركة عامة أو الاستراحة هناك حتى تنقضي الليلة ، والسؤال الآن : هل كان بإمكان الفرنجة الدخول في معركة التحامية بعد عناء ذلك النهار ، صحيح أن ريموند قد يكون قد توصل إلى الممر في الأعالي ، لكن من يمنع من الافتراض ـ استنادا لوقائع اليوم التالي ـ أن الطريق اخلي أمامه ، وأن صلاح الدين كان يريد قطعة عن جسم الجيش الصليبي لمعرفته بقدراته القتالية وعظيم خبرته بالتكتيك ، وشجاعته .

لقد حدث التوقف ، وكانت ليلة لوبية رهيبة ، لكن النهار الذي تلاها كان اكثر رهبة ، لم يلمس الصليبيون في تلك الليلة ولا خيولهم الماء ، بينما كان المسلمون من حولهم في راحة وتمكن ، حيث كانت قرب وروايا الماء تنقل إليهم على ظهور الجمال من البحيرة

باستمرار ، وتبعا لبعض الرواة أمر صلاح الدين بصب بعض الماء على الأرض على مرأى ومسمع من الصليبيين ، ليزيد في عذابهم ، وأحاط المسلمون بالصليبيين من كافة الجهات ، وكانوا قريبين منهم إلى درجة أن سنورا لم يكن بمقدوره النجاة من داخل المعسكر الصليبي ، ولم تتوقف الهجمات واطلاق النشاب والمواد المحرقة ، واصغى الصليبيون طوال الليل إلى أصوات المسلمين تنادي : الله اكبر ، لا إله إلا الله ، ولذلك ـ حسب قول المؤرخ اللاتيني ـ لم ينالوا إلا قليلا من الراحة ، وفي ظلمة الليل غرقت آمالهم كلها ، وزالت معها شجاعتهم ، أو لنقل ما بقي لديهم من شجاعة .

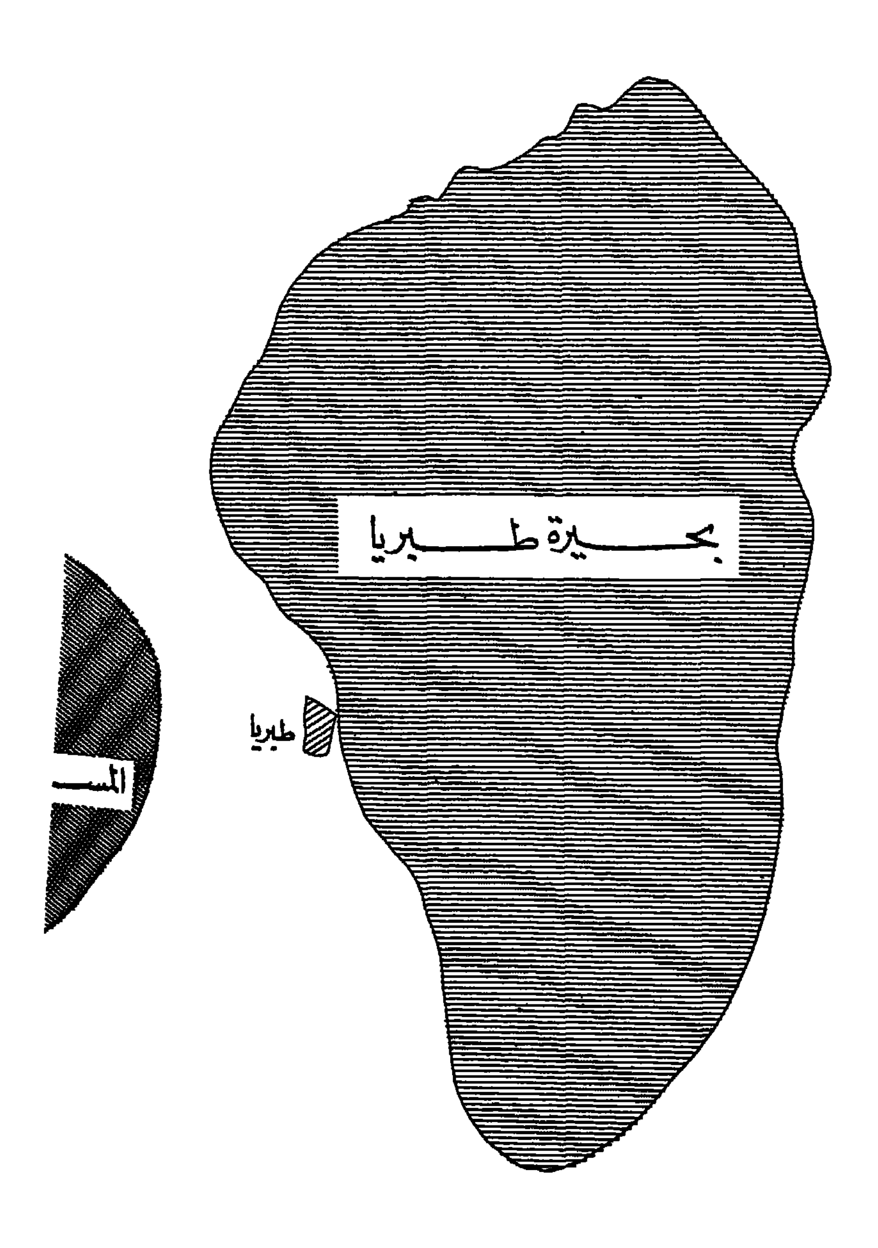
وكما قلنا اختلف حال المسلمين عنهم تماما ، فقد كانوا في غاية السرور ، يهللون ويسبحون ويتوجهون بالشكر إلى رب العالمين ، لقد كانوا حتى الآن يخشون الصليبيين ويهابون اللقاء بهم ، لكن في هذه الساعة ، يقودهم صلاح الدين ، عندما رأوهم داخل الشرك الذي نصبوه لهم ، قويت قلوبهم ، وازدادت ثقتهم بأنفسهم ، وحقا صنع المؤرخ الاسلامي العماد الكاتب حين وصف تلك الليلة وأحوال الفريقين بقوله : « وحجز بينهم وبين الماء ، واليوم قيظ ، وحجز الليل بين الفريقين ، وحجرت الخيل على الطريقين ، وهيئت دركات النيران ، وهنئت درجات الجنان ، وانتظر مالك ، واستبشر رضوان فهي ـ ليلة القدر خير من الف شهر تنزل الملائكة والروح ـ وفي سحرها نشر الظفر يفوح ، وفي صباحها الفتوح ، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم : ـ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الاخرة ـ وبتنا والجنة معروضة ، والسنة مفروضة ، والكوثر واقفة سقاته ، والخلد قاطفة جناته ، والسلسبيل واضح سبيله ، والاقبال ظاهر قبيلة ، والظهور قائم دليله ، والله ناصر الاسلام ومديله » .

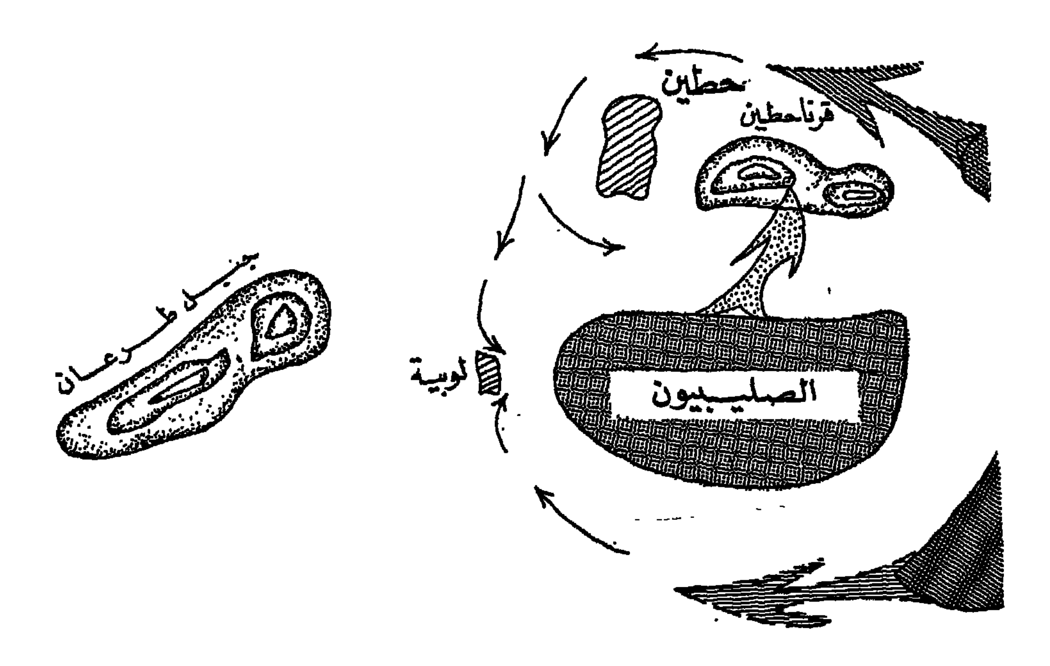
ولقد روي بأن صلاح الدين سهر ليلته بطولها ، وهو يشرف على ترتيبات المعركة لليوم التالي ، فقام بتوزيع جند المقدمة والطلائع لكل كتيبة ، وعين الرماة ، وزودهم بالسهام ، وكان ما فرقه من النشاب



حطين
طين
جبل طرعان
معسكر الصليبيين
لوبية
الصفورية
جبل الشيخ


بحيرة طبريا
طبريا


بحـــيرة طـــبريا
طبريا
المســ


حطين
قرنا حطين
الصليبيون
لوبية
جبل طرعان

أربعمائة حمل ، وأوقف « سبعين جمازة في حـومة الوغى ، يأخـذ منها من خلت جعابه ، وفـرغ نشـابه » ، وأعد الجند أسـلحتهم ، وصلوا لله وتوجهوا إليه بالدعاء والحمد ، وكلهم أمل وثقة بالفرج ، واستنزلوا النصر من عند الله ورجوا عونه وإعزاز دينه».

وفي صباح يوم السبت الرابع من تموز ، كان الفريقان جـاهزان من أجل الصراع النهائي ، ولا شك أن كل منهما أدرك أن مسـتقبل المملكة اللاتينية والوجود الصـليبي في المشرق متـوقف على نتيجـة الصراع ، ونعود لنذكر أنه من حيث التعداد والقـدرة القتـالية كان الجيشان ما يزالان متعادلين تقريبا ، لكن بينما كان المسـلمون قـد نالوا قسطا من الراحة ، وكانوا واثقين ـ دون غرور ـ بـأنفسهم بدرجة كبيرة لم يعرفوها من قبل ، كان الصليبيون طـوال يوم وليلة بلا ماء ، لم ينل رجالهم ولا الخيول راحة كافية ممـا عانوه في اليوم السابق ، ولاشك أن هذا عامل كان له فعاليته في المعركة .

لقد كان سلاح الفرسان الصليبي مايزال على حـاله مـن القـوة والقدرة على الخرق ، ويبدو أن خـطة عمـل الفـرنجة قـامت على الانقضاض ثانية من أجل الوصـول إلى الممـر إلى الشـمال مـن القرنين ، وللوصول إلى الماء مهما كان الثمن ، وكانت المنطقة وعرة لامجال فسيح فيها لعمل الفرسان الثقال وحملتهم ، وأدرك صـلاح الدين هذا ، وهنا ظهرت عبقريته مجددا ، وكان ريموند الثالث كمـا سبق التبيان في المقدمة ، ومعه أبناء زوجته الاربعـة وريمـوند أمير انطاكية وفرسانه ، ومن جديد استخدم المسلمون التـكتيك الفـرثي المعتاد ، وأرادوا استدراج الفرسان إلى مـا ظنوه « مجـالا رحبـا للحملة » وعزلهم عن الرجالة ، وكان صلاح الدين يرغب في تـاخير العمل حتى تصبح الشمس في كبد السماء ، على أساس أن الحرارة كانت اكثر الأسلحة تأثيرا ضد أعدائه الصليبيين ، وفتحـت قـوات صلاح الدين الطريق قليلا ، وأفسحت المرور به ، إنما دون أن تكون لديها الرغبة في تلك الساعة بالسماح لمقدمة الفـرنجة بـالوصول إلى اهدافها أو النجاة ، ونتيجة لهذا وصل ريموند إلى الممر ، لكنه وجد

المسلمين هناك سدوا المنافذ كلها أمامه ، وحاول أن يتخطاهم ، ويفتح ثغرة أو منفذا بين صفوفهم فحبطت أعماله ، فقد كان المسلمون جاهزين لاطلاق رماياتهم الكثيفة ، التي مالبثت أن برهنت انها مميتة .

وانحرفت مقدمة ريموند قليلا نحو السهل القائم إلى جنوب قرني حطين ، وتبعها بقية الفرنجة ، وهناك التحمت القوتان الرئيسيتان من الجيشين ، وذلك من حوالي الساعة التاسعة صباحا ، ولقد كان ترتيب الجيش الصليبي ـ بما فيه قوات ريموند ـ مختلفا عما كان عليه الحال في اليوم السابق ، فقد اوكل .غي أمر ترتيب الصفوف للمعركة إلى اخيه أما لرك ، الذي شغل وظيفة المراقب العام للملكة ، وأوكلت قيادة المؤخرة إلى بالين صاحب ابلين ، كما كان في السابق ، وكان معه بعض الأمراء منهم رينالد أمير صيدا ، لكن لم يكن معه الداوية كما كان الحال في اليوم السابق .

وجاء تنظيم القسم الأساسي من الجيش الصليبي حسب المبادىء العامة التي جرى تبيانها في مطلع هذا البحث ، ولحسن الحظ ، لدينا وصف وثائقي مفصل لذلك ، قدمه أحد الرواة الحضور جاء فيه :« بعد ما جرى تقسيم الجيش إلى وحدات وصفوف قتالية صدرت الأوامر إلى المشاة بالقيام بمهام حماية الجيش بوساطة الرمايات ، وذلك بغية تمكين الفرسان من القيام بمواجهة العدو بسهولة ، وعليه تتم حماية الفرسان من رمايات العدو ، بواسطة المشاة ، بينما يتولى الفرسان حراسة المشاة وحمايتهم برماحهم ، ويمنعون العدو من الانقضاض عليهم ، ويغدو بهذه الطريقة كل فريق أمنا من خلال التعاون مع الفريق الاخر » .

إنما كيف اصطف السلاحان ، وأين كان موضع كل منهما ؟ هذا ما لم تذكره المصادر ، ويمكن لنا أن نتصور أن ذلك كان : بأن تم توزيع المشاة المسلحين بالقسي العقارة والفؤوس في الأمام وعلى الجناحين ، تمهيدا لهجوم الفرسان الثقال ، وعندما حان وقت انقضاض الفرسان ، أفسح المشاة السبيل لهم في الأمام ، ثم

مالبثوا أن تجمعوا لحماية المؤخرة والجناحين ، هذا ما نستخلصه من مختلف الروايات ، لكن مهما كانت صيغة التشكيلات ، من المهم لنا أن نلاحظ الحاح الكتاب ، واجماعهم على ايضاح مسألة اعتماد الفرسان على الحماية المقدمة إليهم من الرجالة .

وتمركز في قلب هذا القطاع الاساسي من الجيش الصليبي ، الملك غي مع فرسانه المختارين ، وكان الى جانبه صليب الصلبوت يحمله أسقفان ، وكان هذا الصليب هو الينبوع المتبقي لدى الصليبيين ليبعث فيهم الشجاعة والصبر حتى يتمكنوا من خوض غمار ذاك اليوم الحاسم ، وكان بين هؤلاء الذين وقفوا إلى جانب الملك ، الداوية والاسبتارية الذين كانوا خيرة فرسان الفرنجة ، ولقد عهد الى هؤلاء جميعا بالقيام بالهجوم الأول ضد المسلمين .

وما أن تم الالتحام حتى ضغط الداوية بقيادة مقدمهم جيرالد على المسلمين ضغطا شديدا ، فقتلوا عددا منهم ، واجبروا قسما منهم على التراجع ، وكان ما بذله هؤلاء الفرسان من جهود كبيرا ومضنيا ، لكن تراجع المسلمين أمامهم لم يكن فرارا ، بل عملا تكتيكيا مرسوما ، لذلك حبطت جهود الداوية ، وكانت بلا مردود يذكر ، وتبددت معالم الخطة الصليبية التي جرت حسب العادة ، لاحسب الحاجة والواقع ، فهجوم الفرسان كان يعوزه الدعم والحماية ، وكان من المكن للمشاة في السهول تقديم مثل هذا المطلب ، لكن في ظروف حطين حيث المناخ والتضاريس ونشاب المسلمين عجز المشاة عن الاحتفاظ بتنظيمهم الأساسي في مرافقة الفرسان ، وأدى إلى عزل فرسان الداوية والاسبتارية وتمزيقهم إربا إربا ، وحدث هذا كله كما يلي :

« عوضا عن أن يبقى المشاة محتفظين بتشكيلاتهم إلى جانب الفرسان ، وذلك عندما زحف المسلمون نحوهم ، تكتلوا في جمع واحد ، واندفعوا إلى جانب أحد التلال (وكان بلا شك واحدا من قرني حطين) وأرسل الملك والأساقفة خلفهم ودعوهم للعودة لحماية صليب الصلبوت ـ الأثر الوحيد المتبقي من حادثة

الصلب ـ ولحمـاية جيش الرب ، لكنهـم اجـابوا بـالرفض ، وقالوا :لانستطيع القدوم ، لأن العطش انهك قوانا ، واعدمنا القدرة على القتال ، ومرة ثانية بعث يأمرهم بـالعودة فـرفضوا ، وهـكذا تركت خيول الفرسان بلا اية حماية .

ووجد في الوقـت نفسـه الداوية والاسـبتارية والتـركبلي على مجنبتهم ، انهم ما عاد بإمكانهم ايقاف زحف المسلمين الذين تقدموا بتشكيلة غطوا فيها كل الجوانب ، واستمروا في إمـطار خصـومهم بالنشاب ، وبعدما تقدموا لمسافة قصيرة استغاثوا بالملك ، وطلبـوا منه المساعدة ، وقالوا بأنهم لم يعد بإمكانهم الصمود وتحمل اعبـاء القتال العنيف ، لكن عندمـا رأى الملك والذين حـوله بـأن المشـاة رفضوا رفضا قاطعا العودة ، وأنه بدون مساعدتهم ، هم انفسـهم ليس بإمكانهم الصمود اكثر في وجه نشاب المسلمين ، عندهـا أمـر الملك مجددا بنصب الخيم ، من أجل حماية صليب الصلبوت ، وعلى أمل اتخاذ موقف دفاعي في وجه هجمات المسلمين ، فالملك بلا شـك قد أمل بأن الخيم ستكون مكانا لتجمع القوات المبعثـرة ، وتعـوض عن خسارة المشاة ، لكن ما حدث مجددا هو أن المقـاتلين تـراجعوا بشكل فوضوي ، وتجمعوا حول الصليب ، وتركوا فـرسان الداوية والاسبتارية لوحدهم يعانون من الخسائر الجسيمة » .

وهكذا حلت الفـوضى بين الصـليبيين وتحـكمت بصـفوفهم منذ البداية ، بسبب عزل المشاة عن الفرسان ، ونتيجة لهذا أخفقت خطة الفرنجة التي رسموها باحكام ، ونجحت خطة المسـلمين ، وحـدث فصل الاسلحة عن بعضها بعضا ، وصار فـرسان اللاتين الدارعين ومطاياهم بلا حماية من نشاب وسـيوف وحـراب المسـلمين الذين ضغطوا عليهم من كافة الجهات .

لقد كان تكتيك المسلمين رائعا واعمالهم القتالية مدهشة ، تراهم ساعة في موقف الدفاع ، وساعة أخرى في موقف الهجوم المتحـرك ، وظل كونت طرابلس في المقدمة ، وعندما رأى ما حل بـالملك والداوية والاسبتارية ، وشاهد تداخل قوات الجيش والفوضى الكبيرة التـي

سادت بين صفوفه ، أدرك ومن معه أن لافائدة من التراجع نحو مكان صليب الصلبوت لحيلولة المسلمين بينهم وبين ذلك ، وهنا نظر ريموند ومن معه كل بوجه الآخر وقال : « من استطاع العبور فليعبر ، فالمعركة ليست لصالحنا ، ثم إن القتال لايمكن الاستمرار به » ، واستمر المسلمون بالاندفاع نحو الصليبيين واحكام الحصار عليهم ، وذشابهم يفتك بهم فتكا شديدا .

وتخلى في تلك الساعة ستة من الصليبيين عن مواقعهم بعدما اصابهم اليأس ، وذهبوا إلى جيش صلاح الدين واخبروه بالحال الصعب الذي كان فيه الجيش الصليبي ، واعلموه بأن هذا الجيش لن يستطيع الصمود إلا قليلا ، فالشمس أحرقته ، والعطش انهك قواه ، وأسقف عكا أحد الأوصياء على صليب الصلبوت اصيب بضربة قاتلة ، فسلم الصليب إلى اسقف اللد .

واستفاد المسلمون من المعلومات الجديدة ، ووضحت صورة الاوضاع داخل الجيش الصليبي لديهم ، فاندفعوا باتجاه الهضبة إلى حيث التجأ المشاة ، وضغطوا عليهم لابادتهم قتلا واسرا ، وهنا حاول بعض المشاة تسلق بعض الصخور على الأطراف ، بعدما قتل اكثرية رفاقهم أو أسروا ، وحتى هؤلاء الذين « تخلوا عن صليب الصلبوت ، وعبثا تسلقوا إلى الهضبة واجهوا الموت » .

وعندما رأى ريموند والذين معه هذا الحال المتردي ، ازدادوا يقينا بأن المعركة غدت ميؤوسا منها ، وانه من المحال العودة إلى الملك والانضمام إلى صفوفه ثانية ، لذلك قام ومعه اتباعه بحملة يائسة على الجناح المسلم المقابل لهم ، لفتح طريق للنجاة ، وكان هذا التصرف منطقيا من بعض الجوانب ، جبانا من جوانب أخرى ، لهذا اجمعت المصادر اللاتينية على نقده حتى صاحب رواية ليبلوس ، وجه النقد لريموند ، عندما تحدث عن نجاته ، وقال بأنه أقدم على التخلي عن الصليب المقدس .

المهم ، جمع ريموند اتباعه من حوله ، وكان بينهم ريموند صاحب

انطاكية مع أولاده الأربعة ، وتمكن معهم من تسلق الصخور ، وساعدتهم خيولهم على ذلك ، ثم شق طريقه بين المسلمين ، ووصل إلى الممر الذي سبق له أن حاول احتلاله أكثر من مرة من قبل، وعندما رأى تقي الدين قائد ميمنة صلاح الدين المقابلة لهم هؤلاء الرجال وقد تقدموا يائسين من الحياة تغافل عنهم ومكنهم من الفرار ، ثم عاد فأغلق الممر خلفهم ، ولا بد أن هذا حدث عند الظهر ، وصحيح أن ريموند صار الان منفصلا عن الجيش الصليبي تماما ، فالذي افاد من ذلك الجيش الاسلامي : لقد فقد الصليبيون امهر قادتهم مع عدد كبير من الفرسان ، وغدت الساحة التي كانت تشغلها هذه القوة خاوية ، فاندفع المسلمون إليها وشغلوها ، وبذلك أصبح الطوق المضروب حول الفرنجة محكما وأكثر ضيقا ، واقترب القتال من النهاية .

وكان صلاح الدين مايزال يتابع أخبار القتال بنفسه ، وكان قلقا على نتيجة المعركة ، ذلك أن الفرسان الصليبيين استمروا يقاتلون بيأس ، وهنا تشجع صلاح الدين ، وقرر دفع أكبر القوات ، وبذل غاية الجهد لحسم الموقف ، ذلك أن المعلومات التي تلقاها من الستة الذين التحقوا بجيشه ، مع المعلومات التي جاءته عن فرار ريموند ورجاله ، قد أثارت الحماس في نفسه ، فأمر تقي الدين مع قواته المختارة بالتحرك ، واستغل تقي الدين الفراغ الذي تركه ريموند ، والساحة التي شغرت بعد فراره ، وجاء هجوم تقي الدين بعد الظهر ، واجبر الفرنجة على التراجع إلى المنطقة الصخرية الصعبة ، لكن المعركة لم تنته ، واستمر القتال عنيفا للغاية .

ولم يكف الفرنجة ما عانوا منه حتى الان من الحر والعطش والنشاب ، فقد تعرضوا الان لمحنة جديدة ، جاءت نتيجة لعبقرية المسلمين المتفوقة ، فقد لاحظ واحد من المتطوعة من جيش صلاح الدين أن اتجاه الريح هو نحو الجيش الصليبي ، فرمى النار في الأعشاب التي كانت تغطي المنطقة ، ونتيجة لهذا نجد ان أولئك الرجال مع مطاياهم ، الذين كانوا بلا ماء لساعات طوال ، وكان قد

انهكهم القتال الشديد تحت الشمس المحرقة ، ضاقت الآن صدورهم ، وكادوا يختنقون من الدخان الذي ملأ الهواء ، لابل ربما فقد بعضهم حياته فعلا نتيجة لذلك ، ويتساءل الانسان اليوم متى نفذ المسلمون عملهم البديع هذا ؟ فيجد أن ما من اثنين من المؤرخين اللاتين يتفقان في الرواية ، ولا يجد في المصادر الاسلامية ما يشفي الغليل ، وأنه لأمر يبعث على الاسف أن مواد المصادر الاسلامية ، خاصة ما كتبه العماد الاصفهاني ، ضاعت تفاصيلها في ثنايا صنعة البديع والجناس ، لهذا جاء جل اعتمادنا على المصادر اللاتينية ، التي روت تفاصيل مفيدة عما جرى داخل معسكر الفرنجة ، وحبذا لو فعل كتاب الاسلام مثل ذلك لاكتملت الصورة بين الطرفين .

يقول واحد من المؤرخين اللاتين بأن النار اشعلت في الصباح الباكر قبيل بداية المعركة ، ويتذكر أخر أن صلاح الدين كان قد أعد المواد المحرقة في الليل قبل المعركة ، ويستخلص من مواد الرواة المسلمين بأن ذلك كان بعد فرار ريموند ، وقد أوضح واحد منهم بأن ذلك كان الضربة الاخيرة التي وجهها المسلمون عندما شرع بقية الفرسان الصليبيون مع ملكهم بالتجمع فوق أحد القرنين ، حيث كان من الممكن سجنهم وسط دائرة من الدخان والنار الملتهبة في وجوهم ، ذلك أن شكل القرن كان مستديرا .

واشتد حال الصليبيين سوءا ، وزاد الضغط عليهم وعظم بشكل مؤلم ، فصاروا يعانون أكثر فاكثر من الحرارة والدخان ، وقد انقص شجاعتهم تخلي عدد كبير من الجيش وفراره مع مقتل أعداد كبيرة أخرى من مقاتليهم ، ولهذا تدنت معنوياتهم إلى الحضيض ، لكن رغم ذلك فإن يأسهم أعطاهم بعض الشجاعة التي كانت كافية لمتابعة الدفاع حتى أخر ساعات المعركة ، واضطر بالتدريج هؤلاء الذين لم يقتلوا أو يهربوا إلى التراجع إلى أحد القرنين ، ربما نفس القرن الذي التجأ إليه الرجالة من قبل ، وعندما تجمع هؤلاء المقاتلون المنهكون هناك من أجل الدفاع النهائي ، حلت بهم أقسى ضربة مذ دخلوا الحرب ، ضربة المتهم إيلاما شديدا أكثر من الحر

والعطش والدخان والنشاب ، وحتى من الهـزيمة نفسـها ، ذلك أن تقي الدين قد تمكن بهجومه الكاسح ، الذي جاء عقب فرار ريموند ، من الاستيلاء على صليب الصلبوت ، وكانت هذه الخشبة هي مصدر العواطف والمعنويات الوحيد الذي تبقى لدى الصليبيين ، قـد يكون من الصعب بالنسبة للانسان المعاصر تصور خسارة تلك القطعة من الخشب بالنسبة لأولئك الرجـال ، لكن الذين يفقهـون في أسـاليب الحرب النفسية والتوجيه المعنوي يقدرون عظيم التقـدير مـكانة أية اداة ، تؤثر على المقاتلين ، خـاصة أثناء القتـال ، وكانت خشـبة الصليب في العصور الوسطى ذات مكانة سامية جدا لدى المسيحيين عامة والكاثوليك منهم خاصة ، فهي الاداة التي مـن أجلهـا أثـار هرقل ـ امبراطور بيزنطة ـ صـليبية القـرن السـابع ضـد الامبراطورية الساسانية ، لقد حملت خشبة الصليب المزعوم هذه مع الفرنجة في جميع معاركهم الرئيسية ، لاعتقادهم بأنها تجلب ـ لابل تضمن ـ التاييد السماوي لأعمالهم ، وقـد حفـظ الفـرنجة هـذه الخشبة ، واعتنوا بها عناية فائقة ، ولم يتم استرداد هذه الخشـبة من قبل الفرنجة ثانية ، واختفت أثارها ، وكما هو متـوقع بـكاها المؤرخون اللاتين ، وحزنوا لفقـدها ، حتـى أننا لنجـد مصـنف ليبلوس ، انفعل انفعـالا شـديدا حين أتـى على ذكر خسـارتها ، واعتبر هذا الحدث خاتمة المعركة ، فلم يذكر إلا شذرات عما حـدث بعد خسارتها ، والمفيد هنا ذكره وملاحظته بعمق هو أثر هذا العمل على المسلمين ، فلقد عرف المسـلمون دين عدوهـم بشـكل عميق ، وأدركوا مدى مكانة هذه الخشبة في معتقداته ، وقدروا كم هو مهـم الاستيلاء عليها ، ولهذا نعاود تاكيدنا على أن معركة حـطين انتصر فيها التكتيك الاسلامي المطبق بعقل وشجاعة والتزام ، وهـكذا كان هذا النصر باهظ الثمن .

ولنستمع الى العماد الأصفهاني الكاتـب يحـدثنا عن الصـليب وعملية الاسـتيلاء عليه : « ولم يؤسر الملك ، حتـى أخـذ صـليب الصلبوت ، وأهلك دونه أهل الطاغوت ، وهو الذي إذا نصـب وأقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع ، وهم يزعمون أنه من الخشـبة

التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم ، وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر ، وأعدوه ليوم الروع المشهود ، ولموسم عيدهم الموعود ، فإذا أخرجته القسوس ، وحملته الرؤوس ، تبادروا إليه وانثالوا عليه ، ولايسع لأحدهم عنه التخلف ، ولايسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف ، وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو اشد مصاب لهم ، في ذلك المعترك ، فإن الصليب السليب ماله عوض ، ولا لهم في سواه غرض ، والتأله له عليهم مفترض ، فهو إلههم ، وتعفر له جباههم ، وتسبح له أفواههم ، يتغاشون عند احضاره ، ويتعاشون لابصاره ، ويتلاشون لاظهاره ، ويتغاضون إذا شاهدوه ، ويتواجدون إذا وجدوه ، ويبذلون دونه المهج ، ويطلبون به الفرج ، بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبدونها ، ويخشعون لها في بيوتهم ، ويشهدونها ، فلما اخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم ، ووهت اصلابهم ، وكان الجمع المكسور عظيما والموقف المنصور كريما ، فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد من يومهم العصيب ، فهلكوا قتلا وأسرا ، وملكوا قهرا وقسرا ».

وعلى الرغم من أثر خسران خشبة الصليب القاصم على الجزء الأعظم من عساكر الفرنجة ، فإن عصبة منهم ثابرت على المنافحة ، وبقي في نفوسها بعض الشجاعة ، وفي أبدانها بعض القوة لمثابرة الصراع والدفاع ، وتجمع قلة من هؤلاء الفرسان الأشداء حول الملك ، وتمكنوا بطريقة ما من نصب خيمته ، وقاموا من هناك بهجوم يائس ، ربما أملوا من ورائه شق طريق للفرار ، كما فعل كونت طرابلس من قبل ، وبعد نجاح أولي حيث تمكنوا من دفع المسلمين إلى الخلف نحو صلاح الدين ، بادر هذا القائد الشجاع ، فأمر على الفوربهجوم معاكس رد الصليبيين على أعقابهم ، ومكن المسلمين من هدم خيمة الملك ، وبذلك انتهت المعركة ، ووصف واحد من المؤرخين المسلمين هذه الخاتمة بقوله :

ولما حمل الأفرنج « تلك الحملات ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى

الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، فألقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم ».

وجاءت نهاية المعركة قرابة العصر ، وافضل وصف وثائقي لساعتها الأخيرة ولأحداثها المثيرة ما رواه ابن الأثير عن الملك الأفضل بن صلاح الدين ، « قال :كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى الحقوهم بوالدي : قال :فنظرت إليه ، وقد علته كآبة ، واربد لونه ، وامسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان ، قال : فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي : هزمناهم ، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانيةمثل الاولى ، والحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل مثل ما فعل ، وعطف المسلمون عليهم ، فالحقوا بالتل ، فصحت أنا أيضا : هزمناهم ، فالتفت والدي إلي ، وقال : اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي ، وإذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى ،فبكى من فرحه،وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ، ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، فألقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك ، وأخوه ، والبرنس أرناط صاحب الكرك ، ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين ، وأسروا أيضا صاحب جبيل ، وابن هنفري ، ومقدم الداوية ، وكان من أعظم الفرنج شأنا ، وأسروا أيضا بليبانوس صاحب البترون ، وهيوج صاحب جبلة ، وصاحب مرقية ، وجماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية ، وكثر القتل والأسر فيهم ، فكان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لايظن أنهم قتلوا أحدا ، وما أصيب الفرنج مذ خرجوا إلى الساحل..إلى الآن بمثل هذه الوقعة ».

لقد كان عدد الذين قتلوا أو أسروا يعـدون بـالآلاف ، والذين لم يقتلوا كانوا منهكين ، وقد هدهم فقدان صليب الصلبوت ، إلى حـد أنهم لم يحاولوا الفرار ، ذلك أنهم وضعوا بـالأسر ، وتـركوا بـلا حراسة ، حتى حملوا إلى اسواق النخاسة في بلاد الشـام ليبـاعوا هناك ، ويقول ابن شداد في المحـاسن اليوسـفية : « وكان الواحـد العظيم منهم يخلد إلى الاسر خوفا على نفسه ، ولقد حـكى لي مـن اثق به أنه لقي بحوران شخصا واحـدا معـه طنب خيمـة فيه نيف وثلاثون أسيرا أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم » .

ولما انتهت أعمال القتال ، وفـرغ المسـلمون مـن جمـع الأسرى « نزل صلاح الدين في خيمته ، وأحضر ملك الفـرنج عنده ، وبرنس أرناط صاحب الكرك ، وأجلس الملك إلى جانبه وقـد أهلكه العطش ، فسقاه ماء مثلوجا ، فشرب واعطى فضله بـرنس أرناط صاحب الكرك فشرب ، فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال اماني ، ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه ، وعدد عليه عوراته ، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته ،وقـال :كنت نذرت دفعتين ان أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة ، والمدينة ، والثانية لما أخذ القفل غدرا ، فلما قتله وسحب وأخـرج ، ارتعـدت فرائص الملك ، فسكن جاشه وأمنه ».

لقد عومل الأسرى جميعا معاملة إنسانية ممتازة ، واخـذوا إلى دمشق حيث أطلق سراح بعضهم أو فودي بهم ، أو جـرى بيعهـم ، وذلك فيمـا عدا أرناط صـاحب الكرك ، وفـرسان الداوية والاسبتارية ، حيث اعتبرهم صلاح الدين مجـرمي حـرب ، فبعـد اعدام أرناط جـرى اعدام حـوالي المئتين مـن فـرسان الداوية والاسبتارية ،حتى روي بأن صلاح الدين اقدم على شراء بعض مـن هؤلاء الفرسان من أسريهم ، وأمر بإعدامهـم أمـام الجيش وجنده جميعا ، وهكذا كانت نهاية أكبر جيش جمـع قـط للصـليبيين ، أو بالحري نهاية المؤسسة العسـكرية للاحتـلال الصـليبي ، الذي استهدف جعل بلاد الشام وطنا لاتينيا فيما وراء البحار .

لقد كان عدد الفرسان الجرحى قليلا ، لكن لم ينج من الخيول فرس واحد ، ووصف العماد الكاتب ما رآه على ساحة المعركة ، وقد أثر به المنظر تأثيرا عظيما فقال :« ومن عجائب هذه الواقعة ، وغرائب هذه الدفعة أن فارسهم ما دام فرسه سالما لم يذل للصرعة ، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد ، ودراك الضرب إليه غير مفيد ، لكن فرسه إذا هلك فرس وملك ، ولم يغنم من خيلهم ودوابهم ، وكانت الوفا ما هو سالم ، وما ترجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم ، ».

في يوم الماء ، يوم حطين لابد أن خيول الفرنجة قد عانت مثل رجال الصليبيين من الحر والعطش والنار والدخان والنشاب ، ذلك أنه إذا كان نشاب المسلمين الذي وصف المؤرخون كثرته وفاعليته ، لم يجرح عددا كبيرا من الفرسان اللاتين ، فإنه قتل أعدادا هائلة من الخيول ، وبكلمة موجزة لم يتجل أثر تخلي المشاة عن حماية الفرسان ولم يظهر بوضوح كما في حطين ، ولقد رأينا بوضوح كيف تحول مجرى المعركة بسرعة إثر نجاح المسلمين في تنفيذ خططهم بفصل المشاة عن الفرسان ، وكيف حلت الفوضى وسط الجيش الصليبي .

لقد أفرد العماد الكاتب واحدا من فصول كتابه البرق الشامي للحديث عن النشاب ويمكننا من أوصافه مع أوصاف بقية المؤرخين المسلمين استخلاص صورة واضحة مشرقة لما حدث بالفعل : لقد كان فرسان الفرنجة على خيولهم وبدروعهم لايمكن اصابتهم ، ولكن يمكن اصابة مطاياهم ، لهذا اعتمدوا على حماية الرجالة الذين احاطوا بهم ، وكانوا أشبه بستارة بشرية ، حمت المطايا من النشاب وضربات المسلمين ، ولاجبار فرسان المسلمين على الابتعاد عنهم برماية قسيهم العقارة القوية ، ولذلك عندما حدث الفصل ، وتخلى الرجالة وعجزوا عن التقدم ، طوق المسلمين الفرسان من جميع الجهات ، وفتكوا بخيولهم بسهامهم وسيوفهم وحرابهم ورماحهم ونفوطهم ، ولابد ان عمليات الافناء حلت أولا بالخيالة

الخفاف التسليح مثل السارجنتية ، ذلك انهم كانوا وخيولهم غير مجهزين بأسلحة ثقيلة تؤمن لهم الحماية الكافية ، وبعد هؤلاء جاء دور الفرسان الثقال الذين فقدوا الآن جميع أنواع الحماية .

لقد حاول المسلمون مرارا ـ في معارك متقدمة ـ فصل المشاة الفرنجة عن فرسانهم ونجحوا ، لكن نجاحهم في حطين كان مثاليا ، جاء نتيجة للخبرات السابقة ، وجرت ممارسته ضد جيش عملاق لاضد قوة صغيرة ، فلقد انتهز المسلمون يوم حطين فرصة تخلي المشاة عن الفرسان ، فأبادوا الفرسان الخفاف ، ثم التفتوا نحو الفرسان الثقال ، فبددوا قواهم بقتل خيولهم أو عقرها ، ومع أن دروع الفرسان لم تكن ثقيلة جدا ، ومعيقة بشكل كبير ، إلا أنها لابد قد غدت ثقيلة جدا ، وحملا منهكا بعد يومين من القتال الشديد ، حتى أن الفرسان الذين ظلوا يقاتلون إلى النهاية على خيولهم ، لابد انهم كانوا في غاية الانهاك ، ولم يعد بمقدورهم الاستمرار .

وهكذا ربح صلاح الدين معركة حطين ، ربحها بعد جهود جبارة مضنية ، ربحها بعدما بدد قوى عدوه وصان قواه وأحسن استغلالها ، وهنا ما هو السبب الحقيقي الذي كمن وراء نصره المؤزر ؟ لاشك انه لم يكن لا في التعداد ولا في القوة ، فالجيشان كان الرجحان في التعداد والاحتراف والتسليح فيهما لصالح الفرنجة ، الحقيقة ساطعة أمامنا هي تفوق صلاح الدين في الاستراتيجية والتكتيك ، حيث استطاع اقتلاع الصليبيين من صفورية ، وتمكن من جذبهم إليه ، وأبعدهم عن الماء ، وأجبرهم على القتال تحت شروط ضاغطة ، فيها عطش وانهاك ، بينما ظلت قواته حرة طليقة ، فالعطش والانهاك دفعا المشاة إلى الفرار ، وكان هذا ضاغطا أكثر من ضغط القتال والهجوم .

وقاد ذلك إلى الضربة اللازبة التي انزلها بالفرسان ، وعليه فإن فصل السلاحين عن بعضهما البعض هو الحقيقة الحاسمة في المعركة ، لقد عوض صلاح الدين التفاوت بين قواته وقوات أعدائه عن طريق استغلاله لعوامل الطبيعة ، ونجح فيما استهدفه عن طريق

المناورة البارعة ، لهذا رأينا كيف كان الجيشان قبل التحرك ، وكيف صار حالهما يوم السبت حين التقيا على سهل حطين حيث تبدلت النسبة التعادلية من جوانب القدرة البدنية والقوة الجسدية .

وحين نتفحص بإمعان قضية استراتيجية صلاح الدين ، علينا الا ننسى أبدا عنصر المخاطرة التي امتزجت فيها ، فالحرب تبقى من اولها إلى آخرها مغامرة ، فوضع صلاح الدين كما سلف التبيان لم يكن مأمونا تماما ، خاصة والبحيرة إلى ظهره ، ولايوجد مكان للتراجع والالتجاء إليه ، وهو لم يكن بامكانه المكوث دون تحديد للمدة في تلك المنطقة الوعرة ، وبدون طعام ، وفي ظل تلك الأحوال كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار مشكلة الاحتفاظ بجيشه متماسكا ، فقد جمعت قواته للدخول بمعركة ، وكان تأخير المعركة ، والجند بعيدين عن ديارهم سيسبب بعض التذمر بين صفوف العساكر والمتطوعة ، وباختصار كان سيجد نفسه عاجلا أم اجلا مضطرا إلى الانسحاب او إلى القتال في ظل الظروف الصعبة نفسها التي فرضها على الصليبيين ، أو التوغل عميقا في الأراضي الصليبية إلى قرب مدنهم المحصنة ، كما نصحه بعض ضباطه وتمنى ريموند الثالث وأمل أن يحدث .

ويقول ابن الأثير حول هذا الموضوع في أخبار سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة :« لما اجتمع الفرنج ، وساروا إلى صفورية ، جمع صلاح الدين امراءه ، واستشارهم ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يضعف الفرنج بشن الغارات ، واخراب الولايات مرة بعد مرة ، وقال له بعض أمرائه : الرأي عندي أن نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي ، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه....فقال صلاح الدين : الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار ، فإن الأمور لاتجري بحكم الانسان ، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرق الجمع إلا بعد الجد بالجهاد.... »

ونعود لنؤكد لو أن صلاح الدين سمع ما قاله بعض ضباطه ،

واختار القتال في ظل تلك الشروط الصعبة كان سيهزم بواسطة ذلك الجيش الصليبي الكبير ، الذي كان افضل جيش اجتمع مثله للصليبيين ، ولابد أن الهزيمة كانت ذات وقع حاسم ، مثلما كان انتصاره ، فقبل حطين التقى المسلمون بالصليبيين في اكثر من معركة ، وهزموهم ، ولكن لم يحدث أبدا لا من قبل ولامن بعد أن بددوا لهم جيشا كاملا بمثل هذا الحجم ، وبددوه قتلا واسرا بشكل كامل ، ولهذا لم يكن في يوم حطين أعمال مطاردة أو ملاحقة لفلول الجيش المهزوم .

ومن جهة أخرى كان اختيار الانسحاب معناه التخلي عن خطة الجهاد لاسترداد القدس والأراضي الساحلية ، ومن الضروري تقدير هذه الناحية وفهمها ، فقد روى ابن الاثير أن واحدا من ضباط صلاح قال أثناء مناقشة خطة الغزو قبل حطين :« إن الناس بالمشرق يلعنوننا ، ويقولون ترك قتال الكفار ، واقبل يريد قتال المسلمين ، والراي أن نفعل فعلا نعذر فيه ، ونكف الالسنة عنا »،ومؤكد أن صلاح الدين ملك امبراطورية واسعة ، لكن على الرغم من اتساع دولته كان هناك مثبطات كثيرة وعوامل معيقة لجمع جيش كبير ، وفي الحقيقة جمع صلاح الدين اكبر جيش كان بامكانه جمعه ، أو بالحري أكبر جيش جمعه طيلة حياته ، ومع هذا لم يكن ذلك الجيش كافيا لتأمين نصر أكيد في معركة تتم ضمن شروط متساوية للطرفين ، وسنرى انه بعد حطين مباشرة لم يستطع الاحتفاظ بجيشه متماسكا لمدة طويلة كان فيها بأمس الحاجة لهذا الجيش (أثناء حصار عكا) وعلى هذا لو أن صلاح الدين أخفق سنة ١١٨٧ م في استخدامه لجيشه ، كان من المشكوك فيه أنه سيتمكن ثانية ، من جمع جيش مساو له ، فكيف بنا بزيادة حجمه وقوته ، وكما حدث لم يعش صلاح الدين بعد حطين طويلا ليتمتع بنصره كاملا وليقطف جميع ثماره ، ولو انه أخفق في نيل النصر سنة ١١٨٧ م ،ما كان له أن يتمتع بالمكانة التي تمتع بها في العالم الاسلامي والتاريخ الانساني ، ولربما كانت الاحكام ضده قاسية

على ارضية موقفه من نور الدين ، وحروبه الداخلية لوراثة نور الدين ، وتأسيس امبراطوريته الواسعة •

وبحث عدد من الأوروبيين في العصر الحديث في حوادث معركة حطين ، بحث بعضهم لاهتمامه بتاريخ الحروب الصليبية عامة ، وبعضهم الأخر لاهتمامه بفن الحرب في العصور الوسطى وكان من هؤلاء أومان فبالنسبة لهذا الكاتب الانكليزي الكبير ، كان القتال في حطين ـ بالنسبة للصليبيين ـ غير ضروري أبدا ، من الممكن تجنبه ، وكان التورط به خطأ قاتلا ، زد على هذا أن هذا الخطأ المميت لم ينجم عن عدم قدرة في المعسكر اللاتيني ،أو عجز لدى قادته في التصدي إلى صلاح الدين البارع والشجاع ، فالفرسان الصليبيون كانوا اذكياء وبارعين وشجعان مثل صلاح الدين في فن الحرب ، وكان ريموند الثالث من الذكاء بمكان ، أمكنه من رؤية نوايا صلاح الدين وأهداف خططه ، وكان بقية البارونات عقلاء إلى درجة كافية تفهموا فيها حجج ريموند وقنعوا فيها ، بعدما أدركوا صحتها ، إن جيرالد هو الذي تقع عليه المسؤولية ، يشاركه فيها أرناط ومن ماثله بالتركيب والصفات ، لكن ما الذي دار في خلد هؤلاء ، وهل مشاعر العداوة لريموند كافية للتسويغ ، أم القضية مرتبطة بالرعونة والطيش وانعدام الصبر والرغبة بالثأر مع التعصب ، والطموح في الاستيلاء على ممتلكات اسلامية جديدة؟!....

والآن ماذا عن غي ، الذي اتخذ القرار تلو القرار ؟ المؤرخون يجمعون على أنه لم يكن يحب جيرالد فقط بل كان يخشاه ، وكان يعتمد عليه اعتمادا مطلقا ، فهو الذي بذل غاية الجهد في سبيله حتى جعله ملكا على القدس ، وهذا يوضح لنا سبب اتباعه لنصيحة جيرالد في كل مناسبة ، ففي الماضي نصح الملك باعلان الحرب على ريموند ، ففعل وحاصره في طبرية ، مما دفع ريموند إلى التحالف مع صلاح الدين ، فغي لم يملك ليلة صفورية الجراة على مخالفة الرجال الذين صنعوه ملكاً ، لهذا استجاب فأعلن الحرب من صفورية ليلا ،

ولعل جيرالد حلم يومذاك بأنه سيفاجىء صلاح الدين مع تباشير الصباح فيوقع به ضربة قاصمة .

لم يكن صلاح الدين من هواة الحرب ، بل من ابطال التحرير ، وقد مت إلى حضارة فيها :« الراي قبل شجاعة الشجعان » ، فالراي هو الذي انتصر في حطين ، وكان على كل حال رايا مدعوما بالقوة والعقيدة ، وبراعة التنفيذ .

وفي البحث في وقائع حطين يجد الباحث نفسه في كل زاوية من زواياها امام عبقرية متناهية ، وامام معاني جديدة ، ولعل ما جرى عرضه حتى الآن يفي بالغرض ، المهم الآن أن ننهي حديثنا في هذا المقام ببضع عبارات تاتي بمثابة خاتمة ، وفي الوقت نفسه مقدمة للحديث المقبل :

لقد بشرت معركة حطين بسقوط مملكة القدس ، هذه المملكة التي لم يتحطم جيشها فقط ، بل أفرغت قلاعها وحصونها ومدنها من خيرة حماتها ، لهذا حالما انتهى القتال في حطين حتى اخذت طبرية دونما قتال ، ثم زحف صلاح الدين ضد مدن الساحل ، فجرى تطويق عكا ، وتم الاستيلاء عليها ، واخذت عسقلان ولم تسقط صور ، أما المدينة المقدسة فقد استسلمت في ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧ م ، أي بعد ثلاثة أشهر من حطين ، وهكذا انتهت مملكة القدس ، وزالت من الوجود بعدما عاشت قرابة قرن من الزمن ، إنما استمرت بالاسم فقط ، والذي بقي الآن من مستعمرات الصليبيين في الشرق لم يتجاوز كونتية طرابلس ، وإمارة انطاكية (٥) .

حصاد حطين

فقد الصليبيون يوم حطين جل فرسانهم ومقاتليهم ، ودمرت مؤسستهم العسكرية ، بعد أن كانت أداة رعب في الشرق قرابة قرن مضى ، وفي حطين وقع في أسر صلاح الدين أعداد كبيرة من

الصليبيين كان يتصدرهم غي ملك القدس مع أخيه أمالرك مدير ادارة الحرب في مملكة القدس اللاتينية والمشرف العام عليها ، وعدد من النبلاء مع مقدمي الاسبتارية والداوية ، وأرناط صاحب الكرك ، ولقد صان صلاح الدين حياة غالبية الأسرى وعاملهم معاملة ممتازة ، لكنه لم يبق على أرناط وفرسان الاسبتارية والداوية ، ذلك انه كان قد عاهد نفسه أمام الله على عدم الابقاء عليهم لما قاموا به من جرائم .

وقام صلاح الدين باستغلال نصره المؤزر فاحتل معظم الأراضي والقلاع التي كانت بأيدي الصليبيين ، وحررها بسرعة خاطفة وببراعة سياسية تجلت فيها عبقريته وانسانيته وأخلاقه ، فقد كان يستهدف تحرير الأرض لاسفك الدماء وكسب الأموال ، علما أنه كان يمكنه ـ دون أن يلام ـ أن يسفك دماء عشرات الالوف من الصليبيين ، وهذا السلوك ، الذي لم يفهمه حق فهمه كثير من الكتاب تجلى في عمليات تحرير القدس الشريف ، ودون القيام بشرح تفاصيل عمليات ما بعد حطين يمكن أن نجمل ذلك كله بالقول بأنه مع نهاية سنة ١١٨٧ م كان ما بقي للصليبيين في الشرق بعض الممتلكات القليلة التي توزعت حول المدن الرئيسية التالية :انطاكية ، طرابلس ، وصور .

فأنطاكية كانت بعيدة عن مسرح عمليات حطين ، وطرابلس كانت حصينة وتحتاج إلى حصار طويل ، وكان صلاح الدين قد عمد إلى تحرير المواقع التي عرف بأنها شبه فارغة من المقاتلين .

اما صور فقد كانت حصينة للغاية ، بفضل موقعها المتميز ، وبسبب وصول غالبية الناجين من حطين اليها ، يتقدمهم ريموند الثالث صاحب طرابلس ، وكان فيها عدد كبير من الجنوية بالاضافة الى قطعة بحرية جنوية كبيرة.

وتنبه صلاح الدين الى خطورة التطورات في صور ، فقام بحصارها ، رغم جميع المعوقات الداخلية ، ذلك أن امكاناته البحرية

كانت اضعف من أن تتصدى لامكانات اوربة ، وبخاصة اساطيل الدويلات الايطالية :(البندقية ، بيزا ، جنوى ، امالفي) ثم إن قواته ، التي كانت مهيأة لخوض المعارك المكشوفة ، لاتملك اسلحة ثقيلة ، وكانت أنظمة ادارة الاقطاع العسكري تحول بين المقاتلين وبين البقاء تحت السلاح مدة طويلة على الأخص في مواسم الفلاحة وجني المحصولات .

ورغم هذا فقد حاصر صلاح الدين صور ، ونجح في تشديد الحصار عليها ، وقنط المدافعون عنها ، واتصلوا به وفاوضوه على تسليم المدينة ، وقبيل موعد التسليم بوقت قصير وصل الى صور يوم ١٤ تموز نبيل كبير اسمه كونراد أوف مونتفرات ، وهو من افراد الأسرة الملكية للقدس ، وكان قد غادر أوربا سنة ١١٨٥ م يريد الاراضي المقدسة ، لكنه لم يأخذ طريقه إليها مباشرة ، بل مكث في القسطنطينية ودخل في خدمة الامبراطور البيزنطي ، وظل كذلك حتى وصلت نداءات ما قبل حطين إلى عاصمة البسفور فطلب الأذن بالمغادرة ، وركب البحر مع اتباعه ، واتجه نحو عكا ، وجاء وصوله إلى عكا بعد حطين وتحرير صلاح الدين لهذا الميناء الهام .

ويروى أنه عندما وصل مشارف ميناء عكا ، رأى من المظاهر ما جعله يرتاب ، لذلك لم يدخلها وتوجه نحو صور ، فنزلها وتسلم على الفور شؤون الدفاع عنها ، وبذلك حال دون سقوطها بأيدي صلاح الدين (٦) .

وبسرعة غدت مدينة صور مركزا لتجمع الصليبيين في الشرق ، ومن صور قام كونراد ، مع المقدمين الجديدين للاسبتارية والداوية وجميع الاساقفة اللاتين ، بمراسلة ملوك أوربا الغربية والبابوية ورجال الاقطاع وسواهم طالبين النجدة ، حتى ليروى أن كونراد « صور القدس في ورقة عظيمة وصور فيه القيامة التي يحجون اليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي قبر فيه بعد صلبه ، بزعمهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذي يعتقدون

نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم ، فصور القبر ، وصور عليه فارس مسلم راكب عليه ، وقد وطىء قبر المسيح ، وقد بال الفرس على القبر ، وأبدى هذه الصورة ـ وراء البحر في الأسواق والمجامع ، والقسوس يحملونها ، ورؤوسهم مكشفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور ، وللصور عمل في قلوبهم ، فإنها أصل دينهم ، فهاج بذلك خلائق لايحصى عددهم إلا الله تعالى » . كما أرسل كونراد رئيس أساقفة صور واسمه جوسشوس إلى أوربا وحمله العديد من رسائل الاستغاثة ، ووصل هذا المبعوث أولا إلى جزيرة صقلية ، وهناك قابل ملكها وليم الثاني ، الذي استجاب له ، وأرسل حملة بحرية نحو شواطىء الشام ، تمكنت من تقديم المساعدات إلى أنطاكية وحالت دون سقوط طرابلس بيد صلاح الدين .

ومن صقلية قصد رئيس أساقفة صور ايطاليا ومنها توجه إلى فرنسة فكان هناك في مطلع عام ١١٨٩ . ففي ٢٢ كانون الثاني من ذلك العام ، عقد هناك مؤتمر كبير ضم كلا من فيليب أوغسط ملك فرنسا ، وهنري الثاني ملك انكلترة ،وعددا كبيرا من رجالات الكنيسة والنبلاء والاقطاعيين الكبار ، وقد استطاع رئيس الأساقفة أن يؤثر على المجتمعين إلى درجة وعدوه فيها بحمل شارة الصليب والتوجه إلى الشرق لاسترداد القدس ، وتم الاتفاق أن تكون شارة الصليب حمراء للفرنسيين ، وبيضاء للانكليز ، وخضراء لسواهم .

وتحمس ملك انكلترا للذهاب الى الشرق ، فراسل ملوك أوربة الغربية ودعاهم الى مشاركته ، كما راسل ملك هنغاريا مخبرا اياه بخططه وطالبا إذنه ومساعدته على عبور أراضي هنغاريا ، كما راسل الامبراطور البيزنطي وقدم له المطالب نفسها ، وقام الملكان بفرض ضرائب خاصة على شعبيهما عرفت باسم ـ عشر صلاح الدين ـ من أجل تمويل الجيوش .

وعلى الرغم من اتفاق ملكي فرنسا وانكلترا على حمل شارة الصليب فانهما كانا متضاربي المصالح وفي عداء دائم ، كما عانى

كل منهما من مشاكل داخلية كبيرة احيانا ، فأدى هـذا الى تـأخير تنفيذ رحيلهما الى الشرق ، وضـاق عدد كبير مـن الاوربيين ذرعا بهذا التأخير فأخذوا يرحلون نحو الشرق جماعات وافرادا ، ولعـل أشهر من تـوجه على رأس حملة معتبـرة الامبـراطور فـريدريك بربروسا ، امبراطور مـا عرف بـاسم الامبـراطورية الرومـانية المقدسة ، وقد وصل هذا الامبراطور الى آسية الصغرى ، لكنه غرق هناك فتفرق رجاله ولم يبق منهـم سـوى حـوالي ثـلاثمائة فارس ، واصلوا السير الى أنطاكية ومنها الى صـور ، وكثـر عدد الأوربيين الذي وصلوا الى المشرق ، وهذا مـاشجع الفـرنجة على الأخذ بمبدأ الهجوم ثانية ضد أراضي صلاح الدين وقواته ، ولقد متن عزمهم في هذا السبيل توفر الدعم البحري القوي .

وكان صلاح الدين قد قـام عام حـطين بحصـار مـدينة عسقلان ، وعندما صعب عليه فتحها فاوض المدافعين عنها واتفـق معهم على تسليمها له شريطة رحيلهم مع امـوالهم عنهـا وأن يطلق لهم سراح الملك ومقدم الداوية وعدد من كبـار النبـلاء ، ويبـدو ان صلاح الدين أخـذ العهـد على الملك غي قبـل أن يطلق سراحـه أن لايحاربه ثانية ، وكان هذا ماحدث لكن الاخير حافظ على عهدة مدة سنة كان قد قضاها في طرابلس وانطاكية .

وتوحي مصادر عصر حطين ان صلاح الدين ، كان يعلم بأن غي لن يحفظ عهده ، ولن يجد صعوبة في ايجـاد رجـل دين يحلله مـن مواثيق ايمانه ، انما أقدم على تسريحه ليربح عسـقلان وكيلا يملك الفرنجة عليهم ملكا جديدا صاحب قـدرات كبيرة ، فـالملك غي رغم شجاعته كان ملكا بلا ارادة ، وقائدا عسكريا ضعيفا .

ومهما يكن الحال فقد تجمع لدى غي نواة جيش جـديد ، فقـرر الزحف نحو عكا مسـتغلا اقـامة صـلاح الدين في بلدة مـرج عيون وانشغاله بحصار حصن شقيف أرنون ، ومر غي أولا بمدينة صـور، وقد منعه كونراد من دخولها ، انما تحـالف معـه وأمـده ببعض المساعدات ، ووصلت أخبار تحـرك غي الى صـلاح الدين فـظنها

مناورة صليبية لفك الحصار عن شقيف أرنون ولكنه عندما بلغه توجه الملك نحو عكا سعى لقطع الطريق عليه فأخفق .

وقام صلاح الدين باستدعاء قواته الاحتياطية من كافة المناطق وطلب اليها الاجتماع به في مرج الصفورية ، وعندما استكمل جمع قواته توجه نحو عكا ، فوجدها شبه محاصرة من الجهة الشمالية برا وبحرا مع جزء من الجهة الشرقية ، فعسكر صلاح الدين خلف خط الحصار الصليبي شرقي المدينة وملك في البداية ممرا بريا اليها ، وأخر من جهة البحر انما بصعوبة ، وكان صلاح الدين قبالة عكا في شهر ايلول ١١٨٩ م ، وفي الاسبوعين الأخيرين لهذا الشهر بدأت قواته بمناوشة المهاجمين الفرنجة ، لكنها لم تستطع الالتحام بهم في معركة فاصلة ، ويبدو ان قادة الفرنجة تعلموا من الدرس القاسي الذي لقنه إياهم صلاح الدين في حطين .

وحل موسم الشتاء بقسوته ، وساء حال الصليبيين ، ولكنهم صبروا ، فقد كانوا غرباء عن البلاد ، يعتمدون اعتمادا مطلقا على ماكانت تحمله اليهم سفن الدويلات الايطالية من مؤن وأسلحة ورجال ، ولقد اعتادت اساطيل هذه الدويلات على القدوم الى الشرق ابتداء من موسم الربيع ، وكانت اثناء وجودها أمام سواحل الشام تملك السيادة عليها ، وكان اختفاؤها في فصل الشتاء يعطي الفرصة لاسطول صلاح الدين الصغير بحرية الحركة ، وهذا الاسطول كان مصريا الى أبعد الحدود ، واعتاد على حمل المؤن والبضائع من مصر ، هذا ولئن أخفق صلاح الدين في اقتلاع الفرنجة من أحواز عكا ، فان سفنه قد استطاعت في شتاء عام ١١٩٠ م أن تنقل كميات جيدة من المؤن والذخائر والأسلحة الى ميناء المدينة ، ممّا ساعد على تقوية الدفاع عنها .

ومع مرور الأيام تعقد الموقف في منطقة عكا ، وبدأت وقائع ملحمة عنيفة ، قد تكون أشد وقائع تاريخ الحروب الصليبية ، فيها برزت معائب نظام الاقطاع العسكري الاسلامي ، وبانت معالم الخلل السياسي في امبراطورية صلاح الدين ، هذه الامبراطورية

التي بناها بذاته ، فلم تعد تملك الصبر حتى تجتث أواصر الوحدة بينها .

وصحيح ان امبراطورية صلاح الدين حافظت على وحدتها الظاهرية حتى وفاته ، لكن تمزقها الواقعي يكاد يكون المسؤول الأول عما جري أمام عكا ، ولقد سعى صلاح الدين الى تدارك الخلل فلم يحالفه النجاح ، ذلك ان عمليات سد الخلل كانت تقتضي منه القيام بعمليات عسكرية داخلية وهذا مالم يقدم عليه صلاح الدين، بسبب وضع المواجهة امام عكا ، ثم ان صلاح الدين الكهل ليس هو صلاح الدين الشاب .

ومهما قيل عن انتكاسات ملحمة عكا وسلبيات وحوادث مايعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، فانه ينبغي ان نتذكر دائما ان نصر حطين حكم على الوجود الصليبي في الشرق حكما مبرما بالزوال ، فما كان لقوة أن تغير هذا الحكم ، وكل ماكانت تستطيعه هو تعويق التنفيذ بعض الوقت ، وبعودة الى كل من انكلترا وفرنسة ، نجد أن هنري الثاني ملك انكلترا قد توفي وخلفه ابنه رتشارد الذي شهر بلقب قلب الأسد ، فقد أعلن رتشارد عن نيته بالتوجه الى الشرق ، لكن تورطه في العديد من المشاكل الداخلية والخارجية أعاق سفره ، وكما أن حالة نظيرة الفرنسي لم تختلف عنه ، فقد دعا هذا عددا كبيرا من نبلاء أوربة وكبار الاقطاعيين فيها الى الابحار نحو منطقة عكا ، وما أن حل ربيع عام ١١٩٠ م حتى بدأ سيل من الرجال والعتاد والمؤن من أوربة يصل الى عكا ، مما أدى الى تحريك الموقف وتغييره .

ويتساءل المرء عن عدد قوات الفرنجة التي تجمعت حول عكا حتى بداية خريف عام ١١٩٠ م ، فيحصل على اجابات متفاوتة ، فالمصادر العربية تحكي غير ماتحكيه المصادر الصليبية ، علما بأن أصعب المهام التي يواجهها الباحث في التاريخ العسكري للعصور الوسطى هي تقدير تعداد الجيوش .

وامام عكا نجد أنه في حين تتحدث المصادر الأوربية عن بضع مئات من الفرسان ، واقل من الفين من الرجالة رافقوا الملك في القدوم أولا الى عكا ، نجد القاضي ابن شداد ، وهو شاهد عيان يقول :« وكان عدد راكبهم الفي فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين الفا ، ومارايت من انقصهم عن ذلك ، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر لاينقطع (٧) .

ونظرا لتزايد قوى الفرنجة ، فقد شددوا حصارهم لمدينة عكا ، وكان صلاح الدين قد أوكل شؤون الدفاع عنها من الداخل الى غلامه قراقوش ، ويبدو أن خبرته في التحصين والبناء كانت جيدة ، فقد سبق له القيام بالاشراف على مهام معمارية حربية في القاهرة وسواها ، وشدد الفرنجة ضغطهم على عكا ، وحاول صلاح الدين اقتلاعهم من معسكرهم ، ورأى ادخال قواته المشاة الى داخل عكا ، والانقضاض عليهم بفرسانه من الخارج واستدراجهم حتى يتمكن المشاة من الخروج من المدينة وتطويقهم وابادتهم .

لكن قادة قواته لم يوافقوه ، واحتج بعضهم بأن مايملكون من جند قليل ولايستطيع القيام بمثل هذه المخاطرة ، ثم قالوا :« هؤلاء عالم لايحصى ، قد حضروا من الأدنى والأقصى ، وأزوادهم عن قريب تفرغ ، وامادهم في الصبر تبلغ ، وامدادهم تنقطع ، وانجادهم تمتنع ، وموادهم تقل ، وجوادهم تضل ، ولمراكبهم في الشتاء شتات ، ولحبائلهم وحبالهم انبتات (انقطاع) ، فاما أن يضطروا الى الانفصال ، واما أن يؤذن فناء أرزاقهم بحلول الآجال ، ويهون علينا حربهم في تلك الحال (٨) »....

ويبدو ان الفرنجة قد لاحظوا تردد صلاح الدين ، لذلك التحموا به ، وأوقعوا به خسائر كبيرة وأجبروه على تغيير معسكره وأحكموا حصار عكا ، وقد وصف العماد الأصفهاني الحال حول عكا بقوله « وصرنا محاصرين المحاصرين ، قد أحطنا بالعدو ، وهو بالبلد محيط ، واستشطنا منه وهو

مستشيط ، وأحدقنا بأولئك الكفرة احـاطة النار بـأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ... واستدارت الفـرنج بعـكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز » (٩) .

وفي أوربة اتخذ ملكا فرنسا وانكلترا قرارا بالابحار نحـو الشرق في تموز من عام ١١٩٠ وهكذا كان ريتشارد في الثاني من تمـوز في ميناء فزلي حيث التقى بملك فرنسا ، وفي الرابع من ذلك الشهر اقلع الملكان نحو ليون ، وكانت مرسيليا مركزا لتجمع الأساطيل ، وقـد ابحرت هذه الأساطيل من فرنسا نحـو صـقلية مسـايرة للشـاطئ الايطالي ، وتـوقفت الحملة طـويلا في مسـينا ، وفي نهـاية أذار لسنة ١١٩١ م أخذ ملك فرنسا الطريق نحو فلسطين ، وبعده بأيام أبحر ريتشارد على رأس اسـطول كبير ضـم ١٨٠ سـفينة ركاب وحمولة كبيرة ،و ٣٩ سفينة حربية ، فوصل أولا الى كريت ، ثـم الى رودس ، وبعدها الى قبرص، حيث توقف فترة من الزمن .

وفي أثناء هذا كله كانت المعارك محتدمة حول عكا ، وكان صـلاح الدين قد وصلت اليه أخبار أساطيل ملكي فـرنسا وانكلتـرا ، مـع أخبار قوات جديدة قادمة عبر أسـية الصـغرى ، فـأقلقه ذلك غاية الاقلاق ، فقام باعداد بعثات زودها برسائل الى خليفة بغداد وأمراء الموصل والجزيرة ، كما أصدر تعليماته بتقوية اسـطول مصر ، وفي الوقت نفسه راسل مراكش ، ربما للمرة الثانية ، وكان على عرشها يعقوب المنصور الموحدي ، وكانت امبـراطورية الموحـدين انذاك في ذروة قوتها ، تملك من الجيوش الكثير ، مع أساطيل كبيرة وقـوية وسواحلها المتوسطية تمتد مـن ليبيا الى جبـل طـارق ، وتشـمل سواحل الأندلس ، وكان بإمكانها اعاقة الملاحة في مضيق مسينا ان لم نقل السيطرة عليه .

واستجاب أمـراء الشرق لنداءات صـلاح الدين ، ووعد خليفـة بغداد بارسال بعض النجدات ، وسـارع ببعـث جمـاعة مـن النفاطين ، كما أذن باقتراض مبلغ ٢٠ الف دينار من تجار بغـداد لانفاقها في الجهـاد ولم يسـتجب المنصـور الموحـدي ، واختلف

المؤرخون في تعليل أسباب ذلك ، ولعل أهم سبب كمن في التوسع الأيوبي في ليبيا الملاصقة لأراضي تونس الموحدية ، ومهما كان الحال ، فقد بات الآن على صلاح الدين تحمل أعباء التصدي للحملة الجديدة بطاقاته الذاتية .

ففي مطلع حزيران لعام ١١٩١ م غادرت أساطيل ملكي انكلترا وفرنسا قبرص واتجهت نحو صور ثم عكا ، وكان قد مضى على حصارها عامان ، أبدى المدافعون خلالهما ضروبا من البطولة النادرة ، ولقد شارك شعب بلاد الشام جميعا في الصراع وظهرت بطولات فردية نادرة ، فعندما شدد الحصار على المدينة ، استخدم المقاتلون العرب السباحة للوصول الى المدينة ، على طريقة « الضفادع البشرية » وغيرها من الطرائق .

وقلت المؤن داخل عكا ، وكاد العتاد ان ينفد ، وكان الصليبيون متفوقين في تقنية صناعة الابراج المتحركة وغيرها من وسائل القتال الجماعي وأدوات الحصار ، ونلاحظ اثر هذا التفوق في إحدى رسائل القاضي الفاضل – رئيس ادارة صلاح الدين – بقوله :« ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد ، فانهم قاتلوه مرة بالأبرجة ، وأخرى بالمنجنيقات ، وردافه بالدبابات ، وتابعه بالكباش ، وأونه باللولب ، ويوما بالنقب ، وليلا بالسرابات ، وطورا بطم الخنادق ، وآنا بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ».

وبعد وصول رتشارد وفيليب بقرابة شهر تقريبا بدأ الصليبيون بتضييق الخناق على عكا ، وابتغوا أولا خلخلة دفاعاتها ، يقول القاضي ابن شداد واصفا ذلك :« ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب ، وينقلون أحجارها ، واقتصروا من القتال على هذا القدر ، حتى خلخلوا سور البلد ، وأضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسهر أهل البلدة لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لاينامون أصلا ...» ولما أحس العدو بذلك شرعوا في الزحف من كل جانب ، وانقسموا

اقساما وتناوبوا فرقا ، كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه »

وبذل صلاح الدين كل مالديه من طاقات لتخفيف شـدة الحصـار على المدينة وايصال بعض المساعدات الى داخلها فأخفق ، وهـكذا تلقى من المدافعين عن عكا رسالة فيها :« إنا قد بلغ منا العجـز الى غاية ما بعدها الا التسليم ، ونحن في الغد ان لم تعملوا معنا شـيئا نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا » . ومجددا وضـح أن صلاح الدين عاجز عن القيام بأي شئ وقـام المدافعـون عن عكا بالاتصال بالفرنجة وفاوضوهم واتفقوا معهم « على أنهم يسـلمون اليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ، ومـائتي ألف دينار ، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، ومـائة فـارس معينين من جانبهم ، يختـارونهم ، وصـليب الصـلبوت ، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين ومامعهم من الأموال والأقمشة المختصـة بهم ، وذراريهم ونسائهم»..

وفوجئ صلاح الدين بخبـر الاتفـاق ، وحـاول القيام بعمـل مالإيقاف التنفيذ » وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ... فمـا أحس المسـلمون الا وقـد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسـوار البلد وذلك في ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة (١٢ ـ تموز ١١٩١م))(١٠) .

وكان أثـر سـقوط عكا على صـلاح الدين مفجعـا ، لكنه تحمله ، وأصـدر أوامـره بـالانسحاب الى الخلف مسـافة قصيرة ، وبات عليه التحرك بسرعة وفي عدة اتجاهات :

فقد صار عليه التصدي للتحرك المقبـل للفـرنجة ، وانقـاذ جنده الذين كانوا داخـل المدينة ، ذلك أن الفـرنجة أعتبـروهم أسرى لديهم ، أو رهائن حتى يتم تنفيذ بنود الاتفاق .

وراسل الأسرى صلاح كما راسله رتشارد قلب الأسد الذي صار المسؤول الأول عن الصليبيين ، ذلك أن فيليب ملك فرنسا رحل عائدا نحو بلاده ، إثر سـقوط عكا ، وقـد أعلن صـلاح الدين عن نيتـه

الالتزام ببنود الاتفاق والعمل على تنفيذه ، فقام بجمع الأموال المطلوبة واحضر صليب الصلبوت مع أعداد من أسرى الفرنجة ، وجاء وفد صليبي الى معسكر صلاح الدين ليشاهد المال والصليب والأسرى ، وهنا حصل خلاف حول الأسرى ، وجرت محاولات لتسوية هذا الخلاف فباءت كلها بالاخفاق .

وكان رتشارد قلب الأسد متهورا ومتعجرفا ، في طباعه رعونة ، وفي أخلاقه ميل شديد الى سفك الدماء واللامبالاة ، لذلك قام اثناء المفاوضات باصدار أوامره باحضار الأسرى « وكانوا زهاء ثلاثة الاف مسلم في الحبال » وأوقف هؤلاء الأسرى في ساحة مكشوفة وحشد فرسانه وقام هو وإياهم « وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبرا ، طعنا وضربا بالسيف » .

وهكذا اضاف رتشارد الى السجل الدموي لتاريخ الصليبيين وأعمالهم في الشرق فقرة جديدة ، لم يقتصر أثرها هذه المرة على المؤرخين والأخباريين العرب واللاتين ، وانما حفظهما لنا صاحب ملحمة كتبت في القرن الثاني عشر بالنورماندية القديمة وحملت اسمه ، وقام صاحب الملحمة برواية أخبار الأحداث بشكل رهيب ، فرتشارد لم يكتف بسفك دماء العرب من أسرى وسواهم ، وانما اقدم على أكل لحوم القتلى منهم وذلك بعد طهيها وأصدر أوامره لجنده بفعل ذلك (١١) .

ومن جديد تحمل صلاح الدين مانزل به ، ولم يشغله حزنه عن رصد نوايا رتشارد ، وتحركاته ، وخاصة بعد أن علم أن رتشارد قد أعاد ترميم أسوار عكا وتحصيناتها.

وفي « مستهل شعبان سنة سبع وثمانين (٢٤ اب ١١٩١)اشتعلت نيران العدو في سحرة ذلك اليوم ، وعادتهم انهم اذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم ، ٠٠٠٠ ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر وتفرقوا قطعا ثلاثة » ، وعلم صلاح الدين بذلك فأمر قواته بالتحرك على محور

مقابل لمحور تحرك الفرنجة ، وبان له أن الوجهة هي عسقلان ومنها إلى القدس •

وأثناء التحرك جرت مناوشات بين الطرفين ، وحاول صلاح الدين استدراج الصليبيين الى معركة مكشوفة فلم يفلح • وكان رتشارد في غاية الحذر • ومع ذلك فقد خشي أن يعد له صلاح الدين كمينا في غابة أرسوف •

لذلك قام قبل وصوله الى ارسوف بمراسلة الملك العادل ، أخي صلاح الدين ، وأبرز رجالات دولته ، وتم الاتفاق على عقد اجتماع بين رتشارد والملك العادل ، وفي ذلك الاجتماع طلب رتشارد عقد صلح مع صلاح الدين فقال له الملك العادل : « أنتم تطلبون الصلح ، ولاتذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان » ، فأجابه رتشارد : « القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفون الى بلادكم ، فأخشن له الجواب وجرت منافرة » وارفض الاجتماع دون نتيجة .

وفي منطقة أرسوف حاول صلاح الدين انزال ضربة قاصمة بجيش رتشارد ، فلم يفلح ، بل حدث العكس حيث هزمت قواته وتفرق شملها ، وبات الآن صلاح الدين وجنده على قناعة انهم لن يستطيعوا هزيمة الفرنج ، لذلك سارع صلاح الدين من أرسوف الى يافا القريبة ، فأخلاها وهدم أسوارها ودفاعاتها ثم قصد عسقلان ، فكرر بها ما صنعه في يافا ، ومن هناك أخذ الطريق إلى الرملة فالقدس حيث شرع في تقوية دفاعات المدينة .

ولدى وصول رتشارد إلى عسقلان حاول أن يعيدها إلى سابق مجدها وحصانتها فلم يفلح ، وفي عسقلان وصلته أخبار مزعجة من انكلترا استدعت عودته إليها ، ولذلك كثف اتصالاته بصلاح الدين واجتمع بالملك العادل اكثر من مرة ، وتم طرح اكثر من حل لمشاكل الخلافات بين الطرفين ، كان من بينها زواج سياسي بين الملك العادل وأخت رتشارد ، لكن ذلك كله لم يثمر عن نتيجة مفيدة ، وظل صلاح

الدين طوال الوقت متصلبا في مواقفه تصلبا شديدا ، عازما على القتال مهما ساءت الأحوال •

لكن هذا التصلب اضطر صلاح الدين الى التخلي عنه عندما علم بنية رتشارد الزحف على القدس ، وبعدما عرف موقف أمراء جيشه ، فقد أراد اتخاذ موقف الدفاع داخل القدس وعقد لهذه الغاية مجلسا حربيا ضم كبار قادة جيشه وافتتح صلاح الدين ذلك المجلس بخطاب الحضور بقوله :

« الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الاسلام اليوم ومنعته ، وانتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم ، فان هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم ، فإن لويتم اعنتكم ــ والعياذ بالله ــ طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم انتم الذين تصديتم لهذا ، واكلتم بيت المال ، والمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » .

ورد القادة على صلاح الدين بكلام حماسي عام طيبوا به خاطره ، وتفرقوا عنه ، ولكن مالبثوا في مساء ذلك اليوم أن ابلغوه انهم بعد اجتماعهم ببقية قادة الجيش ، رفضوا فكرة أخذ الموقف الدفاعي « وقالوا : لامصلحة في ذلك فإنا نخاف أن نحاصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام أجمع ، والراي أن نلقي مصافا ، فإن قدر الله تعالى أن يهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ، ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدة بغير القدس».

ويصف ابن شداد حال صلاح الدين عندما بلغه موقف القادة هذا بقوله :« فشق عليه هذه الرسالة ، واقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح ، وهي من الليالي التي أحياها ... وكان عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال .. ولما قارب الصبح اشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة » •

ومن جديد تم استئناف المفاوضات بين الطرفين واصيب خلال ذلك الوقت رتشارد بمرض شديد ، وقام صلاح الدين بارسال طبيب خاص لمعالجته واتحفه ببعض الادوية والأطعمة والفواكه والهدايا ، وكان لهذا كله أثره على المفاوضات التي اثمرت اخيرا بـاتفاق عرف باسم« صلح الرملة » تمت الموافقة عليه « صبيحة الثالث والعشرين من شعبان » سنة ثمان وثمانين وخمسمائة (٣ ايلول ١١٩٢ م) . وقضى هذا الاتفاق بـ :

١ ـ بقاء الشريط الساحلي الضيق الممتد من يافا حتى صور بيد الصليبيين .
٢ ـ اعادة عسقلان الى صلاح الدين شريطة هدم اسوارها .
٣ ـ امتلاك صلاح الدين للمنطقة الساحلية الجنوبية اعتبارا من عسقلان .
٤ ـ احتفاظ صلاح الدين بالقدس.
٥ ـ السماح للحجاج المسيحيين بالوصول الى القدس .
٦ ـ حرية تنقل الافراد والتجار بين البلدين .
٧ ـ السماح لكل من انطاكية وطرابلس الدخول بهذا الاتفاق إذا رغبتا .
٨ ـ مدة الاتفاق ثلاث سنوات .

وبعدما ابرم الصلح « غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور مالا يعلمه إلا الله تعالى » لكن صلاح الدين كان على عكس الناس حزينا ذلك انه كما ذكر ابن شداد « ان الصلح لم يكن من ايثاره ، فإنه قال لي ـ رحمه الله ـ في بعض محاوراته في الصلح : اخاف ان أصالح وما ادري أي شيء يكون مني ، فيقوي هذا العدو ، وقد بقي لهم هذه البلاد ، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلته ـ يعني حصنه ـ وقال : لاأنزل ، ويهلك المسلمون » .

ومهما يكن الحال فقد توجه رتشارد إثر ابرام الصلح إلى عكا في التاسع من شهر تشرين الأول من العام نفسه ، وركب البحر عائدا

إلى أوربا وبذلك انتهت وقائع ما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، وانتهت معها أهم فترات حياته ، وأكبر انجازاته .

اما صلاح الدين ، فقد سرح قواته ، وتوجه من الرملة الى القدس ، وعقد النية على القيام بجولة تفقدية على جميع مناطق دولته في الشام أولا ثم مصر ، وأعلن عن رغبته بقصد الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، ومن القدس توجه إلى دمشق حيث استقر في قلعتها ، لكن ليس طويلا حيث مالبث أن حل به المرض فألزمه فراشه قرابة اسبوعين غشي أهل دمشق خلالها« من الكآبة والحزن ما لايمكن حكايته » وفي صباح الاربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٤ أذار ١١٩٣) توفي صلاح الدين فغشي القلعة والبلد والدنيا من الحزن والبكاء عليه مالا يعلمه الله تعالى».« وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس انهم يتمذون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث الا على ضرب من التجوز والترخص الا ذلك اليوم ، فاني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس» (١٢) .

وجهز صلاح الدين ودفن خارج قلعة دمشق قريبا من المسجد الاموي في منطقة كان اسمها الكلاسة ، وحوت ارض دمشق الخالدة جسده الطاهر ، وبوفاته طويت صفحة المرحلة الثالثة من مراحل حرب الاسترداد العربية ، وهي اهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية واجلها حوادث واهمها انجازات ، ولعل من ابلغ الدلالات على اهميتها وخلودها انها ارتبطت بخلود دمشق وبعظمة صلاح الدين الايوبي .

الفصل الرابع

المرحلة الرابعة من حروب الاسترداد في الطور الثاني

(مرحلة القاهرة)

قرانا من قبل ان المؤرخ اللاتيني وليم الصوري المتوفى سنة ١١٨٥ م قد تنبأ بزوال مملكة القدس الصليبية من الوجود على ايدي صلاح الدين ، وهذا ماكان إثر النصر المبين في معركة حطين ، ففي هذه المعركة دمر ـ كما رأينا ـ المسلمون المؤسسة العسكرية الصليبية التي كانت لقرابة قرن مضى اداة رعب في المشرق وقام صلاح الدين إثر ذلك باستغلال نصره احسن استغلال فحرر بسرعة خاطفة وببراعة كبيرة معظم الاراضي والقلاع التي كانت في ايدي الصليبيين بما في ذلك بيت المقدس ، وتمت عمليات التحرير دون سفك كبير للدماء وبلا مغانم ومنهوبات فقد كان صلاح الدين باخلاقه ومبادئه وموارثيه السامية بحكم انتمائه الى الحضارة العربية الاسلامية العريقة ، رجل تحرير ولم يكن رجل عدوان .(١) .

ومع نهاية عام ١١٨٧ م كان مابقي للصليبيين في بلاد الشام لايتعدى شريطا ساحليا ضيقا توزع حول صور وطرابلس وانطاكية ، وسعى صلاح الدين الى تحرير هذه المناطق لكنه لم يتمكن من ذلك وصارت الان مدينة صور مركز تجمع للصليبيين في الشرق ومنها جرت مراسلة اوروبا الغربية طلبا للنجدة ، وأثارت الانتصارات التي حققها صلاح الدين حملة صليبية جديدة اطلق عليها اسم الحملة الصليبية الثالثة وقد تزعمها ملكا فرنسا وانكلترا وجرت مواجهات قاسية بين قوات هذه الحملة وصلاح الدين تمركزت حول مدينة عكا ، وضيق الصليبيون الخناق على هذه المدينة وعندما سلمت اليهم غدر ريتشادر قلب الاسد بالمسلمين فقتلهم

جميعا غدرا وخيانة وبذلك اضاف الى السجل الدموي لتاريخ الصليبين في الشرق صفحة مخزية جديدة ، وتابع صلاح الدين تصديه للسيل البشري الذي تدفق من اوروبا الى ان تمكن في ٢٣ شعبان ٥٥٨ هـ - ٣ ايلول ١١٩٢ م من عقد صلح الرملة مع قادة الحملة الثالثة ، وكان هذا الصلح عبارة عن هدنة غادر بعدها ريتشارد عكا عائدا الى اوروبا ، وكذلك فعل فيليب ملك فرنسا ، كما توجه صلاح الدين نحو القدس ، ومن القدس ذهب الى دمشق حيث استقر في قلعتها معلنا عن نيته القيام بالحج ، لكنه اصيب بمرض الزمه فراشة قرابة اسبوعين ، وفي صباح يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة - الموافق ٤ أذار ١١٩٣ م توفي صلاح الدين ، فعم (القلعة والبلد والدنيا من الحزن مالا يعلمه الا الله تعالى ، وبالله - يقول ابن شداد - لقد كنت اسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وماسمعت هذا الحديث الا ضربا من التجوز والرخص الا ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري انه لو قبل الفداء لفدي بالنفس) (٣) .

لاشك ان وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة كبرى لعرب الشام ومصر وللعالم الاسلامي اجمع وهو باعتراف جمهرة المؤرخين قديما وحديثا في الشرق والغرب كان اعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية ، ومايزال يتمتع عبر العصور بشهرة ومكانة لم ينلها قائد اخر ، فشهرة صلاح الدين في اوروبا قد تكون اعظم منها في الشرق ، وجميع الذين كتبوا عنه اشادوا بقوته وعدله وتسامحه وانسانيته .

لقد ترك صلاح الدين خلفه دولة واسعة الاطراف وفراغا كبيرا لم يستطع احد من ابنائه السبعة عشر او اخوانه او ابناء اسرته ان يملأه ، واصاب ابن شداد بقوله واصفا انه « لم يصب الاسلام والمسلمين بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين » لقد انذرت وفاة صلاح الدين بقيام منازعات بين ورثته حول تقسيم التركة الضخمة

التي خلفها وحدث هذا في الوقت الذي كان فيه هنري دي شامبين ملك مملكة القدس الصليبية يعمل على توحيد صفوف الصليبيين في انطاكية وارمينيا وقبرص وعكا ، ومن القاء نظرة سريعة على وضع الدولة الايوبية عند وفاة صلاح الدين ندرك مدى المخاطر التي كانت تتهددها وتتهدد وحدتها وكيانها ، ذلك ان صلاح الدين اعتمد قبل وفاته على تعيين اولاده حكاما على المناطق الرئيسة في دولته ، كما استعان ببعض اقاربه وكان الملك الافضل نور الدين علي وهو الابن الاكبر لصلاح الدين ملازما لابيه عند وفاته ، فاحتفظ بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين الى الداروم ، وكان الملك العزيز عثمان وهو الابن الثاني لصلاح الدين في مصر وقت وفاة ابيه فاحتفظ بها واخذ الابن الثالث الملك الظاهر غازي حلب وجميع اعمالها مع شمالي بلاد الشام ، واختص الملك العادل سيف الدين ابو بكر اخو صلاح الدين بالكرك والشوبك والاردن فضلا عن بعض مناطق الجزيرة وديار بكر .

لقد توزع بقية ابناء صلاح الدين وابناء بيته المناطق الاقل اهمية فاخذ الظافر خضر بصرى وحوران ، واخذ الامجد بهرام شاه بن اخي صلاح الدين بعلبك ، واخذ المجاهد شيركوه الثاني بن محمد بن شيركوه حمص ، واخذ المنصور الاول محمد بن تقي الدين عمر حماة ، واختص سيف الاسلام طغتكين وهو الاخ الرابع لصلاح الدين باليمن واجزاء من جزيرة العرب .

وعندما توفي صلاح الدين استيقظت مطامح ابناء البيوت القديمة في الجزيرة وغيرها لاسيما افراد البيت الزنكي والارتقي واخذ كل واحد يفكر بمملكة وبالتوسع (٣)، وهذه النظرة السريعة على اوضاع الدولة التي وحدها صلاح الدين تجعلنا ندرك ان الايام عادت سيرتها الاولى وان تمزق البلدان المحيطة بالصليبيين لن يضر غير المسلمين ،وكان صلاح الدين قبل وفاته قد اوصى بالسلطنة من بعده لابنه الافضل صاحب دمشق ، بمعنى جعله صاحب السلطة العليا في جميع انحاء الدولة الايوبية ، لكن الافضل لم يكن الاختيار المناسب

لضعفه وسوء سيرته ، فقد اتهمه ابو الفداء بأنه كان يشرب الخمرة ويقضي ليله ونهاره في اللهو وسماع الاغاني وقال المقريزي : انه « اقبل على اللعب ليله ونهاره وتظاهر بلذاته » ووصفه ابو المحاسن في نجومه « بالملك النوام » ، لانه احتجب عن الرعية واشتغل باللهو وزاد من كراهية الناس له تخليه عن رجالات ابيه ووضع ثقته في وزير جديد هو ضياء الدين ابن الاثير ، أخي المؤرخ المشهور ، ولذلك فر المستبعدون من اركان دولة صلاح الدين الى مصر واستعدوا الملك العزيز على اخيه الافضل ، فخرج العزيز من مصر في صيف سنة ١١٩٤ م قاصدا الشام وشرع في محاصرة دمشق الامر الذي جعل الأفضل يستنجد بعمه العادل .

من الثابت ان الملك العادل لم يكن راضيا عن نصيبه من تركة اخيه صلاح الدين وكان ذكيا ماكرا حاذقا صبورا ، فيه اناة وتؤدة ، ورأى في استنجاد الافضل به فرصة ينبغي عدم تضييعها ، لكنه احتاط للامور فالتقى الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، وبالمنصور محمد صاحب حماه ، وبشيركوه صاحب حمص ، وبالامجد صاحب بعلبك واتفق معهم على منع العزيز من الاستيلاء على دمشق لانهم راوا ان الاستيلاء على دمشق يهدد ممالكهم جميعا ، وادرك العزيز عدم قدرته على محاربة أمراء بني ايوب جميعا فانصرف عائدا الى مصر ، وقبل انسحابه اجتمع به الملك العادل خارج دمشق وطيب نفسه واعطاه احدى بناته زوجة له . وصنع معه تسوية احتفظ بموجبها الافضل بدمشق ومعها طبرية واعمال الغور ، واخذ الملك الظاهر جبلة واللاذقية ، واخذ الملك العزيز بيت المقدس وماجاوره من اعمال فلسطين ، وثبت خلال هذا كله أن العادل هو رجل بني ايوب وانه حريص على وحدة البيت الايوبي والدفاع عن مصالح المسلمين ضد الصليبيين ، ويقول ابو المحاسن ان العادل عندما التقى بالملك العزيز قال له :« لاتخرب البيت الايوبي ، وتدخل عليه الآفة والعدو وراءنا من كل جانب ارجع الى مصر واحفظ عهد ابيك ».

وثبت ان هذه التسوية التي صنعها العادل كانت مؤقته وان ماحدث لم يستفد منه الأفضل لتغيير سياسته ، فكان ان خرج العزيز في العام التالي من مصر يريد دمشق ، واستنجد الأفضل مجددا بعمه العادل وقام العادل بتحريض امراء العزيز عليه واستمالهم اليه ، ونجحت خطة العادل فاضطر للعودة الى مصر واتفق عدد من الأمراء على عزل العزيز عن مصر واحلال الأفضل محله واعطاء دمشق للعادل ، وجمع الأفضل والعادل جيوشهما وزحفا نحو مصر وقبل الوصول الى القاهرة راسل العادل العزيز سرا وطلب منه الثبات لأنه ـ أي العادل ـ شعر ان الأفضل لن يسلمه دمشق واخفقت الحملة وعاد الأفضل الى دمشق ، وبسرعة ازداد السخط عليه فيها ، وهنا وجد العادل ان الظروف باتت مواتية لعزل الأفضل فذهب الى العزيز عثمان وعقد معه اتفاقية لتحقيق هذا الغرض وفي صيف عام ١١٩٦ م سقطت دمشق للعزيز والعادل وحل العادل محل الأفضل في دمشق ، واخذ العزيز لقب السلطنة وبقيت مصر له .

لقد تركت هذه النزاعات آثارا سلبية على الدولة الأيوبية واثارت رغبة الصليبيين وأطماعهم في استرداد بعض القلاع والحصون ، وفي الافادة من الصراعات بعقد اتفاقات جانبية والحصول على تنازلات من أمراء بني أيوب .

وفي عام ١١٩٢ م توفي العزيز صاحب مصر وكان ابنه الأكبر محمد في العاشرة من عمره ، لذا جرى استدعاء العادل الى مصر من قبل بعض الأمراء لكن أمراء اخرين استدعوا الأفضل من حوران وسلموه شؤون مصر ، وإثر هذا اتفق الأفضل مع أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب بالعمل ضد عمهما وانتزاع دمشق منه ، وحوصرت دمشق من قبل جيوش الأفضل والظاهر ، وفي أثناء ذلك الحصار استطاع العادل استغلال سوء تدبير الأخوين فأوقع الخلاف بينهما ، واشترى ذمم عدد من افراد جيشهما فاضطر الأفضل للعودة الى مصر ، والظاهر الى حلب ، ولم يترك الملك

العادل الأفضل يعود بسلام بل لاحقه الى مصر وتمكن من انتزاع القاهرة منه ، وفي سنة ١٢٠٠ م استبد العادل بملك مصر وصار أقوى رجالات البيت الأيوبي ، حيث تمكن بعد فترة من انتزاع الاعتراف بسيادته من ابناء أخيه ، ونجح العادل في توحيد اجزاء كبيرة من الدولة الأيوبية من جديد ، وحين أعاد تنظيم الدولة استعان بابنائه كما فعل صلاح الدين من قبله (٤) . لذلك كانت هذه الوحدة مؤقته ترتبط ببقاء العادل على قيد الحياة .

وازداد في هده الأونة نشاط الحملات حيث كانت الحملة الرابعة التي استولت على القسطنطينية ، ثم حملة الأطفال سنة ١٢١٢ م ، والحملة الهنغارية سنة ١٢١٧ م ، وحملة جنادي برين الكبرى ضد مصر سنة ١٢١٨ م ، ثم الحملة الصليبية الخامسة واخفقت هذه الحملات جميعا .

وحين جاءت الحملة الصليبية السادسة بقيادة فريدريك الثاني كان التمزق الأيوبي والصراع الداخلي على أشده ، لذلك استطاع فريدريك على الرغم من حرمانه كنسيا ومن قلة أعوانه استعادة بيت المقدس من الأيوبيين سلما فدخلها في ١٧ أذار ١١٢٩ م وتوج فيها ملكا على القدس ؛ ثم مالبث ان اخذ طريق العودة الى اوربا .

في هذه الأثناء كانت الأوضاع السياسية في المشرق العربي الاسلامي قد شهدت تطورات كبيرة بسبب ظهور المغول على مسرح الأحداث ونتيجة للأعمال التوسعية التي قام بها جنكيزخان ، فقد استولى جنكيزخان فيما استولى عليه على دولة خوارزم شاه ؛ وجاء نحو اطراف الدولة الأيوبية فلول الجيوش الخوارزمية ، وعلى رأسهم السلطان جلال الدين منكبرتي ، ولم يكن الخوارزمية اقل عنفا ووحشية من المغول انفسهم وقد هددوا اراضي الدولة العباسية والممتلكات الأيوبية في أعمال الجزيرة وارمينية ، وخلال الفوضى والاضطراب قتل جلال الدين منكبرتي وتشتت قوات الخوارزمية ودخل بعضها الشام كمرتزقة ، وباتت

معظم السبل مفتوحة أمام المغول للتقدم نحو العراق والجزيرة والشام .

لقد استخدم أمراء بني ايوب الخوارزمية في حروبهم وصراعاتهم على السلطة ، ودون الدخول في تفاصيل هذه الصراعات المدمرة ، يكفي ان نشير الى ان الصالح ايوب تمكن بمساعدة الخوارزمية من استرداد القدس (٥) ،مما أثار قيام الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وجاءت الحملة الفرنسية تريد مصر ،وحققت في البداية بعض النجاحات لكنها اخفقت وفي اثناء التصدي لها توفي الصالح أيوب (٦) وكان حدث وفاته نقطة تحول سياسي كبير في تاريخ مصر وبلاد الشام تحتاج الى وقفة متأنية بعض الشئ لأنها خطت بداية النهاية ، نهاية الحكم الأيوبي وقيام الحكم المملوكي ، هذا ويلاحظ أن الصراعات بين امراء بني ايوب قد انعكست على أوضاع بلاد الشام ومصر فأضرت بالاقتصاد وسببت هزات اجتماعية متوالية كما انها افقدت الأيوبيين الاحترام الذي حققه صلاح الدين لهم .

كانت الدولة التي اسسها صلاح الدين قد تبنت ايامه نظام الاقطاع العسكري وقد ساعد هذا النظام على زيادة التمزقات وتعميقها بعد صلاح الدين ، وبالنظر لاستمرار الصراعات الداخلية بين افراد البيت الأيوبي ولعدم توقف التهديدات الصادرة عن الفرنجة وسواهم اضطر أمراء بني ايوب الى زيادة حجم جيوشهم عن طريق الرقيق الأبيض وعن طريق المرتزقة ، وكان جل الرقيق الأبيض الذي استخدم في جيوش المشرق العربي من أصل تركي .

لقد كان ايضا من جملة النتائج التي نجمت عن الحروب الصليبية ان بلاد الشام ومصر قد شهدتا تطورا كبيرا في ميادين الفنون العسكرية من تسليح وتدريب حيث تحول العمل العسكري الى احتراف خضع لقواعد خاصة للتدريب والترقي في المراتب ، والمستعرض لتاريخ الجنود من اصل تركي منذ أيام

المعتصم بالله العباسي يرى أن الغلمان الأتراك مـا أن ملكوا القـوة العسكرية حتى تطلعوا نحـو السـلطة فتمـرد بعضـهم على أسياده . وسعى بعضهم الى التحكم بالخلافة وظلت سـمة التـطلع نحو السلطة ملازمة للعسكريين المسلمين ، حتـى أن صـلاح الدين نفسه كان من هذا الصنف ، فهو ما أن صار سيد مصر حتـى أخـذ يوسع ملكه ، ومعارك صلاح الدين الداخلية أكبر عددا من معـاركه ضد الفرنجة ، ولايعنينا هذا الموضوع بقـدر أن نخلص الى مـاقاله البـاحثون مـن ان الملك الصـالح ايوب(٦٣٧ هـ ـ ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩ م) قد أكثر بعدما تسلم عرش مصر من شراء المماليك الأتـراك واعتنى بهـم عناية لم يفعلها غيره من أهل بيته وأباح لهم عمل كل شئ ارادوه فاعتدوا على أموال الناس وأنفسـهم ممـا كاد يؤدي الى الثـورة ضـده في القاهرة ، فاضطر الى بناء قلعة خاصة بمماليكه وبه ، بناها وسط جزيرة الروضة على بحر النيل ، ومـن هنا عرف المـماليك الأوائل باسم المماليك البحرية الصالحية(٧) .

ويرتبط وصول المماليك البحرية الى السلطة بتعرض مصر لهجوم قوات الحملة الصليبية السـابعة بقيادة لويس التـاسع (القـديس لويس) ملك فرنسا ، وتـرتبط هـذه الحملة بـأهداف الصـليبيين الأساسية في الاسـتيلاء على فلسـطين واسـتعادة القـدس المحررة ، ولكن لم توجهت ضد مصر ولم تقدم الى الأراضي المقـدسة مباشرة ؟

لهذا تعليلات كثيرة ، ارتبط أهمها بالدور القيادي الذي شـغلته مصر منذ أيام صلاح الدين الأيوبي كما يلاحـظ أنه اذاكان تحـرير القدس من قبل صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧ م هـو الذي أثار الحملة الصليبية الثالثة فإن تحريرها ثانية(٨) من قبل الصـالح نجم الدين سنة ٦٤٢ هـ ـ ١٢٤٤ م هـو الذي سـبب قيام الحملة السابعة وقدومها الى مصر .

وهناك خـلاف واضـح بين وقـائع هـاتين الحملتين

ونتائجهما ، والذي يعنينا منهما هـو أن نذكر انه نتـج عن الحملة الثالثة ، فيما نتج ، استيلاء الصليبيين على مـدينة عكا ومـن ثـم اعادة احياء مملكة القدس ، وغدت عكا عاصمة لهذه المملكة ، وبعد وفاة صلاح الدين وبسبب نشـوب الخـلافات الشـديدة بين امـراء الأسرة الأيوبية وسع الفرنجة رقعة ممتلكاتهم وباتوا يتحكمون بجزء كبير من الساحل الشامي امتد من عسقلان في الجنوب الى مـابعد طرابلس في الشمال مع مناطق في الداخل تمثلت ببلدة صفد والمنطقـة القائمة بينها وبين عكا . وفي سـنة ٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٩ م تسـلم الامبراطور فريدريك الثاني من الملك الكامل الايوبـي القـدس وبيت لحم والناصرة . وكان هذا الحدث من محصـلات الحملة الصـليبية السادسة وتم نتيجة لحنكة الامبراطور السياسية ولم يرتكز على قوة السلاح .

وبعد تحرير القدس من قبل الصالح أيوب تحفز الغرب واعد حملة جديدة هي السابعة ، وقاد هذه الحملة القـديس لويس ، ووجههـا ضد مصر ، مقدرا انه اذا ماتمكن من قهر هـذه البـلاد سـهل عليه اســترداد فلســطين ، وفي حــزيران ـ مــن عام ٦٤٧ هـ ـ ١٢٤٩ م تمـكنت الحملة الصـليبية مـن احتـلال دمياط ، وكان الملك الصالح مريضا ، وقد توفي في تلك الأثناء ، مما شجع الملك الفرنسي على اتخاذ قرار الزحف نحـو القـاهرة ، وأدى هذا الى إخفـاق الغـزاة ووقـوع الملك وجيشـه في الأسر في عام ٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠ م (٩) .

قـام بإدارة الأمـور في تلك الأونة شـجر الدر ارملة الصـالح أيوب ، وتم استدعاء تورانشـاه بـن الصـالح ايوب ، لكن هـذا السلطان الجديد أخفق في مهمته ، ومن ثم اغتيل من قبل قادة مماليك أبيه يوم ٧ محرم ٦٤٨ هـ / ٢ ايار ـ ١٢٥٠ م وبمقتله انتهـى الحكم الأيوبي لمصر وتأسست سلطنة المماليك(١٠) .

وتسلم السلطة أولا شجرة الدر ، ثـم مـالبثت أن اختير لهـا عز الدين أيبك من أمراء المماليك زوجا ، ومن ثم سلطانا (١١) وفي مـدة

سلطنتها التي دامت ثمانين يوما تم الاتفـاق مـع الملك الفـرنسي ، فأطلق سراحه ، فتوجه نحو عكا حيث استقر بهـا مـدة اربـع سنوات (١٢).

ونجم عن تسلم المماليك للسلطة في مصر نتـائج داخلية خـطيرة وردات فعل خارجية شديدة ، فقد رفض الحكام الأيوبيون في الشام الاقرار بالوضع الجديد ، وحدثت صراعات دموية بين أمراء المماليك اضطرت عددا كبيرا منهم إلى ترك مصر والتـوجه إلى الشـام حيث نشطوا فيها كمرتزقة ، وحاول لويس التاسع اسـتغلال الأوضـاع المضطربة (١٣) .

تسلم الملك الفرنسي مسؤوليات الحكم في عكا ، وبـات سـيد مـا عرف باسم مملكة القدس ، في الوقت الذي راسل فيه فرنسا وبلدان أوروبا لاثارة حملة صـليبية جـديدة ، ونشـط محليا عن طـريق استغلال الصراع الأيوبـي المملوكي ، وتقـوية دفـاعات الممتلكات الصليبية ، وشهدت الفترة التي اقام خلالها الملك لويس ذروة أعمال التحصين الفرنجية في المشرق عامة وفي فلسطين خاصة ، وانتجـت نماذج من الحصون والقلاع تمتعت بقدرات دفاعية هائلة ، كمـا أن المدن وخاصة عكا عززت دفاعاتها واسـوارها . فقـد ملكت المدينة سورا مضاعفا الآن ، تخفره مجمـوعة مـن الأبـراج امتـدت على طوله ، وزودت الأسوار والأبـراج بـوسائط لرمـي النشـاب وسواه ، ومتنت بوابات المدن والقـلاع ، وحفـرت الخنادق حـول الأسوار ، كما جهزت المرافئ بمنشآت دفاعية خاصة ، وزود مدخل ميناء عكا بعدد من الأبراج الدفاعية التي مدت بينها السلاسل(١٤).

كانت عكا أنذاك مقامة على نشز من الأرض مثلث الشكل ، أطل ضلعان منه على البحر وقام الثالث على سهل يبلغ اتسـاعه قـرابة ستة أميال في أوسع جهاته ، وكان هذا السهل عظيم الخصـوبة فيه بساتين وكروم وحقول ومراع للمواشي (١٥) .

وجعل موقع عكا المتوسطي منها سوقا تجارية دولية ، كانت ترد

اليها البضائع من الشرق الاسلامي ومن الموصل ودمشق وحلب ومصر ، وكانت تقيم فيها جاليات تجارية اسلامية واخرى مثلت جمهوريات ايطاليا التجارية وخاصة البندقية وبيزا وجنوا (١٦) .

وبعدما استولى المماليك على السلطة في القاهرة انتهز الملك الناصر يوسف ، صاحب حلب وحفيد صلاح الدين الأيوبي الفرصة ، فاستولى على دمشق ، فأصبح سيد معظم أجزاء بلاد الشام ، وقد عقد العزم على الزحف على القاهرة للاستيلاء عليها وإحياء ملك اله فيها (١٧) .

واعتقد الناصر أن عليه التحالف مع الملك لويس ، فراسله عارضا التعاون معه للانتقام من المماليك مقابل إعطائه مدينة القدس التي كانت تحت أمرته ، وكان هذا العرض مغريا جدا ، فيه تحقيق للهدف الذي قدم الملك الفرنسي من أجله إلى الشرق وفيه انتقام للهزيمة وللعار الذي لحق به نتيجة اسره .

لكن من الذي كان يضمن النجاح في هذه المهمة ويضمن الوفاء بالعهد أيضا ، أضف إلى هذا ان ما ملكه لويس انذاك من قوات عسكرية ضاربة كان قليل العدد والامكانات ، وكان لا يزال في مصر ما يزيد على اثني عشر الف أسير من جنده .

وعلم عز الدين ايبك بأنباء هذه العروض والاتصالات فبعث إلى الملك الفرنسي يتهدده بقتل الأسرى جميعا ، وعرض عليه في الوقت نفسه تعديل شروط معاهدة دمياط التي أطلق بموجبها سراحه وذلك بالتنازل له عن أموال الفدية المتبقية عليه .

ودرس لويس الموقف من مختلف الوجوه ، فوجد أن المنطق يفرض عليه البقاء على الحياد ، لذلك ارسل سفارة إلى الملك الناصر أعلمه فيها أنه طلب من أمراء مصر تعديل المعاهدة التي عقدها معهم والتعويض عليه وأنهم إذا ما رفضوا فسيقف إلى جانبه ، وترك لويس بهذا الرد الباب مفتوحا لاتصالات مستقبلية مع

الناصر ، ووقف يرقب الصراع من حوله ويعد العدة للافادة منه(١٨)

وتبعا لجوانفيل الذي أرخ لحياة لويس وكان بصحبته ، بعث الملك الفرنسي وفدا إلى مصر عرض على سلطاتها موقف لويس ومطالبه ، ونجح الوفد في مهمته وأطلق المماليك سراح مائتين من الفرسان الأسرى لديهم مع ما يقارب الف مقاتل من أصحاب الرتب الأدنى ، وبعثوا برسل من عندهم للاجتماع مع الملك الفرنسي وبحث شروط تحالف معه . وزاد لويس من مطالبه واستجيب له واستمرت المفاوضات بين الطرفين ولم تنقطع .

وربح لويس وازداد حجم قواته العسكرية(١٩) ، وفقد الناصر يوسف الأمل في التحالف معه فقاد قواته يريد القاهرة ، وسارع أيبك الى لقائه ، وأقدم قبل ذلك على هدم مدينة دمياط ، وفي ١٠ ذي القعدة ٦٢٨ هـ/ شباط ـ ٢٥١ م التحمت القوات المملوكية بالقوات الأيوبية عند بلدة العباسية بين بلبيس والصالحية ، وانجلى القتال عن هزيمة الأيوبيين وتراجعهم نحو دمشق (٢٠) ، وقام أيبك بعد فترة وجيزة بارسال وحدة من قواته استولت على غزة.

واغتنم الملك لويس انشغال المسلمين بصراعاتهم فتوجه نحو بلدة قيسارية فأعاد تحصينها. فاستؤنف أثناء ذلك المفاوضات بينه وبين أمراء المماليك وتمخضت عن ابرام معاهدة جديدة بينهما في ربيع الأول ٦٥٠ هـ /أيار ١٢٥٢ م ، وقد حدثنا عنها جوانفيل بقوله:« وبينما كان الملك يقوم بتحصين قيسارية عاد رسله من مصر جالبين معهم معاهدة أبرمت وفقا للشروط التي وضعها جلالته وقضت المعاهدة بين الملك والأمراء بأن يتوجه الى يافا في موعد محدد ، بينما يذهبون هم الى غزة في اليوم نفسه ، وقد أقسموا على تسليمه مملكة القدس ، وأقسم الملك ورجالات جيشه على تنفيذ المعاهدة ، وكان معنى هذا اننا ارتبطنا بوعد تقديم المساعدة للأمراء ضد سلطان دمشق.

وتنفيذا لهذا الاتفاق تقدم الملك لويس نحو يافا فاحتلها ، وكان

أيبك قد بعث بقواته لاحتلال غزة ، وعلم الناصر يوسف بأخبار هذا التحالف فبادر إلى إرسال قواته نحو غزة فاحتلها وعسكرت فيها وبذلك حالت دون قيام أي اتصال بين الفرنجة والمماليك . وخرجت قوات المماليك من القاهرة لكنها لم تتجرا على التقدم نحو غزة ، وبذلك أخفقت خطط المتحالفين وتجمد الوضع قرابة عامين . وتدخلت الخلافة العباسية بين الطرفين الشامي والمصري ، وامكن في صفر ٦٥١ هـ / نيسان ١٢٥٣ م عقد صلح بينهما ، اعترف الناصر بموجبه بالحكم المملوكي في القاهرة وتنازل لهذا الحكم عن غزة والقدس ونابلس (٢٣) .

وكان الخاسر في هذه الجولة الملك لويس ، ثم إن المماليك لم يتمكنوا من استغلال ما منحهم الاتفاق من فرص حيث تورطوا في نزاع داخلي على السلطة أودى بحياة شجر الدر وعز الدين ايبك وعدد من الأمراء الكبار ، ونشط الملك لويس قليلا ثم قام اخيرا في نيسان ١٢٥٤ م بمغادرة الأراضي المقدسة وذلك بعدما يئس من وصول حملة جديدة من أوربا ، وبعدما بلغه وفاة والدته في فرنسا ، وهي التي كانت تتولى إدارة الأمور في غيابه (٢٤) .

قد يرى بعض الباحثين أن ما حدث حتى الآن قد مهد السبيل أمام المماليك للسيطرة على بلاد الشام وفي مقدمتها فلسطين ، وقبل معالجة هذا الراي لا بد من سؤال هو : هل كانت السلطات المملوكية ترغب بالاستيلاء على فلسطين ومجمل بلاد الشام ؟ ليس هنالك ما يفيد بالايجاب في كل ما حوته مصادرنا من معلومات . هذا ولا يجوز لنا أن نذهب إلى الافتراض أن المماليك كانوا لا بد وأن يسيروا على هدي حكام مصر المستقلة السالفين في سياستهم الخارجية تجاه بلاد الشام. وسبب هذا أننا لايمكن أن نتحدث عن وجود سياسة خارجية مرسومة لدى المماليك ، بل كان هنالك ردات فعل تجاه الوقائع والأحداث ، ثم إن المماليك لم يعرفوا الحكم المستقر ولم تتوفر لديهم البيروقراطية المستقرة ، بل كان هنالك انقلابات مستمرة وحركات عصيان متواصلة ومؤامرات دائمة. أضف الى

هذا أن أمراء المماليك ورجالاتهم لم يتحرروا من عقدة الرق ، وكان حكام الشام يملكون الاعتراف الشرعي (٢٥) .

ودخلت بلاد الشام في ظل الحكم المملوكي بفضل أحداث غزو خارجي ، وهو الغزو المغولي ، ولهذا الغزو ولصده علاقة مباشرة ببلاد الشام ، وقبل أن ندخل بتفاصيله من المفيد أن نذكر أن الحكم المملوكي قد مر بطورين ، عرف الأول منهما بالطور التركي والثاني بالطور الشركسي ، وقد ارتبطت بداية كل طور منهما بغزو مغولي كبير .

ليس المقام هنا الحديث عن المغول وتأسيس امبراطوريتهم (٢٦) ، ويهمنا أن نذكر أنه عندما وصلت أخبار ظهور جنكيزخان إلى أوربا ظنته مسيحيا وخيل إليها أنه المخلص القادم من المشرق ، ولهذا جرت اتصالات بين المغول ومختلف قوى أوروبا ومحاولات للتحالف . وتطلع الفرنجة في الشام بآمال عظيمة إلى اخبار الحملات المغولية ضد بلدان العالم الاسلامي في المشرق . وعندما زحف هولاكو حفيد جنكيزخان نحو بغداد رأوا فيه ـ مع أنه كان بوذيا كما هو المرجح ـ « داود الهندي » الذي سيتمكن من استرداد القدس من المسلمين وبناء أسوارها « بحجارة من ذهب وفضة » .

في سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م استولى هولاكو على بغداد وأزال الخلافة العباسية من الوجود ، ووجه ضربة قاتلة إلى الحضارة العربية وإلى تراثها المجيد ، ولهذا خيل للمسلمين « أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب » . وتابع المغول زحفهم نحو بلاد الشام فاستولوا على حلب في صفر ٦٥٨ هـ / كانون الثاني ـ ١٢٦٠ م ، ثم قصدوا دمشق وكانت قد اجتمعت فيها قوة كبيرة للناصر يوسف صاحبها ، ومع ذلك عجز هذا الأمير الأيوبي عن الصمود وتراجع نحو غزة وعسكر فيها ، واستولى المغول على دمشق في ربيع الأول ٦٥٨ هـ / آذار ـ ١٢٦٠ م ، وأخذوا يعدون العدة للزحف نحو مصر .

وكان تسلم السلطنة في القاهرة الأمير قطز ، وهو مملوك قيل إنه من أصل خوارزمي وانه يمت بصلة القرابة لأسرتها الحاكمة التـي حاولت التصدي للمغول . فتراسل قطز مع الناصر يوسف ، والأهم من ذلك أنه وجد الفرصة لاعادة توحيد قوى المماليك جميعها وذلك بعدما انضم إليه بيبرس البندقداري قادما من الشام .

ولم يطل مكوث الناصر في غزة ، فقد تخلت عنه عساكره فعاد نحو الشام ، فألقى المغول القبض عليه وحملوه إلى هولاكو الذي احتفظ به ووعده بإعادة ملك أبائه إليه ، وبالفعل انضم عدد من بقايا الأيوبيين إلى المغول .

لقد ملك المغول طاقات قتالية هائلة ، وتأثرت طرائقهم بالقتال واسلحتهم بطرائق الصين وأسلحتها . وكانت خبرة المسلمين إزاء هذه الطرائق شبه منعدمة ،هذا ، وكان المغول قد احتلوا في تلك الآونة روسيا ، وقام أمراء المغول هناك وهم من « القبيلة الذهبية » باعتناق الاسلام ، ولهذا عارض زعيمها « بركة خان » اعمال هولاكو ودخوله بغداد وقامت اتصالات بين المماليك والقبيلة الذهبية الى حد أن بعض الروايات تذهب إلى القول إن مساعدات رمزية كانت وصلت منها الى مصر واشتركت في الحرب ضد مغول هولاكو ، وإذا صح هذا فإن معناه حصول المماليك على بعض المعلومات العسكرية عن فنون القتال لدى المغول .

ويلاحظ ان الجيش المملوكي وإن لم يكن عظيم الحجم كان جيشا محترفا بكل ما تعنية هذه الكلمة سواء من حيث التسليح أو التدريب والمقدرة السوقية والبراعة في المناورة والتكتيك الحربي .لقد كان الجيش المملوكي أفضل جيش مدرب في عالم عصره ، لهذا عندما توحدت قطعاته لم يكن غريبا أن يهزم جيوش المغول التي قهرت العالم اجمع ولم تذق طعم الهزيمة من قبل .

وقرر هولاكو عدم الاكتفاء بدمشق ، وان تتابع قواته فتحتل أولا القدس ثم تتابع سيرها نحو مصر ، ويشار هنا انه فضلا عن

الصلات المغولية مع الصليبيين والأوروبيين ، كانت نساءبلاط هولاكو البارزات مسيحيات حسب العقيدة النسطورية وكان لهن مكانتهن ونفوذهن العظيم عليه .

وبعث هولاكو برسالة قاسية إلى قطز تهدده فيها وتوعده ، ورد قطز عليه بقتل رسله وإعلان تصميمه على لقاء المغول . وواجه في هذا السبيل بعض المصاعب الداخلية ، لكنه استطاع أن يذللها وحشد قواته وبعث طلائعه نحو غزة بقيادة بيبرس البندقداري ، واصطدم بيبرس بطلائع المغول عند غزة فناوشها وهزمها واشتبك مع قوى المغول المتقدمة لمدة أيام وكان لهذه الاشتباكات اهمية عالية جدا فقد أفادت من الجانب المعنوي ، وكانت بمثابة استطلاع قتالي مباشر واختبار لقدرات العدو وخططه من جميع الجوانب ، زد على هذا أنها موهت عليه وقدمت تغطية كاملة لتحركات قطعات الجيش الرئيسية بقيادة قطز ، فقد سلكت هذه القطعات الطريق الساحلي ، وعرجت أولا على عكا لاستطلاع موقف الفرنجة فيها .

وكان الفرنجة أنذاك يعيشون في أوضاع محرجة ، الخلافات الداخلية على أشدها بين طوائفهم ومنظماتهم ، وكانوا يدركون أنه ليس بإمكانهم القيام بدور فعال ، لذلك أخبروا المماليك بوقوفهم على الحياد .

وفي هذه الأثناء اضطر هولاكو إلى مغادرة بلاد الشام والعودة نحو العراق ومن ثم إلى خراسان ، حيث بلغه وفاة خان المغول وكان يطمح في أن يجري اختياره خليفة له.

ولم يضعف ذهابه قوة المغول ، وقد ناب عنه القائد كتبغانوين ، وزحفت قوات المغول وكانت تزيد على الثلاثين الف فارس وعندما وصلت إلى نهر الأردن قام بعض المسلمين الموجودين معها بإرسال رسل إلى المماليك بالمعلومات والتشجيع والوعد بالتخلي عن المغول أثناء القتال ، فقد تحدث صارم الدين

أزبك ، وكان مملوكا ايوبيا قد دخل في خدمة هولاكو قال :
« لما قدمت الشام ، وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن ، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية ، وقد خرج المسلمون للقائهم ، فلما علمت أن التتار لا بد لهم من الديار المصرية بعثت غلاما لي في صفة جاسوس ، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز والأمير بيبرس البندقداري ، وبلبان الرشيدي ، وسنقر الرومي ، ويعرفهم أن التتار لا شيء فلا تخافوا منهم ، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال...وأوصيته أن يراعي المسلمون أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس ».

وقام المماليك باستطلاع الأرض وقرروا أن يكون اللقاء في منطقة عين جالوت بين بيسان ونابلس ، بين نهري جلبوع وجالوت مستفيدين من المستنقعات التي كانت موجودة على الجانبين.

اعتمدت خطط المسلمين فيما سبق في حروبهم ضد الفرنجة على نظام فصل اسلحة العدو عن بعضها والايقاع بكل منها على انفراد ،لكن الوضع كان مختلفا الآن . فقد كان المغول من الفرسان الخفاف ، سلاحهم الرئيسي القوس والنشاب ـ حسب عادات بداة سهوب اواسط اسيا ـ يقاتلون عن بعد ويضر بهم الالتحام والقتال القريب ، وقد اعتادوا فقط على الهجمات السريعة والقتال الخاطف . ولهذا قامت خطة المماليك على اعتماد مبدأ الدفاع المتحرك ، واستهدفوا احتواء الهجوم المغولي وتدميره .

ولهذا صفوا قواتهم التي لعلها لم تتجاوز الثلاثين الفا بصفوف طويلة واجبروا المغول على الهجوم الجبهوي بعد اشتباكات دامت عدة أيام ، وفي يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / ٦ أيلول ـ ١٢٦٠ م أمكن احتواء الهجوم المغولي ، وتطويق المهاجمين وتدميرهم ، فقد جرى قتل كتبغا نوين وعدد كبير من قادة المغول وجرت اعمال مطاردة كاملة (٢٧) .

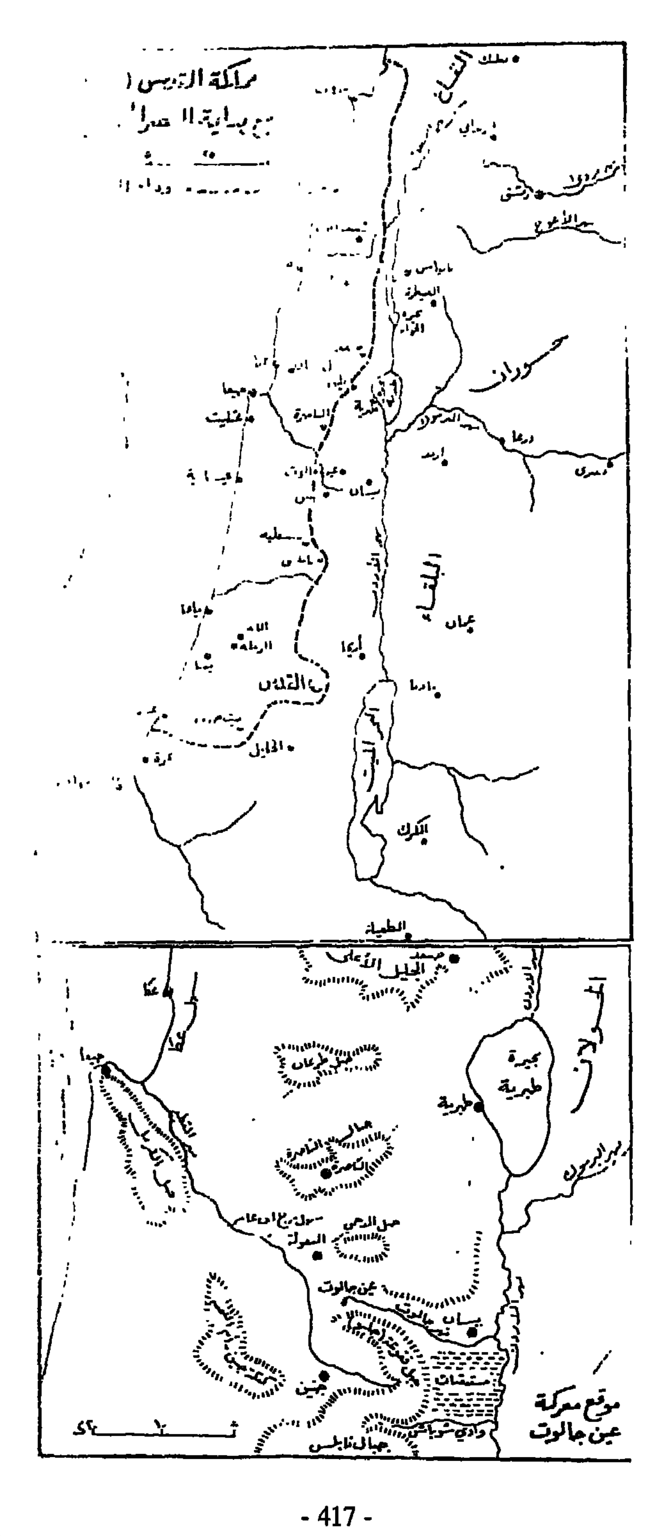
وقبل الحديث عن نتائج هذه المعركة الكبرى لابد من الاشارة الى انهيستفاد مما اورده المقريزي عن اخبار المعركة أن « أهل القرى من الفلاحين » (٢٨) الفلسطينيين قد شاركوا بشكل فعال ومؤثر في القتال وان اعدادهم كانت كبيرة ، ويضفي هذا على المعركة صبغة خاصة ، ذلك ان الظهير الشعبي حاسم في جميع المعارك .

لقد كانت معركة عين جالوت نقطة تحول عظمى في التاريخ ، اذ انها اوقفت المد المغولي وحولته الى جزر ، وبرهنت ان الاحتراف العسكري المدعوم شعبيا والمستند على الايمان والمتحلي بالعبقرية يمكنه ان يهزم اية قوة مهما بلغ جبروتها . وحفظ نصر عين جالوت مصر وصان الشمال الافريقي وضمن تحرير بلاد الشام وطرد المغول الى ماوراء نهر الفرات ، وهيأ الفرصة للعمل على تصفية الوجود الصليبي في المشرق .

لقد منح هذا النصر القاهرة مكانة الزعامة السياسية ومركز الاشعاع الفكري خاصة بعد دمار بغداد وهجرة العلماء وذوي الاختصاص والحرفيين وسواهم من المشرق الى مصر .

لقد ربح المماليك الشام كلها ، ذلك ان المغول كانوا قد ازالوا الحكم الايوبي ، وهكذا امتد الحكم المملوكي الى الشام بدون معارضة ، وليس من الغلو القول ان دولة المماليك قد ارسيت قواعدها نتيجة للنصر في عين جالوت ، ويعتبر بيبرس البندقداري هو الذي تولى بناء هيكل هذه الدولة ، فقد قام بيبرس بعد انقضاء معركة عين جالوت بفترة وجيزة باغتيال السلطان قطز واحل نفسه محله بلقب الظاهر .

واجمل المؤرخ البعلبكي موسى بن محمد اليونيني ماشهدته بلاد الشام سنة ٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م بقوله :
« في هذه السنة كثر تغير الدول ومتولي الحكم بالشام ، فكان من اول السنة الى نصف صفر في مملكة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، وهو أخر من ملك من بني ايوب رحمهم الله



حوران
دمشق
درعا
إربد
بيسان
عين جالوت
عثليت
حيفا
الناصرة
البلقاء
عمان
أريحا
الكرك
الطفيلة
الخليل
صفد
الجليل الأعلى
عكا
بحيرة طبرية
طبرية
جبل طرعان
جبال الناصرة
الناصرة
جبل الدحي
العفولة
عين جالوت
بيسان
جنين
مستنقعات
وادي شوباش
جبال نابلس
نهر اليرموك
الجولان
الأردن
موقع معركة
عين جالوت

وايانا ، ثم صار في مملكة التتار الى الخامس والعشرين من شهر رمضان المعظم ، ثم صار في مملكة المظفر سيف الدين قطز صاحب الديار المصرية الى ان قتل في ذي القعدة.ثم صار في مملكة الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري »(٢٩).

وحافظ المماليك على الاوضاع السياسية الموروثة في بلاد الشام ، ذلك انهم لم تكن لديهم سياسة خارجية مصرية مرسومة تجاه بلاد الشام ، بل كانت دولتهم تشبه اتحاد اقطاعيات عسكرية متفاوتة الاحجام ، ويمكن ان ندرك هذا مما قاله اليونيني في وصفه لاحداث سنة ٦٦١ هـ ـ ١٢٦٣ م « دخلت هذه السنة وليس للناس خليفة ، وسلطان الديار المصرية والشامية والحلبية الى الفرات ، الملك الظاهر ركن الدين بيبرس » ثم اردف واصفا احداث السنة التالية ٦٦٢ هـ ـ ١٢٦٤ م ، وكان الملك الظاهر قد استولى على الكرك وازال الحكم الايوبي منها واسس خلافة عباسية جديدة ، بقوله :

« دخلت هذه السنة وخليفة المسلمين الامام الحاكم بأمر الله ابو العباس احمد العباسي امير المؤمنين ، وسلطان مصر والكرك والشام السلطان الملك الظا هر ركن الدين بيبرس »(٣٠).

والمتفحص لاوضاع سلطنة المماليك ايام بيبرس يلاحظ ان هذه السلطنة العسكرية كانت لها ثلاث جبهات رئيسة : واحدة في مصر ، واخرى في دمشق ، وثالثة في حلب . فقد تعرضت مصر للغزو الصليبي برا وبحرا ، وارتبط استيلاء المماليك على السلطة مع وقائع الحملة الصليبية السابعة ، اما دمشق فقد كانت جبهة مواجهة مع بقايا الصليبيين في الشام ، واهم من ذلك مواجهة الخطر المغولي القادم من الشرق ، اما حلب فقد واجهت دولة ارمينية الصغرى (سيس) والخطر المغولي .

لقد اقتضى اشتداد الخطر المغولي ان تتفرغ دمشق للتصدي له ، ودفع هذا السلطان بيبرس الى ايجاد قوة اسلامية تتمكن من

رصد فرنجة عكا والتصدي لهم ، وهكذا اقتضى الحال تحرير صفد واقامة نيابة مملوكية فيها .

ومتتبع اخبار المماليك يجد ان حكمهم لم يعرف الاستقرار ولا ديمومة الولاء والخلاص ، بل ساده الصراع ، وقد نافس حكام الشام سلاطين القاهرة وسعوا الى الاستقلال عنهم او احتلال مناصبهم وتميز تاريخ المماليك بتحالف رجالاتهم مع رجال الدين الاسلامي ، واهتم المماليك اهتماما كبيرا باظهار شدة تمسكهم بالاسلام واحترامهم للاماكن المقدسة واكثارهم من بناء المساجد ومدارس الدين والزوايا.

ويتصدر السلطان الظاهر بيبرس قائمة اسماء سلاطين المماليك الذين تولوا اعمال التحرير . وبيبرس كما هو معروف هو الذي ارسى قواعد السلطنة المملوكية ونظم شؤونها جميعا ، وقد اعتلى العرش اثر معركة عين جالوت ، وكان ذلك بعد اغتياله لقطز « وفعل الظاهر بيبرس مافعله معتمدا على نفسه ، وبلغ غرضه بمفرده ، وذلك بين العساكر العظيمة والاحتراز الشديد ، وماقدر احد ان يتكلم ، ولاجسر ان يمد يده اليه » .

وتسلم بيبرس السلطة في القاهرة ، وواجه في البداية عددا من الثورات واعمال المعارضة في القاهرة ودمشق . واستطاع بسرعة وحزم ان يقضي عليها جميعا ، فالتفت الى الجوانب التنظيمية والادارية ، ولعل اهم ماقام به في هذا المجال هو بعث الخلافة العباسية واعادة تأسيسها في القاهرة (٣١) .

كان الحكم المملوكي الجديد بحاجة الى الشرعية ومثل هذه الشرعية كان بإمكان الخلفاء وحدهم منحها . ونحن وان كنا لانجد المكان مناسبا للحديث عن تطور السلطة لدى العباسيين ، الا انه من المفيد ان نبين ان الظاهر بيبرس قد تمسك بمفهوم السلطة الموروث عن السلطنة السلجوقية ، فقد كان مثل السلاجقة ، من اصل تركي .

وكان السلاجقة بعدما استولوا على بغداد واقاموا دولتهم العظمى قد احدثوا تغييراً في مفهوم السلطة ، فهم لم يتحكموا بالخلفاء العباسيين كما فعل رجالات بني بويه قبلهم بل اعتمدوا مبدأ ازدواجية السلطة ، وهو مبدأ تركي متوارث ،وتبعا لهذا المفهوم كان يتولى رئاسة الدولة رجل عرف باسم الخاقان لايملك اية صلاحيات بل كانت رئاسته اسمية ، والى جانبه يتولى مباشرة السلطة ال « بك » وغالبا ماكانت وظيفته عسكرية . ويلاحظ بالنسبة لتاريخ سلاطين السلاجقة والمماليك ان السمة العسكرية قد غلبت عليهم .

كما يلاحظ أنه في زمن السلاجقة جرى توسيع قواعد نظام الاقطاع العسكري . ونتيجة لسياستهم الدينية عظم شأن علماء الدين السنة ودورهم الى حد يمكننا فيه الحديث عن قيام اقطاع ديني تحالف وتعاون مع الاقطاع العسكري . وكان لرجال الدين دور خطير جداً في ايام الحكم المملوكي وغالبا ماقاموا بالوساطة بين المماليك وطوائف المجتمع على اختلافها (٣٢) .

توجه السلطان الظاهر بيبرس نحو دمشق في العا م التالي لتوليه السلطنة ٦٥٩ هـ ـ ١٢٦١ م ، ويبدو انه سلك الطريق الساحلي مستطلعا اوضاع المنطقة الساحلية وضاغطا على الصليبيين هناك ،وفي طريقه جاءه كونت يافا فأكرمه السلطان وكتب له مذشورا ببلاده ، ورده سالما الى مدينته . وفي دمشق « حضر رسول من جهة عكا يسأله امانا للرسل المتوجهين من البيوت (الداوية والاسبتارية) كلها فكتب الى والي بانياس بتمكينهم ، فحضر اكابر الفرنج والتمسوا الصلح ، فوقف السلطان عليهم ، وطلب منهم امورا كثيرة ، فلما امتنعوا زجرهم السلطان واهانهم » . ثم تقررت الهدنة مع تبادل الاسرى ورفع المقاطعة الاقتصادية(٣٣).

ويلاحظ في هذا المقام ان مؤسسات الفرنجة السياسية والعسكرية في الشام تصرفت في بداية العصر المملوكي وكأنها جزء من المنظومة السياسية الشامية المحلية ، وان بيبرس شعر ان

المخاطر العظيمة على سيطرته على بلاد الشام ليست صادرة عن الفرنجة بل عن امارة الكرك ، التي ماتزال تحت الحكم الايوبي ، ومازال حاكمها يطمع بسلطنة القاهرة . ولهذا اتخذ الظاهر بيبرس قراره بالاستيلاء على الكرك ، وكان يحتاج حتى يتمكن من انجاز هذا العمل حماية ظهره من مخاطر المغول ، ولهذا جهز حملة عسكرية بعثها نحو العراق تحت لواء احد الناجين العباسيين وبايعه بيبرس بالخلافة وقد حمل لقب المستنصر بالله وقيل ان اسمه « ابو القاسم احمد بن الامام الظاهر »(٣٤) .

وماان فرغ بيبرس من هذه الاعمال حتى بادر بالعمل ضد امارة الكرك فاستولى اولا في هذه السنة نفسها ٦٥٩ هـ ـ ١٢٦١ م على قلعة الشوبك ثم شرع يتدبر امور الكرك وكانت من امنع القلاع في بلاد الشام ، فتمكن ببراعة مطلقة من الاستيلاء عليها في سنة ٦٦١ هـ ـ ١٢٦٣ م (٣٥) وبذلك ازال الوجود الأيوبي من جنوبي بلاد الشام ، وبات من الممكن التفرغ للعمل ضد الصليبيين.

وأدام السلطان اثناء عمله ضد الكرك الاتصالات الدبلوماسية مع الصليبيين :

« ولم تزل رسلهم في هذا ومثله إلى فرغ السلطان من شغله الذي كان في نفسه ، وهو حديث الكرك ».

وما إن انتهى منه حتى زحف على راس جيوشه الى قلب الأراضي والممتلكات الصليبية ، واستقبل اثناء ذلك رسل مؤسسات الفرنجة الذين عرضوا عليه التمسك باتفاقات الهدنة فرفض ، وبعدما بين لهم الأحوال التي لم يتمسكوا بها بشروط الهدنة اوضح لهم عن مقاصده وشروطه بقوله :

« أنتم في أيام الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف على انكم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح (أيوب)... وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الصالح اسماعيل لاعانة مملكة الشام وغيرها لي ، وما أنا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتكم ، فتردون

ما اخذنتم للاسلام بهذا الطريق ، وتفكون أسرى المسلمين جميعهم ، وغير ذلك الأقبله» (٣٦) ، ثم أمر بطرد الرسل ورسم بهدم كنيسة الناصرة ،« وهي أكبر مواطن العبادة التي لهم ، ويقولون منها خر ٠ دين النصرانية..(ووجه مـن) هدمها الى الأرض ، فلم يجسر أحد من سائر الفرنجة أن يخرج من باب عكا»(٣٧) .

وسبب ذلك انه أرسل قطعة كبيرة من جنده للاغارة على عكا ، ثم اتبع بيبرس ذلك بقيامه في يوم ٤ جمادى الآخرة ٦٦١ هـ / ١٥ نيسان ١٢٦٣ م بالزحف ضد عكا ، « ولم يزل سائقا الى أن طاف بها من جهة البحر ، وسير جماعة الى برج كان قريبا منها فيه جماعة فحاصره ، وللوقت أحدثت فيه النقوب ، وكان توجه السلطان اليها في هذه الجماعة إنما هو لكشفها » ، وكان الفرنج « قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معاثر في الطريق ، وبسرعة متناهية تمكن جند بيبرس من ردم الخنادق وطلع الناس الى تل الفضول ، وانهزمت الفرنج الى المدينة ، وحرق الناس ما حول عكا من الأبراج والأسوار وقطعوا الأشجار وحرقوا الثمار » ، وحاول بيبرس اقتحام المدينة فأخفق ، وبعد قيام جيشه بعده هجمات أمره بالانسحاب ، حيث توجه نحو الكرك ومن هنالك عاد الى القاهرة (٣٨) .

ويبدو أن أهداف بيبرس في حملته هذه كانت أكبر من ايقاع الضرر بالفرنجة أو استعراض قواه أمامهم وفرض هيبته عليهم ، ولا حتى مجرد الاستطلاع والتعرف على طبيعة المنطقة . لقد أراد بيبرس احتلال عكا ، مقدرا إمكانية ذلك ، بسبب أوضاع عكا الداخلية ، فقد كان الفرنجة قد وصلوا في هذه الفترة الى درجة كبيرة من الضعف ونجم ذلك عن القتال بين البنادقة والجنويين فيها (٣٩) .

ووصلت الأخبار في عام ٦٦٢ هـ ــ ١٢٦٤ م عن تحرك مغولي ضد بلاد الشام لذلك أصدر السلطان بيبرس تعليماته باستنفار

القوات في الشام ، وشحن القلاع ورممها . وتحرك السلطان على رأس قواته من مصر فقصد غزة ومن هناك تحرك نحو منطقة يافا ، وبينما هو على الطريق وصلته الاخبار بهجوم المغول على المناطق الشمالية من الشام ، وصد ذلك الهجوم ، ولذلك بادر الى تغيير خطط زحفه واستغلال الموقف في البقاع التي كان فيها .

وبناء عليه « ثنى أعنته الى جهة الفرنج ليدينهم كما دانوا ويكون لهم كما كانوا ، وما أعلم أحد مغزاه ، ولا فهم أين مرامه ومرماه» ، وتظاهر بالانشغال بأعمال الصيد في غابة أرسوف ، فقام باستطلاع أرسوف وقيسارية ، وأمر باحضار الأخشاب واعداد المجانيق وأسلحة الحصار ، واحضر الصناع والحجارين (سلاح المهندسين) ، وهاجم قيسارية ، و« نزل عليها يوم الخميس في التاسع من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وستمائة (٢٨ شباط ١٢٦٥ م) ولوقته طاف بها . وهاجمها الناس . والقوا نفوسهم في خنادقها وعمدوا الى السكك الحديد التي للخيل والشبح والمقاود فتعلقوا فيها وطلعوا من كل جانب ، ونصبت عليها السناجق وحرقت ابوابها وهتك حجابها ، فهرب اهلها الى قلعتها .»

وشرعت القوات المملوكية بحصار قلعة قيسارية ، وكانت « من احصن القلاع واحسنها ، وتعرف بالخضراء ، وكان الريدافرانس (لويس التاسع) حمل اليها العمد الصوان وأتقنها ، وما رؤي في الساحل أحسن منها عمارة ولا أمنع ولا أرفع لأن البحر المالح حاف بها ، وجائز في خنادقها ، والنقوب لا تعمل فيها للعمد الصوان الصلبة في بنائها » وشدد بيبرس الحصار عليها وضيق الخناق على المدافعين عنها ، وبعد مضي اسبوع هرب الفرنج بحرا الى يافا ، « واسلموا القلعة بما فيها ، وتسلق المسلمون اليها من الأسوار ، وحرقوا الأبواب ، ودخلوها من أعلاها وأسفلها » وأمر بيبرس على الفور بهدم قيسارية مع قلعتها » ووقف يهدم

بنفسه ، وراه الناس فتشبهوا بـه ، وعملوا بنفوسهم ، وصار يباشر ذلك بنفسه ويده »(٤٠) .

لقد برهن بيبرس في جميع معاركه على انه صاحب عبقرية عسكرية متميزة ، فعندما قرر مهاجمة قيسارية أرسل بعض وحدات جيشه نحو عكا للاغارة عليها ، والحيلولة بين اهلها وبين إنجاد قيسارية ، وجاء تحرير قيسارية بمثابة ضربة قاسية ضد الفرنجة ، حيث خسروا أهم نقاط الدفاع المتقدمة لديهم .

إن الهجوم على قيسارية يدل على وجود خطة محكمة للتحرير قد وضعها بيبرس . فقيسارية كانت أهم مواقع الصليبيين وأحصنها على الساحل فيما بين عكا وغزة ، وبعدما نجحت خطة الاستيلاء على قيسارية عمد بيبرس الى اجراء عسكري له شقان : الشق الأول تصفية الممتلكات الصليبية فيما بين قيسارية وغزة ، والشق الثاني التقدم في الوقت نفسه خطوة أخرى باتجاه عكا . فبينما كانت عمليات الهدم مستمرة في قيسارية أرسل بيبرس في ٢٦ جمادى الأولى ٦٦٣ هـ / ١٧ أذار ١٢٦٥ م مجموعة كبيرة من عساكره نحو حيفا « فساروا اليها ودخلوا قلعتها ، فنجا الفرنج بأنفسهم الى المراكب بعد ان قتل منهم وأسر... واخربوا المدينة وقلعتها واحرقوا أبوابها ، وجعلوها خاوية على عروشها ، كأن لم تغن بالامس ، وكان أخذها وما اعتمد فيها من قتل واسر وإخراب وإحراق في يوم واحد ».

وفي الوقت الذي تعرضت فيه حيفا للغارة المدمرة المحررة سار السلطان الظاهر بيبرس بنفسه على راس قطعة كبيرة اخرى من جيشه الى عتليت . وبعدما استطلعها امر عساكره بالاغارة عليها « وامر بتشعيثها وقطع أشجارها ، فقطعت جميعها وخربت ابنيتها » ثم عاد نحو قيسارية لمتابعة أعمال الهدم وإعداد خطة هجوم جديد .

وكان الهدف الآن هو بلدة أرسوف ، وبعدما اعد بيبرس الأسلحة الجماعية ومعدات الحصار ، القى الحصار على ارسوف وشدده وكانت أسوارها متينة وعالية ، وقامت قوات بيبرس بالتقدم نحو الأسوار في ظل ستائر من الاخشاب على شكل ابراج متحركة ، وحاولت هذه القوات حفر نفقين تحت الأسوار بغية شحنها بالأخشاب وإحراقها تحت طرف من أطراف الأسوار بغية هدمه ، وقام الفرنجة بخطط معاكسة وذلك بحفر انفاق مضادة ونشر الدخان فيها بشكل مفاجيء.

وبعد حصار دام أربعين يوما لم يتوقف القصف والرمي فيها أمكن فتح ثغرات واسعة في الأسوار ، وهكذا تمكن الجند من اقتحام المدينة والدخول الى حصنها . وهنا توقف المدافعون عن القتال والقوا أسلحتهم واستسلموا ، وحررت أرسوف وعادت الى اهلها يوم الخميس ١١ رجب ٦٦٣ هـ / ٢٦ نيسان ١٢٦٥ م . وأمر بيبرس بهدم أرسوف ثم وجه انذارا الى كونت يافا جاء فيه :

« إنا لا نحتمل الهضيمة ، وإذا أخذ أحد لنا مزرعة أخذنا عوضها قلعة مرتفعة ، وإذا هدموا جدارا هدمنا اسوارا ، والسيف في يد الضارب ، والجواد عنانه في قبضة الراكب ، ولنا يد تقطع الأعناق ، ويد تصل الأرزاق ، ومن تحرش فعن تجربة ، ومن أراد شيئا من الأشياء فهذه الأمور له مرتبة ».

لا شك أن إنجازات أعمال التحرير لهذا العام كانت جليلة ومحصلاتها عظيمة لا سيما في بناء قلعة قاقون . وقبل تعليل أسباب هدم الحصون المستولى عليها والباعث على بناء قاقون ، من الضروري الاشارة الى أن أعمال التحرير هذه لم يتوقف إنجازها على العسكريين المحترفين من جند بيبرس ، فلقد كان الحضور الشعبي كبيرا ، أثناء القتال وأعمال الحصار ، وشارك العرب الفلسطينيون مع إخوانهم من أهل الشام نساء ورجالا ، وكان لهم

دورهم المميز ، ويحدثنا ابن عبدالظاهر قاضي بيبرس ورئيس ديوان الانشاء لديه وكاتب سيرته وهو شاهد عيان بقوله :

« وحضر العباد والزهاد والفقهاء والفقراء الى هذه الغزاة المباركة التى ملأت الأرض بالعساكر وأصناف العالم ، ولم يتبعها خمر ولا شيء من الفواحش بل النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال ، ويجرون في المجانيق ، واطلق لجماعة من الصالحين الرواتب ، مثل الشيخ علي المجنون ، والشيخ إلياس ، ومن الأغنام والحوائج ، واطلق للشيخ علي البكاء جملة من المال ، وما سمع أن أحدا من خواصه اشتغل عن الجهاد في نوبته بشغله ، ولا سير أمير غلمانه في نوبته واستراح هو ، إلا الناس سواء في هذه الأمور ».

وكان الشيخ علي المجنون أول الناس لدى اقتحام الأسوار ، فهو أول من شاهد انهيار أسوار باشورة أرسوف ، والحضور الشعبي له دلالات كبيرة . فالمعركة كانت لها صبغة « قومية – وطنية » ، إذا جاز لنا استعمال التعابير الحديثة ، ولم تكن صراعا بين حكام أو عسكريين ، بعضهم من الفرنجة وبعضهم الآخر من الترك . لقد اعتبر بيبرس أعماله جهاداً في سبيل الله ، واعتبر الشاميون الفلسطينيون عملهم جهاداً في سبيل الله والأرض ، ولهذا كان التعب يعتري جند المماليك لكنهم لم يعرفوا للتعب معنى ولم يتوقفوا الا بعدما ألقى العدو السلاح واستسلم(٤١)

ولجأ بيبرس الى هدم المدن والحصون الساحلية التي استولى عليها حتى لا يعود الفرنجة اليها فيرمموها ويتحصنوا بها من جديد ، ذلك أنه كان لهم تفوق بحري على المماليك وكانت تحت تصرفهم اساطيل الدويلات الايطالية مع اساطيل دول أوروبا المتوسطية (مثل فرنسا وصقلية وإسبانيا).

لقد قدر بيبرس – كما يبدو – أن الاستيلاء على عكا ليس بالأمر

السهل ويحتاج الى مجهود كبير ووقت طويل ، وأن هنالك مسائل ومخاطر ملحة أخرى في المناطق المحتلة من قبل الصليبيين خارج فلسطين ، فقد كانت هنالك طرابلس ، وقلعة حصن الأكراد وانطاكية ، لذلك تابع العمل على تجريد عكا من ممتلكاتها وأخذ يعد العدة لتحرير صفد ، وأقدم أولا على اعادة تحصين قلعة قاقون.

كانت قاقون تعد من أعمال قيسارية ، وقد سكن قلعتها فرسان المعبد (الداوية) وقد ورد ذكرها في عمليات الحروب الصليبية . وهي وإن كانت قلعة داخلية لم تكن بعيدة عن الساحل ، لذلك توفرت فيها الشروط المطلوبة ، وأمر بيبرس بإعادة بناء قلعتها ، ورمم كنيستها وحولها الى جامع ، وأوقف عليها الأوقاف وشحنها بالمقاتلة وانتهت هذه الأعمال سنة ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٧ م ونمت قاقون خلال فترة وجيزة فصارت عامرة بالناس وغدت محطة للقوافل الذاهبة الى غزة والآيبة منها ومركزا من أهم مراكز البريد ، ذلك أن بيبرس اعتنى عناية فائقة بالبريد حتى كان الخبر يحتاج الى اربعة أيام للوصول من دمشق الى القاهرة (٤٢) .

وبعد انقضاء موسم أمطار عام ٦٦٤ هـ ـ ١٢٦٦ م جهز السلطان الظاهر بيبرس قواته وأخذ الطريق نحو غزة يريد بلاد الشام ، وفي غزة كلف بعض أمراء جيشه بقيادة وحداتهم والاغارة على ممتلكات الفرنجة في الساحل ما بين طرابلس وصور ، ومن غزة توجه بيبرس شخصيا نحو مدينة الخليل « فدخل الى مقام ابراهيم وزار وكشف المظالم » واتخذ عدة إجراءات لصيانة حرمة المكان ثم توجه نحو القدس فأتى « الحرم الشريف مستخفيا في نفرين أو ثلاثة ، وصلى الجمعة بالقدس ، ورحل الى عين جالوت نحو عكا وعسكر أمامها وأمر باجتماع قواته اليه ».

وعاد ثانية فضغط على عكا واغارت قواته على المناطق المحيطة بها ، بغية إضعافها اقتصاديا وعسكريا ، وراسله مقدم الاسبتارية

من عكا من أجل الهدنة وفق الشروط التي يفرضها ، وعندما تهيأت الأجواء توجه بيبرس نحو صفد فهي قد كانت هدفه « لأنها الغصة في حلق الشام ، والشجا في صدر الاسلام »(٤٣) .

وقبل البحث في أحداث تحرير صفد نحتاج الى وقفة قصيرة بغية التعرف الى موقع هذه البلدة مع شيء من تاريخها الاسلامي :

تقع صفد في الجليل الأعلى ، وترتفع حوالي ٨٤٠ م عن سطح البحر وتبعد نحو ٢٠٦ كم عن القدس ، وهي ذات موقع استراتيجي هام « كانت أولا تلا ، وكان على التل قرية عامرة تحت برج اليتيم...لم تذكر في شيء من الكتب الموضوعة في التاريخ في صدر الاسلام » وقد سقطت بيد الصليبيين في الحملة الأولى فعمروا قلعتها سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م وسكنها فيما بعد سنة ١١٦٧ م فرسان المعبد (الداوية) وحصنوها وظلت في أيدي الصليبيين حتى حررها« السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد حصار شديد» سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م وآلت منذ ذلك التاريخ الى السلطات الأيوبية في دمشق الى أن هدمها المسلمون سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م « وبقيت خرابا ، وبلادها في يد من يملك دمشق لا يهتم ببنائها ملك الى أن أعطاها الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل للفرنج فيما أعطاهم من البلاد في سنة ثمان وخمسين وستمائة(١٢٦٠).

ثم آلت ملكيتها الى فرسان الداوية ، فقاموا بتجديدها وتوسيع رقعة حصنها حتى بات يتسع لحوالي ٢٢٠٠ من الفرسان والمقاتلة وقد « شحنوها بالمؤن والعتاد وجلبوا اليها الماء من العيون المجاورة » ، وعظم شأن صفد في هذه الآونة وتحولت الى بلدة كبيرة لها نشاطات وإمكانات تؤهلها لأن تصبح نواة نيابة في المستقبل(٤٤)

وكان الداوية أفراد إحدى أهم منظمات الصليبيين وإخوانياتهم

العسكرية،وكانوا يديرون في هذه الأونة أعمالا اقتصادية ونشاطات مالية واسعة . وعلى قاعدة من ملك المال ملك السلطة ، مارس الداوية نفوذا كبيرا على حكام الفرنجة في الشام ، كما أن تاريخهم مع الاسبتارية في المشرق ملطخ اكثر من سواهم بجميع انواع الوصمات من كذب وغدر ومذابح بلا رحمة . ولهذا عمد حكام المسلمين الى اعتبارهم « مجرمي حرب » لا يجوز الابقاء على اي منهم عندما يؤخذ أسيرا ، وهذا ماطبقه صلاح الدين إثر انتصاره في معركة حطين .

وقرر السلطان الظاهر بيبرس الاستيلاء على صفد فأعد لذلك ما لزم من معدات وبعدما وجه أقسى الضربات لكل من عكا والمناطق القائمة بين طرابلس وصور ، تحرك نحو صفد ، واستنفر قوات الشام ، ويبدو أن حجم الاستعدادات كان واسعا ، وكانت الخطة الموضوعة لمهاجمة صفد محكمة.

الموقع كان في غاية الحصانة والمدافعون عنه كانوا من أشرس المقاتلين الصليبيين واكثرهم تمرسا واشدهم صبرا ، وعمل بيبرس على عزل صفد ومنع وصول النجدات اليها ، حيث بعث قطعة من قواته لمشاغلة حصن الشقيف ورصد الطرق والممرات فقد حرص بيبرس على سلامة وصول المعدات والمجانيق والأخشاب من دمشق حرصه على منع النجدات عن صفد .

ويحدثنا ابن عبد الظاهر ان الجمال التي حملت المجانيق أصابها الوهن اثناء توجهها نحو صفد «فجهز(بيبرس) الأمراء والجند وسائر الناس لحملها على الرقاب من جسر يعقوب ، وهو مرحلة من صفد ، وخرج السلطان بنفسه وخواصه ، وجر اخشاب المجانيق مع البقر». وبدا حصار صفد يوم ٨ رمضان ٦٦٤ هـ ـ ١٣ حزيران ١٢٦٦ م وأشرف بيبرس بنفسه على تجهيز المجانيق ووجه رماياتها . وشدد المسلمون

الحصار على صفد ، وعملوا في سبيل فتح ثغرة في الأسوار . وانقضى شهر رمضان والقتال مستمر ، وأصاب الهلع الفرنجة وسعوا إلى الاستسلام ، لكن بيبرس تشدد في شروطه وأصر على قتل فرسان الداوية .

كان بيبرس اثناء الحصار في ذروة اليقظة والنشاط وقد ضرب مثلا اعلى لجنده . كان يتفقد عساكره ويبذل لهم الأرزاق ، ويبني الخيام ، ويحضر الأطباء والجراحين ويطلق الأطعمة والأشربة للجند لاثارة حماستهم ولرفع معنوياتهم . وبعد انقضاء شهر رمضان بدأ السلطان بيبرس زحفا ضد صفد في اليوم الثاني لعيد الفطر(٢ شوال / ٦ تموز) ولم يثمر هذا الهجوم وأخفق في اختراق دفاعات صفد وبعد مضي أسبوع جدد بيبرس المحاولة ، ومن جديد أخفق . ثم حاول ثالثة يوم ١٤ - ١٧ ، وألح بيبرس وشدد الهجوم في اليوم التالي ، وسقطت باشورة القلعة واقتحمت عساكر

بيبرس القلعة ، وهنا أدرك الفرنجة أنه لا فائدة من متابعة المقاومة وعرضوا الاستسلام ، وأصدر بيبرس اوامره « بأن لا يرموا أحدا من الفرنج والنصارى والمستعربة غير الداوية ، فأمسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال » . وتابع الداوية المقاومة عدة أيام ثم طلبوا الأمان مجددا فمنحهم ما طلبوا بعد أن « اشترط عليهم أن لا يستصحبوا سلاحا ولا لأمة حرب ولا شيئا من الفضيات ولا يؤذوا شيئا من ذخائر القلعة بنار ولا هدم».

وتوقف القتال وخرج المدافعون عن صفد ودخلت عساكر بيبرس إليها »، وبعدما تفقدوها وجدوها بدون أموال وذخائر وأسلحة فردية . وأمر بيبرس بتفتيش الفرنجة فوجد انهم « اخرجوا معهم الأسلحة والفضيات وأخفوها في قماشهم . وتحدثوا على جماعة من أسرى المسلمين اخذوهم على أنهم نصارى ، كذلك صغار المسلمين

المأسورين عندهم »(٤٥). واعتبر السلطان ما اقترفه الفرنجة نقضا لشروط الاستسلام يسوغ له الأمر بإعدامهم .

وكان بيبرس ينتظر مثل هذا المسوغ ، فأصدر اوامره بقتل الفرنجة جميعا فيما عدا اثنين منهم ، أولهما أعلن عن اسلامه ، وثانيهما أطلق سراحه ليخبر بني جلدته بما وقع في صفد.

ويبدو ان الذين اعدموا كانوا من الداوية فقط ، ذلك انه بعدما سقطت باشورة القلعة افسح المسلمون السبل أمام الفرنجة العاديين وسواهم للهرب ، إن لم نقل شجعوهم على ذلك . اضف إلى هذا أن الاسلام عرض على الذين نقضوا الاتفاق ، وواحد فقط هو الذي تحول إلى الاسلام ، ورفض البقية ، مما يدلل على انهم كانوا من الداوية الذين شهروا بشدة التعصب.

وكما حدث في المعارك السالفة كان الحضور الشعبي كبيرا أيضا اثناء حصار صفد ، وقد قتل عدد من المتطوعة ، وهذا يؤكد من جديد أن عمليات التحرير اسهمت الأمة فيها لا عن طريق تحمل نفقات جند المماليك وإعداد الأسلحة وتأمين المؤن ورجالات الادارة فحسب ، بل عن طريق المقاتلين ايضا . وعلى هذا تحمل شعب فلسطين واهل الشام القسط الاكبر من اعباء تحرير الأرض ، وذلك بعدما كانوا قد تمسكوا بالأرض وتحملوا مشاق الاحتلال.

وعين بيبرس واليا لصفد « وأمر بعمارتها والزيادة فيها ، وحمل إليها الذخائر والسلاح» وولى قلعتها واحدا من قادة جيشه وشحنها بعدد من الجند ثم ارتحل مسرعا نحو دمشق (٤٦) لتجريد القوات ضد مملكة أرمينيا الصغرى.

وكان لتحرير صفد أصداء واسعة ،حيث سارع ممثلوا بقية الفرنجة نحو بيبرس يعلنون خضوعهم له ، كما سقطت قلعتا هونين وتبنين ، وقرر بيبرس إعادة ترميم قلعة صفد بعد ما لحقها من تهديم كبير

وذهب بيبرس إلى القاهرة حيث مكث هنالك وقتا قصيرا ثم توجه مجددا سنة ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٧ م نحو بلاد الشام .

وعند وصوله الى غزة وصل اليه رسل الفرنج يحملون الهدايا مع بعض أسرى المسلمين ويطلبون تأكيد اتفاقيات الهدنة . وتوجه بيبرس نحو صفد وهو على نية إعادة بنائها ، لكنه ما أن وصلها حتى أتته الأخبار بتوجه حملة مغولية نحو الشام ، فترك صفد وذهب إلى دمشق ، وفي دمشق عرف بعودة المغول فعاد هو أدراجه نحو صفد ، وعلى الفور أمر باعادة حفر خندق القلعة فقسمه « على الأمراء ، واخذ نصيبا وافرا لنفسه ومماليكه وحاشيته ، وشرع الناس في العمل ، وعمل السلطان بنفسه وبيده ، وكذلك جميع بيوتاته من بابية وغيرهم ، ولم يتوفر احد من العمل ، ولازموا نقل الحجارة ورمي التراب ، وتسابق الناس في النجاز».

لقد تميز بيبرس بقدرات على المناورة السياسية ساوت قدراته العسكرية ونشاطه في الميادين ، فقد وصل إليه وهو على صفد رسل الفرنج « وشاهدوا من أمرها واهتمام السلطان بها ما قطع أكبادهم حسرات ، وتحدثوا مع السلطان في أمر بلادهم ». وبعدما وجه

بيبرس النقد إلى سفراء الفرنجة طالبهم بشروط ومطالب قاسية ، وابدى عدم اهتمامه لهم ، وارسل اثناء المفاوضات ، وحدات من جيشه أغارت عدة مرات على عكا ، وتوجه هو نفسه نحو عكا ، وخيم بتل الفضول على مقربة منها ، وبات ليلته هناك ثم أعمل الغارة ضدها في اليوم التالي فقتل واسر ودمر . ثم عاد نحو صفد ، واستدعى إليه رسل الفرنج فعرض عليهم ما حمله اثناء غارته للضغط عليهم ويبدو أن ذلك لم يؤثر عليهم لذلك أمر بردهم بدون جواب(٤٧).

وقام بيبرس إثر هذا بالاغارة على عكا ، فحاصرها عدة أيام ، لكنه عندما شعر بتعذر الاستيلاء عليها انسحب نحو صفد فأشرف على إكمال ترميمها « فعمر الباشورة وبنى فيها ابرجة واسواقا وخانات ، وحمامات ، فصارت بما أحدثه فيها من أحصن القلاع وامنعها، وأطيب البقاع واخصبها ».

وكتب بيبرس على قلعة صفد بعدما جددها:

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)(الأنبياء: ١٠٥) .(أولئك حزب الله الا إن حزب الله هم المفلحون)(المجادلة: ٢٢) . أمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها ، من خلصها من أسر الفرنج الملاعين وردها إلى يد المسلمين ، ونقلها من حوزة الديوية إلى حوزة المؤمنين ، وأعادها الى الايمان كما بدأ بها أول مرة ، وجعلها للكفار خسارة وحسرة ، واجتهد وجاهد حتى بدل الكفر بالايمان والناقوس بالآذان والانجيل بالقرآن ، ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه بنفسه وبخواصه على الرؤوس . السلطان الملك الظاهر ابو الفتح بيبرس ، فمن صارت إليه هذه القلعة من ملوك الاسلام ، ومن سكنها من المجاهدين ، فليجعل له نصيبا من اجره ، ولا يخله من الترحم في سره وجهره ، فقد صار يقال عمر الله

صرحها ، بعدما كان يقال عجل الله فتحها ، والعاقبة للمتقين إلى يوم الدين ».

وعندما كان السلطان الظاهر بيبرس مقيما في صفد يعمل على إعادة بنائها وصله رسول من عند صاحب يافا يطلب تجديد الهدنة فرفض ، وفي جمادى الآخرة لعام ٦٦٦ هـ ـ شباط / ١٢٦٨ م وصلت بيبرس الأخبار بعزم المغول الاغارة على حلب ، فاستنفز قواته وقادها نحو غزة ،وفي الوقت نفسه أمر باستنفار قوات دمشق وسواها وانتظار أوامر جديدة ، وتحرك جيش السلطان نحو دمشق ، وعندما وصل إلى العوجا رفعت تقارير إلى السلطان بأن اهل يافا» يحملون الميرة إلى عكا ، وكانت الميرة ممنوعة عن أهل عكا ، واقاموا في يافا حانة ، واوقفوا فيها عدة من المسلمات ، واعتمدوا اسبابا ليست في هدنة» ، وقرر بيبرس مهاجمة يافا وتحريرها ، وقبل أن يحرك قواته بعث إليها وفدا يطلب تسليمها إليه ، ثم ما لبث أن قاد قواته وهاجمها على حين غرة ، فتمكن منها ثم زحف ضد قلعتها «فسلمها أهلها » في يوم ٢٠ جمادى الآخرة /٧آذار ١٢٦٨ م ، وقام بيبرس باجلاء سكانها ثم أمر بهدمها ، واكتفى بإقامة بعض المحارس ونقاط الانذار على الساحل• (٤٨)

كان تحرير يافا أخر إنجازات بيبرس وفتوحاته الكبرى في فلسطين ، لكنه لم يكن بطبيعة الحال أخر اعماله ضد الصليبيين في بلاد الشام ، ولا حتى أخر نشاطاته في فلسطين نفسها ، وقام بيبرس بعد تحريره ليافا بانتزاع حصن الشقيف من فرسان الداوية ، كما حرر اجزاء هامة من سواحل الشام ، وأمكنه تحرير مدينة انطاكية ، وبذلك ازال من الوجود ثاني دول الصليبيين تأسيسا في الشرق كما حرر قلعة حصن الأكراد في منطقة حمص.

وجاء تحرير انطاكية سنة ٦٦٦ هـ ـ ١٢٦٨ م ، فبعدما هاجم بيبرس طرابلس ثم قلعة الحصن سار إلى حماه وهناك قسم قواته إلى ثلاثة اقسام ارسل الأول منها نحو مملكة كليكيا الأرمنية ،

وأرسل القسم الثاني نحو شاطىء البحر المتوسط قرب السويدية ، وقاد بنفسه القسم الثالث نحو أنطاكية ، حيث شدد عليها الحصار بعدما عزلها من جميع الجهات ، وعجز الفرنجة عن الدفاع عن انطاكية ، وبعد حرب ضروس تمكنت قوات بيبرس من تسلق أسوار المدينة وفتحها ، وإثر هذا استسلمت قلعة أنطاكية ، وتبع تحرير انطاكية تحرير ما حولها ، وطلب هيثوم ملك أرمينيا الصغرى المهادنة على أساس دفع الجزية ، وبتحرير انطاكية يكون الشام الشمالي قد تحرر تماما ، وبات على المسلمين تصفية الجيوب الداخلية وتحرير طرابلس و عكا ، وبالفعل تمكن بيبرس بعد وقت قصير من تحرير قلعة الحصن وأخذ يعد العدة لتحرير عكا وطرابلس (٤٩) .

وأولى بيبرس عكا كل اهتمامه فلم يتوقف عن الاغارة عليها ، مع تعريضها للضغط السياسي والاقتصادي . ولعل ما استجد من تحركات مغولية ضد بلاد الشام قد حال دون تركيز طاقات الدولة العسكرية ضد عكا ، أضف إلى ذلك أن المساعدات تدفقت على عكا من قبرص ومن أوروبا التي عاد اليها القديس لويس ونشط فيها في سبيل حملة صليبية جديدة.

وزاد الصليبيون من تحصين عكا لأن سقوطها كان يعني نهاية وجودهم في المشرق وتقدمت الاشارة الى قيام الاتصالات بين المغول وحكام اوروبا وتبادل الرسل والتباحث في سبيل عمل مشترك ضد بلاد الشام(٥٠) .

وكان السلطان بيبرس قد توجه عام ٦٦٧ هـ/ ١٢٦٨ م سرا نحو مكة فقضى فريضة الحج ، ثم عاد الى بلاد الشام فتفقدها جميعا ثم توجه إلى مصر ، وما كاد يستقر في القاهرة حتى جاءته الأخبار مع حلول عام ٦٦٨ هـ / خريف ١٢٦٩ م بتحرك المغول «وأنهم تواعدوا مع الفرنج الساحلية » الذين شعروا بالقوة إثر وصول بعض النجدات الأوروبية إليهم . واستشار بيبرس أركان دولته

فأشاروا عليه بتجريد الجيوش نحو الشام والبقاء شخصيا في القاهرة ، لكنه رفض هذا الراي مقدرا أن وجوده ضروري لأن « اسمه يرد الأعداء المتوثبة من كل جانب ، ويصيبهم بسهام المصائب ».

وسير بيبرس قواته نحو بلاد الشام ، وتحرك هو على رأس قطعة صغيرة من فرسانه ، وكان فرنجة عكا قد وصلتهم نجدات أوربية اشعرتهم بالقوة ، فراسلوا مجددا ابغا بن هولاكو وخرج فرنج الغرب وأهل عكا ، وخيموا بظاهر عكا ، وصاروا يركبون وتعجبهم نفوسهم ، وبلغتهم قلة من وصل مع السلطان الى الشام فتوهموا أنه لايقصدهم ، وبلغ بيبرس هذا التحرك فراسل قواته في دمشق وصفد وأمر قوات صفد بالاغارة على عكا واستدراج قواتها الى كمين أعده وقاده شخصيا ، ونفذت الخطة بإحكام وانزل بيبرس ضربة شديدة بالصليبيين ، ومن ثم توجه نحو صفد ومنها الى دمشق(٥١) .

وكان القديس لويس قد اقلع في سنة ٦٦٩ هـ ـ ١٢٧١ م بحملة صليبية جديدة قادها ضد تونس ، وأخفقت هذه الحملة ولاقى الملك الفرنسي مصرعه ، والذي يهمنا ذكره هنا أن بعض الفرنجة وصلوا بسبب هذه الحملة الى عكا ، وهو ما جعل قواتها تغير مواقفها وتجدد نشاطاتها العدوانية ضد المسلمين ولاسيما ضد صفد ، وكان الظاهر بيبرس مشغولا في المناطق الوسطى والشمالية من الشام ، وعندما فرغ من أعماله هناك توجه نحو فلسطين وقصد هذه المرة قلعة القرين التي كانت تقع في تلال الجليل الغربية الى الشمال الشرقي من عكا وعلى مسافة ثلاثين كم منها ،« وكان حصن القرين هذا لاسبتار الألمان ولم يكن لهم بالساحل غيره ، وكان من أمنع الحصون واضرها بصفد ، وكان السلطان نوبة فتوح صفد اغار عليه ، بل غار عليه أن يكون مثله للكفر ... فسار الى صفد ، وجهز منها المنجنيقات وساقها الى القرين ونازله » وشدد عليه الحصار وبعد قتال دام

عشرة أيام عرض المدافعون الاستسلام فتم الاتفاق معهم ، وتسلم بيبرس الحصن وأمر بتدميره(٥٢).

وبعد سقوط القرين عقد بيبرس مفاوضات مع جون مونتفرات صاحب صور انتهت الى عقد هدنة فرض بيبرس شروطها واضطر الى قبولها للتفرغ لعكا وللفرنجة الذين وصلوا اليها في أواخر عام ٦٦٩ هـ ـ ١٢٧١ م ، فقد أغار هؤلاء على بعض أراضي صفد ونهبوها(٥٣) ذلك أن بيبرس كان قد قصد القاهرة بعد تحريره للقرين .

وازداد في عام ٦٧٠ هـ ـ ١٢٧٢ م نشاط فرنجة عكا ضد ممتلكات صفد كما عظم نشاط المغول في المناطق الشمالية من بلاد الشام وتم ذلك بتنسيق بين الطرفين . وتحرك بيبرس باتجاه حلب ، واستطاعت قوات قاقون رد الفرنجة ودفعتهم عنها ، وبعدما عاد بيبرس الى دمشق ، خرج منها :

« واستصحب العساكر المصرية والشامية بغية الغارة على عكا ، فتوالت أمطار كثيرة ... وكاد الناس يهلكون لعدم مايستظلون به ، فانثنى عزمه عن الاغارة ، ورد العسكر الشامي ، وسار الى الديار المصرية »(٥٤) .

وفي القاهرة استقبل بيبرس رسل فرنجة عكا وتفاوض معهم وتم التوصل الى عقد هدنة مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر تبدأ من ٢١ رمضان ٦٧٠ هـ ـ ٢٢ أذار ١٢٧٢ م ، وحلف كل طرف متعهدا بالالتزام والوفاء(٥٥) .

ويبدو أن بيبرس قبل بعقد هذه الهدنة لادراكه أن عكا لايمكن الاستيلاء عليها والدولة مهددة من المغول والمواصلات مفتوحة بدون توقف بين عكا وقبرص وأوروبا . وهو لايملك قوة بحرية يمكنها مساعدة القوات البرية في حصار عكا . ويبدو أن فرنجة عكا رضوا بعقد الهدنة لشراء سلامتهم سيما وقد برهن تحالفهم مع المغول على عدم جدواه .

بهذا الاتفاق ختم الظاهر بيبرس نشاطه العسكري ضد الفـرنجة في فلسطين . ولاشك ان ماانجزه كان عظيما ، وليس مـن المغـالاة القول إن بيبرس استأنف مسيرة صلاح الدين ، وإن أعمـاله كانت متممة لما شرع به صلاح الدين بعد حـطين وتـوقف بسـبب الحملة الصليبية الثالثة ووفاته المبكرة ، ويأتي الظاهر بيبرس بما حققه من نجاحات عظمى في المرتبة نفسـها التـي احتلهـا : عمـاد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، ذلك أن زنكي قاد أعمال التحرير الأولى في مرحلة الموصل ، ونور الدين محمود قاد أعمال التحرير والوحدة في مرحلة حلب ، وصلاح الدين قاد مـرحلة دمشق وحقق النصر في حطين ، وبيبرس الآن قاد مـرحلة القـاهرة وأعمال تصفية الوجود الصليبي في فلسطين والشام.

وتوفي بيبـرس سـنة ٦٧٦ هـ ـ ١٢٧٧ م وهـو في ذروة نشاطه ، ولعله سقي السم . وقد دفن في دمشق ليس بعيدا عن قبـر صلاح الدين ، ذلك أن أبطال المراحل الأربع قد دفنوا في أرض الشام وحظي بيبرس بمكانة لدى أهل الشام ومصر لم يحظ بها سواه مـن سلاطين المماليك ، الى حد أن أخباره تحـولت الى مـلاحم شـعبية امتزجت فيها حقائق التاريخ بـالخيال القصصي الملحمـي ، فهنالك أكثر من ملحمة متداولة تحت اسم السيرة الظاهرية أو سـيرة الملك الظاهر ، وتصور هذه الملاحم مشاعر شعب تعلق دوما بـالأرض في عصر شهد أعظم الاعمال في سبيل التحرير ولاعجب في ذلك ، صـحيح ان بيبرس قاد رسميا قوات المماليك المحترفة لكن حجم المتـطوعة في حملاته لم يكن أقل عددا ولادورا من المماليك مع الأخذ بعين الاعتبار ان الشعب العربي في الشام ومصر هو الذي تحمـل أوزار الحـرب ونفقاتها وصنع السـلاح والعتـاد وبنى القـلاع وقـدم الاداريين وسواهم .

وكان بيبرس قد خطط قبل وفاته الى انتقال الملك مـن بعـده الى ابنه الملك السعيد بركة ، وهذا ماحدث ، فما ان وصلت الأخبار الى القاهرة حتى جرت بيعة بركة بالسلطنة ، وكان شابا في مقتبل العمر

تنقصه الخبرة والتجربة ، لهذا واجه المشاكل وعاش وسط الصراعات ، ووجد نفسه بعد بضعة اشهر من تسلمه السلطنة مضطرا الى التنازل عنها لصالح اخيه سلامش وكان طفلا ابن سبع سنوات فقط .

ورست مقاليد السلطنة الآن فعليا بيدي الأمير قلاوون الألفي ، واستغل قلاوون فرصته أحسن استغلال ، فزج بمعارضيه في السجن وتخلص من مناوئية ، ثم عزل السلطان الطفل وتسلم السلطنة بلقب المنصور .

وهكذا زالت أسرة الظاهر بيبرس ، وحل محلها أسرة قلاوون التي حكمت دولة المماليك لمدة تقارب القرن من الزمن . ووجد قلاوون بعض المصاعب وواجه أعمال المعارضة فتغلب عليها ، ولكن بعدما استغرقت معظم أوقاته ، وكان لذلك الوضع أثاره على العلاقات مع الصليبيين في عكا وبقية أجزاء بلاد الشام .

وتوجه السلطان قلاوون سنة ٦٧٩ هـ ـ ١٢٨٠ م نحو بلاد الشام ، وركب الطريق الساحلية ، وعسكر أثناء سفره في الروحاء على الساحل على مقربة من عكا ، وهناك وصلت اليه رسل الاسبتارية « يسألون تقرير الهدنة والزيادة على الهدنة الظاهرية » واجابهم قلاوون الى مطلبهم وعقدت هدنة مجددة بين قلاوون وابنه وولي عهده علي من جهة وبين نقولاس لورجن مقدم بيت الاسبتار وجميع الاخوة الاسبتارية بعكا « لمدة عشر سنين كوامل متتابعات وعشرة اشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، أول ذلك يوم السبت ثاني عشر المحرم » سنة ٦٨٠ هـ ـ ٣ أيار ١٢٨١ م(٥٦) .

وبعد مضي قرابة الشهرين من توقيع الهدنة ، تم التوصل الى هدنة ثانية بين قلاوون من جهة وبوهموند صاحب طرابلس من جهة مقابلة لمدة عشر سنوات ايضا مع عشرة اشهر وعشرة ايام وعشر

ساعات اعتبارا من يوم ٢٧ ربيع الأول ٦٨٠ هـ ـ ٥ تموز ١٢٨١ م .

واستمرت حالة الهدنة مع طرابلس حتى سنة ٦٨٧ هـ ـ ١٢٨٨ م ففي نهاية هذه السنة نقض فرنجة طرابلس شروط الهدنة حيث أقدموا على نهب مجموعة من التجار المسلمين وأسروا عددا منهم ، وحين وقع هذا كانت أوضاع السلطنة مستقرة وجيوشها جاهزة ، لذلك ما أن بلغ السلطان خبر ما حدث حتى زحف نحو طرابلس على رأس قوات الشام ومصر ، ونزل عليها وحاصرها حصارا شديدا حتى أخذها عنوة في ٤ ربيع الآخر ٦٨٨ هـ ـ ٢٤ نيسان ١٢٨٩ م .

وبتحرير طرابلس زالت فعليا المملكة الرابعة التي اسسها الفرنجة في المشرق ، وبهذا أكمل قلاوون ماقام به رفيقه بالسلاح من قبله السلطان بيبرس ، ولم يبق الآن للصليبيين سوى عكا ، وكان لابد من انتظار الفرصة المناسبة للزحف ضدها وتحريرها(٥٧) .

هذا ويلاحظ أن الهدنة ـ التي ذكرناها أعلاه ـ التي عقدت مع اسبتارية عكا ، شملت أفراد هذه المنظمة فقط ولم تشمل بقية قوى الصليبيين ومؤسساتهم في عكا ، وبناء عليه جرت مفاوضات بين السلطنة المملوكية وبين الداوية انتهت بعقد اتفاقية هدنة مماثلة بين « السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي وبين المقدم افرير كويوم ديباجوك مقدم بيت الداوية بعكا والساحل وبين جميع الأخوة الداوية .... لمدة عشر سنين كوامل متواليات ومتتابعات وعشرة شهور ، أول ذلك يوم الأربعاء خامس المحرم سنة احدى وثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية » ١٥ نيسان ١٢٨٢ م(٥٨).

لقد كانت قوى اوروبا ممثلة في عكا ، وبعدما عقد الداوية والاسبتارية الهدنة مع السلطنة بات من الضروري عقد هدنة جماعية

باسم عكا بما في ذلك المنظمات التي كانت فيها ، وبالفعل توجه وفد الى القاهرة مثل قوى عكا الصليبية ومنها الداوية والاسبتارية ، وبعد مفاوضات تم التوصل الى عقد هدنة بين « السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي ... وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعتليت وبلادها » وابرم الاتفاق في ٥ ربيع الأول ٦٨٢ هـ – ٣ حزيران ١٢٨٣م ، وكانت أهم بنوده :

١- مدة الهدنة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام .

٢- منح التجار من رعايا السلطان الأمن وحرية العمل التجاري في عكا والبلاد الساحلية .

٣- توقف الفرنجة عن الاعتداء على أراضي دولة السلطان .

٤- لايجدد الفرنجة في عكا وعتليت وصيدا حصنا ولاسورا .

٥- تبادل الرعايا الفارين ضمن شروط محددة .

٦- حرية الملاحة وتقديم العون للسفن الجانحة والمحافظة على محتويات السفن لتسليمها الى أصحابها أو من يلوذ بهم .

٧- يتولى فرنجة عكا إنذار السلطان وإعلامه بأي تحرك أوروبي مضاد له وكذلك بالنسبة لتحركات المغول .

٨- يضمن السلطان حماية عكا وعتليت من أعمال القرصنة .

٩- السماح للحجاج الأوروبيين بالوصول الى الأماكن المقدسة وضمان أمنهم وسلامتهم وحرية تعبدهم (٥٩) .

ويبدو أن اوضاع السلطنة الداخلية وتعاظم الخطر المغولي واشتداده هي التي أجبرت السلطان قلاوون على توقيع هذه المعاهدة وغيرها ، فقد أغار المغول على الشام ووصلت قواتهم قرب حمص سنة ٦٨٠ هـ – ١٢٨١ م(٦٠).

كما أن قلاوون قد واجه في تلك الآونة حركة تمرد خطيرة ضده في دمشق قادها سنقر الأشقر واستمرت أعمال التآمر ضده دونما توقف (٦١) .

لقد غدت عكا تحت رحمة السلطان قلاوون ، كما أنه كان لسقوط طرابلس أصداء واسعة في أوروبا ، وسعت البابوية الى إثارة حملة صليبية جديدة ، لكن جهودها لم تثمر الا قليلا .

وكانت عكا قد استولى عليها سنة ٦٨٥ هـ ـ ١٢٨٦ م هنري الثاني ملك قبرص(٦٢)وتوج بها ملكا ، وتجددت الاتصالات المغولية الصليبية ، وبذلت الجهود للقيام بعمل صليبي مغولي مشترك (٦٣) واثمرت هذه الجهود كلها باستجابة بعض « رعاع الفلاحين والمتعطلين من سكان المدن الصغيرة » في شمالي ايطاليا ، وقدم هؤلاء الى عكا تحت قيادة أسقف طرابلس سابقا .

وكان الملك هنري الثاني جدد الهدنة مع السلطان قلاوون وبعث هذا كله بعض الأمل في عكا ، لكنه لم يتعد الشكل السرابي ، وكان سقوط طرابلس وقدوم النجدات من أوروبا واستمرار النجدات من قبرص قد زاد من حجم سكان مدينة عكا ، وبالتالي رفع من قدرتها العسكرية .

« واجتمع داخل اسوار عكا طوائف تمثل مختلف الأمم المسيحية ، وعاشت كل طائفة منعزلة عن الأخرى في حي خاص بها ، وأخذ كل واحد من قادة المناطق في الشام ومقدمي الاخوانيات العسكرية الكبرى وممثلي ملوك فرنسا وانكلترا والقدس ، يمارس سلطات مستقلة ، وعلى هذا كان في عكا سبع عشرة سلطة مستقلة ، الأمر الذي نجم عنه فوضى كبيرة » .

ولذلك لاغرابة أن المدينة غدت بؤرة فساد وشروروانحطاط خلقي واضطراب مستمر ، ورخاء ماديّ كبير وارباح تجارية خيالية ، فمقر الداوية لم يعد ديرا للفرسان ولتقديم الخدمات بل مستودعا للأموال والذخائر وبنكا للاقراض بنسب فائدة عالية جدا .

وقام القادمون الجدد من الايطاليين بإثـارة المزيد مـن الفـوضى والاخلال بالأمن واخذوا يسلبون وينهبـون التجـار والبـاعة مـن المسلمين ، وكان هنالك صراع مرير بين البيوتات التجارية التابعة لجنوا والبندقية وسواهما .

وفي صيف سنة ٦٨٩ هـ ـ ١٢٩٠ م انفجرت أعمـال العنف في عكا ، ووجهت هذه الأعمـال ضـد المسـلمين داخـل المدينة وخارجها ، وقد ذبح الصليبيون كل مسلم صادفوه ونهبـوا مـاكان معه من مال وبضائع(٦٤) .

ووصلت أخبار المذبحة هـذه الى السـلطان قـلاوون فـاشتعل غضبا ، واعتبر ان فرنجة عكا قد خرقوا اتفاق الهـدنة ، وأنه يملك جميع المسوغات لاعتبار الهدنة ملغاة ، وسـارع قـلاوون فـأرسل تجريدة من قواته نحو منطقة عكا لاستطلاع خبر مـاحدث ، ولتثبيت الوجود المملوكي في المنطقة ، وفي الوقت نفسه أصدر أوامره بحشـد جميع القوات في الشام ومصر ، وجرى فـرض الضرائب على قـرى غوطة دمشق وبعلبك في سبيل تحصيل الكميات اللازمة من الأخشاب لصنع المجانيق والأبراج المتحركة وغيرها من أدوات الحصار .

وتناوشت تجريدة قلاوون مع قوات عكا ، وسارعت سلطات عكا الى مراسلة السلطان وتقديم الاعتذار له ، ثـم أعقـب ذلك وصـول رسله الى عكا حيث طالبوا بإصرار على تسليمهم الذين تولوا أعمال القتل والمذابح ، وبعد طول مناقشات لم يسـتجب لمطلب السـلطان فحسب ، بل حاول المسؤولون في عكا اقناع رسله بـأن بعض تجـار المسلمين هم الذين فجروا الفتنة .

وملك قـلاوون الآن جميع المسـوغات للاحتـكام الى السلاح ، وهكذا زحف على رأس قواته يريد عكا وصدرت الأوامـر الى قوات الشام للاجتماع مع قوات السلطان قرب قيسارية .

وكان قلاوون قبل مغادرته القاهرة مريضا ، لكن مـرضه لم يثنه

عن مقصده غير أنه ماأن غادر القاهرة حتى اشتد به المرض فتوفي ، وكان ذلك يوم ٦ ذي القعدة ٦٨٩ هـ - ١٠ تشرين الثاني ١٢٩٠ م (٦٥) .

وتنفس أهل عكا الصعداء وخيل اليهم انهم نجوا وكتبت سلامتهم ، لكن لبعض الوقت ، فعلي بن قلاوون ، وولي عهده ، كان قد توفي من قبل ، وعزم قلاوون على تسمية ابنه خليل وليا لعهده لكنه تراجع ، وتوهم الصليبيون أن صراعا سينشب على السلطة كما جرت العادة ، وبالفعل جرى شئ من هذا القبيل ، لكن خليل بن قلاوون برهن على قدرات واسعة وطاقات كبيرة ، واستطاع الأشرف خليل السيطرة على الأوضاع وتثبيت قدميه بالسلطة ، والتفت على الفور نحو عكا عازما على متابعة ماشرع به والده قبله .

وارسلت سلطات عكا رسلا الى الأشرف خليل لتهنئته بإرتقائه عرش السلطنة ، وللاعتذار له عما حدث في عكا مع طلب تجديد الهدنة ، لكن الأشرف لم يستمع لما جاء به الرسل والقى بهم في السجن فكان آخر العهد بهم ، وعبر بذلك عن تصميمه على قصد عكا بجيوشه .

لقد حشد الأشرف قواتا عملاقة ، واعد الأسلحة والمعدات ولاسيما المجانيق ، وأبراج الحصار ، وتحركت القوات نحو عكا في ربيع الأول ٦٩٠ هـ - آذار ١٢٩١ م ، وكان المؤرخ المشهور ابو الفداء بين أفراد القوات التي تحركت من حماة نحو عكا ، ويحدثنا عن زحف القوات وعما عانته أثناء ذلك بقوله :

« وتسلمنا منه (حصن الاكراد) منجنيقا عظيما يسمى المنصوري حمل مئة عجلة ، ففرقت في العسكر الحموي ، وكان المسلم منه الي عجلة واحدة لأني كنت اذ ذاك امير عشرة ، وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء ، فاتفق وقوع الامطار والثلوج علينا بين حصن الاكراد ودمشق ، فقاسينا من ذلك بسبب

جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة ، وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد الى عكا شهرا وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة ، وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار مالم يجتمع على غيرها » .

وكان تعداد القوات التي تجمعت امام عكا كبيرا « معها اثنان وتسعون منجنيقا » من مختلف الأنواع والأحجام ، وبعدما اكتمل تجمع القوات وتجهيز المعدات صدر صباح الجمعة ١٧ جمادي الأولى ٦٩٠ هـ ـ ١٨ أيار ١٢٩١ م الأمر بالهجوم بوساطة قرع كمية هائلة من الطبول وأدوات موسيقى الحرب رتبت على ظهور ثلاثمائة جمل . وفي داخل عكا كان الصليبيون قد اعدوا العدة للدفاع ، ولنتذكر هنا ان المدينة حوصرت من جانب البر فقط وبقيت غير مهددة من الجانبين البحريين وكانت النجدات والمؤن والمعدات تصلها بلا انقطاع من قبرص وسواها ، ولهذا « لم يغلق الفرنج غالب أبوابها(عكا)بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها » .

واشتد الحصار ونشط المسلمون في قصف أسوار المدينة وفي فتح الثغرات فيها ونقب الأبراج ، وقاوم الفرنجة ، وقام فرسانهم بأكثر من هجوم ليلي على معسكر المسلمين ، ويحدثنا أبو الفداء عن المقاومة بقوله :

« فكنا على جانب البحر ، والبحر عن يميننا اذا واجهنا عكا ، وكان يحضر الينا مراكب مقببة بالخشب الملبس جلود الجواميس ، وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ ، وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من البحر واحضروا بطسة (مركبا) فيها منجنيق يرمي علينا وعلى خيمنا من جهة البحر ، فكنا منه في شدة » .

ونجح المسلمون بعد حصار استمر قرابة الشهر ونصف الشهر في خرق الأسوار ودكها وشقوا طريقهم إلى داخل المدينة :
« ولما هجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب ، وكان

في داخل البلد عدة ابرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها » .

ودار قتال عنيف داخل طرقات عكا ، وتسابق الفرنجة نحو ميناء المدينة وتزاحموا على الأرصفة ، ويبدو أن عدد المراكب لم يكن كافيا ، وقاتل فرسان الداوية دفاعا عن حصنهم في المدينة ، وقبل أن يسقط حصنهم :

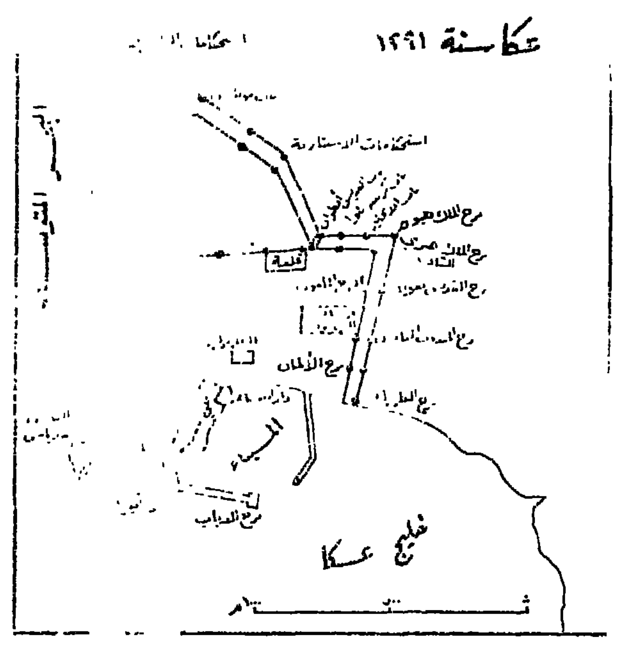
« تمكن احد عشر واحدا منهم من الهرب من باب سري ، وصعدوا إلى ظهر مركب كان بانتظارهم وحملوا معهم جميع الثروات التي جمعوها في الشرق خلال قرنين من الزمن » (٦٦) .

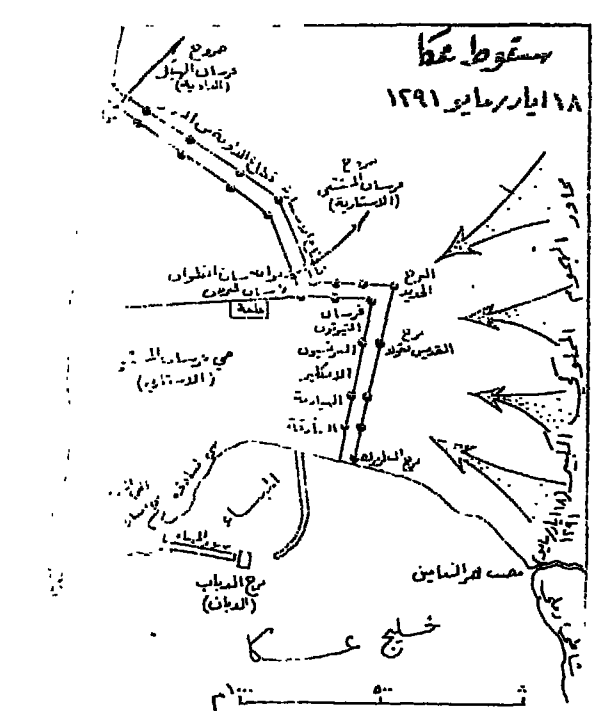
وبعدما صفت عكا للمسلمين أمر السلطان الأشرف خليل بتدميرها حسب القاعدة التي كان السلطان الظاهر بيبرس طبقها ، وما إن وصلت أخبار تحرير عكا إلى المناطق الساحلية التي كانت ماتزال بأيدي الفرنجة مثل عتليت وصيدا وبيروت « حتى القى الله الرعب » في قلوب اهلها فأخلوها وهربوا .

☆ ☆ ☆

بذلك طويت ملحمة الحروب الصليبية ، وهي بلاشك من أعظم ملاحم التاريخ وأطولها ، استمرت وقائعها مدة تقارب القرنين من الزمن واشتركت فيها اوروبا كلها بشعوبها وطاقاتها .

ولوقائع هذه الحروب دروس وعبر ونتائج خطيرة على المشرق العربي واوروبا سواء من الجوانب السياسية والاقتصادية والحضارية والعسكرية كافة . ولاشك أن أهم دروس وعبر هذه الملحمة هو : أن العرب تحل بهم الهزيمة عندما تكون صفوفهم ممزقة وقواهم مبعثرة ، ولايمكن لشمل العرب أن يجتمع إلا بالوحدة . وبعدما طرد الصليبيون من المشرق ، وقبل أن يزول


عكا سنة ١٢٩١
قلعة
برج الألمان
برج الذباب
خليج عكا


سقوط عكا
١٨ أيار/مايو ١٢٩١
البرج الجديد
قلعة
برج الذباب
(الذبان)
خليج عكا

الخطر المغولي انتاب الضعف دولة المماليك وأخذت تتخبط بـأزمات وصراعات مدمرة ، ومنذ ذلك الحين شرعت قـوة العـرب بـالمشرق بالضعف وحضارتهم بالتدهور السريع والجمود المقيت ، بينما بعثت في أوربا التي خسرت الحروب الصليبية حضارة سببت لهـا القـوة وقادتها من جديد نحو ديار العروبة والاسلام .

ويتساءل الباحث عن أسباب انحطاط العرب مـع أنهـم حـازوا النصر ، وبعث أوربا مع أنها كانت المهزومة ؟ ولعل من بين أسباب ذلك أن أوربا الاقطاعية الشديدة التمسك بـالكاثوليكية حين خسرت الحرب كانت تلك الخسارة ضربة مميتة للنظام الاقطاعي والكنيسـة معاً في أوربا الغربية ، وفي المقابل نجد أن الحروب الصليبية التي طال أمدها قد مكنت في البداية القادة العسكريين الغرباء في الشرق المسلم من تسلم زمام الأمور ، وساعدت على التعصب الديني ، وعلى حلول الغيبيات محل العقل ، وخلقت إلى جانب الاقطاع العسكري اقطاعا دينيا كان جديدا كل الجدة في تـاريخ الاسـلام ، ومـع الأيام زادت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات المدنية ، وترسخت قـواعد انظمة للكهنوت الاقطاعي في الاسلام .

وعندما توقفت الحرب أصبح الجند المماليك عالة على الأمة ، ثـم إن الشعور بالنصر والسلم والامان بعد عهود طويلة مـن الحـروب والدمار ، مع سيطرة التصوف وجبروت شيوخ الطرق ، ومـع زوال عوامل التحدي دفع العرب نحو الاخلاد إلى الراحة والسكينة ، وإلى قبول نوع جديد من التمزق السياسي ، أضف إلى هذا بما أن الأمـة وجهت أيام الحروب معظم طاقاتها ، ورصدت كافة إمكاناتها المادية والعقلية للمعركة ، ولوجود حالة استثناء (طوارىء) بشكل دائم ، عطل هذا مـع الأيام الكثير مـن جـوانب التجـديد في الحياة و الحضارة ، وولد الأوهام والتسليم لشطحات الصوفية ، ومعـروف أن حالة الاستثناء تلغي دور العقل لأنها تعطل الحرية ، ويولد هـذا بالتالي التعصب الأعمى والتزمت والجهل والاحتكار والأمية .

إن تعطيل الحريات وإهمال الحضارة والثقافة والتعصب الأعمى كان ومازال الداء العضال وآفة العرب العظمى ، ومعلوم أن العرب لم يتمكنوا قط من صنع حضارة وثقافة وهم مستعبدون ممزقون ، لكنهم كلما اتحدوا ، وملكوا استخدام العقل بكل اتزان وحرية وتسامحوا بمنطق متفتح ، صنعوا كل شيء مفيد ، ففي الوحدة الهادفة الواعية كمن – ولايزال يمكن – سر نهوض العرب والمسلمين ، لأن الله مع الجماعة .

الحواشي والهوامش

الباب الثاني

الفصل الأول

١ ـ تاريخ حلب للعظيمي ـ ط . دمشق ١٩٨٤ ص ٣٥٦ .
٢ ـ الحرب الصليبية الأولى لحسن حبشي ـ ط . القاهرة ١٩٤٧ ص ٢١ ـ ٢٢ .
٣ ـ أوربا العصور الوسطى لسعيد عبد الفتاح عاشور ـ ط . القاهرة ١٩٦٦ . ص ٣٥٦ ـ ٣٦ ، ٩١٦ . بابوات من الحي اليهودي ـ ترجمة عربية ـ ط . دمشق ١٩٨٣ ص ٢٠٩ ـ ٢٤٠ .
٤ ـ أعمال الفرنجة ، ٨٢ ، ٨٥ ـ ٨٦ ، ٩٢ ـ ٩٦ ، ابن القلانسي ، ١٣٣ ـ ١٣٦ ، العظيمي ، ١٩١ و ـ ظ ، الكامل ، ط ، القاهرة ، ٨ / ١٨٦ ـ ١٨٧ ، زبدة الحلب ، ٢ / ١٢٩ ـ ١٣٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثلث ، ٦ / ٨٩ ظ ـ ٩٠ و ، الحركة الصليبية ، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٦٣ ، ١ / ٢٠٠ ـ ٢١٨ .
٥ ـ سنتعرف إلى هؤلاء بالتفاصيل الوافية في الجزء التالي .
٦ ـ سنقدم بعد قليل عرضا موجزا حول تاريخ الدولة البورية في دمشق .
٧ ـ ابن القلانسي ص ٢١٤ .
٨ ـ ابن القلانسي ص ٢١٤ .
٩ ـ ابن القلانسي ص ٢١٤ ، ٢٣٣ ، ترجمتا دقاق وطغتكين من تاريخ ابن عساكر ـ زكار مدخل ص ٣٨٦ ، ٤٠٨ .
١٠ ـ ابن القلانسي ص ٢٣٤ .
١١ ـ ابن القلانسي ص ٢٣٥ .
١٢ ـ ابن القلانسي ص ٢٣٥ . انظر ايضا مرآة الزمان : سنة ٤٩٨ هـ .
١٣ ـ ابن القلانسي ص ٢٤٠ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ٨٠ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .
١٤ ـ ابن القلانسي ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ ، ٢٥٠ ـ ٢٦٣ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ٨٠ ص ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ـ ٢٥٩ . سبط ابن الجوزي يوسف ابن قزاوغلي ـ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ـ ط . حيدر اياد الدكن ١٩٥١ ج ١ ص ٢٥ ، ٢٧ ـ ٢٨ .
١٥ ـ ابن القلانسي ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .
١٦ ـ انظر وصف عملية اغتيال مودود لدى ابن القلانسي ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، وفي نصوصنا المقبلة مع راي وليم الصوري ص ٥٥٠ .
١٧ ـ ابن القلانسي ص ٣٠٦ ـ ٣١٣ ، حيث أثبت نسخة كامله لهذا المنشور .
١٨ ـ ابن القلانسي ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ، ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ، الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٨ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ج ١ ص ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .
١٩ ـ ابن القلانسي ص ٣٥٠ ـ ٣٧١ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٨ ص ٣٢٧ ـ ٣٣٧ .
مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ـ ج ١ ص ١٢٧ ـ ١٤٣ . وليم الصوري ج٢ ص ٦٤٥ ـ ٦٤٧ .
٢٠ ـ ابن القلانسي ص ٣٧٢ ـ ٣٨٩ . الكامل ـ ط . القاهرة . ـ ج٨ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٦ .
مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ـ ج ١ ص ١٤٥ ـ ١٥٣ .
٢١ ـ ابن القلانسي ص ٣٩٠ ـ ٣٩٢ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٨ ص ٣٤٦ . مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ـ ج ١ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .
٢٢ ـ ابن القلانسي ص ٣٩٧ ، ٤١٣ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٨ ص ٣٥٩ ، ٣٦٤ .
٢٣ ـ ابن القلانسي ص ٤١٨ ، ٤٢١ ـ ٤٢٢ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٨ ص ٣٦٤ .
مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ـ ج ١ ص ١٧١ ـ ١٧٢ .
٢٤ ـ ابن القلانسي ص ٤٢٤ ـ ٤٢٧ . الكامل ـ ط . القاهرة . ج ٨ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ، ٣٦٧ ـ ٣٦٨ . مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ـ ج ١ ص ١٧١ ـ ١٧٢ . وليم الصوري ج ٢ ص ٧٠٥ ـ ٧٠٧ .
٢٥ ـ ابن القلانسي ص ٤٥٠ ـ ٤٥٣ . وليم الصوري ج ٢ ص ٧٤٢ ـ ٧٥٢ .
٢٦ ـ ابن القلانسي ص ٤٦٣ .
٢٧ ـ ابن القلانسي ص ٤٦٣ ـ ٤٦٦ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٩ ص ٢٠ ـ ٢١ .
مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ج ١ ص ١٩٧ ـ ٢٠٠ . وليم الصوري ج ٢ ص ٧٧٨ ـ ٧٨٧ .
٢٨ ـ ابن القلانسي ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٩ ص ٣٦ ـ مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ج ١ ص ٢٠١ ـ ٢٠٣ .
٢٩ ـ ابن القلانسي ص ٤٩١ .
٣٠ ـ ابن القلانسي ص ٥٠٤ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٩ ص ٤٥ ـ ٤٦ . مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ج ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣ . وليم الصوري ج ٢ ص ٨١٤ ـ ٨١٥ .
٣١ ـ وليم الصوري ج ٢ ص ٨١٥ .

الفصل الثاني

١ ـ الباهر لابن الاثير : ١٦ ـ ٣٥ .
٢ ـ الباهر : ٣٥ .. الكامل لابن الاثير : ٨ / ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .
٣ ـ الباهر : ٣٥ ـ ٣٨ . .
٤ ـ الكامل لابن الاثير ٩ / ٨ ـ ٩ : الباهر : ٦٦ ـ ٧١ .
٥ ـ أوسع التفاصيل حول هذه الحملة متوفرة في نصوص موسوعتنا .
٦ ـ لدينا تفاصيل شاهد عيان لاستعادة الرها في رواية السرياني المجهول فلتنظر ضمن النصوص السريانية من موسوعتنا .
٧ ـ وليم الصوري ج ٢ ص ٧٧٩ ـ ٧٨٧ . ابن القلانسي : ٤٦٢ ـ ٤٦٥ . الروضتين لابي شامه ج ١ ص ٥١ ـ ٥٣ .
٨ ـ وليم الصوري ج ٢ ص ٨١٥ . ابن القلانسي : ٥٠٢ ـ ٥٠٥ . مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٦ ـ ١٢٨ . الباهر ١٠٧ ـ ١٠٨ .
٩ ـ الباهر : ١٠٧ .
١٠ ـ ابن القلانسي : ٥٢١ ـ ٥٣٦ . وليم الصوري : ٨٤٥ ـ ٨٥٨ . الروضتين ج ١ ص ١٢٠ ـ ١٢١ .
١١ ـ جلب صلاح الدين هذا المنبر إلى القدس بعد تحريرها وظل موجودا في المسجد الاقصى حتى احراقه مع قسم من هذا المسجد إثر حرب ١٩٦٧ .
١٢ ـ الكامل : ١١ / ١٣٨ ، الباهر : ١١٩ ـ ١٢٠ ، الروضتين ١ / ٨٥ ـ ٨٨ب / ٣٢٩ ٣٣٠ ، المحاسن اليوسفية : ٦٠ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٠ ـ ٤٢ ، زبدة الحلب : ٢ / ٢٥٥ .
١٣ ـ الروضتين : ١/٠ ١٠٠.
١٤ ـ لقد عالجت هذه القضايا بشكل مفصل في كتبي التالية : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية . الدعوة الاسماعيلية الجديدة الجامع في اخبار القرامطة ـ تاريخ العرب والاسلام ، فلتنظر .
١٥ ـ النوادر السلطانية :.٣٦ ، سنا البرق الشامي : ٦٠ ـ ٦١ ، الباهر : ١٢٢ ، الروضتين : ١ / ١٢٩ ـ ١٣٢ ، شفاء القلوب : ٢٥ ـ ٤٦ ، نور الدين لمؤنس : ٢٨٩ ـ ٢٩٧ .

١٦ ـ الروضتين : ١ / ١٤٢ ـ ١٤٥ ، النوادر السلطانية : ٣٧ ـ ٣٩ ، سنا البرق الشامي : ١ / ٦٢ ـ ٦٥ ، مرآة الزمان : ١ / ٢٦٨ ـ ٢٧٠ ، الباهر : ١٣٢ ـ ١٣٤ ، شفاء القلوب : ٢٨ ـ ٣١ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٣ ، مؤنس : ٢٩٧ ـ ٣٠٤ .

١٨ ـ سنا البرق الشامي : ٧٧ ـ ١١٥ ، النوادر السلطانية : ٤١ ـ ٤٥ ، الروضتين : ١ / ١٧٨ ـ ٢٠٣ ، الباهر : ١٤٣ ـ ١٥٩ ، مرآة الزمان : ١ / ٢٧٩ ـ ٢٩٥ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ١٦ ـ ٢٤ .

١٩ ـ الروضتين : ١ / ١٥٩ ، الباهر : ١٥٦ ـ ١٥٨ ، خطط المقريزي : ١ / ٨٦ ـ ٨٧ السلوك : ١ / ١ / ٧٥ ، دراسات في حضارة الاسلام لجب : ٩٧ ـ ١٠٣ .

٢٠ ـ الباهر : ١٥٨ ـ ١٦٢ ، الروضتين : ١ / ٢٠٦ ـ ٢٣١ ، سنا البرق الشامي : ١ / ١٢٣ ـ ١٥٥ ، النوادر السلطانية : ٤٥ ـ ٤٧ ، مرآة الزمان : ١ / ٢٩٢ ـ ٣٢٥ ، النجوم

الزاهرة : ٦ / ٦٤ ـ ٧١ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٨ ـ ٥٥ ، نور الدين : ٣٤١ ـ ٣٥٧ ، جب : ١٠٠ ـ ١٠٢ .

٢١ ـ انظر كتابي امارة حلب ـ ط دمشق ، دار الكتاب العربي ص ٣٤ ـ ٤٢ ، ٩٦ ـ ١٠٢ .

الفصل الثالث

١ ـ سنا البرق الشامي : ١٥٥ ـ ٣٥٩ ، الباهر : ١٧٦ ـ ١٨٤ ، الروضتين : ١ / ٢٣١ ـ ٢٧٩ ، ٢ / ٣ ـ ٧٤ ، النوادر السلطانية : ٥٠ ـ ٧٥ ، زبدة الحلب : ٣ / ٩ ـ ٦٧ ، مرآة الزمان : ١ / ٣٢٦ ـ ٣٨٨ ، شفاء القلوب : ٨٤ ـ ١٠٩ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ٧٣ ـ ١٠٤ ، السلوك : ١ / ١ / ٥٨ ـ ٩٢ .

٢ ـ يقع حصن الكرك على مقربة من البحر الميت ، على الطريق الواصلة بين مصر والشام ويتحكم بها ، وكان صاحب الكرك فارس صليبي متعصب جدا فيه عجرفة ورعونة شديدة ، اسمه ريندوبي شاتيون ، وقد عرفه العرب باسم أرناط ، وفي سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٧ م ، هاجم أرناط قافلة مسلمة كانت قادمة من القاهرة الى دمشق ، فانتهب ثرواتها ، وأسر الذين كانوا فيها ، وفي مواجهة هذا الحادث تذرع صلاح الدين في البداية بالحلم والصبر ، فأرسل وفدا الى أرناط يطلب منه اطلاق سراح الاسرى ، ورد المنهوبات ، فرفض أرناط بكل قحة وتحدي ، وهنا أرسل صلاح الدين مبعوثا الى ملك القدس ، فلم يستطع هذا فعل شيء ، وأدى هذا الحال الى اعتبار صلاح الدين أن الهدنة بينه وبين الفرنجة لاغية ، فاستنفر قواته ، وقرر الزحف على رأس عساكره ، الزحف الذي قاده الى حطين .

٤ ـ قبل لوبية على اليسار ، وما بين لوبية وقرية ناصر الدين ، وامتدادا إلى الجنوب حيث قرية كفر سبت في منطقة الشجرة .

٥ ـ الفتح القسي : ٣٦ ـ ٥٠ . النوادر السلطانية : ٤٩ ـ ٥٥ . الروضتين : ٧٥ ـ ٨١ . الأنس الجليل : ١ / ٣١٦ ـ ٣٢١ . عيون الروضتين : ٢٣٣ آ ـ ٢٣٩ آ . شفاء القلوب : ١٢٨ ـ ١٣٠ . الكامل لابن الاثير : ١١ / ٥٤٦ ـ ٥٥٣ . شذرات الذهب : ٤ / ٢٧٤ ـ ٩٣ . المختصر في أخبار البشر : ٣ / ٧١ ـ ٧٤ . طبقات الشافعية : ٤ / ٣٢٥ ـ ٣٤١ . زبدة الحلب : ٨٣٩ ـ ٨٤٦ . مرآة الزمان : ١ / ٣٨٩ ـ ٤٠٢ . الاعلام والتبيين : ٨١ ـ ٨٥ . الحروب الصليبية لرفيق التميمي : ٥٥ب ـ ١٦٧ . حياة صلاح الدين الايوبي لاحمد بيلي : ١٥٣ ـ ٢١٠ . الحروب الصليبية في المشرق والمغرب : ٥٦ ـ ٦٩ .

٦ ـ ابن شداد : ٧٩ ـ ٩٧ ، ١٣٦ الفتح القسي : ٧٦ ـ ١٠٩ . الروضتين : ٢ / ٨٧ ـ ١٣٥ .

٧ ـ ابن شداد : ١٠٤ ـ ١٠٥ .

٨ ـ الفتح القسي : ٣٠٢ ـ ٣٠٣ الروضتين : ٢ / ١٤٨ ـ ١٦٢ . ابن شداد : ١٠٩ ـ ١١٥ .

٩ ـ الفتح القسي : ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

١٠ ـ ابن شداد : ١٠٣ ـ ١٧٢ . الفتح القسي : ٢٩٦ ـ ٥١٣ . الكامل في التاريخ : ١٢ / ٣٢ ـ ٦٨ . الروضتين : ٢ / ١٤٢ ـ ١٩٠ . النجوم الزاهرة : ٦ / ١٠٤ ـ ١١٣ .

١١ ـ انظر ملحمة رتشارد قلب الاسد ضمن كتب موسوعتنا •

١٢ ـ ابن شداد : ١٧٤ ـ ٢٤٨ . الفتح القسي : ٥٢٨ ـ ٦٢٧ . الكامل لابن الاثير : ١٢ / ٦٣ ـ ٩٥ . الروضتين : ٢ / ١٩٠ . النجوم الزاهرة : ٦ / ١١٢ ـ ١٣٢ .

الفصل الرابع

١ ـ وليم الصوري ـ الأعمال المنجزة : ج ٢ ، ص ٣٧٥ .
ابن شداد ـ المحاسن اليوسفية : ص ٤٩ ـ ٥٥ .
ـ ابو شامة ـ الروضتين : ج ٢ ، ص ٧٥ ـ ٨١ .
ـ العماد محمد بن محمد الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ط القاهرة ص ٣٦ ـ ٥٠ .
ـ مجير الدين العليمي الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط . عمان ١٩٧٣ ، ج ١ ، ص ٣١١ ـ ٣٢١ .
ـ الحنبلي ، شفاء القلوب : ص ١٢٨ ـ ١٣٠ .
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٨٣٩ ـ ٨٤٦ .
ـ سبط ابن الجوزي ـ المرآة : ج ١ ، ص ٣٨٩ ـ ٤٠٢ .
ـ اسماعيل بن عمر بن كثير ـ البداية والنهاية . ط . القاهرة ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٧ .
٢ ـ ابن شداد ـ المحاسن ص ١٧٤ ـ ٢٤٨ .
ـ العماد الاصفهاني ، الفتح ، ص ٥٢٨ ـ ٦٢٧ .
ابو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ـ ٢١٣
٣ ـ العماد الاصفهاني ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .
ـ ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ .
ـ ابو شامة ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .
٤ ـ ابن واصل ، مفرج ، ج ٢ ص ٢٧ ـ ٦١ .
ـ أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣١ .
المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١١٧ ـ ١٤١ .
ـ اسماعيل بن علي أبو الفداء صاحب حماه ، المختصر في اخبار البشر دار المعرفة ، ج ٣ ، ص ٦٦ ـ ١٠٠ .
ـ يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في معرفة ملوك مصر والقاهرة ط . القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ ، ج ٦ ، ص ١١٦ ـ ١٢٢ .
٥ ـ أبو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٧ ـ ١٧٥ .
ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٨ ـ ٢٤١ ، ٣٠٥ ـ ٣١٥ .
ـ أبو المحاسن ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٢٣ ، ٣٢٢ .
ـ أبو شامة ، ذيل الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٤ ـ ١٧٨ .
٦ ـ ابن واصل ، مفرج ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ـ ٢٥٣ .
ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٥ ، ٣٣٩ ـ ٣٦٠ .
ـ محمد بن علي بن نظيف الحموي ، التاريخ المنصوري ، ط . دمشق ، ١٩٨٢ ، ص ١٧٦ ـ ١٩٤ .
ـ احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ط . بيروت ١٩٦٩ م ص ١٠٤ ـ ١١٣ .
٧ ـ ابن واصل ، مفرج ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٤٠ .
ـ محمد بن احمد ابن اياس ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ط . القاهرة

١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ، ج ١ ، ص ٧٠ .
ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٩ ـ ٤٤٠ .
ـ الخطط (المواعظ والاعتبار) ط . بيروت ، مطبعة احياء العلوم ج ٢ ، ص ١١٦ ، ٢١٧ .
ـ ابو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .
ـ العبادي ، قيام ، ص ٦٣ ـ ١٤٤ .
ـ ابو المحاسن ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٣٠٩ .

٨ ـ ابن واصل ـ مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ـ ٢٥٣ . ابن نظيف ـ التاريخ المنصوري ص ١٧٦ ـ ١٩٤ .
المقريزي ـ السلوك ج ١ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٥ . فولففانغ مولر ، ـ القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٢٧ ـ ٢٩ . زكار ـ حطين ص ١٧١ ـ ١٨٥ .

٩ ـ

١٠ ـ المقريزي ـ السلوك ج ١ ص ٢٣٩ ـ ٣٦٠ . جوزيف نسيم ـ العدوان الصليبي على مصر ص ١٩٧ ـ ٢٥٧ .
العبادي ـ قيام دولة المماليك الاولى ص ١٠٤ ـ ١١٣ .

١١ ـ المقريزي ـ السلوك ج ١ ، ص ٣٦١ ـ ٣٦٨ . ابو الفداء ـ المختصر ج ٣ ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ . العبادي ـ قيام دولة المماليك الاولى ص ١١٠ ـ ١٢١ . ، جوزيف نسيم ـ العدوان ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨ .

١٢ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٠ ـ ٣٦٥ ، وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨١ ، ١٨٢ ، والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١١٠ ـ ١٢١ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على مصر ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٤٥ ـ ٨٨ .

١٣ ـ المقريزي ، السلوك ، ح ١ ، ص ٣٦٧ ـ ٣٨٩ ، وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٧ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٣٩ ـ ١٨٧ ، ويوسف غوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٩ .

١٤ ـ انظر : فولفغانغ ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص ٢٧ ـ ٣٠ .

١٥ ـ أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٣ ، ومحمد بن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ، ومحمد بن عبد الله اللواتي (ابن بطوطة) ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٠ ـ ٣٣ ، وأحمد بن عبد الله القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

١٦ ـ يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٩٥ ، ٩٩ ، وانتوني بريدج ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٢٧٥ ـ ٢٨٠ ، وعادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١٤٤ ـ ١٦٥ .

١٧ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٨٥ ، وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨٣ ـ ١٨٧ ، والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٢٥ ـ ١٢٩ ، وغوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٩ .

١٨ ـ أبو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ح ٣ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٥ ، وعمر بن الوردي ، تتمة المختصر في اخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٣ ، وإسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٨٤ ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٦٥ ـ ١٧٠ .

٢١ ـ يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٧٢ .

٢٢ ـ المرجع نفسه ، ص ١٧٦ ـ ١٧٩ .

٢٣ ـ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٩٥ ، وعبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٣ ، والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٨٥ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠ ؛ ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ؛ وغوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ؛ والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

٢٤ ـ يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٩٧ ـ ٢٢٣ ، ٣٤٦ ـ ٣٥١ ؛ والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٤١ ؛ وغوانمة ، إمارة الكرك الأيوبية ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧ .

٢٥ ـ العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٢٨ ـ ١٤١ ، وغوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٩ .

٢٦ ـ انظر في هذا الصدد : برتولد شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ؛ ورينيه غروسيه ، جنكيز خان ، عطاء الملك الجويني ، تاريخ فاتح العالم ؛ وجعفر خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ؛ ومصطفى طه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والاسلام ؛ وفؤاد عبد المعطي الصياد ، المغول في التاريخ ؛ ورشيد الدين فضل الله الهمذاني ، جامع التواريخ .

٢٧ ـ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٩ ؛ واحمد اليونيني البعلبكي ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ، ٣٧٤ ، ٣٨٠ ـ ٣٨٤ ، وج ٢ ، ص ٢٨ ـ ٣٦ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٢ ـ ٤٣١ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٩ ؛ وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٣١٤ ، وعبد الرحمن بن إسماعيل ـ ابو شامة ، ذيل الروضتين ، ص ٢٠٨ ؛ والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٤٧ ـ ١٦٧ ، ٢٥٤ ـ ٢٦٨ ؛ وغوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٩ ؛ ومحمد أحمد دهمان ، ولاة دمشق في عهد المماليك ، ص ٥٢ ـ ٥٥ .

٢٨ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ .

٢٩ ـ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .

٣٠ ـ المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٣٠ ـ ٥٥٠ .

٣١ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ص ٦٨ ؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٣٦ ـ ٤٤ ؛ والعريني ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٤٥ ـ ٦٢ .

٣٢ ـ لمزيد من التفاصيل انظر : زكار ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٧٦ ـ ١٩٦ ؛ احمد بن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص ١٩١ ـ ١٩٤ .

(وقد ترجمت هذا الكتاب إلى العربية ونشرته في بيروت) ؛ ولابيدوس ، مدن الشام ، ص ٢٠٥ ـ ٢٢٠ .

٣٣ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١١٨ .

٣٤ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص ٤٦٠ ـ ٤٦٤ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٠١ .

٣٥ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٢١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ـ وعالج يوسف غوانمة سقوط الكرك بقدر كبير من التفصيل في كتابه امارة الكرك الايوبية ، ص ٣١٠ ـ ٣٣٣ .

٣٦ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

٣٧ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

٣٨ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٨ ـ ١٦٦ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٧ ـ ٤٩٣ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٤ .

٣٩ - ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية (ترجمة عربية) ، ج ٣ ، ص ٥٥٤ - ٥٥٥ .

٤٠ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ ؛ والمقريزي ،السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٧ - ٥٣٤ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣١٧ - ٣٢٠ ؛ وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢ ، ورنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٤٦ ؛ وسرور ، بيبرس ، ص ٧٠ - ٧١ .

٤١ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٣٤ - ٢٤٣ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٧ - ٥٥٧ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ ؛ وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢ ؛ وسرور ، بيبرس ، ص ٧٠ ؛ والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ٢٢٤ ؛ والدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٣٥٠ - ٣٥٤ .

٤٢ - المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥٧ ، وج ٢ ، ص ٦٧٤ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٥ ؛ والدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

٤٣ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .

٤٤ - ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ١٤٦ - ١٤٨ ؛ وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، « مادة صفد » ؛ وأبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ؛ وابن شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص ٢١٠ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٨٤ - ٨٨ .

٤٥ - ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ١٤٦ - ١٥١ ؛ وابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٥٤ - ٢٦٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤٥ - ٥٤٨ ؛ وابو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٣ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ - ٣٤٣ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٧ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ؛ وسرور ، بيبرس ، ص ٧٢ ؛ وعاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٦٥ - ٦٧ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٤٨ - ٥١ ؛ ورنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٠ - ٥٥١ ؛ والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ٢٢٤ ؛ وزكار ، حطين ، ص ١٦١ .

٤٦ - ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ١٥٠ - ١٥١ ؛ وابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٨٠ - ٢٨٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .

٤٧ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٦٤ - ٥٦٥ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ - ٣٧٦ .

٤٨ - سرور ، بيبرس ، ص ٧٥ - ٨٨ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٥٤ - ٥٥ ؛ ورنسيمان ، تاريخ الحروب .... ، ج ٣ ، ص ٥٥٦ ، ٥٦١ ؛ والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ٢٢٥ - ٢٢٩ .

٤٩ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٦٢ - ٣٦٤ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٨٥ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٣٠ - ٤٣٤ ؛ واحمد بن علي المقريزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ٨٦ - ٩٥ .

٥٠ - مصطفى طه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والاسلام ، ص ٦٢ - ٧٣ ؛ وشبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، ص ٦١ - ٧٧ .

٥١ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٨٥ - ٣٨٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٣ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٣ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٩ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ - ٤٥٦ ؛

والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٥٦ ـ ٥٧ ، ١١٧ .

٥٢ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٨٦ ـ ٣٩٠ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٥ .

٥٣ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٩٨ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٦٣ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠١ ؛ وابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج ٧ ، ص ١٥٧ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٧١ ؛ وابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ص ٣٣ ؛ وسرور ، بيبرس ، ص ٨٨ ـ ٩٠؛ والعبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

٥٤ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٢ ـ ٦٥٣ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٧٠ .

٥٥ ـ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٨٢ ؛ وعبد الرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٣٠٤ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٨٥ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٥٣ ـ ٨٦ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٥٨ ـ ٥٩ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٢ .

٥٦ ـ ابن عبد الظاهر، تشريف الايام ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ ؛ وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٠٥ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، ٨٦ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٥ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٢ .

٥٧ ـ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام .... ، ص ٢ ـ ٢٢ ؛ ـ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٢ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٥٩ ؛ رنسيمان ، ج ٣ ، ص ٦٧٠ ـ ٦٧٢ .

٥٨ ـ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام ... ، ص ٣٤ ـ ٤٣ ؛ وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٧٠ ؛ والقلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٥١ .

٥٩ ـ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام ..... ، ص ٢٦٢ ـ ٢٧٠ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٩١ ـ ٩٤ ؛ وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١٤ ـ ١٦ ؛ وابن تغري البردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٤٨ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٩١ ـ ٦٩٨ .

٦٠ ـ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام ، ص ٦٣ ، ٦٦ ، وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ج ٧ ، ص ٦٧ ؛ ومحمد بن طولون الصالحي ، أعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق والشام الكبرى ، ص ٧ ـ ٨ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣ ـ ٢٥ .

٦١ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٤٦ ـ ٧٤٧ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢٠ ؛ وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ؛ والحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ج ١ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ؛ ورنسيمان ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٨٥ ـ ٦٨٨ .

٦٢ ـ رنسيمان ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٧٣ ـ ٦٨٢ .

٦٣ ـ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٣ ـ ٩٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥٣ ـ ٧٥٤ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٧ ؛ ومحمد بن قايماز الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ؛ ورنسيمان ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٩٠ ـ ٦٩٢ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

٦٤ ـ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٧ ؛ وابن عبد الظاهر ، تشريف الايام ، ص ١٧٧ ـ ١٧٩ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥٤ ؛ وابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٣٥ ؛ والذهبي ، دول الاسلام ،

ج ٢ ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ؛ وابو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٨٣ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٤٢ ؛ ورنسيمان ، تاريخ الحروب ..... ، ج ٣ ، ص ٦٩٣ ـ ٦٩٤ .

٦٥ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦٣ ؛ وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٨ ، ١١٠ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٣ ـ ٥ ؛ وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ؛ والذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ؛ ورنسيمان تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٩٥ .

٦٦ ـ ابو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٤ ـ ٢٦ ؛ وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١١٠ ـ ١١٤ ؛ وابن حبيب ، تذكرة النبيه ،ج ١ ، ص ١٣٧ ـ ١٣٩ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦٤ ـ ٧٦٦ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥ ـ ١١ ؛ وابن كثير ، البدعية والنهأية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١ ؛ والذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٢ ؛ ورنسيمان ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٩٤ ـ ٧١٣ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٦٣ ـ ٦٨ .

جريدة أهم المصادر والمراجع

إبراهيم بن أبي الدم ، تاريخ ابن أبي الدم ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة البودليان مارش ٦٠ .

إبراهيم بن محمد الاصطخري ، المسالك والممالك ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦١ .

إبراهيم محمد علي مهدي ، « إدارة القدس في عهد المماليك » ، (رسالة لنيل شهادة الماجستير ، غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٨٢ .

أحمد بيلي ، حياة صلاح الدين الايوبي ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٢٦ .

أحمد دراج ، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨ .

أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية) ، الحسبة ، القاهرة ، كتاب الجمهورية الديني ، د . ت .

احمد عبد الحليم يونس ، مدينة صفد في عهد المماليك ، (رسالة لنيل شهادة الماجستير ، غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٩ .

أحمد بن عبد الله القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩١٠ ـ ١٩٢٠ .

ـــ ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٤ .

ـــ ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، الكويت ، وزارة الارشاد والأنباء، ١٩٦٤ .

أحمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي .

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، انباء الغمر بأبناء العمـر ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، ١٩٦٩ .
ــــ ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثـامنة ، طبعـة مصـورة ، بيروت ، دار الجليل ، د . ت .
أحمد بن علي المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، القـاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٥٧ .
ــــ ،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثـار ، بيروت ، مـطبعة إحياء العلوم ، د . ت .
ــــ ، الذهب المسبوك في ذكر مـن حـج مـن الخلفـاء والملوك ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥ .
ــــ ، السـلوك لمعـرفة دول الملوك ، القـاهرة ، لجنة التـأليف والترجمة ، ١٩٧٠ ــ ١٩٧٣ .
ــــ شذور العقود بـذكر النقـود ، النجـف ، المطبعـة الحيدرية ، ١٩٦٧ .
ــــ المقفى الكبير في تراجم أهل مصر والوافدين عليها .
أحمد بن عمر بن رستة ، كتاب الاعلاق النفيسة ، ليدن ، مـطبعة برل ، ١٨٩٢ .
أحمد عيسى ، البيمـارستانات في الاسـلام ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٩٨١ .
أحمد بن فضل الله ، التعريف بـالمصطلح الشريف ، القـاهرة ، مطبعة العاصمة ، ١٣١٢ هـ .
أحمد بن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، دمشق ، وزارة الثقـافة والارشاد القومي ، ١٩٧٧ .
أحمد بن القاسم بن أبـي أصـيبعة ، عيون الأنبـاء في طبقـات الأطباء ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٩ .
أحمد بن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، دمشق ، المعهـد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٧٧ .
أحمد بن محمـد بـن خلكان ، وفيات الاعيان ، القـاهرة ، دار المأمون .

أحمد بن محمد بن الفقيه الهمذاني ، كتاب البلدان ، ليدن ، مطبعة بيرل ، ١٩٨٥ .

أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، بيروت ، دار النهضة العربية للنشر ، ١٩٦٩ .

أحمد اليونيني البعلبكي ، ذيل مرآة الزمان ، حيدر آباد / الهند ، المطبعة العثمانية ، ١٩٥٤ .

إسماعيل بن الاثير الحلبي ، عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة المتحف البريطاني (٣٣٤ ـ ٢٣) .

إسماعيل بن علي (أبو الفداء صاحب حماة) ، تقويم البلدان ، باريس ، ١٨٤٠ .

ـــ ، المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، مصورة دار المعرفة ، د . ت .

إسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ .

إلهام مكي ، مملكة صفد في العهد المملوكي ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٨ .

أنتوني بردج ، تاريخ الحروب الصليبية ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار قتيبة ، ١٩٨٦ .

أنور زقلمة ، المماليك في مصر ، القاهرة ، مطبعة المجلة الجديدة ، د . ت .

ايرا مارفين لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٥ .

برتولد شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .

بنيامين التطيلي ، رحلة بنيامين ، (ترجمة عربية) ، بغداد ،المطبعة الشرقية ، ١٩٤٥ .

جعفر حسين خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ،

بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٨ .
جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .
ــــ ، العدوان الصليبي على مصر ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .
ــــ ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .
جوناثان ايلي سميث ، الاسبتارية ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٤ .
حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، لايبزغ ، ١٨٣٧ .
الحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ، وزارة الثقافة ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٧٦ .
حسنين محمد ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ .
حكيم أمين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ .
حمزة بن أسد بن علي القلانسي ، كتاب تاريخ دمشق ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٣ .
حياة ناصر الحجي ، أحوال العامة في حكم المماليك ، الكويت ، شركة كاظمة للنشر ، ١٩٨٤ .
خليفة بن خياط العصفري ، تاريخ خليفة بن خياط ، دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٧ .
خليل بن أيبك (الصلاح الصفدي) ، أمراء دمشق في الاسلام ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٥ .
ــــ ، الوافي بالوفيات ، بيروت ، المعهد الالماني ، ١٩٤٩ ــ ١٩٧٩ .
خليل بن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس ، المطبعة الجمهورية ، ١٨٩٤ .

خليل ضـــومط ، الدولة المملوكية ، بيروت ، دار الحـــداثة ، ١٩٨٠ .

ر . سي . سميث ، فـن الحـرب عند الصـليبيين ، (تـــرجمة عربية) ، دمشق ، مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٢ .

رينيه غروسيه ، جنكيز خان ، (ترجمة عربية) ، دمشـق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .

زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، كتاب آثار البلاد وأخبـار العباد ، بيروت ، دار الصياد ، ١٩٦٠ .

ستيفن رنسيمان ، تـاريخ الحـروب الصـليبية ، (تـــرجمة عربية) ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٧ .

سعيد عبد الفتاح عاشور ، « أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك » ، بحـث ألقـي في المؤتمـر الدولي الثـالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ١٩٨٠ .

ـــ ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، بيروت ، دار النهضـة العربية ، ١٩٧٦ .

ـــ ، الحـركة الصـليبية ، القـاهرة ، مـكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣ .

ـــ ، الظاهر بيبـرس ، القـاهرة ، وزارة الثقـافة والارشـــاد القومي ، ١٩٦٣ .

ـــ ، مصر والشــام في عصر الايوبيين والمـماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٢ .

ـــ ، مصر في عصر دولة المـماليك البحـرية ، القـاهرة ، مـكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ .

سهيل زكار ، أخبار القرامطة ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .

ـــ ، الحروب الصليبية ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٤ .

ـــ ، حطين ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٤ .

ـــ ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ، دار الفـكر ، ١٩٧٤ .

السيد الباز العريني ، المماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ .

صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، بيروت ، دار المشرق ، ١٩٦٧ .

طاشكبري زاده ، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٥ .

طه ثلجي الطراونة ، مملكة صفد في العصر المملوكي ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٢ .

عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين المشرق والمغرب في العصور الوسطى ، دمشق ، دعر دمشق ، ١٩٨٠ .

عبد الجليل حسن عبد المهدي ، المدارس في بيت المقدس ، عمان ، مكتبة الأقصى ، ١٩٨١ .

عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ، مكتبة القدسي ، ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ .

عبد الرحمن بن إسماعيل (أبو شامة) ، الروضتين في أخبار الدولتين مع الذيل (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) ، بيروت ، دار الجيل ، د . ت .

عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٥ .

ـــ ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٤ .

ـــ ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ، المطبعة الشرقية ، ١٣٢٧ .

عبد الرحمن بن الجوزي ، فضائل القدس ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٠ .

ـــ ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر أباد ـ الهند ، المطبعة العثمانية ، ١٩٤٠ .

عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٥١ .

ـــ ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨ .

عبد الرحمن بن محمد العليمي الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، عمان ، مكتبة المحتسب ، ١٩٧٣ ، ومصر ، المطبعة الوهبية ١٢٨٣ هـ .

عبد الرحمن بن نصر الشيزري ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٩ .

عبد الرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، بيروت ، المطبعة الاميركانية ، ١٩٣٦ ، ١٩٤٢ ، وبغداد ، مطبعة حداد ، ١٩٦٧ .

عبد القادر بن محمد النعيمي ، الدارس في أخبار المدارس ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٤٨ .

عبد الله بن أسعد اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، بيروت ، مؤسسة الاعلمي ، ١٩٧٠ .

عبد الله بن عبد الله ابن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك ، ليدن ، مطبعة برل ، ١٨٨٩ .

عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ، كتاب مراصد الاطلاع ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٤ .

عبد الله بن عبد الظاهر (محيي الدين) ، الألطاف الخفية ، لايبزغ ، ١٩٠٢ ، د . ت .

ـــ ، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦١ .

ـــ ، الروض الظاهر في سيرة الملك الظاهر ، الرياض ، المحقق ، ١٩٧٦ .

عبد الوهاب السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، بيروت ، دار الحداثة ، ٨٣! .

عدنان البخيت ، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، عمان ، جامعة اليرموك ، ١٩٧٦ .

علي إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧ .

علي أحمد ، « الاندلسيون في بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري » ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة دمشق ، ١٩٨١ .

علي ابن أبي بكر الهروي ، الاشارات إلى معرفة الزيارات ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، ١٩٥٣ .

علي بن الحسن بن عساكر ، تاريخ دمشق ، مخطوطة الظاهرية ، ٥٣١٦ ، عام ٢٠٥ ، د . دمشق ، المجلدة الأولى والثانية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥١ ، المجلدة العاشرة تحقيق أحمد دهمان ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٦٣ .

علي بن داود الصيرفي ، أنباء الهصر بأبناء العصر ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٠ .

ـــ ، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ .

علي اللبودي ، فضل الاكتساب وأحكام الكسب وآداب المعيشة ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة تشستربيتي ـ دبلن .

علي بن محمد ، أبو الحسن ، (ابن الاثير) ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، القاهرة ، دار الكتاب الحديثة ، ١٩٦٣ م .

ـــ ، الكامل في التاريخ ، القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ١٣٤٨ هـ .

علي بن يوسف القفطي ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، لايبزغ ، ١٩٠٣ .

عمر بن أحمد بن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٨ .

عمر بن الوردي ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٠ .

فاروق عمر ، تاريخ فلسطين السياسي في العصور الاسلامية ، أبو ظبي ، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ .

فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٤ .

فضل الله الصقاعي ، تــالي وفيات الاعيان ، دمشــق ، المعهــد الفرنسي ، ١٩٧٤ .

فولفغانغ مولر ـ فيز ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٢ .

قسطنطين خمار ، أسماء الأمــاكن والمواقــع والمعــالم الطبيعية والبشرية والجغــرافية المعــروفة في فلســطين حتــى عام ١٩٤٨ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ .

كامل جميل العسلي ، من آثارنا في بيت المقدس ، عمان ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، ١٩٨٢ .

محمد بن أحمد بن إياس ، بدائع الزهــور في وقــائع الدهــور ، القاهرة ، كتاب الشعب ، ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ .

محمد بن أحمد بن بسام المحتسب،نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٦٨ .

محمد أحمد دهمان ، ولاة دمشق في عهد المماليك ، دمشــق ، دار الفكر ، ١٩٨١ .

محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي ، دول الاســلام ، القــاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .

محمد بن أحمد القرشي (ابن الأخوة) ، معالم القربة في أحــكام الحسبة ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦ .

محمد بن أحمد المقدسي ، كتــاب أحســن التقــاسيم في معــرفة الاقاليم ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٠٦ .

محمد بــن جبير ، رحلة ابــن جبير ، القــاهرة ، مــكتبة مصر ، ١٩٥٥ .

محمد بن جرير الطبري ، كتاب تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ، دعر المعارف ، د . ت .

محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٧ .

ـــ ، دولة الظاهر بيبــرس ، القــاهرة ، دار الفــكر العــربي ، ١٩٦٠ .

محمد بن حوقل النصيبي ، كتاب صورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د . ت .
محمد بن خليل الاسدي ، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٧ .
محمد بن رافع السلامي ، الوفيات ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٢ .
محمد بن سالم بن واصل الحموي ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، الجزء الثاني ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٧ .
محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، القاهرة ، ١٩٥١ .
محمد بن الشحنة (ينسب له) ، البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباي ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٣ .
محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (شيخ الربوة) ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ط . مصورة ، بغداد ، مكتبة المثنى .
محمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق والشام الكبرى ، دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٤ .
ـــ ، قضاة دمشق ، دمشق ، (المجمع العلمي العربي) ، ١٩٥٦ .
ـــ ، مفاكهة الخلان ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٢ .
محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ط . القاهرة ، مكتبة الكليات الأظهرية ، د . ت .
ـــ ،الذيل على رفع الاصر عن قضاة مصر ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ .
ـــ ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت ، دار الحياة ، طبعة مصورة ، د . ت .
محمد بن عبد الرحمن العثماني ، قطعة من تاريخ صفد ،
محمد العبدري الحيحي ، رحلة العبدري أو (الرحلة المغربية) ، الرباط جامعة محمد الخامس ، ١٩٦٨ .

محمد عبد العزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، د . ت .
محمد بن عبد الله اللواتي (المعروف بابن بطوطة) ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٥٨ .
محمد عبد الهادي شعيرة ، المرابطون ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٩ .
محمد بن عبد الواحد الحنبلي ، فضائل بيت المقدس ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٥ .
محمد بن علي بن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، ١٩٦٢ .
ـــ ، تاريخ الملك الظاهر ، بيروت ، المعد الالماني ، ١٩٨٣ .
محمد بن علي الحموي ، التاريخ المنصوري ، دمشق ، مجمع اللغة العربية ، ١٩٨٢ .
محمد بن علي الشوكاني ، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٤٨ هـ .
محمد علي العظيمي ، تاريخ حلب ، دمشق ، المحقق ، ١٩٨٤ .
محمد عيسى صالحية ، حوليات كلية الآداب ، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية ، الرسالةالسادسة والعشرون ، الكويت ، ١٩٨٥ .
محمد كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ، مكتبة النوري ، ١٩٨٣ .
محمد بن محمد بن صصرى ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، كاليفورنيا ، ١٩٦٣ .
محمد بن محمد (العماد الأصفهاني) ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، القاهرة ، مطبعة الموسوعات ، ١٣٢١ هـ .
محمد بن محمود الحلبي (الملقب بابن أجا) ، العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٦ .
محمد بن محمود بن خليل الحلبي ، تاريخ الأمير يشبك الظاهري ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٣ .

محمد بن يحيى بن الجيعان ، القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ، بيروت ، جروس - برس ، ١٩٨٤ .

محمود بن أحمد بن موسى (بدر الدين العيني) ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد (شيخ المحمودي) ، القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ .

ـــ ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٦٢ .

مصطفى طه بدر ،مغول إيران بين المسيحية والاسلام ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، د . ت .

مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٦ .

ـــ ، الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في فلسطين ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٨١ .

مظهر شهاب ، تيمورلنك ، (أطروحة دكتوراه غير منشورة) ، الجامعة اليسوعية بيروت ، ١٩٨١ .

منصور بن بعرة الذهبي ، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية بيروت ، ١٩٨١ .

مؤرخ شامي مجهول ، حوليات دمشقية ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨ .

المورد ، مجلة تراثية فصلية ، « الفكر العسكري عند العرب » المجلد الثاني عشر العدد الرابع بغداد ١٩٨٣ .

ناصر خسرو ، سفر نامه ، (ترجمة عربية) ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، بيروت ، محمد أمين دمج وشركاه ، ١٩٤٥ .

نقولا زياده ، «« فيلكس فابري في فلسطين » ، (بحث ألقي في المؤتمر الثالث لبلاد الشام) ، عمان ، ١٩٨٠ .

ياقوت بن عبد الله الحموي ، إرشاد الأريب إلى المعرفة الأديب (معجم الأدباء) ، القاهرة ، دار المأمون ، ١٩٠٧ - ١٩٢٧ .

ـــ ، معجم البلدان ، بيروت ، دار الصياد ، د . ت .

يوسف بن تغري بردي ، (أبو المحاسن) ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦ .

ـــ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ط . مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦ .

ـــ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ط ..مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية ، د . ت .

يوسف غوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، عمان ، دار الفكر ، ١٩٨٢ .

ـــ ، تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، وزارة الثقافة والشباب ، عمان ، دار الفكر ، ١٩٨٢ .

ـــ ، تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، وزارة الثقافة والشباب ، عمان ، ١٩٧٩ .

ـــ ، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ، عمان ، دار الحياة ، ١٩٨٢ .

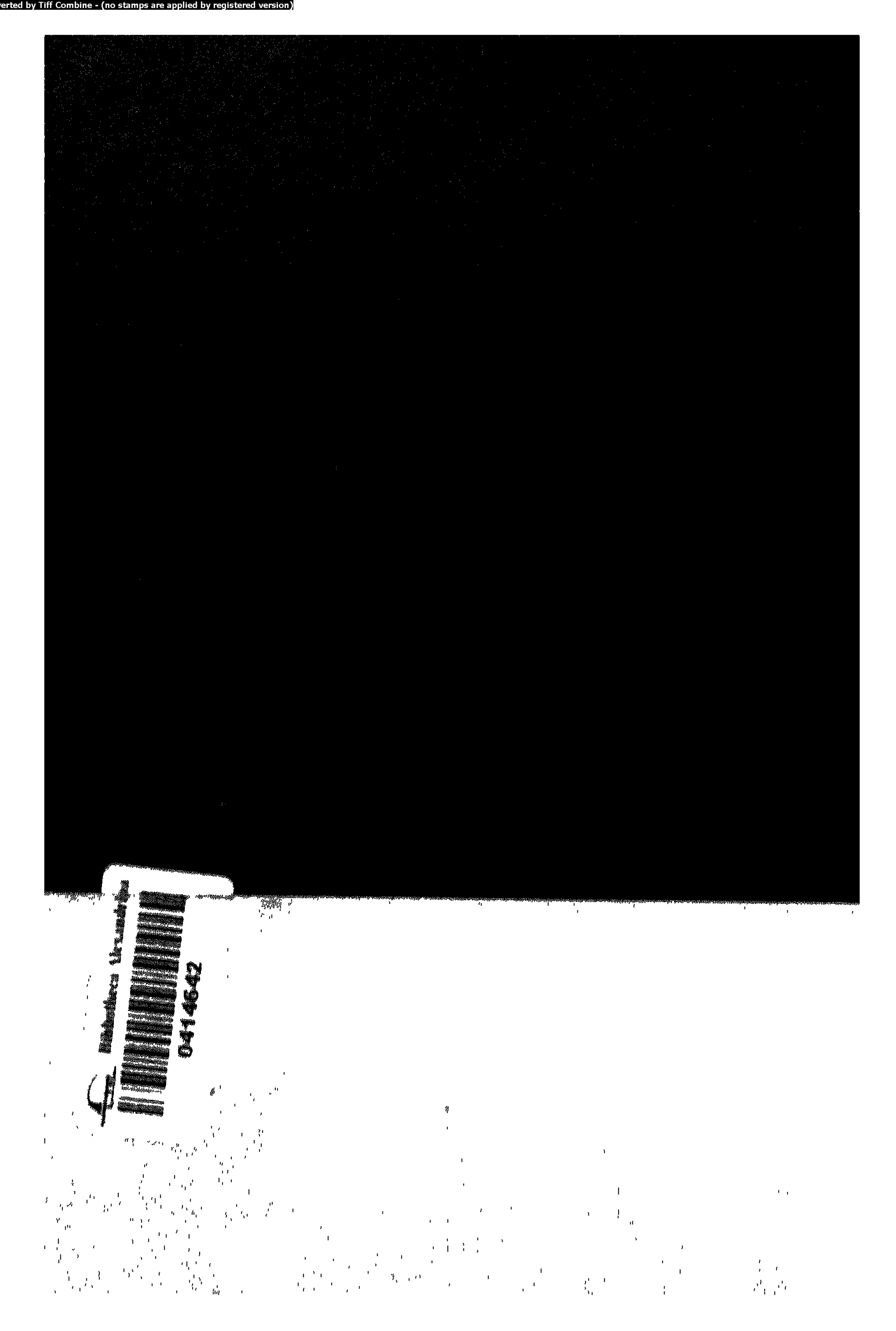
المحتوى










04146642